

الدكتور الطاهر أحمد

دكتورة دولة بامتياز من جامعة مدريد  
أستاذ الأدب في كلية دارالعلوم  
جامعة القاهرة

دراسات عن  
أبي جحر  
وكتابه "طوق الحمامة"

الناشر  
مكتبة وهبة  
١٤ شارع الجمهورية بعباسية  
تليفون ٩٣٧٤٧٠

للطبعة الثانية :

ربيع الأول ١٣٩٧ هـ -

مارس ١٩٧٧ م -

الإهداء

إلى والديّ ، في رحاب الله . . .





تمثال ابن حزم ، أقامته بلدية قرطبة عام ١٩٦٣ م ، أمام باب أشبيلية ، أو العطارين ، وكان يؤدي  
إلى بلاط مغيث ، الحى الذى نشأ فيه ابن حزم ... من هنا كان طريقه اليومي إلى المسجد الجامع ،  
طالها ، وأستاذنا ، أو للصلاة !



## كلمات في البدء

كان مقدراً لهذه الدراسة أن تكون مقدمة لكتاب « طوق الحمامة » ،  
لابن حزم ، وقد حققته ، وصدرت طبعته الأولى عن دار المعارف منذ شهر ،  
ونفذت ، وتصدر الطبعة الثانية منه خلال أيام :

لكنني وجدت المقدمة طالت ، ووجدتها تتجاوز حجم الكتاب نفسه ،  
ولم أرد أن اختصرها لأنها دراسة للطوق ، ومقدمة له ، وتعريف بصاحبه ،  
ودراسة الطوق يجب أن تتناول ، على الأقل ، الجوانب الهامة فيه ، وما أكثرها ،  
والصفحات التي تمهد له ، وحياة كاتبه ، تعيينان القارئ على تصور جوه :  
وتسهمان في تحليل صعبه ، والكتاب حافل بها .

لقد تصورت في البدء - مثلاً - ألا حاجة بي لأن أكتب عن عمران  
قرطبة ، الشوارع والميادين والحياة والناس ، ثم وقعت عيني على كتاب  
للدكتور زكريا إبراهيم بعنوان : « ابن حزم الأندلسي » ، وصدر في سلسلة  
« أعلام العرب » فأدركت على الفور ، من النظرة الأولى فيه ، أن جهله بتخطيط  
مدينة قرطبة ، أوقعه ، كما أوقع ناسخ مخطوطة الطوق الوحيدة قبله ، وكل  
الذين نشروا الكتاب بعد ذلك ، في خطأ مربع : تقول الفقرة في غير  
نسختنا المحققة ، والتي اعتمد عليها الدكتور زكريا إبراهيم : « ... سألتني  
يوماً أبو عبد الله محمد بن كليب من أهل القيروان ، أيام كوني بالمدينة ، وكان  
طويل اللسان جداً ، مثقفاً للسؤال في كل فن ... »

هكذا جاءت الفقرة في كل الطباعات العربية ، باستثناء طبعتنا المحققة ،  
واعتماداً عليها مضى الدكتور زكريا إبراهيم يعلق على النص ويستنتقه :  
« ولكن ابن حزم لم يذكر لنا سبب انتقاله إلى القيروان ، فضلاً أنه لم يشر إلى  
أي اضطهاد وقع عليه من جانب أهل المغرب عموماً ، وأهل تلك المدينة خصوصاً ،  
وأغلب الظن أن يكون أماناً قد رحل إلى القيروان للدفاع عن مذهبه الظاهري ،  
ومجادلة الفقهاء وأهل الفرق » . وهذا كلام باطل كله ! . فابن حزم لم يغادر

الأندلس أبدا ، لا إلى القيروان ولا إلى غيره ، ولم يقع عليه اضطهاد من أهل المغرب ، ولا ذهب إليه لينشر مذهبه . وأخيراً فالقيروان في تونس وليست في المغرب ، كما وهم الدكتور . ولو كان مؤلف كتاب ابن حزم ، والذين نشروا مخطوطة « الطوق » قبلي ، يعرفون أن كلمة « مدينة » إذا جاءت مرسلة عند الحديث عن قرطبي ، فإنما تعني الحى القديم من عاصمة الخلافة ، وتميز في عماره وحياته بعلامح خاصة ، ولو عرفوا أن ابن حزم لم يسكن هذا الحى القديم أبدا من قرطبة ، أى المدينة ، لفكروا في تقويم النص . « والمرية » مما سكن ابن حزم حقا ، أقرب الألفاظ رسما إلى كلمة المدينة ، وليس ثمة شك في أن هذه تحريف عن تلك ، جرى بها قلم ناسخ المخطوطة الوحيدة جهلا ، لأنه مشرق على غير علم بأسماء الأمكنة الأندلسية . وهو تصويب يمكن الوصول إليه بشيء من التأمل ، وللحق فإن الأستاذ الجليل الدكتور طه الحاجر أدرك هذا الخطأ وصوبه منذ أعوام طويلة ، في كتابه القيم : « ابن حزم : صورة أندلسية » . ولم يقرأ أحد ممن نشروا الطوق هذا الكتاب واستفاد منه .

وكان ذلك دافعا لكتابة الفصل الأول عن قرطبة ، عمرائها وتخطيطها والحياة فيها على أيام ابن حزم ، وألحقته بمصورتخطيطي وتقريبي للمدينة في القرن العاشر الميلادى ، ودون ادعاء ، يرسم وينشر لأول مرة في اللغة العربية .

وأمام حياة ابن حزم ، شاهد عصر ، ترددت لحظات ! . لأنى ترجمت كتاب المستشرق الإسباني العظيم ميجيل أسين بلاثيوس عن ابن حزم القرطبي ، وسوف ينشر قريبا ، وفيه الغناء كل الغناء ، ولكنه كتاب موسع وشامل ومتعمق ودراسة مستقلة ، ونحن هنا في حاجة إلى علامات هادية فحسب ، على طريق حياة ابن حزم ، تعين على فهم « الطوق » ، وليس إلى حياته كلها ، ثم هممت أن أقدم ترجمة للدراسة الحميلة والموجزة التى قدم بها غرسية غومث ترجمته الإسبانية للطوق ، ولكن الرجل يتحدث فيها إلى إسبان ، يكتب لهم أحيانا مالميس القارىء العربى فى حاجة إليه ، ويتجاوز أحيانا قضايا فوق طاقة القارىء الإسباني غير المتخصص ، ولكنها ضرورية للقارىء العربى ، ومن ثم فقد استهديته

فى دراستى ، وأفدت مما كتب ، وهو يعتمد أصلاً على أسين بلاثيوس ، دون أن أسير على دربه دوماً .

وقد وجدت الفيلسوف الإسبانى الكبير أورتيجا إى جاسيت (١٨٨٣-١٩٥٥) ، وشهرته تتجاوز إسبانيا إلى عالم الفلسفة بأسره ، قدم لترجمة الطرق الإسبانية ، بدراسة مركزة ورائعة ، فأثرت نقلها إلى العربية برمتها ، ليكون لدى قارئ الطرق العربى ، وجهة نظر أخرى غير عربية ، قد يرضى عنها أو يختلف مع صاحبها ، ولكنها مفيدة فى كل الأحوال .

وعن هوية ابن حزم كتب المؤرخ الإسبانى ، الحجة فى دراسات العصر الموسيط ، الأستاذ سانتشيث البرنس (١٨٩٣ - ) دراسة مستفيضة ، رد فيها عبقرية ابن حزم إلى خصائص سلالاته الإسبانية ، وقد ترجمت هذه الدراسة برمتها أيضاً ، دون تعليق منى أو مناقشة ، ودون أن يعنى هذا موافقتى على رأيه ، لأننى فضلت ، كعادتى فيما أترجم ، أن أترك القارئ العربى حراً ، مطلق الفهم ، فى مواجهة ما يقرأ من نصوص مترجمة ، وأن يبدى رأيه فيها دون تطفل منى . وثمة كثيرون من المفكرين الإسبان المعاصرين يشاركون سانتشيث البرنس رأيه ، ولكنه الوحيد الذى درس القضية ، وعبر عن فكره ، وربما عن فكرهم أيضاً ؛ فى هذه الدراسة المستفيضة .

أما أن ابن حزم من أصول غير عربية فحقيقة لانرفضها ، وكان عالم قرطبة العظيم مسلماً طيباً ، والإسلام فوق عصبية الجنس واللون والدم ؛ وأما أنه من سلالة يمكن أن توصف بأنها إسبانية ففيه شك كبير . لأن لفظة «إسبانيا» لحظة الفتح الإسلامى كانت تعنى امتداداً جغرافياً فحسب ، دون أن تكون لها دلالة أبعد من هذا ، قومية أو دموية أو فكرية . والقول بهذا ليس من عندى ، وإنما هى فكرة اهتدى إليها المفكر والمؤرخ الفيلسوف أميركو كاسترو ، وظل يبشر بها طوال حياته (١٨٨٥ - ١٩٧٣) ،

ويرى فى تجاهل الإسبان لها تفصيل وتحريف للتاريخ ، وانحراف بسير الثقافة فى وطنه ، وألف فى ذلك كتاباً قبيحاً : « حقيقة إسبانيا التاريخية » ، وكانت دراسة سانتشيث ، وكتاب آخر له ، رد على نظرية كاسترو هذه ، ولقد حرم القارىء من فكر أميركو كاسترو الرائع فى هذه الدراسة التى تقدمها ، لأن نظريته لاتقف عند ابن حزم وحده ، وإنما تتجاوزها إلى القضية فى جوهرها : لمن ينتسب هؤلاء الذين عاشوا فى الأندلس ، على امتداد دولة الإسلام التى ظلت تسعة قرون ؟ وإجمالها غير متاح ، ومن ثم فقد ترجمت الكتاب كله ، وينظر الناشر ليأخذ طريقه إلى القارىء قريباً .

ورأيت مفيداً إلى جانب ما تناولت من أفكار و الطوق ودلالاته المتنوعة ، أن أنتع آثاره فى الآداب التى عايشته ، أو تلتها ، فى الأندلس ، فى الأدبين العبرى والإسباني ، وأن ألقى نظرة على الدراسات المماثلة التى سبقته إلى هذا المنحى فى اللغة العربية ، والتى جاءت بعده وسارت على دربه ، أو أفادت منه ، وترجمت دراسة لغربية غومث تناولت جانباً من هذه القضية ، وأكملت الجوانب الأخرى التى لم يتعرض لها المقال .

ثم وقفت عند شاعرية ابن حزم ، وأهمية الطوق كمصدر لتأريخ الحياة الأدبية فى قرطبة ، إلى جانب ما يقدم من معلومات أخرى ضافية ، اجتماعية وسياسية ، والمرأة فى قرطبة الخلافة من خلاله ، ولحياة مؤلفه نفسها . وتلك هى الخطوط العامة للدراسة ؛ وما أريد أن أقف عندها تفصيلاً ، وفى الفهرسة آخر الكتاب ما يغنى .

\* \* \*

أنهت هذه الدراسة مع بداية الصيف ، ثم حملتها إلى المراتن التى عاش فيها ابن حزم منذ ما يزيد على ألف عام ، أمضيته بين وابة وإشبيلية وقرطبة والمرية وشاطبة وميورقة ، وغيرها . وفى ضوء ما رأيت على الطبيعة وحياة الناس ، وفيها ما لم يتغير أصلاً

أوما تغير قليلا ، وما استلهمت من روح التاريخ ، واستهديت من حدى بين  
هذه المعالم ، صححت وراجعت ، وأضفت وحذفت ، فكانت هذه  
الصفحات :

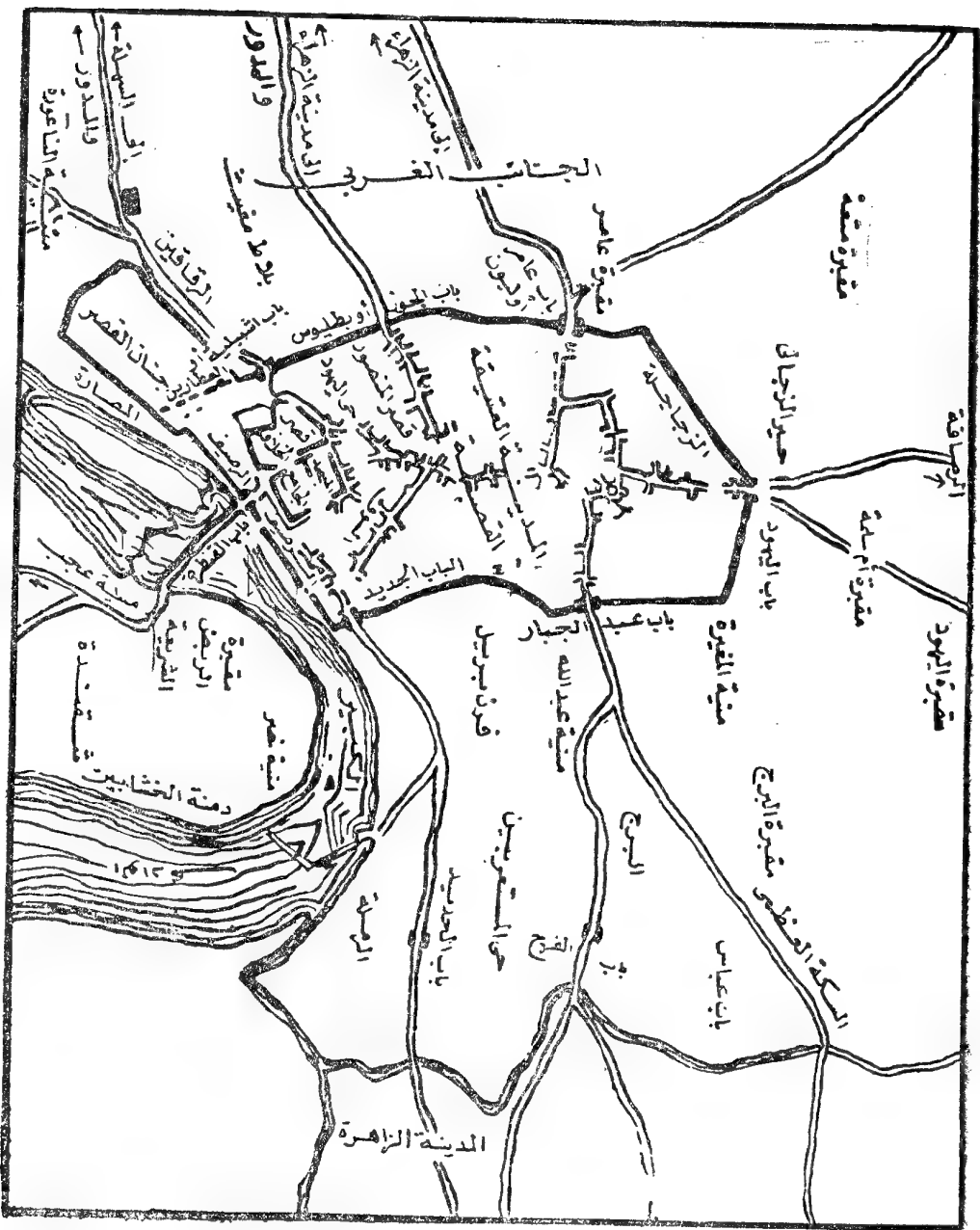
قلت وأنا أقدم الطبعة الأولى من تحقيقى « لطق الحمامة » ، إن النص  
والدراسة التى سوف أعدها مستقلة عنه ، كمقدمة له ، تربط بينهما أقوى  
الوشائج ، ولا يقرأ أحدهما بمعزل عن الآخر . وأعيد هذه السطور هنا  
مرة أخرى لإبراء لذمتى ، لأن فى هذا ما يفسر ذاك ، والعكس  
صحيح أيضا .

ومن الله الجزاء ، ومنه التوفيق .

شعبان ١٣٩٦ هـ  
أغسطس ١٩٧٦ م

قرطبة - الأندلس

الطاهر أحمد مكي



خريطة تقريبي لمدينة قس طرطنة فى القرن العاشر الميلادى

## قرطبة على أيام ابن حزم

• السكان :

حين زحف مغيث الرومي ، علام الوليد بن عبد الملك ، يريد قرطبة عام ٩٢ هـ = ٧١١ م ، وحاصرها حتى فتحها ، لم يدربخلده ، ولا يخلد أحد ممن كانوا معه ، أن هذه المدينة الصغيرة القابعة في سفح جبل العروس ، نصف همجية ونصف متبذية ، يمكن أن تصبح في مدى قرنين ونصف من الزمان ، كبرى مدن الأندلس ، موطن الإمارة ، وحاضرة الخلافة ، تنافس بغداد ، وتطاول القاهرة ، وتكسف ماحولها من مدائن ، وتبلغ شهرتها الخافقين ، فتصبح موضع الإعجاب من راهبات منقطعات في دير منعزل بألمانيا ، وتقول عنها الأخت الشاعرة السكسونية روز فيتا Hroswita في قصيدة لها : «جوهرة العالم الساطعة ، مدينة جديدة ورائعة ، فخورة بقوتها ، شهيرة بمباهجها ، مزهورة بما تملك من خير وفير » .

ليس من غرضي ، ولا في نطاق بحثي ، أن أعرض لقرطبة في طفولتها وتطورها على امتداد القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، وغاية ما أطمح فيه أن أعطي صورة مصغرة فحسب ، لجوانبها المختلفة ، خلال القرن العاشر الميلادي ، حين طرق ابن حزم أبوابها وليدا .

كانت قرطبة القرن العاشر الميلادي مدينة كبيرة ، يتجاوز سكانها المليون عددا ، تتحدث العربية ، إلى جانب لغات أخرى ، وتدين بالإسلام ، إلى جوار المسيحية واليهودية ، ويسكنها أقوام ينتمون إلى أصول مختلفة .

كان هناك العرب ، مضربون أو يمنيون ، جاءوا قديما مع موسى بن نصير ، أو مع بلج بن بشر القيسي بعده ، أو في أفواج قليلة للعدد أيام عبد الرحمن الداخل ، وانتشروا في كل الأندلس ، وأورد لنا ابن حزم معلومات مستفيضة

عن منازلهم في كتابه «جمهرة أنساب العرب» واتخذ عدد منهم مكانه إلى  
إلى جانب الإمارة أو الخلافة ، ولم تكن أعدادهم في المدينة كبيرة ، ويمكن  
القول أنهم كانوا أقل عددا من أية طائفة أخرى ، ويتولون الوظائف الهامة ،  
وعكف بعضهم على التجارة ، وقلة تدبر من العاصمة مزارعها الواسعة في  
الريف ، وحافظوا على أصولهم التي انحدروا منها ، وحرصوا على أن يتميزوا  
بألقابهم العربية ، وظلت ذكريات قبائلهم حية في حكاياتهم وسميهم ، وهي  
خصائص أخذت تختفي مع الزمن ، ونتيجة الزواج المختلط ، فقد جاء العرب  
فرادى عادة ، وكان النصف الثاني من بيوتهم ، زوجة أو جارية أو عشيقة ،  
لمبيريا في الأعم الأغلب ، ومن ثم بدأت «الأندلسية» تأخذ طريقها إلى  
وجدانهم إحساسا ، فأصبح النرد منهم يحس بأنه قرطبي ، قبل أن يكون  
مخزوميا أو قرشيا . وبدأ ثقلهم السياسي يضعف مع عبد الرحمن الناصر ،  
فقد كان ميالا إلى قيام سلطنة مركزية قوية ، ورأى المنصور بن أبي عامر  
بعده خطر قيام طبقة تعتمد على الدم وحده طريقا إلى النبيل ، فقرر أن يهبط  
هم إلى حيث بقية الناس ، وقضى نهائيا على نظام الجند القبلي ، وأحل مكانه  
مفهومًا جديدًا يجعل العصبيّة للأندلس .

وكان هناك البربر ، من زناتة أو صنهاجة ، وهم أول من دخل  
الأندلس ، واحتملوا صدمة الفتح الأولى ، واتصلت هجراتهم إليه ، لقرب  
بلادهم منه ، وتشابه مناخ أوطانهم به ، وكثرة القلاقل السياسية عندهم ،  
حتى فاقوا العرب عددا ، وأورد لنا ابن خزم في كتابه «جمهرة أنساب  
العرب» فصلا عنهم أسمائهم : «بيوتات البربر في الأندلس» ، ونجد عنهم معلومات  
وافرة في تاريخ ابن خلدون . وقد اتجه معظم البربر إلى الريف ، وامتزجوا  
بالسكان الأصليين ، ولعبوا دورا هاما في نشر الإسلام ، وآثرت قلة منهم البقاء في  
العاصمة ، تعمل في المهن المتواضعة ، هلى حين سميت بآخرين مواهبهم ،  
فتبوأوا أعلى المناصب ، وباشروا نفوذا سياسيا أو علميا أو أدبيا مرموقا .  
لقد عرف القرن العاشر منهم في قرطبة أبناء يحيى بن يحيى اللبثي ، كبير فقهاء

المالكية ، ومنذر بن سعيد شيخ الخطباء وإمام عبد الرحمن الناصر ، وابن دراج القسطل شاعر المنصور بن أبي عامر : وحافظ بعضهم على نسبة البربري ، واصطنع آخرون لهم نسباً عربياً ، على ما سئرى .

أما الكثيرة الغالبة من السكان في قرطبة ، فمنهم وجدهم المسلمون لحظة الفتح ، ويعودون إلى أصول مختلفة ، لآثنية وقوطية وإيبيرية وسلتية وحتى أفريقية وفينيقية ، وقد أطلق على من أسام منهم لحظة الفتح اسم « المسالمة » ، وعلى أبنائهم اسم « المولدون » ، وكان منهم الحرفيون وصغار التجار ورجال الأعمال ، وبعضهم كان يعمل في المزارع التي حول قرطبة ، وهم العنصر الأكثر فعالية في الاقتصاد ، لأنهم أعرف من غيرهم بالبلد ، وأكثر احتمالاً لأجوائه وجوائحه . وقد دعمت الدولة في سياسة بعيدة النظر هؤلاء المسلمين الجدد وحميتهم ، وفتحت أمامهم باب الأمل والعمل راسعاً وعريضاً ، لكي يعملوا ويثروا ويؤمختلوا مكانهم في المجتمع ، وبرزت من بينهم مواهب عظيمة ، وحرص الكثيرون منهم ، كالبربري ، على أن يصطنعوا لهم نسباً عربياً ، عن طريق الزواج والمصاهرة : أو الولاء ، أو باصطناع نسب مزيف ، وثمة متخصصون في صنع أشجار النسب يصنعونها ويبيعونها لمن يريد ، هروباً من ماضيهم غير الإسلامي ، وثنياً كان أم مسيحياً أم يهودياً . وكان بينهم من يتعصب لطائفته ، وقد كتب أبو عامر أحمد بن غرسية ، وأصله من الباسك ، رسالة في فضائلهم والدفاع عنهم .

وقد احتفظ عدد كبير من هؤلاء المولدين بأسماء أسرهم القديمة ، واتخذوا منها ألقاباً ، فلدينا ابن بشكوال Ibn Pascual صاحب كتاب « الصلة » وبنو قومس Banu Comes ، وبنو مرتين Banu Martin وبنو غرسية Banu Garcia ، وآخرون كثيرون . وبعضهم عرب اسمه اللاتيني ، فأصبح Félix يدعى سعيداً ، و Victor يدعى الظاهر ، وأخذت الأسماء اللاتينية المستمدة من التوراة الشكل العربي ، فاسم Moisés أصبح مومى ، و Jesus عيسى ، وهكذا .

ثم السود والصقالبة ، وكانوا أقل عدداً من العرب والبربر ، والسود أقل من الصقالبة ، وهما على النقيض لونا . ويطلق على الرقيق القادم من بلاد السودان اسم العبيد أو السودان ، ولا صلة للتسمية بما يطلق الآن على جنوبي وادي النيل ، وإنما تعني تلك المناطق التي تمتد من جنوب المغرب وما وراءه من غربي إفريقية ووسطها . وقد اتخذ منهم الخلفاء حرمهم الخاص ، وبلغوا عدداً لا بأس به ، وبخاصة في عهد الحكم الثاني ، وأصبحوا يكونون جانباً من المهرجانات العامة ، بين فرسان ومشاة ، وبخاصة في البيعة ، وأكثر منهم المنصور بن أبي عامر ، لأنهم اشتروا بالقوة والاحتمال ، والقدرة على العدو ، حتى أن البريد يطلق عليه في لغة الأندلس الإدارية اسم « الرقاص » كان وقفا عليهم ، وكان يتبع المنصور في كل حملاته الحربية ، حمل أوامره إلى مرعوسيه في بقية العاصمة أو بقية الكور .

ولا يزال أحد شوارع قرطبة يحمل اسمهم مترجماً حتى يومنا هذا : زقاق

السود Calleja de Los Negros \*

والسوداوات كن أكثر عدداً من الرجال ، ويتمتعن بشهرة عالية في الأعمال المنزلية ، وكان الرجال يقدرّون فيهن صفات أنثوية لا يجدونها في غيرهن ؛ وكان اللون الأسود لأبناء من آباء بيض شائعا بين الطبقة الحاكمة والمقتدرة ، « ولأنه لشيء يشرف هؤلاء المسلمين أنهم لم يعرفوا التفرقة العنصرية بسبب اللون أبداً ، لا في العصر الوسيط ، ولا في أيامنا هذه » .

وكان الصقالبة خصيانا في أكثر الأحوال ، ويعملون في حرم الخليفة ، والطريق مفتوح أمامهم إلى المناصب العليا ، وإلى أن يصبحوا في مرتبة الرجال الأحرار ، رغم أنهم جاءوا إلى الأندلس رقيقاً ، وبينهم من احتفظ ببلوغته ، ومن اعتزل المجتمع ، وحافظوا على خصائصهم ، واتخذوا لهم موقفاً خاصاً ، رغم أنهم أسلموا ، وفتحوا قلوبهم للمجتمع الذي يعيشون فيه ، وعندما سقطت الخلافة أصبحوا عنصراً مستقلاً في

مواجهة العناصر الأخرى ، وتميزوا بروح التضامن فيما بينهم . وفى البدء كان يطلق لفظ الصقالبة على الذين يؤتى بهم من وسط أوربا ، ويقوم اليهود على خصائصهم فى مدينة بجانة ، وكل سكانها من اليهود ؛ وكان يهود فرنسا يباشرون المهنة فى مدينة « فردان » ، وبريجون من ورأها أموالا طائلة ، وفيما بعد أطلق الاسم على كل الرقيق الأبيض اللون ، حتى أولئك الذين يؤتى بهم من جنوب فرنسا أو شمال الأندلس .

وكاف الأسيرات القاديات من بلاد الإفرنج ، فى جنوب فرنسا ، أو من مقاطعات قطلونية والباسك وغاليسية فى شمال الأندلس ، حظوة كبيرة فى قرطبة ، لأنهن يعضات البشرة ، شقراوات الشعر ، زرقاوات العيون ، ومن يهن كان الأمراء يختارون عشيقاتهم المدلات ، فإذا أنجبت الواحدة منهن صارت أم ولد ، أى حرة . وقد مارست الجوارى نفوذا كبيرا فى الحياة السياسية ، ولم يكن اتخاذهن وقفا على الأمراء ، وإنما شاع ذلك فى بيوت الخاصة ، وأعلى الطبقة الوسطى ؛ من كبار الموظفين ؛ ورجال الدولة ، وأبناء البيوتات . وتميز هؤلاء الجوارى بالثقافة والرق والصل ، وأدين دورا بالغ الأهمية كأمهات ، وأعطين المجتمع الأندلسى طابعه الخاص ، ولعبن دورا كبيرا فى تحسين مكانة المرأة فى الأندلس . ويحمل شارع فى قرطبة اسم شارع الرقيق ، أو الجوارى Las esclavas حتى يومنا :

هذه العناصر على اختلافها كانت تأخذ طريقها ، تدريجيا ، نحو اندماج كلى ، سهله ومهتله ، عقيدة واحدة كانت تظل الناس جميعا ، وتحدد لهم أنماط السلوك فى حياتهم العامة والخاصة ، دون أى تمييز طبقي أو عنصري . ويمكن القول ، إن القرن العاشر الميلادى ، فى النصف الثانى منه تقريبا ، وفى ظل السلام الوارف الذى بسط عبد الرحمن الناصر ربوعه على الأندلس ، تمت عملية المزج بين العناصر الأصيلة والوافدة ، وكنت إذامرت فى الشوارع ، أو تجولت فى الأسواق ، تلتقى بأناس ألوانهم مختلفة ، شقر وسمر وببيض وسود ومخطون ، يعيشون فى وئام مع بعضهم ، ومع الذميين من الكاثوليك

واليهود ، « ونجم عن اختلاط الأجناس ، وتجاور الديانات ، جو سمح جميل ، إنساني وشفاف ، هو الجو الحضارى نفسه الذى نعرفه فى بغداد كما تصورها قصص ألف ليلة وليلة ، خالصا من كل ما يرتبط بالشرق فى أذهاننا ، من جلالة يشوبها الغموض » .

فى هذا القرن كانت الخلافة الفاطمية فى المغرب ، والعباسية فى بغداد ، تدفع بالأندلس دفعا نحو الانطواء على نفسه ، فكلاهما كان خصما سياسيا عنيفا ، ومن ثم كان اهتمامه بالوحدة الفكرية للعالم الإسلامى فاترا . وبدأ يتكون فى وجدان الأندلسى شىء غامض ، بإحساس ذاتى مبهم ، من المبالغة أن نقول عنه إنه قومى ، لأن مثل هذا التعبير يتجاوز ما أحس به الأندلسيون ، ولا يتناسب وطبيعة العصر ، ويمكن تحديده بأنه إحساس بوحدة الأمل والغاية والحياة بين سكانه ، وبعزلة جغرافية شعورية عن بقية العالم الإسلامى ، ومع شدة العداء السياسى من الفاطميين والعباسيين أخذ هذا الاتجاه شكلا أكثر قوة ووضوحا ، وبدأ الأندلسى ، لإيريا من شبه الجزيرة ، أو قادما من المغرب ، أو مهاجرا من المشرق ، يحس بشخصيته الأندلسية ، ويعبر ابن حزم عن هذا المعنى تعبيرا قويا فى بيت من الشعر :

ويا جوهر الصين سحقا فقد غنيت بياقوتة الأندلس

لقد بدأ الأندلسيون يستشعرون أنداسهم وطنا ، يتعبدون به دواما ، ينغزلون فيه شعراء حين يكونون على بساطه ، ويحنون إليه وجدا حين يكونون بعيدين عنه ، وليس مهما بعد ذلك أنه لم يعرفوا كيف يدافعون عنه فيما بعد . ذلك أن الأندلسى كان كثير الكلام وجدا ، قوى الإحساس بالطبيعة وشاعرا ، قادرا على التمتع بالحياة ، ولكنة كأى متحضر تنقصه الحشونة التى تجعل منه قادرا على الصمود والنضال .

وكان هناك المستعربون ، وتطلق عليهم المصادر العربية ، نصارى اللذمة ، أو العجم ، أو مجرد كلمة نصارى ، وتطلق عليهم المصادر اللاتينية

اسم : المستعربون ، أخذنا من من كلمة مستعرب Mozarabes مضافا إليها أداة الجمع في اللاتينية ، وهم أولئك الذين ظلوا على كاثوليكيتهم ، ولكنهم فيما عدا ذلك شاركوا المسلمين الكثير من عاداتهم وثقافتهم وألوان حياتهم . ولا نستطيع أن نستنتج عددهم ، ومن الواضح أنه كان يقل مع الزمن بفضل تقدم الإسلام ، وباستثناء رؤسائهم الدينيين ، فإن المصادر العربية قلما تتحدث عنهم . وبينهم من كان يتمتع بوضع اجتماعي ممتاز ، ولم يكونوا يتعرضون لأية مضايقة من الخليفة ، أو من المنصور بن أبي عامر عندما أصبح حاجبا ، ولأمن الخاصة ، وبرهنوا من جانبهم على انضمامهم للمجتمع ، وحاولت الدولة أن تكسب ثقتهم ، ولكن ما إن نمت القوى الكاثوليكية في الشمال حتى اهتز ولاؤهم ، وأصبح مجاملة وتقية وانتظاراً أكثر من إخلاصا .

وقد استقلوا بشؤونهم الدينية ، أصبح لهم رئيس ينتخبونه من بينهم ويعينه الخليفة ، يدعى قومس Comes ، وقاض ينظر في أمورهم الخاصة ، يعرف باسم « قاضى العجم » ، وكان لهم كنائس في داخل المدينة ، وعدد آخر خارجها ، تضم كل واحدة منها ديراً ، وفي هذا القرن ألغى القرار الخاص بحظر دق أجراس الكنائس ، وكانوا يؤدون طقوسهم الدينية في جرج يشد إليه فضول حتى أولئك المسالمين الطيبين من العامة ، ووصف لنا ابن شهيد ، في رسالته « التوايع والزوايع » ، انطباعه عن دير زاره . ورغم أن بعض المسلمين كان يتهم رجال الدين الكاثوليك بأنهم ليسوا طيبين ، وأن بعض الأديرة تحولت إلى حانات للشراب ، وأمكنة لممارسة الحب ، لا يمكن القول بأنهم جميعاً ، وبأن الأديرة كلها كانت كذلك . وأياً ما كان الأمر فإن مثل هذا الاتهام لم يكن يسبب أية متاعب للمستعربين .

وبعض هؤلاء المستعربين كان على ثقافة عالية ، وموضع ثقة الخليفة ، وكان ربيع بن زيد ، واسمه المسيحي Reemundo يستخدم

اللاتينية والعربية بمستوى واحد ، وقد اتخذ منه الناصر سفيراً متجولاً له : فأرسله إلى أوتون الأول Otoni ملك جبرمانيا ، ثم إلى القسطنطينية وسورية للحصول على مواد يحتاج إليها في بناء مدينته الزهراء ، ولكي يضمن عليه احتراماً زائداً في سفارته عينه أسقفاً لمدينة البيرة ، وهي وظيفة شرفية ، فلم يكن لديه في الواقع وقت ليمارس وظيفته هذه . وكان الحكم الثاني بقدر معرفته الفلسفية والفلكية ، وله ألف ربيع بن زيد كتابه « الأنواء » وكان المستعربون طبقات اجتماعية مختلفة ، يقف على قممها النبلاء الذين ينحدرون من القوط ، ثم الطبقة العليا وكانت وفقاً على رجال الدين ويأتى العبيد في نهاية السلم ، وكان المسيحيون واليهود شأنهم كالمسلمين يمتلكون الرقيق .

وكان في قرطبة يهود ، ومعلوماتنا عن نشاطهم في القرن العاشر محدودة للغاية ، وما وصلنا من أخبار وفيرة عنهم يعود إلى القرن التالي ، ونقد وجدت عنناً في الوصول إلى معرفة عدد من اليهود كان يعرفهم ابن حزم ، وتتردد أسمائهم في « طوق الحمامة » . ومع ذلك يمكن القول أنهم كانوا يكونون جالية كبيرة ، تقطن حياً خاصاً بها ، يقع بين شارع القنطرة وقصر الخلافة ، ويحمل اسمهم . وأن أحد أبواب المدينة كان يطلق عليه اسم باب اليهود ، وأن الربض المجاور له يحمل اسمهم أيضاً ، ويبدو رغم صمت المؤرخين أنه حتى يهودى آخر يختلف عن الأول ، وربما كان موطن الأغنياء منهم .

وقد سكن اليهود الأندلس قبل مجئ المسلمين ، وساعدوهم في حركة الفتح ، واعتنق بعضهم الإسلام ، وظلت غالبيتهم على دينها ، وفيما بعد جاء يهود آخرون من أفريقية وآسيا . وقد تركوا أحراراً تماماً في حياتهم الدينية ، وكانت لهم بيعة في المدينة ، ولهم مجالس شوري يرعى شؤونهم يسمى « الجماعة » . ورئيس هو الصلة بينهم

وبين السلطات الإدارية ، ورئيسهم في عهد عبد الرحمن الناصر ، وهو الوحيد الذى نعرف عنه شيئاً ذا قيمة في هذه الفترة ، حسداى بن إسحاق بن شبروط ، كان طبيباً للخليفة ، ومن مستشاريه المقربين ، ويسفر له لدى ملوك الشمال المسيحيين ، وإليه يرجع فضل إقامة الدراسات الطمودية في قرطبة وإزدهارها ، على حين كانت تخبو في المشرق ، وبدأ لليهود يصوغون لهم تشريعاً خاصاً وقوانين ، وأخذ الشعراء ينشدون الشعر العبرى ، ويتخذون من العروض العربى قالباً يصبون فيه أشعارهم العبرية .

وفى قبل القرن العاشر حاول اليهود أن يتمردوا ، وأن يغتدوا بالحركات الثائرة ، أو ينضموا إليها . ولكنهم سرعان ما أدركوا أن هذه ليست مهمتهم ، وأن التآمر والدسائس ودفع الآخرين إلى الثورة ، والتمرد على الحكومة ، لن يودى إلى شيء ، فأثروا السلامة ، وانصرفوا إلى أعمالهم . وعندما جعل الناصر من نفسه خليفة ، ومن قرطبة عاصمة الخلافة ، وغرق الناس في الزرف ، ووسعت الحياة كل عاملى ، انصرف اليهود إلى جمع الثروات الكبيرة ، وآثروا أن يربحوا ثقة الدولة ، وكانوا يعملون في تجارة المجوهرات ، والذهب والفضة والرقيق ، والسوق السوداء ، والرهونات والصياغة ، والربا ، وفى التزييف أحياناً ، ويعملون مترجمين وأطباء وصنادلة ، وفى التنجيم والقلمك ، وبعض وظائف الإدارة ، وخاصة ما اتصل منها بخزانة المال .

#### • الطبقات الاجتماعية :

اندمج مكان قرطبة عنصريا ، ولكن الطبقة الاجتماعية ظلت قائمة على النحو الذى كانت عليه فى بقية العالم الإسلامى ، فقد كان هناك الأحرار والموالى . وفى نطاق الأحرار هناك الخاصة ، أو الطبقة العليا بلغة العصر الحديث ، والعامة ، أو الجماهير كما نقول فى أيامنا هذه .

تتكون طبقة « الخاصة » من أبناء الأسر العربية ، وبخاصة أولئك الذين يرتبطون من قريب أو بعيد بنسب مع الأميرة المالكة ، ويطلق عليهم أحيانا « بنوهاشم » ، أو « أهل قريش » ، إشارة إلى أصولهم النبيلة ، ويتلقون رواتب من بيت المال إلى جانب أملاكهم الخاصة ، وكانوا موضع احترام كبير من عامة الشعب ، ويعيدون عن المناصب العامة ، ويتولى مشورتهم نقيب لهم ، هو صوتهم والصلة بينهم وبين الخليفة . وتأتى مكانتهم فى الحفلات الرسمية أو العامة ، أو الأعياد الدينية ، أو استقبال السفراء ، قبل الوزراء وكبار الموظفين ، ويلهم رجال القضاء ، وعلى رأسهم قاضى الجماعة ، ثم كبار الموظفين ، ويعدون من الخاصة ، إلى أى عنصر انتموا . ومنذ نهاية القرن التاسع الميلادى بدأ كثيرون ممن كونوا ثروات طائلة ، قديما أو حديثا ، يشترى وضعا اجتماعيا أفضل ، يدفعون ثمنه ذهبا ، لكنى ينتسبوا فى هذه الطبقة ذات الأهمية الاجتماعية ، وكانت تتمتع بامتيازات مادية محدودة ، ومعنوية أكبر ، ولها الحق فى معاملة خاصة من موظفى الدولة . وعلى أية حال فقد كانت طبقة متجددة ، ومحدودة العدد ، وغير مستقرة ، لأن عمليات الإقطاع والمصادرة تم فجأة ، وتخضع لأهواء الحاكم دوما .

كان أبناء « البيوتات » أوضح عناصر هذه الطبقة فى القرن العاشر ، وهم الذين كانوا يتوارثون الوظائف الكبرى منذ القرن التاسع ، ويحتكرون الإدارة المركزية فى العاصمة ، وتميز من بينهم خمسة ، أصولهم شرقية هم : بنو عبدة ، وبنو حدير ، وبنو شهيد ، وبنو عبد الرؤوف ، وبنو فطيس ، وأبناء الأسر الثلاثة الأولى ترداد أسماءهم كثيرا فى طوق الحماية ، وفى القرن العاشر ، على أيام الناصر ، سوف تلحق بهم بيوت أخرى ، لموظفين كبار ، أو موال محذنين ، نجحوا فى مهمات وكلت إليهم . من طراز بدو ابن أحمد الذى انتصر على أوردينو الثانى Ordonio ملك ليون ، فى موقعة متونية Mitonia ، وكان يتولى الحجابة للناصر منذ أصبح أميرا إلى أن توفى خليفة ، وخلفه فى بعض مناصبه إبنائه : عبدالله وعبد الرحمن . وظهر عدد

من الفتيان الصقلية ، أمثال : درى ، وأفلح ، وطرفة ، وجعفر ، ويظهرون فى الوثائق تحت اسم «أبناء الخلائف» ، وبدهى أنهم أصبحوا أحراراً قبل أن يعهد إليهم بالوظائف العالية ، والتي ارتفعت بمستواهم إلى أشهر البيوتات العربية القديمة ، والتي أحست على التأكيد بأن شيئاً تتوارثه قد انتزع منها فجأة . وفيما بعد ، فى خلافة الحكم الثانى وابنه الضعيف هشام الثانى ، سوف نلتقى بالحاجب المصحفى ، والمنصور بن أبى عامر ، وأحمد بن سعيد ابن حزم ، والد ابن حزم صاحبنا .

جرت العادة أن يحمل كبار الموظفين لقب وزير ، وأن يتلقوا الراتب المقرر له ، وكانوا إلى جانب ذلك يجمعون ثروات طائلة ، من الضياع الواسعة ، والعقارات الهامة ، والجواهر الغالية ، وكان الخليفة يسأل الذين تطول أعناقهم فجأة عن مصادر ثرائهم ، وبعضهم لا ينتظر حتى يسأل ، وإنما يسبق الأحداث فيقدم بعض ما جمع إلى الخليفة ، أو بيت المال ، وكلاهما كان واحداً .

ثم تأتى الطبقة الوسطى ، ويتحدث عنها المؤرخون عرضاً ولما ، ونجى طبقة لنظم المرامم فى آخر القائمة ، ويطلق عليهم اسم «الأعيان» ، وهم أغنياء الأحياء ، وكبار تجار الأسواق ، ممن استطاعوا أن يرتفعوا بمستواهم فى سلم الطبقات الاجتماعية ، ومعظمهم من المولدين . ولانستطيع فى ضوء النصوص التى بين أيدينا تحديد الدور الذى قامت به هذه الطبقة فى حياة العاصمة ، واسكن الأقرب إلى التصور أن الأغنياء منهم كانوا يحاولون أن يقفزوا إلى مرتبة الخاصة ، ولم يكن للبقية دور حتى يكون لهم وضع خاص .

وكانت الطبقة الدنيا ، أو العامة كما تسميهم المصادر القديمة ، وقل ما يتحدث عنهم ، تتكون من الحرفيين والعمال ، وكلها من البربر أو المولدين أو الموالى ، إلى جانب المستعربين واليهود . وفى مدينة كقرطبة ، نجرى الأموال بن يدى الخاصة أنهارا ، كان على هذه الطبقة أن تتحمل ضيق المجتمع

وقسوة الحياة ، وأن ترزح تحت أعباء ضرائب باهظة كانت تفرض عليها . وكانت تقوم بينهم وبين الدولة هوة سحيقة من سوء الظن وعدم الثقة ، لأن الغرم يقع عليهم دائماً ، وكانوا دوماً ، وربما على حق ، مادة معدة للانضمام إلى أية ثورة أو تمرد أو عنف ، ووراء أى قائد أو دعوة ، وظالوا يخضعون دائماً لرقابة مشددة من الدولة ، ودرج الأمير أو الخليفة على أن يتماق عواطفهم عند توليه السلطة ، يؤكد أنهم ، ويخفف الضرائب عنهم ، وقد يعفيهم عما تأخر منها .

• اللغة :

هذه الجماهير المتدفقة عبر شوارع قرطبة ، أو الهاجعة في بيوتها ، أو المتحلقة في الكتائب والمساجد ، أو العاملة في المصانع والحقول ، أى اللغات كانت تتحدث ؟

خارج عن قصدى أن أتبع العربية في زحفها وراء راية الإسلام المتدفقة ، وأن ألم بخصائصها ، وما أصابها من تحوير أو تحريف أو تطور ، إنما أريد أن أقصر نظري على نهاية القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر ، أى الفترة التى سبقت أو عاصرت أو تلت ابن حزم ، وهى فى الوقت نفسه الفترة التى بلغت فيها الحضارة الأندلسية قمة توهجها .

كانت اللغة العربية الفصحى اللغة القومية ، ولأنها لغة ثقافة ، وعاء حضارة ، لم تجل على بطحاء شبه الجزيرة الإيبيرية لغة أخرى تدخل معها فى صراع ، أو تقاوم زحفها ، ولأنها لغة القرآن فرضت نفسها لغة الإدارة أيضاً . وأصبحت لغة الحديث فى اجتماعات الأصدقاء المثقفين ، وفى « الصالونات » الأدبية ، وتحرير الرسائل ، والوثائق الرسمية ، وفى الإبداع الأدبى شعراً ونثراً ، ولغة التعليم بنوعيه ، المبندى والعالى على السواء . وفى العلاقات الدولية ، ومع المشرق بخاصة ، أفراداً أو على مستوى الدول ، وكان يمكن منها شرطاً لتولى أى من المناصب العامة ، والتفوق فيها الطريق

الموحيد إلى الذبل المكتسب والوظائف العليا . ومن ثم كان على الأندلسيين من غير المسلمين ، يهوداً أو مستعربين ، أن ينبغي فيها إذا أرادوا أن يجدوا لهم مكاناً مرموقاً تحت شمس الخلافة ، ونعرف من بينهم أدياء وشعراء كانوا يكتبون فيها شعراً جميلاً ونثراً راقياً . ويعبر عن هذا لها الواقع زفرة أرسلها ألفارو ، مطران قرطبة ، عام ٨٥٤ م ، أى قبل الفترة التى نعرض لها بنحو قرن كامل ، ولما يفض على الفتح الإسلامى غير مائة وأربعين عاماً ، يقول : « من الذى يعكف اليوم بين أتباعنا من المؤمنين على دراسة الكتب المقدسة ، أو يرجع إلى كتاب أى عالم من علمائها ، ممن كتبوا فى اللغة اللاتينية ؟ من منهم يدرس الإنجيل أو الأنبياء أو الرسل ، إننا لا نرى غير شبان مسيحيين هاموا حبا باللغة العربية ، يحثون عن كتبها ويقتنونها ، يدرسونها فى شغف ، ويعلقون عليها ، ويتحدثون بها فى طلاقة ، ويكتبون بها فى جمال وبلاغة ، ويقولون فيها الشعر فى رقة وأناق . يالاحزن : مسيحيون يجهلون كتابهم وقانونهم ولا يبينهم ، وينسون لغتهم نفسها ، ولا يكاد الواحد منهم يستطيع أن يكتب رسالة معقولة لأخيه مسلماً عليه ، وتستطيع أن تجد جمعاً لا يحصى يظهر تفوقه وقدرته وتمكنه من اللغة العربية » .

وكانت البربرية ، بلهجاتها المختلفة ، تتحدث فى الأعوام الأولى من الفتح ، وحتى زمن متأخر نسبياً ، مع الجنود البربر ، والمهاجرين من شمال إفريقيا ، وكانوا أكثر عدداً من العرب ، ويذكر ابن القوطية فى كتابه : « افتتاح الأندلس » : « أن عبد الرحمن الداخل « ركب مع ثقات من مواله ورجاله ونفر من العسكر ، فسمع البربر يتكلمون فى العسكر بالبربرية ، فدعا بمواليه من البربر ، وقال لهم : خاطبوا بنى عمكم وعظومهم ، وأعلموهم أنه إن تغلب العرب وقطعوا دواشنا فلا بقاء لهم معهم ، فأما أظلم الليل دنوا من العسكر ، وخاطبواهم بالبربرية ، ولكنهم ما لبثت أن تفهقرت أمام العربية ، ولا نبلغ المرحلة التى نحن بصددها من تاريخ الأندلس حتى نجد ما قد تلاشت تماماً ، فهاهنا كلمات قليلة ليست بذات أثر ، من أسماء

بعض الأطعمة أو الملابس ، ولو أنها سوف تعود فيما بعد ، ودون أن تترك أيضاً أثراً يذكر ، مع بعض دول المطوائف ذات الأصل البربري ، ومع المرابطين والموحدين .

وكانت هناك اللغة اللاتينية ، لغة رجال الدين من المستعربين ، يعرفونها إلى جانب ما يعرفون من العربية الفصحى والعامية ، والرومانشية ويطلق عليها اللاتينية الواطية ، لأنها تختلف عن اللاتينية الأدبية في تراكيها وصوتياتها ومفرداتها ودلالاتها ، وتباين مناطق وعصوراً ، وتأثراً باللغات القديمة في المناطق التي عاشت فيها ، وما وصلنا فيها من أدب قليل للغاية ، لأنها لم تكن لغة ثقافة ، وإنما تستخدم في الطقوس الدينية ، وفي الوثائق الإدارية فحسب ، ولم تكن مفهومة لغير رجال الدين ، وقد اضطر سعيد المطران ، أو Juan Hispalense كما يرد في المصادر اللاتينية ، إلى شرح الكتاب المقدس باللغة العربية ليسهل فهمه على عامة المستعربين ، وفيما بعد ترجمت التوراة نفسها ، وتحفظ مكتبة مدريد الوطنية بمخطوطة تضم ترجمة عربية للقوانين الكنسية كتبت عام ١٠٤٩ م ، وإذا عرفنا أن الكتاب وضع خاصة لكبار رجال الكنيسة أدركنا المستوى الذي انتهت إليه اللغة اللاتينية في الأندلس .

وكان عامة المستعربين ، ومعظم المسلمين ، وجل اليهود ، يتكلمون الرومانشية ، أو يعرفونها ، أو يلتمون بشيء منها ، إلى جانب الفصحى وعامية أهل الأندلس ، وهي لغة انحدرت من اللاتينية العامية ، أو اللاتينية الواطية ، وابتعدت عنها كثيراً ، وأخذت في كل منطقة تطوراً خاصاً ، صوتاً واشتقاقاً وتركيباً ، سوف يصبح فيما بعد اللغات اللاتينية الحديثة ، وهي الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية والقطلونية والبروفنسالية والرومانية (نسبة إلى رومانيا الحديثة) ، وما تفرع عن هذه من لهجات . ويطلق عليها المؤرخون الأندلسيون اسم : لسان العجم ، أو العجمية ، أو البيطينية قليلاً . وقد عجب ابن خزم في كتابه « جمهرة أنساب العرب » ، من أن

بنى بيليّ، لا يتحدثون الليطينية، لانساؤهم ولا رجالهم . وبعض جمل منها كان يتردد في مجالس الخليفة تروحا وتخففاً ، ويجرى على السنة المتخاصمين والشهود في مجالس القضاء . وهى تمثل مصدراً هاماً لعامية أهل الأندلس ، على نحو ماسيحي . غير أنها رغم هذا كله لم تكن لغة الحياة اليومية ، فقد حاصرتها عامية أهل الأندلس ، ودفعت بها إلى ركن قصي لاتجاوزه ، فى أروقة الكنائس ، أو الحياة الخاصة للمستعربين ، أو بين قلة منهم مثقفة أو منعزلة أو تسكن مناطق نائية ، ويرى ميندث بيدال ، أنه لا يمكن الجزم بأن المستعربين فى القرن العاشر وما بعده ، قد احتفظوا بلغتهم الرومانشية أداة تخاطب ، أو لغة أدب .

وعرف العصر عدداً من كبار المفكرين اليهود فى قرطبة ، وفى غيرها ، وفيه بدأت الدراسات لليهودية تزدهر ، ومع ذلك لا يمكن القول بأن اللغة العبرية كانت لغة ثقافة أو محادثة لأحد . صحيح أن عدداً محدوداً من علماء اليهود كان على معرفة بها ، ولكنها معرفة المتخصصة الراغب فى الدراسة ، أكثر منها معرفة المتمكن يجعل منها محملاً لأفكاره أو مشاعره ، أو أداة وصل بينه وبين الآخرين .

ومن المؤكد أن الصقلية ، وجاءوا من أمكنة عديدة من وسط أوروبا ، كانوا يعرفون لغاتهم الأصلية أو مفردات منها ، وأن أدوات النطق عندهم تكونت على نحو يترك أثره فى نطقهم للغة التى سوف يتحدثون بها . ورغم أن الكثرة الغالبة منهم كان يوثى بهم أطفالاً ، ويربون على إتقان اللغة العربية وإجادتها ، فإن عدداً منهم ليس بالقليل ، كان يجيء فى سن فنية لا يتأتى معها أن يتعلم اللغة العربية بسهولة . وكان جهلهم بها يقيم بينهم وبين عامة الناس سورا عالياً من العزلة ، فلا يشاركون غيرهم فى حديث أو حوار ، فكان يطلق عليهم اسم «الحرس» . لكننا لا نعرف أنهم تركوا أثراً واضحاً ، أو غير واضح ، فى أى من لغات الأندلس : العربية أو العامية أو الرومانشية ، أو حتى الإسبانية فيما بعد ، ولو أن

حيوان أين قرمان ، وكتب في عامية أهل الأندلس بعد ذلك بقرن من الزمان ، يضم عددا كبيرا من ألفاظ غير عربية ، الجانب الأكبر منها من أصل روماني ، ولكن عددا من المفردات يمكن — ظنا — أن يكون مصدره هؤلاء الصقالبة ، لأننا لا نعرف له معنى ، ولم نتوصل له إلى أصل يمكن أن يرد إليه .

ولمى جانب هذه اللغات كلها عرف الأندلس عربية عامية ، ذات دائرة أوسع منها جميعاً ، ولها خصائص متميزة ، وسوف تعرف باسم « عامية أهل الأندلس » ، وجاءت نتيجة طبيعية لقلة العنصر العربي ، وللزواج المختلط ، فكل العرب الذين وفدوا على الأندلس ، إلا ماندر ، جاءوا رجالا ، وتزوجوا فيه من إسبانيات . أو تسروا من الجوارى ما وسعتهم الحال ، وكان عدد الجوارى كبيرا ، وينتمين في جنسيات مختلفة ، ومن مناطق متنوعة في الأندلس نفسه ، ففهم القادmates من قطاونية ، أو الباسك ، أو جليقية ، ومن جنوب فرنسا ، ويطلق عليهن في المصادر القديمة اسم « الفرنج » ، وكن مرغوبات ومحجوبات ، لبياض بشرتهن ، وشقرة شعرهن ، ويمثلن الأغلبية ، إلى جانب قلة من الصقالبيات أو السودانيات ، وكانت الحارية التي تجهل العربية ، وتطلب للمتعة ، أغلى ثمننا من غيرها .

والرجل مع زوجته ، أو جاريته ، في لحظاتها الودود ، لا يتحدث الفصحى ولا يسمعها ، يعبر عن عواطفه بلغة مفهومة لمن معه ، وتجسد هي مشاعرها في لغتها الأصلية ، أو في لغة هجين ، لأن الكتب والثقافة والتعليم لا تمدها ، ولا غيرها ممن علي شاكلتها ، بألفاظ هذه الأحاسيس ، إنما يتعلمها التي من أئداده ، وتعلمها الفتاة عن أترابها . وكل ذلك إلى جانب مفردات البيت المتصلة بالطعام والشراب . وهي تلقن هذه الألفاظ وما تحب من لغتها لأطفالها ، فتأتي لغة الأبناء ، على الأقل في المرحلة التي تسبق المدرسة ، خليطا من لغة الأب ومن لهجة الأم .

وإذا تجا وزنا الجوارى ، فإن الباعة وأصحاب المهن الصغرى ، وكاهنهم ليسوا بعرب ، تخلف في نطقهم ، وفي معجمهم اللغوى ، الكثير مما ورثوا ، ومن الرومانشية ، ومن ثم فإن عامية الأندلس كانت خليطاً من ألفاظ عربية في مجملها ، في صورتها الصحيحة أو تطورت نطقاً ودلالة . ومن كلمات رومانشية تمثل نسبة عالية ، قد تبلغ حد الثلث منها ، ومن ألفاظ بربرية أو من لغات أخرى قليلة للغاية ، وليست بذات أهمية ، وكانت هذه اللغة معروفة للناس جميعاً ، عرباً وبربراً وإسبانياً مسلمين ويهوداً ومستعربين ، ولكل من يعيش في قرطبة ، لأنها لغة الحياة اليومية في البيع والشراء ، والسمرو والتوادم ، والتخاطب بين عامة القوم ، ولم يصلنا من هذه اللغة ، أو اللهجة إن شئت الدقة ، في الفترة التي نعرض لها ، نصوص تعين على تحديد ملامحها ، ولكن ابن حزم أشار إلى بعض هذه الملامح ، ويدى أن البربر لعبوا دوراً حاسماً في التحريف البنائى والصوتى الذى أصاب اللغة العربية في الأندلس ؛ ويقول المقدسى ، وهو جغرافى غير أندلسى من القرن العاشر الميلادى ، إنه التقى في مكة بحجاج أندلسيين ، لغتهم عربية ، غير أنها منغلقة ، مخالفة لما ذكرنا في الأقاليم ، ولهم لسان آخر يقارب الرومى . أما هذه العربية المنغلقة ، فهي عامية أهل الأندلس ، وأما اللغة التى تقارب اللسان الرومى ( أى اليونانى ) فهي الرومانشية . ويمكن القول إجمالاً أن هذه العامية ، إذا استثنينا الكلمات الرومانشية التى اختلطت بها ، تشبه في صوتياتها ، والجانب الأكبر من دلالاتها ، عامية أهل المغرب والجزائر ، في أيامنا هذه ، إلى حد بعيد .

وهذا التيار العامى كان يمكن أن يودى بالعربية ؛ لولا أنه أدى في الوقت نفسه إلى رد فعل معاكس ، فكانت عناية الدولة والمجتمع الراقى والمنقذين بالفصحى كبيرة : الخلفاء ورجال الدولة يقربون من يحسن العربية ، ويتنافسون هم أنفسهم في إجادتها ، ويغدقون العطاء على الشعراء والكتاب ، ويحرص هؤلاء من جانبهم على التزامها ، وببالغون في مراعاة القواعد ، والتأني في التعبير ، ومن ثم ازدهرت الدراسات اللغوية ، وعرف الأندلس عدداً من كبار النحاة ، كابن مالك صاحب الألفية ، وأبى بكر الزبيدى صاحب الواضح في النحر ،

وغيرهم . وعرفت الدراسات الخاصة بمقاومة اللحن ، وتصحيح النطق ، وإرشاد الناس إلى الصواب .

● العمران :

تحتل قرطبة بوصفها عاصمة الأندلس المكانة الأولى في المصادر التاريخية والجغرافية ، غير أن التفاصيل التي تقدمها لنا هذه المصادر عن تخطيط المدينة والحياة فيها قليلة للغاية ، والكتاب الوحيد الذي نستخلص من عنوانه أنه عني بهذا الجانب ، وهو «كتاب وصف قرطبة» لمؤرخ الأندلس الكبير أحمد بن محمد الرازي (ت ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ م) ، وفيه تفاصيل وافية عن شوارعها وقصور الأعيان فيها ، ضاع ولم يصلنا . ولقد أوقف المقرئ الجزء الثاني من كتابه «نفح الطيب» ، طبعة الشيخ محي الدين ، على مدينة قرطبة ، وحشد فيه نصوصا كثيرة ، كاملة أو مبسرة ، جغرافية وتاريخية وأدبية ، غير أن المؤلف وهو مغربي ، وحرر كتابه في القاهرة ، ويتحدث عن مجتمع أندلس قد اندثر ، لا يقدم لنا ، إذا حذفنا الأشعار والتكرار وما لا صلة له بالموضوع ، إلا معلومات قليلة للغاية ، وحاضر المدينة ، وزرتها مرارا ، صورة مشوهة لما كانت عليه في ماضيها ، نعم إن بعض المعالم لاتزال قائمة ، وبخاصة تلك التي تقع على شاطئ الوادي الكبير ، كالمسجد الجامع ، والرصافة ، وبقايا أطلال العصر الأموي في السهلة ، وأسفح الجبل ، أو مدينة الزهراء ، كما أن السور الذي كان قائما حول المدينة في القرن العاشر يمكن تحديد معالمه كاملة . إن قرطبة المعاصرة ، مباني وسكانا ، جزء صغير عما كانت عليه في عصر الخلافة ، لقد تلاشت أحياء وأرباض كاملة برمتها ، وأصبح ماحول قصر الناصر في مدينة الزهراء أعشابا مخضرة ، مراعى للثيران .

كانت قرطبة القرن العاشر صنوبغداد ، فيما يرى ابن حوفل ، ولم يجد لها في مصر أو الشام شبيها ، ويختلف المؤرخون المعاصرون في عدد سكانها ، فبعضهم يتجاوز به المليون ، ويهبط به آخرون إلى مائة ألف ، وفي غيبة

الوثائق القاطعة كل شيء محتمل ، ولو أن الرقم الأدنى يبدو غير معقول ، لأن قرطبة الآن تضم من السكان مائتي ألف ونيما ، وكان امتدادها مدينة ، ومركزها عاصمة ، يجعل منها في العصر الوسيط أضعاف أضعاف ما هي عليه الآن . وإذا استخدمنّا الأرقام ، وما لدينا منها كاف لإلقاء ضوء على حجم المدينة ، قلنا : كان بها ٣٨٧٧ مسجدا في رواية ، و ٢٨ ربضا ، و ٩١١ حماما ، وطبقاً لإحصاء تم بأمر المنصور بن أبي عامر في نهاية القرن العاشر ، كان فيها ٧٧ ر ٢١٣ داراً يسكنها العامة ، و ٣٠٠ ر ٦٠ بيت يسكنها الخاصة وكبار الموظفين ، و ٤٥٥ ر ٨٠ دكانا ، ولا يدخل في هذه الأرقام البيوت المؤجرة ، ولا الحمامات ولا الفنادق ، وسبعون داراً للكتب .

وكان يطلق على الجانب القديم من قرطبة اسم « المدينة » مرسلًا ، أو « المدينة العتيقة » أو « القصبة » ، ويحيط به سور يرمم من حين من لآخر ، وتقوم عليه عدة أبواب ، أهمها : باب القنطرة ، ويقوم على مقربة من المسجد الجامع ، ومن قصر الخلافة ، ويربط المدينة برض شقندة ، وكان الحكم الأول ( ٧٩٦ - ٨٢٢ م ) قد أمر بهدمه وتحويله إلى مقبرة ، بعد أن تزعم مكانه ثورة عليه عرفت باسم « فتنة الربض » . وباب الوادي أو الجزيرة ، وفيما يقول البكري كان عليه تمثال لمريم العذراء ، والباب الحديد ، وباب طليطلة ، ويطلق عليه أيضاً باب رومية ، على حين كانت العامة تسميه باب عبد الجبار ، نسبة إلى عبد الجبار بن الخطاب مولى الخليفة المشرق مروان بن الحكم . والباب الرابع في الشمال الغربي ويسمى باب ليون أو باب طليطلة أو باب اليهود ، واستقبح بعضهم هذا فكانوا يطعنون عليه باب الهدى ، والأبواب الأخرى توجد في الجانب الشرقي ، وهي : باب عامر ، أو باب الجوز ، ويسمى باب بطليوس أيضاً ، وباب إشبيلية أو العطارين ، وعلى مقربة منه كان يوجد مصنع ساك العملة ، ويطلق عليه اسم « دار الضرب » . وكانت عدة دور للرعايا والسود الذين يسكنون داخل السور ١١٣ ألف دار ، حاشا دور الوزراء وكابر الناس والبياض .

غير أن المدينة ، وبخاصة منذ القرن التاسع ، بدأت تفيض بسكانها نحو أحياء جديدة بين الجانب الأيمن والمنطقة التي تبدأ من باب عبد الحجاز وتمتد حتى الكولية ، وتسمى الشرقية ، أو الجانب الشرقي ، وما زالت تعرف باسمها العربي حتى يومنا هذا في شكله الإسباني الحديث Ajarquia ، ( في الإسبانية القديمة Axerquia ) ، ومنها يبدأ الطريق الموصل إلى مدينة الزاهرة التي بناها المنصورين أبي عامر .

وفي أقدم مخطط وصلنا لمدينة قرطبة ، ورسم عام ١٨١١ م ، نلتقي بعدد من المعالم العربية وبخاصة ما اتصل منها بالحى التجارى مثل : القيصرية ، وهى سوق الأقمشة ، وتتفرع منها على الطريقة القديمة شوارع : الحزازين والحبازين ، والخياطين ، والصفارين . ونلاحظ أن حى الشرقية الحديث احتفظ بعدد من أسماء الشوارع العربية ، فى صورتها العربية أو مترجمة إلى الإسبانية ، وتربط بنشاط تجارى أو صناعى كان يشهر به الشارع فى قرطبة العربية ، فهناك شارع الوراقين Librerias ، والحلالين vinagrerros ، والحبايين Los Cordoneros والخياطين Alfayatas ، وزقاق الحدادين Herradores ، وأسماء أخرى كثيرة . وبقي القليل فى صورته العربية ، كالحور الذى تلتقى عنده عدة شوارع صغيرة ويسمى الزنيقة Azonaica ، أو ميدان المغرة Al gra ، وشارع الساقية Accquia ، وزقاق عائذ calleja Aixa ، وغيرها .

وكأية مدينة إسلامية فى العصور الوسطى لها حى وسيط يشغله أرباب التجارة ، ويرتبط بشوارع تنصل بأبواب المدينة ، وبأحياء أخرى يعمل فيها أصحاب الحرف ويعيشون أيضا . وإلى جوار السور ، حيث يتيح الحلاء أرضاً واسعة لمن يريد ، تسكن الطبقة العليا فى بيوت متسعة أكثر منها مرتفعة ، تطوقها حدائق غناء ، ومع ازدياد السكان بدأ الناس يبنون بيوتهم خارج الأسوار ، على نحو ما أشرنا ، وبدأ ما أطلق عليه اسم « الرض » ، وهى كلمة

أخذت طريقها إلى اللغة الإسبانية لفظاً ومعنى ، مع تحريف يسير ، فأصبحت Arrabal : والكلمة مستخدمة في لغة الحياة اليومية حتى يومنا ، وقد يفتعل السور مع الحى الحديد ، وقد تعدد الأرباض ، على حين أن الأصل ، وهو ما بين الأسوار القديمة ، ظل يعرف باسم المدينة ، ومع الزمن أصبح كل ريف مدينة مستقلة ، له حياته ومتطلباته الخاصة ، وأورد لنا ابن بشكوال قائمة بأرباض قرطبة ، وكانت تبلغ في روايته ستة وعشرين ، وقد اندثرت هذه الأرباض اليوم ، وقامت على أنقاضها مزارع وحدائق . ولم يكن امتداد المدينة يخضع لتخطيط من الدولة ، وإنما ترك للمبادأة الشخصية .

ويخترق المدينة شارع كبير ، طويل وهريض ، يطلق عليه اسم : « السكة الكبرى » أو « المحجة العظمى » ، وسوف يصبح مثل هذا الشارع من معالم قرطبة وغيرها من مدن الأندلس ، كبرت أم صغرت ، وحتى الآن ، بعد أن ترجم حرفياً إلى اللغة الإسبانية ، فأصبح Calle mayor . ويطلق على الشوارع غير الرئيسية اسم « زقاق » ، ويؤدي الزقاق وهو متعرج وضيق إلى « درب » ، ويكون هذا مسدوداً عادة في نهايته ، وانتقل اللفظ بصورته العربية إلى الإسبانية Adarve . ومجموعة الشوارع تصبح « حومة » أو « حارة » ، ودخلت هذه إلى اللغة الرومانشية في صورة مصغرة على الطريقة الإسبانية Haralla ، وتحمل الحارة أو الحومة اسم المسجد الخاص بها ، والذي يؤدي فيه سكانها الصلاة . ويتوسط الشارع مجرى مركزى محدد ، ومغطى أحياناً ، تصب فيه المياه القذرة ، ومياه المطر ، ويقوم على تنظيفه عمال من قبل الدولة ، يدقون الأجراس قبل عملهم تنبيهاً للمارة كي يبتعدوا ، أما انزباله فكان موكولاً أمرها لسكان الحى أنفسهم ، يستأجرون من يحملها خارج المدينة . وكان فيها أميال من الطرق المرصوفة ، التي تضاء من بيوت تقوم على جانبي الشارع ، وذلك « على حين لم تكن تتمتع بمثل هذا لندن أو باريس حتى بعد سبعة قرون من ذلك التاريخ ، وبعد ذلك ( ٣٢ - ابن حزم )

يقرون كان الذى يجرؤ على الخروج من عتبة بيته فى باريس فى يوم مطر يغوص فى الوحل إلى عقبيه .

وكانت قرطبة ، شأنها فى ذلك شأن أية مدينة أندلسية كبرى ، تضم خارج أسوارها حدائق واسعة ، يطلق عليها اسم : « الشريعة » ، مخضرة وذات خمائل ، وتستخدم لأغراض عديدة ، ففى جانب منها يقام السوق الأسبوعى ، وفى آخر مصلى لإقامة الصلوات فى الفضاء ، وبخاصة فى الأعياد والحفلات الدينية ، وإلى جانبها الحور ، طريق ممتد تحفه الأشجار العالية ، ويتخذها المتنزهون والعشاق والمتبطلون ملتقى لهم . وخارج أسوار المدينة كانت المقابر أيضا ، وعليها يتردد السكان رجالا ونساء ، ليزوروا مقابر أسلافهم ، ولتكون قبل ذلك وسيلة الالتقاء ، حيث يلتقى الأصدقاء ، وتبادل السيدات آخر الأنباء والإشاعات ، وحيث تتاح الفرصة للعشاق أيضا .

وكان للمخاضة ، أو الطبقة العليا ، بيوت ريفية ، تقوم وسط جنان ، تده وعامرة ، يطلق عليها اسم « المنية » ، وإذا كبرت جداً واتسعت أطلق عليها اسم « حبر » ، وتفتح عادة فى وجه الراغبين من عامة الشعب ، وأشهرها فى قرطبة « حبر الزجالى » ، وتملكه أصلاً أسرة بربرية ، وتميز بأنه كان يفتح فى وجه العامة من المثقفين والأذكىاء وأصحاب الذوق الرفيع فحسب . ونعرف من هذه البيوت الفاخرة « منية نصر » ، نسبة إلى القتي الصقلابى نصر ، وكان خضياً ، وموضع ثقة عبد الرحمن الثانى ، وبعد موته المأسوى صادرها الأمير محمد ، ومنحها زرياب المغنى ليسكن فيها ، وحفظ لنا ابن حيان فى كتابه « المقتبس » قصيدة ليحيى الغزال يسجل فيها الحادث والمناسبة ، وفيها أيضاً كان ينزل السفراء القادمون فى مهمات لدى عبد الرحمن الناصر .

وخارج المدينة تقوم « المشافى » للمرضى الذين يستعصى علاجهم ، أو

ييطيء ، أو مصابين بأمراض معدية ، في حى قائم بنفسه يطلق عليه :  
« ربض المرضى » ، ويقع قريباً من « منية عجب » ، وتقوم عليها جماعات  
ممتطوعة لإشرافاً وإنفاقاً ، مما تتلقاه من أهل الخير ، أو مما يوقف عليهما من  
مال أو أرض أو عقار .

ومن معالم قرطبة المسجد الجامع ، ولا يزال قائماً بعد ألف عام من  
بنائه ، يطاول الزمن ، ويقاوم الحن ، والإلمام بتاريخه ، والوقوف عند  
أوصافه ، يخرج بنا إلى إطناب ليس هنا مكانه . وقد ترك لنا الشريف  
الإدريسى ، وهو أندلسى من سبته ، وتوفى عام ٥٦٠ هـ = ١١٦٦ م ،  
وصفاً له ، شاملاً ودقيقاً ، في كتابه : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ،  
كما أن المقرئ جمع في كتابه « النفع » نصوصاً عديدة متصلة به .

وعندما يهبط المرء من أعلى المدينة ، سالكاً طريق « المحجة العظمى » ، ويمرّ  
بين قصر الخلافة والمسجد الجامع ، ينتهى إليه الأمر إلى القنطرة القائمة على  
نهر الوادى الكبير ، وهى قديمة وشهيرة ، ويقال إن الإمبراطور الرومانى  
أغسطس أول من أمر ببنائها ، وما تزال قائمة حتى يومنا هذا .

الأوعلى جانبي النهر كانت تقوم النواير ، والطواحين التى تعمل بقوة  
اندفاع الماء ، وأمكنه الصلاة فى الهواء الطلق ، ومكان متسع يعلق فيه  
الحكوم عليهم بالصلب .

● المهنة والحرف :

فى القرن العاشر ، وتحت مظلة شاملة من الأمن والسلام ، لكل الأرض  
وكل الناس ، بلغت قرطبة قمة الازدهار الاقتصادى ، وتحولت المدينة إلى  
خاية عاملة ، تقوم على التخصص فى المهنة ، والتعاون فيما بينها فى الوقت  
نفسه ، فكانت هناك مهنة كثيرة ، وحرف متعددة ، تجعل الحياة أكثر  
سهولة ويسراً وإمتاعاً .

كانت هناك أفران عامة وكثيرة ، توجد في كل شارع مهما صغر ، وأحصيت في قرطبة المعاصرة خمسة شوارع . كل كل منها اسم فرق Horno ، مضافاً إلى صاحبه أو منشئه ، ويرسل الناس بخبزهم إليها ، ولكل فرن صبي معين يمر بالبيوت في ساعة معينة ، يحمل منها الخبز عجينا ويعود به مستويا ، ويتلقى أصحاب الأفران أجرهم عجينا ، فيصنعونه خبزاً ، ويبيعونه بدورهم لمن لا عجين عنده . وفي كل حي شارع يتميز بالخوانيت الخاصة ببيع الطعام والشراب ، من خضري وجزار وفاكهى وبقال وعطار وسماك . وإلى جانبهم من يقوم بالطبخ أو الشواء ، أو عمل الخلوى ، لمن يحب وعلى مرأى من طالبه ، وما يجري في الشارع موضع رقابة كاملة من الدولة ، نظافة وصناعة وسعرا .

وتنظم الدولة صناعة النسيج والاتجار فيه وتراقبها ، وكانت تحتل جانباً هاماً من نشاط الناس ومن اتساع المدينة ، فتشغل حياً كبيراً يسمى « الطرازين » ، وتفتح في أطوارها المختلفة ، من نسج وصبغ وتطريز وتفصيل ، الباب واسعاً أمام آلاف العمال ، وثلثهم من الصبيان الراغبين في التعليم والتدريب . وجمهرة العاملين فيها من المسلمين المولدين ، ومن المستعربين المسيحيين . كانت الأقمشة تباع نسيجاً لمن يحب ، أو ملابس جاهزة ، وكان سوق خاصة بها يطلق عليها اسم « السقاطين » ، وهى لفظة انتقلت إلى الإسبانية لتؤدى المعنى نفسه ، وما زال سوق « السقاطين Zactin » قائماً في غرناطة . وزرته مرارا ، تجدد النسيج ، وتعددت الألوان ، وتغيرت أنواع الملابس ، ولكن الحى ، حياة وتقليدا ، لم يبعد كثيراً عما كان عليه بالأمس . وكانت الرسوم متأثرة في جانب منها بالرسوم الفاطمية ، أو القبطية المصرية ، وقد غزا النسيج المصرى قرطبة ، وشاع فيها ، وعرفت باسم « القباطى » .

وعلى هذا النحو من الاتساع كانت صناعة الجلود ، صباغة وعملا ، وبلغت في قرطبة شهرة عالمية في العصر وسيط ، حتى أن الكلمة الفرنسية

الخاصة بصانع الأحذية Cordonnier أخذت من لفظ قرطبة في صورته الفرنسية Cordoue ، وتخضع هذه الصناعة بدورها لرقابة الدولة ، ونعكس في أشكالها وألوانها ، فضلاً عن الدقة ، قدراً من الترف المصقول الذي كان لدى القاهرين والأغنياء وعامة الناس .

وكانت الملابس الملكية ، وما تحتاجه دار الخلافة ، والهدايا التي يمنحها الأمير أو الخليفة ، تتم في مصانع خاصة ، متصلة بالقصر ، يطلق عليها « دار الصناعة » ، وترسم وتزخرف في عناية بالغة ، ويكتب عليها بأحرف من ذهب اسم الأمير ، أو الخليفة ، المهدى لها .

وبلغت صناعة الفخار ، إلى جانب صناعة الزجاج ، قدراً عالياً من التقدم ، وعثر في حفائر مدينة الزهراء على بقاياه تؤكد هذا التقدم ، وأول من اكتشف أسرار صناعة الزجاج قرطبي من القرن التاسع ، عباس بن فرناس ، وهو شاعر أيضاً ، وأشرف بنفسه على إقامة مصانعه وأفرانه في قرطبة .

ومع نهاية القرن العاشر بدأت قرطبة تحتل مكانة عالمية تفوق بيزنطة ، في صناعة الجواهر ، من عقود وخواتم ومعاصم مرصعة ، وفي تزيين الجلود ، وصناعة التماثيل من العظم والعاج والخشب .

ولم تكن في قرطبة مصانع كبيرة للورق أو الرق ، وكانت تعيش منها على ما تنتجه المصانع الكبرى التي أقيمت في شاطبة jativa قريباً منها ، وكان الورق ميسوراً ورخيصاً ، والنوع الجيد منه يسمى الشاطبي ، ولا تزال شاطبة حتى اليوم مركزاً هاماً لصناعة الورق في إسبانيا .

ولا يمكن أن نرسم صورة صادقة للمناخ الذي عاش فيه صاحب « طرق الحمامة » ، ما لم نتحدث عن سوق الرقيق ، وليس هنا مكان دراسة الظاهرة نفسها ، وكانت من معالم المجتمع الإنساني حتى وقت قريب . فقد كان في قرطبة ، كما كان في غيرها من كبريات المدن ، سوق للرقيق تسمى

« المعرض » ، يعرض فيها الرقيق من رجال وإناث للبيع . وفيما يتصل بالإناث هناك صنفان : المتميزات ويطلق عليهن اسم « مرتفعات » ، و« وحش الرقيق » . والبيضاوات منهن كن يعرضن طبقاً لمصدرهن : الصقلييات ، ويوثقن من وسط أوروبا ، والإفريقيات وهن القادمات من جنوب فرنسا ، وإيطاليا ، ومنطقة قطاونية في شمال شرق الأندلس ، والغاليشيات ، أو الجليقيات في المصادر القديمة ، وموطنهن شمال غربي الأندلس ، والبربريات . على حين يطلق اسم « السودانيات » على كل السوداوات ولم يكن هؤلاء بأقل احتراماً من البيضاوات ، فقد تميزن أعمال البيوت ، والشئ نفسه يمكن أن يقال عنهن كعشيقات . والإفريقيات ، والصقلييات القادمات حديثاً ، ولما يزلن يجهلن لغة وثقاليد من اشتراهن ، أغلى ثمناً من غيرهن . ويطلق اسم « قينة » على التي تجيد الغناء والرقص ، ولما كان المجتمع القرطبي يهفو للشعر الجيد ، ويطرب للموسيقى الجديدة ، ويمتاز للرقص الرفيع ، أكثر مما يعنى بألوان الفنون الأخرى ، فقد عظم شأن الجوارى الموهوبات المتعلمات وسمت قيمتهن . وقد كثر عددن في قصر الخلافة ، ومارسن نفوذاً قوياً في الحياة الخاصة للأمير أو الخليفة ، والعامة للدواة ، وكان يوثقن من البدء بمدربات من المشرق ، وفيما بعد ، حين أقام زرياب عدداً من معاهد الموسيقى في الأندلس ، كان الإعداد يجري في قرطبة نفسها .

#### • الحياة الخاصة :

وتقيم الأسرة في بيت ، والأب صاحب الكامة فيه ، وداخل البيت لا صلة له بالشكل الخارجي ، فإذا كان المظهر الخارجي متواضعاً ، فإن الداخل يعكس قدراً كبيراً من الرفاهية والترف ، ويعادل الزوج زوجته باحترام شديد ، والعكس صحيح ، وبخاصة أمام الأبناء ، وهؤلاء يوقرون أباهم ، لا يقتربون منه إلا بقدر ، ولا يتحدثون بحالسه إلا بإذن ، وعندما تسكن

الأم مع ابنها المتزوج ، تصبح المسؤولة عن اقتصاد البيت ونفقاته . وتعدد الزوجات نادر بين الفقراء والطبقة الوسطى ، ويحدث أحياناً حين لا تكون الزوجة جذابة أن يشتري الزوج جارية بيضاء أو سوداء ، تعاون في أعمال البيت ، وترضى رغائبه حين يحب ، ويمكن أن ينجب منها ، وتصبح أم ولد ، ولا يجوز للرجل أن يبيعها حينئذ ، وتحصل على حريتها يوماً ، بعد موت زوجها . ومنذ زمن مبكر جداً يعرف الأطفال بالدقة ما تعنى العلاقة الزوجية ، فإذا بلغوا سن الحلم ، كان نضجهم العاطفى كاملاً ، وليسوا في حاجة إلى أية إثارة .

ويقوم الأب بشراء متطلبات البيت ، وحين يذهب إلى عمله تتنفس الأسرة الهدوء ، وتستأجر البيوت المقتدرة خادماً ، ومن بين الوثائق التي وصايتها صورة لعقد بين أسرة وخادم ، يحدد الحقوق والواجبات : كان عليها العجن والخبز وعمل الطعام ، والنظافة وترتيب الأسرة ، وإحضار الماء ، وغسل الملابس ، والخطاطة . ويدفع أجرها سنوياً إلى جانب الغذاء والإقامة والملابس .

أما في بيوت الخاصة فتلتقى ، طبقاً لمستوى الزوج الاقتصادي ، بعدد من الزوجات ، وسحابة من الجوارى ، سود وبيض ، وحاشية من الخصيان ، تحت رئاسة «قهرمان» ، وثمة رئيسة للخدم في بيوت العلية تسمى «قهرمانة» . يعمل تحت إمرتها الخادومات والطباخات والحاضنات ، وكان يطلق على الأخيرات اسم « الرشيدات » ، ويتوزع على بيت متسع ، كثير الحجرات ممتدة الحديقة ، وفي غيبة الأب تسمع المناقشات الصاخبة بين هذا العديد من البشر ، حتى حين يلعب الأطفال في الأبهاء أو الحديقة ، ولكن ما إن يصل رب البيت حتى يسترد المنزل هدوءه كاملاً ، هدوء يحرقه من حين لآخر نخطو الخدم الأصم ، أو وشوشة النوافير الناعمة ، أو هديل الحمام الغرد في الساحة المحيطة المخصصة للراحة ، أو الاسترخاء ، أو الممتعة . والجانب المخصص للأسرة لا تكاد تقع عليه عين الغريب ، فقاعات الزوج لأصدقائه ،

أو للعمل ، أو مع الباعة ، ، تتم في غرفة توجد عند مدخل البيت ،  
ومخصصة لمثل هذه المقابلات . والبيت مملكة تكاد تكون مستقلة ،  
وتبلغه أخبار الشارع ، وما يجري في البيوت الأخرى ، من فضائح وجديد  
في الأزياء ، موشاة بالزيادة والأكاذيب .

وتجرى الحياة في البيت رتيبة ، يوماً وراء آخر ، عمل وتنظيف ،  
وتهية كل وسائل الراحة لربه أولاً ، ولمن فيه أخيراً وكلهم سعداء ،  
لا أحد يشكو سوء الحظ ، ومن حين لآخر تقوم الزوجة بعمل ما يدفع  
الحسد أو الشباطين عن البيت . وقل ما تخرج الأسرة للزهة ، فلديها بستانها  
وكثير ما تخرج لزيارة أصدقائها ، وتخرج إلى الهواء الطلق في الأعياد  
الدينية والقومية ، وتقوم بزيارة أسبوعية للمقابر للصلاة على أرواح  
الذاهبين من الأهل ، وتذهب مرة أو مرتين إلى الحمام ، إذا لم يكن  
لديها حمام خاص ، وهي فرصة ذهبية للسيدات لكي يلتقين ، ويتبادلن  
آخر الإشاعات ، سوياً وبعبداً عن أية عين ورقابة .

وتتركز الأحداث الهامة في حياة الأسرة في ثلاثة : الزواج والإنجاب  
والموت . وفي الحدث الأول يكون الاحتفال كبيراً وبهيجاً في بيت العروس ،  
ويتكاف نفقات طائلة ، مما أدى إلى حملة قوية من الفقهاء على ذلك  
النمط ، وتشغل حفلات الزواج أسبوعاً كاملاً ، وترك لنا ابن حزم في كتابه  
« الطوق » وصفاً لحفلة كهذه جرت في الشارع ، وهو منظر يسعد المارة ،  
والفارغين من العمل وما كان أكثرهم في قرطبة . وتتم عملية الوضع على  
يد القابلة ، وتستدعى الطيبة في الحالات المستعصية ، وكانت تتقاضى  
أجراً عالياً . وتقوم على الطفل حاضنة خاصة في بيت أبيه ، إذا كان  
مقتدراً ، وفي حالات كثيرة يعهد به إلى قروية تحمله إلى الريف ، ويبقى  
معها حتى الفطام ، ووصلتنا عقود تحدد الشروط الواجب توفرها  
في الحاضنة وأهل الطفل ، فكان على الأب أن يدفع للحاضنة راتباً شهرياً  
وملابس ، وعليها إرضاع الطفل ونظافته جسماً وملبساً ، وتقام « العقيقة »

في اليوم السابع ، وتأخذ شكلاً يرتبط بمستوى الأسرة الاقتصادية ، حينئذ يحلق شعره للمرة الأولى ، ويأخذ الطفل اسمه ، ويستخدم مصغراً تدليلاً له ، وتأصلت هذه العادة في الأندلس ، وتخلفت بعد جلاء الإسلام والمسلمين عنه ، فهي شائعة حتى يومنا هذا ، وغالباً ما يطلق عليه اسم جده ، أو الجد الأعلى للأسرة ، أو اسم أشهر شخصية فيها . وفي هذا اليوم تعطى له كنيته أيضاً ، وحين يكبر سوف ينادى بها في الأمرة أكثر مما ينادى باسمه . ويطلق على الفتاة اسم إحدى شهرات الإسلام في أيامه الأولى ، وكنية أيضاً تسمى بها ، مثل : أم كلثوم ، أم الحكم ، وهكذا . ومنذ القرن العاشر بدأت قرطبة تتخلى عن هذا التقليد المشرقي لتعطي أسماء وصفية للفتيات الحرائر ، وكانت قبل وقتاً على الجوارى فأصبح لدينا أسماء مستمدة من الزهور ، ونعرف للمنصور بن أبي عامر ثلاث بنات كانت أسماءهن : بهار ، ونرجس وبنفسج .

وكانت حفلات الإعذار للذكور كبيرة ، والعادة أن يجمع المقتدر اقتصادياً عدداً من الأطفال من المستوى الاجتماعي لطفله ، أودونه ، لكي يعذروا معه ، وتتم الحفلة للجميع ، ويتولى نفقاتها بمفرده . وعلى العكس ، كان تشييع الموتى ودفنهم يتم في ظروف بسيطة ، وطبقاً لأحكام المذهب المالكي ، ويدفن في أقرب مقبرة إلى بيته ، وبعضهم كان يعد شاهداً يوضع على قبره ، لايضاف إليه غير تاريخ الوفاة واسم المتوفى ، ويتضمن بعض الآيات القرآنية المناسبة ، ودعوة لمن يقرأه أن يطلب الرحمة لصاحبه وأن يقرأ الفاتحة لروحه ، يرضم متحف قرطبة الآن عدداً من هذه الشوهد .

ولا يتميز البيت ، عادة ، في خارجه عن بقية البيوت حوله ، سواء أكان في شارع عام أم درب نافذ ، ولابيت باب بمفتاح من خشب غالباً ومن حديد قليلاً ، ويفتح في أسطوان ، أو سقيفة ، ومنها يمتد ممر ينتهي إلى صحن البيت ، وتوجد فية بئر وثمار وغطاة ، ونظراً لظله عليه

قاعتان كبيرتان ، ويحتوى البيت على مرفق ، ومطبخ متسع يؤدي إلى الصحن ، ويتكون البيت ، بعامة ، من دورين على الأقل . ولا يضم ، غالباً ، غير أسرة واحدة ، والفقراء جداً قد يضطرون إلى تأجير بعض غرفه ، أو يشاركون فيه أسراً أخرى ، وهو أمر نادر ، ويصيح موضع تندر وعتب وتعير من الجيران .

ومنازل الطبقة الوسطى متسعة ، وتبنى الأحياء المفضلة ، ويتوسطها صحن رحب ، يضم ما يشبه أن يكون حديقة صغيرة من الزهور والرياحين ، وأشجار الفواكه أحياناً ، وتمتد عبره قنوات لتوزيع المياه التي تستخرج من البئر ، على حين تمتد مجاز أخرى ، بعيدة عن الأولى ومغطاة ، تحمل المياه القادرة إلى مستودعها الذى يوجد فى منتصف الشارع .

وبيوت الطبقة العالية تفصل بينها جنان واسعة ، والممتد منها يسمى « حيرا » والجنان ، وهذه مشمرة ، ومثلها « المنيات » القائمة على ضفاف النهر الكبير .

وفى أى بيت توجد حجرة استقبال ، تضم أثاثاً يسهل نقاءه من غرفة إلى أخرى ، والأرض مغطاة بالحصر فحسب ، أو بالحصر وفوقها السجاد ، تبعاً لمستوى الأسرة ، وتغطى الجدران بأقمشة منصوجة من الصوف ، عليها مناظر جميلة ، وتسمى « الحائطى » ، وتحته ديوان قليل الارتفاع ، فوقه المراتب وعليها الوسائد معتمدة على الحائط ، محشوة قطناً ، ومزخرفة ظاهرها بالرسوم ، وفوق المراتب تتناثر المخدات المدورة ، والأرائك المتخذة من الجلد ، ويستخدمون المقاعد ذات الحشايا ، وتضم حجرة النوم سريراً عليه فراش مغطى ، والخفة محشوة صوفاً .

ويضم مطبخ كل بيت خزين أغذية ، من دقيق وزيت وعسل ، وفواكه جافة ، ولحوم مقددة ، وتحفظ أواني من الزجاج أو الفخار .

وتضاء البيوت بالشموع والقناديل ، وتستخدم الثريات في بيوت الأغنياء ، وتتم التدفئة في الشتاء عن طريق إجراء الماء الساخن ، عبر الحجرات ، في أنابيب من الفخار ، على حين يستخدم الآخرون المواقد العادية . أما في الصيف فيواجهون الحر برش الصحن جيداً بالماء ، وأكثر من مرة في اليوم .

وترك لنا الأندلسيون أكثر من كتب في الطبخ ، وتحدث عن مطابخ ثلاثة : أندلسي ، ومسيحي ، ويهودي . وطرائقه متعددة ومعقدة ، وتخضع المائدة لنظام صارم ، فلا بد أن يكون هناك تناسق بين الألوان التي تقدم . ويقوم على إعداد الطعام في بيوت الطبقة الراقية طبّاخون محترفون ، من السود غالباً ، وتزخر المائدة بألوان غامرة من الحلوى ، ما بين محشو بالزبد أو اللوز ، وشهر من بينها نوع من الفطير المحشو جبناً ، ويسمى « المجبنات » ، وكان للدينا وشائعا ، واحتل من الشعر الأندلسي مكانا ، وتختلف في الإسبانية إعدادا ومادة واسم . Almojabanas ، وبصفها ابن الأبار :

بنفسى مشجعات للصدور	لها سمتان من نار ونو
حوامل وهى أبكار عذارى	تزف على الأكف مع البكور
كبر د الطل حين تذاق طعماً	وفي أحشائها وهج الحرور
لها حالان بين فم وكف	إذا وافتك رائحة السفور
فتغرب كالأهله في حاة	وتطلع في يمين كاللبدور

وعلى المائدة يستخدمون المنزلق ، ويشربون الماء معطرا بالزهر أو اللورد ، ويأكلون الفواكه كثيرا من عنب ورمان ، وبطيخ وتفتح .

وفيما يتصل بالملابس كثير منها مشترك بين الرجال والنساء ، فكلهم يرتدى فوق البدن قميصاً من الصوف أو القطن ، وسراويل ( دخلت اللغة

الإسبانية في صورة ( Zaraguelles ) طويلة وضيقة ، ولا تتجاوز الركبة ، ويمكن أن تحمل الجلابة البيضاء على القميص ، وهو مزخرف إلى حد كبير . وتضاف « المحشاة » في الشتاء على هذه الملابس الخفيفة ، للرجال والنساء ، وهي فرو ثقيل يتخذ من جلد النعاج أو الأرانب ، ويلبس في شكل جلباب . والأطفال من الجنسين ملابسهم على هذا النحو ، ويضعون جوارب في أقدامهم ، وتتخذ من الصوف ، وتصل إلى الركبة ، ويأتي فوقها الخذاء ، خفًا في الشتاء ، وصندلاً في الصيف ، ويسمى هذا في الأندلس « القرق » ، ودخلت الكلمة إلى الإسبانية في صورة Alcorque . ويميز غطاء الرأس الرجل من المرأة ، فالأول يغطي رأسه بكوفية أو شاشية ، على حين تضع المرأة على وجهها خماراً .

ويرتدى أبناء الطبقة العالية الملابس الحريرية المطرزة ، وتصنع من الحرير الطبيعي ، وبلغ نسجه حداً عالياً من الإتقان ، نافست به قرطبة بقية بلاد العالم ، ومنه تصنع ملابس الحفلات ، والجلاليل الراقية ، ذات النسج الرقيق الشفاف . وبدأوا يستخدمون القلانس والطوائى ، إلى جانب الطرطور ، وسوف يقلدهم في صنعهم هذا بلاط مملكة ليون المسيحية في الشمال . وثمة ملابس أخرى ذات ترف ووجاهة ، ترتديها الطبقة العالية ، وأبرزها الحبة ، وانتقلت إلى الإسبانية في صورة Algupa ، والدراعة ، وتخلفت في الإسبانية adorra ، والمحشية Almexias . وسوف يتلاشى لباس الرأس تدريجاً ، لتصبح العمامة ، ابتداء من القرن الحادى عشر ، وقفاً على رجال الدين من العلماء والقضاة ، وبعض هؤلاء ردها لباساً . وكان البرنس ، وتخلف في الإسبانية في صورة Albornoaz ، في هذه الفترة ، وحتى مجيء المرابطين ، وقفاً على نساء الطبقة العالية عندما يسافرن على ظهور الخيل أو البغال . وكان زرباب المغنى ، حين جاء الأندلس ، في الربع الأول من القرن التاسع الميلادى ، قد أحدث ثورة في عالم الأزياء ، إلى جانب الموسيقى ، ومراسم تناول الطعام ، وطريقة تصفيف الشعر للرجال والنساء ، فقد جعل لكل فصل من السنة ملابسه الخاصة به ، طبقاً

لمكانه من الحر أو البرد . فالملابس البيضاء للصيف ، وجعل له بدءاً عيد « العنصرة » في الأندلس ، ويحى في الأيام الأولى من شهر يونيو ، ويمتد حتى أول أكتوبر ، والملابس الملونة لبقية العام ، وجعل منها للربيع « جباب الخز والملاحم والمحزر والدراريح التي لا بطائن لها ، لقربها من لطف ثياب البيض الظواهر ، التي يشتقلون إليها لحفتها وشبهها بالمحاشي ثياب العامة » ، وأن يلبسوا في الخريف « المحاشي المروية . والياب المصمتة وما شاكلها من خفاف الثياب الماونة ذات الحشو ، والبطائن الكثيفة ، وذلك عند قرص البرد في الغدوات » ، فإذا قوى البرد ودخل الشتاء « ينتقلون إلى أنخن منها من الملوونات . ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف الفراء » . وكان اللون الأبيض شعار الحزن عند بني أمة الأندلسيين ، فلما اتخذ ملابساً للصيف تراجعت عنه الناس إلى السواد .

#### • الحفلات والأعياد والملاهي :

وتحتفل الأسر كلها بالأعياد الدينية . عيدي الفطر والأضحى ، وكان الصوم شائعاً . إلا أولئك الذين لديهم رخص دينية . وإذا جاء رمضان في الصيف ، وقرطبة حارة ، ترك أثره في الحياة العامة للناس ، فهم يصحون من نومهم متأخرين ، ويخادون إلى الراحة ساعة الظهيرة حين يشتد الحر ، فإذا غربت الشمس ، وأفطر الناس ، عادت الحياة إلى الشارع بكل صخبها : تفتح المتاجر ، وتظل كذلك حتى ساعة متأخرة من الليل ، ويبدأ الباعة المتجولون من حملة المشروبات الباردة وغيرهم في الطواف . وتضاء المساجد ليلة الإسراء على نحو خاص ، وتمتلئ بالعباد الخاشعين . ومعها يتهبأ الناس للعيد ، وللعودة إلى الحياة العادية .

وفي عيد الأضحى يحرص الناس ، كل الناس : أغنياء وفقراء ، على التضحية بكبش ، وكسوة الأولاد بملابس جديدة . وتم صلاة العيد في الهواء الطلق ، ويوم المصلين قاضي الجمعة . أو صاحب الصلاة ،

وتتضمن الرجال وكثيراً من النساء ، وبعدها يعود الجميع إلى المدينة  
فتبادل التهانى .

ولم تعرف قرطبة حتى نهاية القرن العاشر الاحتفال بالمولد النبوى ،  
ذلك شئء سوف يحىء فيما بعد ، ولكنها كانت تحتفل ، وعلى نحو مهينج ،  
بعيدى « النيروز » و « المهرجان » ، ويشاركهم فى هذا مواطنوهم المستعربون .  
و « النيروز » فى أصله اليوم الأول من العام الشمسى فى فارس ، ومنذ اتخذته  
العالم الإسلامى عيداً دخلته تغييرات كثيرة ، وكان يحتفل به فى الربيع ، فى اليوم  
المعتدل منه ، دون أن يرتبط ذلك بأول العام الجديد . وليس فيما بين أيدينا  
من مصادر ما يحدد تاريخ هذا اليوم فى الأندلس . أما المهرجان ، ويطلق  
عليه عيد الغنصرة أيضاً ، فيقع فيما بين اليوم السادس واليوم الرابع والعشرين  
من شهر يونية . وكانت الأعياد ، وبخاصة عند العامة ، أمراً مرغوباً لكسر  
رتابة الحياة اليومية .

وتزدحم الشوارع ، ويجد فيها الكسالى والمتبطلون فرصتهم لمتابعة  
السائرين ، وتأمل ما هو جديد ، على حين يحاول الباعة فى الشوارع القريبة  
من القيصرية ومن « السقاطين » ، أن يجذبوا إليهم الزبائن ، بأصواتهم العالية ،  
ونداءاتهم المسجوعة ، لحضور المزاد . وتلتقى فى الميادين العامة بأهل المدينة ،  
والقادمين إليها من الريف للشراء أو البيع ، أو لأشياء أخرى ، ياتفون حول  
« مهرج » تخفى فى شكل قروى ، وراح يقلد حركاته البسيطة والساذجة ، حين  
يواجه المدينة للمرة الأولى . وهناك من يعرضون ألعابهم على أنغام الموسيقى ،  
و « البهلوانات » ، والشعراء الجوالون ، ومن يعرضون خيال الظل ، ومن  
يقرأون الطالع ، ومن يقصون الحكايات ، أو التواريخ ، أو شيئاً من السنة ،  
بصوت مرتفع . ويختلط ذلك مع أصوات السقاطين ، وبائعى البخور  
وموزعيه ، واللصوص ، والقوادات . وقد يضطرب الأمن حين يقوم شجار بين  
اثنين ، أو حين يكتشف واحد سرقة حافظة نقوده ، ولكن ظهور واحد من رجال  
الشرطة كاف لكى يعود الهدوء ويتوزع الجميع .

وفي يوم الجمعة حيث تخرج النساء إلى المقابر ، وفي نزهاتهن الأسبوعية ، فإن الطريق إليها وإلى الحدائق يكون غاصاً بأناس من الجنسين ، وكلها تعبر القنطرة إلى ربض شقنדה ، ويلبس الفتيان خير ما عندهم ، ويبحثون عن المغامرات ، ويداعبون الفتيات الوحيدات بالكلمات الحلوة ، أمر يشبه ما عليه حال قرطبة اليوم . وفي هذا المكان التقى الشاعر يوسف الرمادى بصاحبه خلوة ، وجرى بينهما حوار أورد لنا ابن حزم في كتابه « الطوق » جانباً منه . ومع غياب الشمس يعود الجميع إلى بيوتهم ، فإذا أقبل الليل لا يسمع في الشارع غير وقع أحذية الجنود الثقيلة ، وخطى المتخلفين والساهرين .

وكان الفضاء المتسع خارج المدينة معداً . إلى جانب عرض المحكوم عليهم بالصواب ، لاستعراض الجيوش في المناسبات العامة ، كقدوم السفير ، أو سفر الخليفة على رأس حملة ، وتقام هذه في الطريق الموصلة إلى مدينة الزهراء ، وكان ظهور الفرسان بملابسهم الزاهية ، على خيولهم الأصيلية ، في خوذاتهم القوية ، تنعكس عليها أشعة الشمس فتعطي ألف لون ولون ، يثير في الناس الحماسة والبهجة والاطمئنان .

وكان من المتع العالية في مجتمع قرطبة صيد الطيور والأرانب الجبلية ، ومن المهارة أن تصطادها قبل أن تنفق ليتمكن الإفادة منها ، فتدبح ثانية بطريقة شرعية ، وتباع في المدينة . ويعد الصيد هواية محبة للأمير وحاشيته والخاصة ، ويتحدث المؤرخون عن رحلات صيد طويلة على ظهور الخيل ، في الجبال والوديان المحيطة بقرطبة ، ويتم الصيد بالصقور ، وكانت تربيتها وبيعها تجارة رابحة ، ويقوم على أمرها في قصر الخلافة فتى يعنى بها ، يدعى « صاحب البزرة » ، وتركت المهنة أثرها واضحاً في اللغة الإسبانية ، ففي جنوب البرتغال قرية تحمل اسم « البزرة Alvayazere » ، وأشهر حتى في غرناطة ، وكان موطن المسلمين في آخر أيامهم بعد سقوط دولة الإسلام ، يدعى « البيازين Albaicin » .

وكان هناك الصيد بالكلاب في المناطق الوعرة المخضرة ، ذات الأشجار المتنوعة والجبال العالية ، وبخاصة تحت سفح الجبل ، حيث تعقد حفلات صيد كبرى ، تصاد فيها الخنازير البرية والغزلان والأيول ، يطلقون عليها فصائل من الكلاب السريعة تثيرها ، وتدفع بها حيث تنتظرها الصيادون . ويمضى العامل القرطبي ، أحيانا ، أياما متصلة في الصيد ، وهو أمر كان موضع نقد العامة واعتراضهم .

ومن الألعاب المحببة للخاصة أيضا لعبة الصولجان ، وهي قرية من لعبة « البولو » الحديثة والرد ، وسباق الخيل ، والشطرنج وجاء به زرياب من المشرق ، ولقى رواجاً كبيراً بين أهل قرطبة ، وأصبح من مظاهر الرقي الثقافي . وكان القمار رغم تحريمه معروفاً ، ومعلوماتنا عنه قليلة للغاية بوصفه عملاً محرماً ، ونعرف من أوامر المنع أن لعبة الرد كانت شائعة ، وكان النساء يلعبن القرق .

#### • مباحج الحضارة وأمراضها :

وفي هذا القرن بدأت قرطبة تعاني الكثير من أمراض الحضارة ، ويكفى أن نلقى نظرة على كتاب « الطوق » لنجد ابن حزم يقص علينا الكثير مما يجري دون حرج أو إنكار ، ودون أن يلاحق أصحاب الأحداث بالسب واللعن ، كما هي عادة الفقهاء ، يذكر ما عرف في بساطة ، كما كان شيئا عاديا ، لا مهرب منه ولا حيلة فيه . لقد فاضت رغبات الناس الجنسية ، وتجاوزت ما هو مقبول عرفاً وعادة ، ولم يعد حب المرأة ، رغم شيوخه ويسره ، كافياً وحده لبوقف اندفاعهم ، من أي وسط كانوا إلى أي طبقة انتموا ، عن اتجاه آخر تنحرف فيه العاطفة عن مسارها الطبيعي ، أعنى الشلوذ الجنسي .

كان الحديث عن الغلمان والتغـ بمجالهم شائعاً يتعدى الشعراء إلى الحياة ،

ويعرض له المؤرخون دون إنكار أو تشنيع ، ولست أعتقد أن كل الذين تحدثوا عن الغلمان كانوا يمارسون هذه العادة الشاذة ، ولو أنه ، في الوقت نفسه ، لا يمكن أن نقلل من شيوع الظاهرة وخطورتها . وتخلو المصادر من إشارات إلى أحداث وقعت من عامة الناس ، وهو أمر طبيعي ، فالتاريخ الوسيط قلما ما يتوقف أمام هذا القطاع من المجتمع ، وعلى التقبض ، يقدم لنا قائمة طويلة بشخصيات هامة في شتى مجالات الحياة في قرطبة ، أورد لنا ابن حزم في كتابه « الطوق » مثلاً صارخاً لها : قصة أحمد بن كليب ، وسنعرض لها في دراسة خاصة ، وهي قصة تمس شخصية هامة ، أسرياً وثقافياً واجتماعياً ، في المجتمع القرطبي ، وشاعت حتى بلغت المشرق فأوردها ياقوت الحموي ، ( ت ٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م ) ، في كتابه « إرشاد الأريب » ، وجاء بها في تفصيلات وافية داود الأنطاكي ، ( ت ١٠٠٧ هـ - ١٥٩٩ م ) في كتابه : « تزيين الأسواق بتفضيل أشواق العشاق » . وكان ضحايا هذه الفعلة الشنيعة ، عادة ، من الحصيان وصغار الموالى ، في قصور الأمراء وبيوت الأشراف ، ولم تكن قرطبة أيضاً تخلو من فتيان مخشّين ، يقدمون خدماتهم لأفضل طالب ، وأعطانا ابن عبدون وصفاً للممخنت في رسالته عن الحسبة بأنه « الذي يقاد النساء في ملابسه وصوته » .

وعرفت المدينة بيوت « الخطوة » ، وزبائنها من دهماء المدينة ، ومن الريفيين الذين يهبطون العاصمة للبيع أو الشراء أو لقضايا أخرى ، وتسكن العاملات فيها الحانات ، ويدفعن ضرائب للدولة ، وتسمى الواحدة منهن في لهجة الأندلس « خراجية » ، ويطلق على بيوت الدعارة نفسها « دار الخراج » ويسمى ابن عذارى « دار البنات » . ولاتكاد المصادر تشير إلى شيء يتصل بانحراف العاطنة عند المرأة ، وممارستها الحب مع امرأة أخرى ، وقياساً يمكن أن نتصور أن هذا حدث ، وكتب الفقه الأندلسي المفصلة تشير إليه ، وتراه محرماً ، ولا نعرّله على صدق في دواوين الشعراء ، أو كتب المؤرخين ، باستثناء أبيات من الشعر أنشدتها أبو الصات ، أمية عبدالعزيز الداني ، المتوفى ( م ٤ - ابن حزم )

عام ٥٢٩ هـ - ١١٣٤ م ، وفيها عرض للمساحقة مباشرة ، وكان الصمت فيما يدولى تحرجاً وليس جهلاً ، لأن العماد الأصفهاني في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » أتى بهذه الأبيات في القسم الخاص بالمغرب ، وحين طبع للمرة الأولى في تونس في أوائل هذا القرن ، حذف منه الطابعون هذه الأبيات :

وكان الحصول على النبيذ والشراب حتى السكر ميسوراً ، ومنذ القرن التاسع الميلادي أصبح ربح شقندة يضم سوقاً نافقة للنبيذ ، يستأجرها واحد من المستعربين ، وقد أغلق مدة ثم أعيد فتحه ، لما يدره على الخزنة العامة من دخل ، وكان يمد الخانات المسموح بها ، والتي تعمل في خفاء ، بما تحتاج إليه من أنواعه المختلفة ، ويتردد على الخانات المستعربون المسيحيون والمسلمون غير الطيبين ، ونفهم من إشارات الشعراء أن ثمة خانات كانت تقوم على مقربة من الأديرة المسيحية خارج المدينة ، يقدم فيها الطعام والنبيذ أيضاً . ومن الشائع أن يتردد على هذه الخانات المخشون ، والنساء من ذوات السمعة السيئة ، يقضين الليل مع نشوة الكأس وفي حمياها ، وكان ذلك موضع هجوم دائم من الفقهاء ، وملاحقة مستمرة من رجال الشرطة ، وظل الصراع عنيفاً بين سلطان هؤلاء وذكاء الشاربين ويتعرض الشارب للمتابعة والعقاب حين يكون الأمر علانية ، ويمس الأخلاق العامة ، ويعذر من يضبط سكراناً بالحد الشرعي المعروف ، غير أن المتابعة لا تمتد لما يجري في البيوت ، بيوت العامة والخاصة على السواء ، فهي بمنأى عن الملاحقة والرقابة ، وكان المقتدرون في قصورهم ، أو بيوتهم الريفية في ضواحي العاصمة ، يستطيعون بلاخوف ، ودون حد ، أن يمتصوا مع أهوائهم شراباً ونساء حتى الثمالة . ولعل جانباً من المجتمع ، إلى جانب ضرورات البيئة ، كان يجد مندوحة فيما شهر عن أبي حنيفة النعمان أنه أباح شرب النبيذ ، وأوجز ابن عبد ربه صاحب « العقد » هذا الاتجاه في بيت من الشعر :

دبنا ، في السماع ، دين مديني ، وفي شربنا الشراب عراقي

وفى مجتمع لم يعرف المسرح كان الرقص والموسيقى والغناء من أكثر مباحج الحياة شيوعاً فى قرطبة القرن العاشر، وإذا صدقنا الشعراء ، أوحى جانباً مما يقولون ، لم تكن هناك حفلة ولا جمع ولا مهرجان لا يضم هذه الألوان الثلاثة . وترك لنا ابن حزم فى « الطوق » ، وابن بسام فى كتابه « الذخيرة » وصفاً تفصيلياً شائقاً لبعض الحفلات التى كانت تقام فى بيوت الخاءة ، فى قرطبة وغيرها ، حفلات مايكاد المدعوون فيها يتنهبون من تناول الطعام على أنغام الموسيقى حتى يبدأ الغناء والرقص ، والعازفون من الرجال والنساء ، ولكن الفرق الجيدة الممتازة لم يكن يتقدم على نفقاتها غير كبار الموسرين . وشهرت من بين أنواع الرقص العديدة رقصة يرتدى فيها الراقصات ملابس الغامان ، ويمتطين خيولاً صغيرة من خشب ، معلقة بأطرافها أقبية ، وطبقاً لنظام معين تأخذ الرقصة شكل معركة حقيقية ، يكرون ويفرون ويحاورن . ولم يكن الأمراء يترددون ، أحياناً ، فى حضور حفلات أكثر بساطة : مجرد راقصة بالصاجات ، تتلوى على أنغام بوق ، ويطلق على هذه الحفلات اسم « سمر » ، وبقي لها الاسم حتى أيامنا هذه ، وأخذ صورة Sambra ، ويحمله اليوم أعرق وأرقى مكان للرقص التقليدى فى مدريد . واشتهر من بين الراقصات أولئك القادمات من مدينة قادس ، ولراقصاتها شهرة تاريخية عريقة ، ولهن من قديم قدرة فائقة على التشكل والإثارة . وقد أشار إلين فى قصائده الشاعر الرقيق ، الماجن والأنيق ، اللاتينى اللغة ، الإسبانى الموطن ، مرسىال Marcial ، المتوفى عام ١٠٤ للميلاد ، ونعرف منه أن هؤلاء الراقصات كن موضع إعجاب روماء عاصمة الإمبراطورية على امتداد القرن الأول الميلادى ، وأن قادس كانت تدفع بأعداد منهن على الدوام إلى روماء ، فيلقين الحفاوة والحب ، وأصبحت رقصانهن موطن التقدير والإعجاب ، رقصات تحرك نوازع الرغبة ، وتفضل أقوى الرجال عفة فى روما . وتحدث عنهن أيضاً الشاعر اللاتينى جوفينال Juvenal ، المتوفى

قريباً من عام ١٢٥ ميلادية ، ووقف طويلاً عند جمال غنائهم ، وإثارة  
رقصاتهم . وفي العصر الذي نعرض له ، شهرت مدينة أبدة Ubida ، في  
كورة شاطبة ، على مقربة من قرطبة ، « بالرواقص المشهورات بحسن  
الانطباع والصنعة ، فإنهن أحذق خلق الله » .

● الثقافة :

بامتثناء حالات نادرة يكون فيها الأب دون أن ينتسب في أية طبقة  
اجتماعية ، وفي ظروف بائسة للغاية ، فإن الأب يقدم لأطفاله ، بنين وبنات ،  
تعلماً ابتدائياً منذ صغرهم ، إذا كان ميسوراً يأتي لهم بالمدرس إلى البيت ،  
وإلا أرسل بهم إلى « الكتاب » الأقرب إلى مسكنه ، وتخضع هذه المدارس  
الابتدائية نظرياً لإشراف « المحتسب » ، وقل ما كان يزورها فعلاً . ويجمع  
المعلم ، أو المؤدب ، عدداً محدوداً من الأطفال في مكان صغير ، مفتوح على  
الشارع ، يطلق عليه اسم « المصرية » ، يدرس لهم بأجر برنامجاً معروفاً ، غير  
مكتوب ، تحدده التقاليد ، ويعقد محترم منه ومن ولي الطفل . وفي هذه المرحلة  
يحفظ الطفل جانباً من القرآن الكريم ، ويحفظ قصائد من الشعر ، ومقتطفات  
من النثر ، ويدرس شيئاً من النحو ، وقائلاً من الحساب ، والكتابة والقراءة  
على الطريقة « الجمالية » ، ويبدو أنها لم تكن مقبولة من الكافة ، لأن ابن  
خلدون فيما بعد سوف يبسط آراء المعارضين لها ويفندها . ويدفع الأجر للمعلم ،  
في كتابه أو جاء إلى البيت ، طبقاً للعقد ، ويكون سنوياً ، ويتضمن المادة  
أو المواد المطلوب تعليمها ، وشكل التعليم ، والزمن المخصص لها ، وشروط  
دفع النفقات ، من مال يدفع آخر العام ، أو مواد غذائية من دقيق وزيت تدفع  
شهرياً ، ومن العادات المتأصلة أن تقدم الهدايا للمعلم في عيدي الأضحى  
والفطر ، وأخرى أجل وأكبر حين يختم الطفل القرآن . ويتردد على بيوت القادرين ،  
غالباً ، أكثر من معلم لتربية أطفالهم . وأحياناً يقع الاتفاق على إكمال العمل ،  
يقوم المعلم بتعليم الصبي ، مقابل أجر معلوم ، مادة معينة ، أو مواد متعددة ،  
وفي هذه الحالة يلزم ولي الأمر أن يقدم تقريراً وافياً عن عقلية الصبي  
وقدراته الذهنية .

ورغم أن المعلم أهلى ، كانت المدارس المجانية كثيرة ، ينفق عليها من ريع الحوانيت والعقارات والأراضى التى أوقفها الحكيم الثانى ، وآخرون غيره . وأسهم الشعب بدوره ، بجمع الهبات ، ويدعم المدارس ، بعيداً عن رقابة الدولة وتدخلها فى النظم أو المناهج ، ما دامت لا تستهدف نشر أفكار ضارة بأمن المجتمع وهدوئه . وقد تحققت فى قرطبة المثل الأعلى الذى نطمح إليه ، أن يكون التعليم الابتدائى مجاناً وإلزامياً ، مجاناً لأن العاجزين لم يكونوا يحرمون منه لعجزهم ، وإلزامياً بضغط من المجتمع نفسه ، دون حاجة إلى أمر يصدر أو قانون يشرع ، لأن التجار وأصحاب الحرف والمصانع يرفضون أن يقبلوا فى حوانيتهم عمالاً لا يعرفون القراءة والكتابة حتى ولو كانت مهمتهم لا تحتاج إليها . فإذا بلغ الطفل سن الحلم انتقل إلى مصنع أو متجر ليعمل ، أو يواصل تعليمه العالى إذا سمحت له ظروفه بذلك ٥

ونعنى بالتعليم العالى ما تجاوز المواد التى تدرس فى التعليم الابتدائى ، ولقد يكون فى وصفنا له « بالعالى » تجوز ، لأننا بإزاء مرحلة ليست لها خطط رسمية تحدد المناهج أو الوسائل ، وإنما يحضر الطالب المواد التى تعجبه ، على الأستاذ الذى يطمئن إليه ، ويقرأ فى الكتاب الذى يراه نافعاً ومفيداً ، ويتعمق فى درسه بالقدر الذى يسمح له به ذكاؤه ورغبته وإمكاناته ، ومن الصعوبة بمكان أن نحدد على نحو دقيق : متى يبدأ التعليم العالى ومتى ينتهى ، وليس من الممكن كذلك تحديد المادة ، أو المواد ، التى يبدأ طلاب التعليم بدراستها : القرآن ، أو الرياضيات ، أو الطب ، أو اللغة ، أو الأدب ، فقد كان للطلاب أحياناً يجمعون بين أكثر من مادة فى الوقت نفسه ، ولكن يمكن القول أن الطلاب كانوا يبدأون دراسة النحو والتعمق فيه ، ليعينهم على فهم بقية المواد الأخرى ، وتليه دراسة المواد الدينية ، من فقه وحديث وتفسير وأصول .

وكان هناك الطلاب المنتسبون ، إذا صح لنا أن نستخدم هذا المصطلح العصرى جداً ، وهم الذين لا تمكنهم ظروفهم من حضور الدرس ، فيتمددون على الكتاب ، وإذا وثقوا من أنفسهم تقدموا للأستاذ ليجيزهم . ويعتمد الطلاب على ذواكرهم كثيراً ، وكان فيهم من يحفظ آلاف القصائد من

الشعر، ومن يحفظ كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني كاملاً ، وفيه تتعدد الروايات وتتشابه ولا رابط بينها ، ويتنوع محتواه من شعرونثر وحكايات ، ومن يحفظ القرآن لا يغيب عن ذاكرته حرف واحد منه ، ومن يحفظ موطأ مالك ، أو مدونة سحنون ، أو ديوان المتنبي ، أو كتاب « الكامل » للمبرد ، نعم ، وكان في الأندلس من يحفظ هذا دون حاجة إلى أن يكون عالماً أو متخصصاً ، ويقص علينا ابن بشكوال أنه كان في سوق قرطبة باعة عنب وتين يستطيع الواحد منهم أن يقرأ من الذاكرة أمامك كتاب « معاني القرآن » لأبي جعفر النحاس . أما أولئك الذين لا توانيتهم ذواكرهم فيشعرون بخيبة أمل مريرة ، ويحاولون ما استطاعوا أن يزيدها حدة بالأدوية ، وأشهر هذه شراب « البلاذر » ، ويتخذ من ثمار شجرة هندية ، يصفه الأطباء ، ويتناوله القادرون ، ليجعل ذواكرهم أشد حدة ، وأصفى صفحة . وفيما بعد أسرفوا في الحفظ ، وأقلوا من التفكير ، وكان ذلك ، فيما لحظ ابن خلدون ، وراء تدهور الثقافة والعلم في آخريات أيام الأندلس ، لأن المعرفة لا تتقدم بالحفاظ عايتها ، وإنما بتعهدا إتماما وتجديدا .

وكان العمل بالتعليم العالي مناط تقدير المجتمع واحترامه ، ويرفع العاملين فيه إلى مستوى كبار القوم ، ممن إجماعهم الجاه ورائة ، أساتذته في مستوى بقية الوظائف الكبرى عسكرية أو مدنية ، كالولاية والقضاة والقادة . ولكنها مهنة تميزت بأنها مفتوحة الأبواب أمام كل ذكي ، وكان يعمل فيها من ينسبون إلى طبقة الخاصة حباً في العلم ، وطلب المزيد من الجاه ، والقادمون من تحت ، يجدهون فيها الأمن والحماية والطريق إلى الشهرة . وعادة تلتقط الدولة خيرة الأسانذة وترشحهم للمناصب العالية ، جلباً لرضى العامة ، وكسباً لثقتها ، فلم تكن هناك أحزاب ولا صحافة ولا مجامع عامية ولا برلمان يجمع فيها الناس ، وتظهر الكفاءات . ومن جانب آخر ، لم يكن لدى الأدباء ، وكبار الكتب . في وقت لم تكن عرفت فيه الطباعة ، من وسيلة لنشر آرائهم وأفكارهم غير أن يجسوا لهم حقة في المسجد الجامع ، وهي دروس لم تكن تجذب الطلاب والسماع محسب . وإنما كانت تنجس إليها صفوة المجتمع القرطبي . ويقص علينا

أحمد تلاميذ أبي وهب عبد الأعلى ، يقول : « كان أستاذي يقيم قرييأمن مقبرة قريش في قرطبة ، في بستان له يقوم هو نفسه على غرسه ، وذات يوم بعد أن قدم طعام الغداء لتلاميذه ، جاء من يطلب الإذن بالدخول : وكان القادم الوزير هاشم بن عبد العزيز ، وأقرب الناس إلى الأمير ، وقد رحب به الأستاذ ، وعندما دخل وجدنا نتناول خضراً مطبوخة ، وهى مما غرس فى الحديقة ، وقد ارتباك صاحب البيت قليلا قبل أن يدعوهُ ، خشية أن يكون الطعام دونه ، ولكن هاشما بادره : ألا تدعوني لمشاركتهم ، أو تخاف أن آتى على المائدة بأجمعها ؟ ، فقال : هى دونك ! ، فرد : ولماذا ، فشمر عن ساعده ، واقتحم المائدة معنا ، وبعده انتحى به جانبا ، فاستشاره بعض القضايا الفقهية وتلقى رأيه ، وعندما خرج هممت بالوقوف تحية ، ولكن الأستاذ أشار إلى فى قسوة أن أجلس ، وبعد أن ودعه عاد فعتب علينا فى شدة أننا أسرفنا فى الأدب والمجاملة ، ولم نكن عاديين . »

وكانت هناك شروط معينة يجب توافرها فى الأستاذ ، أولها العلم ، ويحرص الأستاذ على أن يحصله بكل جهد ممكن له : يذهب إلى المشرق ليدرس هناك ، وكان تعبير « وله رحلة » يعادل فى لغتنا الحديثة « عائد من بعثة » ، وموضع زهو من صاحبه ، وتقدير من المجتمع ، ونلتقى به وصفاً لعدد من العلماء الكبار ، وأن يختلف إلى مجالس كبار العلماء قرطبة ، والقادمين من المشرق بخاصة ، وأن يحرص على اقتناء ، أو على الأقل دراسة ، ما يؤلف من الكتب لحظة صدورها . وحين استقامت الحياة الثقافية ، وتكونت شخصية الأندلس ، وأحس بذاته ، استغنى عن الرحلة ، وعن الأستاذ الوافد ، بل أقسم عالم من إشبيلية أن يذهب إلى القاهرة ، وأن يجلس فى صحن الأزهر ، وأن يدرس « الكتاب » لسيبويه ، ليثبت أن الأندلسيين لم يعودوا دون المشاركة تمكنا من العلم ، واستيعابا له .

والصفة الثانية التقوى ، والعالم غير التقى لن يجد طلاباً يجلسون إليه ويتناقون العلم منه ، وكلما كان الأستاذ مالئى المذهب كان إقبال الطلاب عليه أشد . وكثيرون من الأندلسيين ذهبوا إلى المشرق ، ورأوا مذاهب فقهية أخرى ، تحمسوا لها ، وعادوا على أمل أن يبشروا بها ، فلما عرف الطلاب منهم هذا انصرفوا عنهم واحداً وراء آخر ، فبقوا وحدهم لا يجدون من يستمع إليهم .

وإلى جانب العلم والتقوى ثمة صفات أخرى يود الناس والطلاب أن تكون مما يتحلى به العالم ، منها الصدق ، واستقامة العادات . وعليه أن يكون فى درسه لطيفاً واجتماعياً ، سخيّاً فى الشرح والتعليق والتفسير ، لا يحجب عن طلابه شيئاً ، وأن يكون منهم بمنزلة الأب أو الأخ الأكبر ، وكان الأساتذة كذلك بعامه ، فتميزت علاقاتهم بطلابهم بعطف حنون ، ومودة صادقة .

وليس سهلاً أن يصبح المرء أستاذاً معترفاً به ، وله طلابه ، إلا بعد أن تتقدم به السن فى المهنة ، أو يبلغ شأواً كبيراً من الشهرة والذيع فى وظيفة عامة ذات طابع ثقافى ، قاضياً أو مفتياً أو مشاوراً أو والياً . وليس ثمة سن معينة يتقاعد عندها الأستاذ ، والطلاب وحدهم هم الذين يقررون ، فإذا تبينوا فى أستاذهم خرف الشيخوخة ، أو طفولتها ، بدأوا يفارقونه ، وحينئذ يحل نفسه إلى التقاعد . ولم يكن للأساتذة زى محدد ، ولكن الأجلاء منهم يضعون الطيلىسان على رؤوسهم ، وكان ابن حبيب ، الفقيه المالئى الكبير ، يذهب إلى الدرس فى أحسن أزيائه ، وهى من نسيج يمنى ، على حين يرى آخرون إن أفضل زى يرتديه الأستاذ أن يكون فى رأسه شىء يقوله للطلاب . ويزاول الأساتذة إلى جانب التدريس مهناً أخرى ، تدر عليهم رزقاً يعينهم على الحياة ، ويلقى الواحد منهم طلابه فى بستانه أو حانوته أو مصنعه ، وآخرون يلقون دروسهم فى المسجد الجامع آخره اليوم ؛ بعد صباح مجاهد من أجل لقمة العيش . وقبول الأجر من الطلاب لا يلجأ إليه الأستاذ إلا عند الضرورة القصوى ، وطلبه ، أو قبول الهدية ، أمر مخجل على أية حال .

## • الحياة الدينية :

ظلت قرطبة بمنأى في الخبال الديني عن الحركات المتطرفة من إلحاد وزندقة ، وعن الدعاوى غير السنية من خوارج وشيعة ، وليس من الممكن القول أن الدين كان يحتل مكانة هامة ، لأن الدين كان الحياة نفسها ، عنه تصدر ، وبه ترتبط كل مظاهر الحياة الاجتماعية . ويلتزم القرطبي بما يلتزم به أى مسلم ، في أى مكان ، فالإسلام عقيدة وفكراً وطقوساً لا يتأقلم في جوهره ، وليس ممكناً أن نتحدث عن إسلام قرطبي أو أندلسي ، وربما تميزت قرطبة عن غيرها بأن حماسها للإسلام وحرصها عليه كان عفويّاً وشديداً ومستمرّاً .

كانت حماسة الناس للدين قوية ، وحرصهم على أداء شعائره حاداً ، وأشدّهم حرصاً أولئك الإيبيريون الذين أسلموا مع الفتح أو بعده ، ثم البربر ، ويأتى العرب أخيراً . وصنع الإسلام من هذه العناصر مجتمعاً متماسكاً ، وهو ما كانت تفقده بلاد إسلامية أخرى . ومن هنا كان الرحالة المشارقة يؤخذون ، حين يطأون أرض قرطبة ، بما عليه أهلها من إسلام خالص ، ومن تقوى خاشعة ، عند غالبية الناس . وكان المجتمع ، لواء دين بلا كهانة ، يقوم على حراسة معتقداته ، ولا يتهاون أبداً فيما هو جوهرى منها ، ولم تكن « الحسبة » في أى بلد بأكثر احتراماً وهيبه كما كانت عليه في قرطبة . وكانت حرية الأدبان مطلقة ، ومحترمة ، ويتم اعتناق الإسلام أمام القاضي ، ويسجل في وثائقه ، ويقر فيها المرء بأنه اعتنق الإسلام بإرادته وحرية وبإيمان مطلق منه ، ودون ضغط أو تدخل من أحد ، وأنه يلتزم بقواعده ، ولكن عقوبة التحيف على الإسلام صارمة ، وكان الاتهام بها يخفى وراءه ، أحياناً ، أهدافاً سياسية أو شخصية .

وحرص الأندلسيون على الحج ، وتقلع بهم السفن من المرية أو بلنسية أو دانية ، وهي لغور لا تزال قائمة ومزدهرة حتى يومنا هذا ، تبجروا عليها

أعداد كبيرة من رجال ونساء ، وتافى رحالها في الإسكندرية ، لكى يتجه الناس منها إلى القاهرة ، وقد يتوقعون فيها أياماً طويلة ، للعالم أو التجارة أو السياحة . على حين يأخذ الفقراء طريقهم براً عبر شاطئ شمالى أفريقية حتى يبلغوا مصر ، وهى رحلات أخذت شكلاً جماعياً ، فى قوافل كبيرة ، منذ نهاية القرن التاسع ، ومن يتخلف عن الحج لسبب أو لآخر يمكن أن ينيب عنه من يقوم به بدلاً منه ، وفيما وصلنا من وثائق صورة عقد بين حاج وموكاه ، والمناسك التى عليه أن يضطاع بها . وكان الحج شائعاً بين العامة والفقراء ورجال العلم ، فهم يهدفون إلى أن تكون لهم معه رحلة علم ، ومن هنا فتحنا لا نعرف إلا قلة بين الخاصة أدت الحج ، ولم يؤده أى من الأمراء أو الخلفاء لأسباب سياسية خالصة ، ولا نعرف أن ابن حزم ، صاحبنا ، أدى الحج ، رغم دفاعه الشديد عن الإسلام وأصوله ، وقدرته المالية ، فى أوائل حياته على الأقل ، ولعاه أناب من يضطاع به نيابة عنه ، أو وجد لنفسه مندوحة فيما أحاط به من ظروف .

وقد أصبحت قرطبة موطن المذهب المالكى ، وأصبح الاتجاه الغالب فيها ، تبنته الدولة ، وعليه الفتوى ، وأغلقت أبوابها فى وجه المذاهب الفقهية الأخرى ، وأعرض علماءه عن النظر إلى غير المالكية من المذاهب ، واعتبروا معرفتها أمراً لا جدوى فيه ، ووقفوا بالفقه المالكى عندما أورده مالك وكبار تلاميذه وأصحابه من بعده ، يدورون حوله دون أن يتقدموا به خطوة ، ولم يتبحروا لأنفسهم حرية الدرس أو الاجتهاد إلا فى حالات نادرة ، حين يضطدمون بما هو شائع ويصعب تغييره ، فيجدون لهم مندوحة فى باب « العرف والعادة » ، وهما من روافد التشريع عند المالكية . وإن المرء ليستطيع أن يؤلف مجلدات تستغرق أسماء الفقهاء الذين برزوا من علماء المذهب فى تلك الفترة . ويهمنى أن نشير من بينهم إلى أبى الوليد الباجى ، سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبى ، فقد كان خصماً فكرياً لدوداً لابن حزم ، وجرت بينهما محاورات عنيفة ، وأثنى

عليه ابن حزم ثناء بالغاً . وألف البانجي عدداً من الكتب في الفقه المالكي ، وفي علم الأصول ، وفي الحديث . وكان موطأ الإمام مالك ؛ وشرح « المدونة » لسحنون القيرواني ، من أوائل الكتب التي يدرسها المالكية ، وأكثرها رواجا .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي جاء قاسم بن محمد بن سيار بالمذهب الشافعي من المشرق ، وانصرف إلى نشره عن طريق الدرس والتأليف ، وكان يلقي دروسه في المسجد الجامع ، ووجد رعاية من الأمير محمد الأول ، الذي عينه موثقه الخاص حماية له من علماء المالكية ، وعاش المذهب الشافعي في الظل طوال أيام عبد الرحمن الناصر ، لأن ابنه الأمير عبد الله ، وكان شافعيًا ، اتهم بالاشتراك في مؤامرة لخلع أبيه الناصر ، لأنه بايع ابنه الحكم بولاية العهد دونه ، وقد فشلت المؤامرة ، ولقي عبد الله حتفه على يد أبيه ، وكان لذلك أثره السيئ على المذهب الشافعي فتوقف نشاطه حتى أيام الحكم المستنصر ، الذي كان يحسن وفادة القادمين إلى الأندلس من أهل الأدب المشاركة ، وبينهم عدد من شيوخ المذهب الشافعي ، فانتعش المذهب الشافعي من جديد ، ولكنه انكمش ثانية في عهد المنصور بن أبي عامر ، وكان حاكماً واقعياً ، فرأى من صالحه أن يجارى فقهاء المالكية ليكسب تأييدهم ، وفيما يعد سوف يصبح ابن حزم واحداً من أتباعه ، قبل أن يتحول إلى المذهب الظاهري .

ودخل المذهب الظاهري الأندلس في الوقت الذي دخل فيه المذهب الشافعي تقريباً ، على يد عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال ( ت ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ م ) ، واجتهد رغم أنه شافعي في نشر المذهب الظاهري ، ويبدو أنه لم يوفق كثيراً فيما رمى إليه . وتعرض الظاهرية لمثل ما تعرض له الشافعية من مضايقات علماء المالكية ، وأول شخصية ظاهرية نلتقي بها ، ذات مقام وتأثير ، منذر بن سعيد الباطني ، وتلقى أصواته في رحلة له إلى المشرق ، وظل عليه حتى وفاته عام ٣٥٥ هـ - ٩٦٦ م ، ثم ضعف صوت الظاهرية إلى أن عاد قوياً مع ابن حزم العظيم .

ومع وصول كتب الجاحظ إلى الأندلس ، وشيوعها على نحو خفى بين مجموعة من المثقفين ، عرفت قرطبة عدداً محدوداً من المعتزلة ، ولكننا فى النصف الثانى من القرن العاشر لانكاد نعثّر لهم على أثر ، والذين جاعوا الأندلس من الخارج لنشر هذا المذهب أبعدوا منه . مثلاً وصل قرطبة أبو الطيب ابن أبى بردة ، عام ٣٦١ هـ = ٩٧١ م ، وأحسن الحكم الثانى استقباله ، كواحد من كبار علماء الشافعية على أيامه ، ولكن ما إن علم أنه من المعتزلة حتى أصدر قراراً بإبعاده . ولكن ابن حزم يقول لنا أن وادى بنى توبة كان كله معتزلياً . وربما ارتبطت فكرة المعتزلة بالزهد ، لقد كان الطريق الوحيد ، فيما يرى أسين بلاثيوس ، أمام الذين يرغبون أن يبشروا بأفكارهم دون أن يعرضوا أنفسهم للاضطهاد والملاحقة أن يزهدوا وينسكوا فى «الروابط» لأن هذه الخلوات تمتعت بمهابة جليلة لدى الحكام والفقهاء والعامة ، وكانت تقع خارج المدينة ، فى الجبال أو الغابات ، وتجرى الحياة فيها على نحو زاهد ويطلق على سكانها اسم : زاهد أو ناسك أو عابد أو صوفى . وآخرون من الزهاد ظلوا بين العامة ، وتميزوا بالتقشف ، واحتقار الترف ، وإهمال الأناقة ، وعاشوا حياة رقيقة ، يمتنون أعمالاً متواضعة ، ويشاركون فى الجهاد .

وكان الفيلسوف ابن مسرة أوضح شخصيات هؤلاء العباد ، وأقام خلاوة له فى جبل قرطبة ، على مقربة من العاصمة ، وعرف بالجبلى ، وفى ثياب زاهد خاشع بدأ يتأمل أفكار المعتزلة ، ويبنى لنفسه فلسفة جديدة ، راح يبشر بها بين عدد محدود من تلاميذه ، وفى البدء ، بتأثير من حياته المستقيمة ، ونسكه الصادق ، وتقواه الخاشعة ، كسب إلى جانبه قلوب القرطبيين ، ثم بدأ الهمس : إنه معتزلى ، يبشر بمذهب فلسفى جديد ، بينه وبين الإلحاد خطوة واحدة . وأحسن ابن مسرة بالهمس ، وبما تجرى حوله وخطورته ، فرحل إلى المشرق ، وأدى فريضة الحج ، وبعده عاد إلى خلوته ، وبأشرب حياته الزاهدة ودروسه ، وضيقت الحياة ودع الدنيا عام ٣١٩ هـ = ٩٣١ م ، وقد مهد الطريق لفكر فلسفى حر ، ومن بعده واصل

تلاميذه إشاعة فكره ، ونشر كتبه ، ولم يصلنا منها شيء ، ولكن في زيارتي المتعددة للرباط عاصمة المغرب ، وجدت أن مخطوطة الجزء الخامس ، من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، ولما تنشر ، وتوجد في خزانة القصر الملكي ، تضم نصوصاً كثيرة ، ذات فائدة قصوى في توضيح مذهب ابن مسرة وتحديد مساره .

وفي أواخر خلافة الناصر ، أو على التحديد عام ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م ، نشر فقيه قرطبي ، محمد بن يقي بن زرب ، دحضاً لآراء ابن مسرة ، فنجّه الخليفة ، مع الزبيدي ، أبو محمد بن الحسن ، سلطات واسعة لمحاصرة فلسفة ابن مسرة . فأمر ابن زرب باعتقال كبار تلاميذه ، وأكرههم على رفض أفكارهم على ملأ من الناس ، وأمر بكتب ابن مسرة التي كانت معهم فأحرقت علانية على مرأى منهم ، أمام أبواب المسجد الجامع . وقد خفت حدة الملاحقة في عهد الحكم الثاني ، ولكن ما إن ولي المنصور بن أبي عامر الحجابة ، وعين ابن زرب قاضياً ، حتى اشتدت الملاحقة من جديد ، وأغضى المنصور عينه عنها استجلاباً لرضى الفقهاء والعامة ، وكان من ضحاياها عبد الملك بن منذر ابن سعيد الباطني ، صاحب خطة الرد ، وكان معتزلياً مثل أبيه ، القاضي والإمام والخطيب على عهد الناصر . ويبدو أن عبد الملك ، وأخويه عبد الوهاب والحكم ، حاولوا إحياء مذهب ابن مسرة وخواتمه ، وكونوا في بجانة مجموعة من المؤمنين به ، وقد حكم عليه بالإعدام والصلب ، وأورد لنا ابن حزم قصة صلبه في كتابه « الطوق » .

• الأدب :

وفي هذا القرن شاعت الأعمال الأدبية المشرقية في الأندلس ، فقد أدخل أحمد بن محمد بن هارون البغدادي : وجاء قرطبة يتهمس للعباسيين ، كتب ابن قتيبة ، وأدخل فرج بن سلام وكان مهتماً باللغة والشعر والطب وتربطه بالجاحظ صداقة وطيدة ، كتاب « البيان والتبيين » ، ورسائل

وكتبنا أخرى للجاحظ أيضا . وأدخل عثمان بن المطنة ، وكان يعمل مؤدبا لأولاد الأمراء ، وعاش في الشرق مدة ، ديوان أبي تمام ، وكان معجبا بشعره . ويعطى كتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه صورة صادقة لثقافة الأندلسيين المشرقية في هذا العصر ، وما كانت عليه من شمول وعمق .<sup>٥</sup>

ولم يحدث أن اهتم خليفة بالثقافة كما اهتم بها المحكم الثاني ، وكان نفسا عالما موسوعيا ، يمضى ساعات طويلة في مكتبته يقرأ ، وقلمه في يده يعلق على ما يقرأ ، وقلما تجد له كتابا في خزانته ، من أى فن كان ، إلا وله فيه نظر ، يكتب فيه بخطه ؛ إما في أوله أو آخره أو تضاعيفه ، نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتى من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لكثرة مطالعته ، وعنايته بهذا الفن . ومن حين لآخر يدعو العلماء والفقهاء إلى قصر الخلافة في قرطبة ، أو إلى قصور آل مروان في مدينة الزهراء ، وبخاصة في سمرة رمضان ، لمطارحات ومناقشات أدبية وعلمية جادة ، تمتد في كثير من الأحيان حتى الفجر .

وكانت مكتبة المحكم الثاني تضم ٤٠٠٠٠٠ مجلد ، وتشغل مكانا فسيحا في قصر الخلافة ، ويحكى ابن حزم في كتابه « جمهرة أنساب العرب » ، نقلا عن تليد الخصى ، وكان على خزانة العلوم : أن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير .

وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف ، ورجال يوجههم إلى الأفاق باحثين عنها . ومن وراقيه ببغداد محمد بن طرخان ، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة ، وبعث إلى أبي الفرج الأصفهاني القرشي المرواني ألف دينار عينا ذهبيا ، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذي ألفه في الأغاني ، وما لأحد مثله ، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق ، أو ينسخه أحد منهم .

وكانت المكتبة تسير على نظام دقيق وراق للغاية ، وتضم أقساما مختلفة ، أحدها للنسج ، ويعمل فيه مهرة الخطاطين ، من فتيات وفتيان ، وشهرت من بينهن لبنى كاتبة الخليفة نفسه ، وكانت أديبة شاعرة ، نحوية عروضية ، رائعة الخط ، بصيرة بالحساب ، مشاركة ، ولم يكن في قصر الخلافة أنبل منها ، على حد تعبير ابن بشكوال في كتابه « الصلة » ، وتميزت من بينهن أيضا فاطمة بنت زكرياء بن عبد الله الكاتب ، المعروف بالشبلاري وكانت كاتبة جزلة ، وخطاطة ماهرة ، وعمرت طويلا ، فعاشت أربعة وتسعين عاما ، كتبت فيها مئات الكتب الطوال . وكان هناك قسم للمراجعة والمعارضة يراجع ماخط الناسخون ، ويعمل فيه صفوة من علماء اللغة ، أمثال : الرباحي الجباني ، وأبي الفضل بن هارون الصقلي ، وعباس بن عامر الصقلي ، ويشرف عليه العالم اللغوي الجليل أبو علي الفاي ، صاحب كتاب « الأمل » . إلى جانب قسم للتجليد والتذهيب والزخرفة ، يعمل فيه أندلسيون ، وآخرون جاء بهم الخليفة من بغداد وصقلية .

وكان قسم النسخ لا يتوقف عن الكتابة ، ينسخ من الكتاب الحيد عشرات النسخ ، يحتفظ بها في المكتبة للمتدربين عليها ، أو يهديها الخليفة لأصفياه ، أولكبار العلماء والأدباء ، أو يوقفها على مكتبات المساجد ، أو على حلقات الدرس للراغبين فيها من الطلاب ، من العاجزين عن النسخ أو الشراء . وإهداء الكتب النادرة إلى الخليفة أقصر الطرق ، وأجملها ، إلى قلبه .

ولم يكن الخليفة استثناء في هذا الاتجاه ، فنحن نعرف عددا كبيرا من المكتبات الخاصة ، ومن هواة الكتب ، لا تبلغ قدر مكتبة الحكم ، ولكنها مكتبات كبيرة بمقياس ذلك العصر ، وكل عصر ، ولناخذ لها مثلا مكتبة قاضي الجماعة بقرطبة ، أبي المطرف عبد الرحمن بن فطيس ، فقد جمع « من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس ، مع سعة الرواية والحفظ والدراسة ، وكان يملئ الحديث من حفظه ، في

مسجده ، وله ستة وراقين ينسخون له دائما ، ورتب لهم على ذلك رائبا معلوما ، ومتى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طابه الابتياح منه ، وبالغ في ثمنه ، فإن قدر على ابتياعه ، وإلا انتسخه منه ورده إليه .  
وكانت عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية حسنة الخط ، تكتب المصاحف والدفاتر ، وتجمع الكتب ، وتغنى بالعلم ، ولها خزانة علم كبيرة حسنة ، ولها غنى وثروة تعينها على المروءة .

ولم يقف الأمر عند الخاصة من الناس ، فكان البسطاء أيضا يعنون بأن تكون لهم مكتباتهم في بيوتهم ، في ضوء ماتسمح به إمكانياتهم ، ويقدمونها على مظاهر الحياة الأخرى . ولدينا معلومات عن صاحب كتاب يدعى ابن حزم ( غير صاحبنا مؤلف طوق الحمامة طبعا ) ، يعلم الأطفال فيه ، بمساعدة ابن له يقوم على الصبيان ، وابنة تقوم على الفتيات ، وما يوفره يشتري به كتبها ، وفي ساعات الفراغ يقوم على نسخها ، ورغم تواضع حاله كانت مكتبته منظمة ، فيها كتب قيمة ، وأحيانا نادرة ، أتى بها في رحلة كانت له إلى المشرق ، وتتميز بالضبط والدقة وللإفادة منها يتردد عليه العلماء والطلاب .

ولكن هواية الأندلسيين الكبرى كانت تتركز في الأدب ، والشعر منه بخاصة ، وبلغ في هذه الفترة أوج سمته الجمالي ، وعرف هذا العصر بشدا هائلا من الشعراء ، أنشأ لهم المنصور بن أبي عامر ديوانا خاصا بهم ، يسمى « ديوان الندماء » ، مهمته ترتيب الشعراء طبقات ، وبذل العطاء لهم على مستوى أقدارهم في الشعر وكان على رأس هذا الديوان واحد من كبار نقدة الأدب ، ولقد صحب المنصور في بعض غزواته أربعون شاعرا ، من كل طبقة ، ليسجلوا ما يرون شعرا .

من طليعة الشعراء في هذا العصر ابن عبد ربه ( ت ٣٢٨ هـ — ٩٣٩ م ) صاحب كتاب « العقد الفريد » ، وبهر القلوب بمدايح ، وغزله ينبي عن

ذوق وحساسية تفوق ما في مدائحه . وابن هانيء الإلبيري ( ت ٣٦٢ هـ = ٩٧٢ م ) وما لبث أن غادر الأندلس إلى المغرب ، ومات وهو في طريقة إلى مصر ، ليلحق فيها بالمعز لدين الله الفاطمي ، ويقول عنه ابن خلكان : « إنه أشير المغاربة على الإطلاق ، وهو عندهم كالمتنبى عند المشارقة ، وكانا متعاصرين ، أما المعري فقد شبه شعره الضخم الرائع بأنه « رحي تطحن قروناً » . وكان ابن دراج القسطلي ( ت ٤٢٢ هـ = ١٠٣٠ م ) أعظم الشعراء في قرطبة على أيام المنصور بن أبي عامر ، وكان كاتباً له ، وللحكيم الثاني قبله ، وهومن أصل بربري ، ذاع صيته ، وأثنى عليه ابن حزم ، وكان واسع العلم ، قادراً على المديح ، يملك زمام الصناعة ، يجود شعره ، ويتكلف أحياناً ، فجاءت بعض أشعاره عسيرة الفهم . ويوسف بن هارون الرمادي ( ت حوالى ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ م ) ، والرمادي ترجمة حرفية لكنيته في اللغة الرومانشية أبو جنيش ، وبها كان يدعى أيضاً ، لأن كلمة جنيش Geniza فيها معنى الرماد ، وهو من كبار الشعراء ، ويقارن بالمتنبى أيضاً ، وكان تلميذاً لأبي على القالي ، وجمع بين تمكنه من الشعر القديم ، ومن الأنماط الشعبية المستحدثة في وطنه ، وأعجب بها الموشحات . وجمع بين رقة الشعر وخفة الظل ، وفخامة الأسلوب ، وأورد له ابن حزم في « طوق الحمامة » قصة حب رومانتيكية جميلة . واشتهر من بين الشعراء الأمراء حفيد لعبد الرحمن ، يلقب « بالطليق » ، الشريف أو الشاعر ، ( ت ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م ) وبرع في مقطعات النسيب الرقيق ، وكان طليعة شعراء الأندلس في الزهريات .

وبرع من شعراء هذا العصر أيضاً أبو عامر بن شهيد ( ت ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م ) ، وهو من بيت عريق ، وكان صديقاً ودوداً لابن حزم ، واحتل في العاصمة مكاناً مرموقاً بشعره الجزل ، ورسائله الفكاهية ، وتراعى لنا في شعره ، أحياناً ، لمحات ذات وقع حديث ، وخلف لنا رسالة « التوابع والزوابع » ، وصلتنا في جانب منها ، وفيها يصور رحلة شاعر إلى الجنة ، فسبق بذلك المعري ودانتي الإيطالي في هذا الموضوع .

وكان الشعر يجري على الأمن النساء ، وبرع نفر منهن فيه ، مثل :  
عائشة بنت أحمد ، وعشقت أحد أبناء المنصور وتولعت به ، ومريم بنت  
أبي يعقوب الفيصولي ، وكانت زاهدة ورعة ، واسعة العلم بالأدب . وبينما  
الفن تحتاج قرطبة ، وشمس الخلافة توشك على الغروب ، اجتاحت العاصمة  
حديث فتاة أميرة ، تنحدر من أصلاب خليفة ، ولادة بنت المستكفي  
( ت ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م ) صبية وجميلة ، ذكية وشاعرة ومتمردة ، تجعل  
من قصرها منتدى الشعراء ، ومجمع الأدباء ، وملتقى عليّة القوم ، تحب  
وتجاهر ، وتعبر عن عواطفها في صراحة ، ويهيم بها الوزير الشاعر ابن زيدون ،  
فتصله وتسعد معه ، وما تلبث أن تهجره ، وكيداً له تصل غيره ، فيندب  
حظ قلبه معها بقية حياته . كانت ولادة ، فيما يقول ابن بسام ، : « في نساء  
زمانها واحدة أوانها ، حضور شاهد ، وغزارة أوابد ، حسن منظر ومخير ،  
وظلاوة مورد ومصدر . كان مجلسها في قرطبة منتدى لأحرار المصر ،  
وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ،  
ويتهاك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها ، ولكنها على سهولة حجابها ،  
وكثرة منتابها ، تخط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب وطهارة أثواب » .  
غير أنها « لا تخلو من نزق وطيش ، فقد اطرحت التحصيل ، وأوجدت  
إلى القول فيها السبيل ، لقلة مبالأتها ، ومجاهرتها بلذاتها » .

وقد عمرت ولادة حتى تجاوزت الثمانين عاماً ( ت ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م )  
دون زواج ، مع ما كانت عليه من جمال باهر ، وعراقة نسب متصل ،  
ومواهب فنية عالية ، وتقف المصادر القديمة عند الظاهرة ، تقدم لمحات  
عنها ، دون أن تمضى بها حتى النهاية ، تفسيراً وتفصيلاً . ويراه الباحثون  
المحدثون أمراً غير طبيعي ، فيقول عنها غرسية غومث إنها « امرأة رجلة ،  
بالغة الظرف والأناقة » ، ويرى أ . و . نيكل ، ومن بعده هنري بريس ،  
أن صلاتها بمهجة بنت التيان القرطبية الشاعرة كانت مربية ، وفي القليل  
الذي روى من أخبارها ما يدعم الاتهام . وإلى هذا المنحنى يذهب الأديب

العراق الأستاذ عبد الرزاق الهلالي ، وبتهمها الأستاذ علي عبد العظيم بالسادية Sadism ، ويمضي وحده في هذا الاتجاه .

ومهما يكن القول ، فإن هذه الفتاة الشاعرة المتمردة ، أثرت الحياة الأدبية والاجتماعية في قرطبة ، وأوجدت نمطاً أدبياً جديداً ، دفعت به إلى سطح الحياة ، وكان قبلها يأخذ طريقه وراء الظاهر جباناً وخفياً .

وفي مطلع هذا العصر بدأت قرطبة تتغنى بالمرشحات ، ولو أن موشحات عصر الخلافة ضاعت كلها ، وضاعت معها طفولة هذا الفن الجميل الذي أبدعه الأندلسيون ، على غير احتذاء ، في عالم الفن والشعر .

#### المؤرخون :

وشهد هذا العصر من المؤرخين الكبار ابن القوطية ، أبو بكر بن عمر ( ت ٣٦٧ هـ = ٩٧٧ م ) صاحب كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » ، ويغلب على ظن المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا ، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة الإسبانية ، أن الكتاب ليس من إنشاء ابن القوطية ، ولعله أن يكون سماعاً دونه عنه بعض من كان يحضر دروسه من طلابه المولعين بالأخبار ، وكان ابن القوطية نحوياً أيضاً ، وكتابه في تصريف الأفعال أول كتاب وصلنا في الموضوع . وكان هريب بن سعد ( ت ٣٦٩ هـ = ٩٨٠ م ) قرطبياً من أصل نصراني ، أسلم آباءه ، وتلقى تعليماً طيباً ، واتخذ الحكيم الثاني كاتباً له ، وقد اختصر تاريخ الطبري ، وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس ، وكان إلى جانب اشتغاله بالتاريخ طيبياً .

وأعظم مؤرخي هذا العصر على الإطلاق أبو مروان حيان بن خلف القرطبي ، ويلقب بابن حيان ( ت ٤٦٩ هـ = ١٠٧٦ م ) ، ومؤلفاته لا تقل عن خمسين مؤثقاً ، وأحدهما ويسمى « المتين » في ستين مجلداً ، ول سوء الخط لم يصلنا من مؤلفاته هذه إلا أجزاء متناثرة من كتابه « المتبس في تاريخ رجال الأندلس » .

ويقول عنه المستشرق الهولندي رينهارت دوزى : « يمتدح العرب في كتب ابن حيان صدق الرواية بقدر ما يعجبون بحزالة لغته ، ورنين عباراته ، وأنا أؤيدهم في هذا كل التأيد ، ولا أتردد في القول بأن كتبه لو بقيت لألفت على تاريخ الأندلس الغامض ضياء باهرة ، ولصورته لنا أحسن تصوير ، ولوجدنا أنها تبلغ من الروعة مبلغا يجعلنا نستغنى بها عن غيرها من الكتب التي تتناول تاريخ هذه العصور . إن ابن حيان سيال الأسلوب ، ومع ذلك لا يتعثر في الإطناب والقمقمة اللفظية ، كما فعل غيره من أصحاب الروايات المسهبة التي لا تنهى . إنه ليسرق التاريخ مساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ، ويناقشها عن علم وفهم وذكاء ، كما سيفعل من بعده مؤرخون نقدة كابن سعيد وابن خلدون . ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصع ، لا يهبط إلى الركاكة التي تثير السخط ، ولا يقع في التفصيح والإسراف في قعاقع الألفاظ ، ورغم التزامه السهولة لا يهمل جانب الجمال في أسلوبه ، ويبحث في كلامه دائما حماسة وغنى وطابعا غالبا من الجد . نعم ، إنه يلجأ في بعض الأحيان إلى التشبيهات وضرب الأمثلة . ولكنه - رحم امتيازاه بفصاحة القدماء - لا يولع بما أولع به معاصروه . ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد من بين مؤرخي العرب إلا القليلين ممن نستطيع أن نقارنهم به ، ولن نجد بينهم من تقدمه عليه . »

وانصرف عدد من المؤرخين إلى كتابة السير ، ووضع المعاجم في طبقة معينة من الرجال ، وأول من تلقى منهم : الخشني ، أبو عبد الله محمد بن الحارث ( ت ٣٦١ هـ = ٩٧١ م ) ، وهو قيرواني قدم الأندلس ، وولاه الحكم الثاني خطة المواريث في بجاية ، وبعد وفاته استقر في قرطبة يعيش على بيع العطاراة ، وألف كتباً كثيرة عن الفقهاء والمحدثين ، واشتهر بكتابه « تاريخ قضاة قرطبة » ، وألفه فيما يبدو لإحياء من الحكم نفسه ، ونشره خوليان ريبر الأول مرة في مدريد عام ١٩١٤ م ، وترجمه إلى الإسبانية ، ويضم من الفوائد ما يجعله أهم مصدر لدراسة الحياة الاجتماعية في الأندلس ، وقد كتبه وتحت يده مادة طيبة من الوثائق المحفوظة في دار الخلافة ، وسجلات

للقضاة ، والأوراق الخاصة لبعض الأفراد . وأهم من ذلك كله ما أخذه من الروايات والأخبار التي كان الناس يتناقلونها ، منها ما يحكى في قصر الخلافة وبيوت السروات ، ومنها ما يتناقله الجمهور والقصاص في طرقات قرطبة وأرباضها وأحيائها التي يمتشد فيها أصاغر الناس . وبعضها أخذه من أفواه أهل الأدب والدين والعلماء والفقهاء مما كان يجري في حلقات دروسهم ، وبعضها الآخر اختلقه نفر من الساخطين على النظام السيامي والاجتماعي القائم ، ومنها ما هو صدى لما كان يتحدث به أولئك المولعون بتقد رجال الدين والأثقياء ، ومنها ما هو ترجمة عربية لروايات كان الناس يتناقلونها في لغتهم العجمية أو العامية الدارجة أو صياغة جديدة لها . كل هذه العناصر تتجمع وتتألف منها مادة الكتاب دون أن يضيف إليها المؤلف من عنده إلا قليلا . إنه كتاب يضعنا في قلب قرطبة القرن العاشر ، وأخباره مصوغة في قالب من الواقعية لا يبلغ إلى تصويرها كتاب غيره من كتب الأدب أو التاريخ . وهو يتحدثنا عن أشياء تافهة ، ويصور لنا مشاهد مبتذلة ، لاجلال فيها ، ولا صلة تربطها بغيرها ، وهذه الروايات المرسلة على عونها تعين على دراسة المظاهر الاجتماعية ، مما لا يذكره أو يعنى به غير هذا الكتاب .

ومنهم ابن الفرضي ، أبو الوليد عبد الله بن محمد (ت ٤٠٣ هـ = ١٠١٢ م) ، من أهل قرطبة ، وكان فقيهاً ومحدثاً وخطيباً وشاعراً ، وجماعاً للكتب ، ودرس في القيروان والقاهرة ومكة والمدينة ، وعرض له ابن حزم في « طوق الحمامة » ، واستشهد في داره على يد البربر ، عندما اقتحموا قرطبة وانتهبوها ، ولم يعثر على جثته إلا بعد أربعة أيام ، وقد تحللت وتعفنت ، فووري التراب دون أن يغسل أو يكفن . وضاع بعض ما ألفه مثل كتابه : « تاريخ شعراء الأندلس » ، وبقي لنا منها كتابه الذائع الصيت : « تاريخ علماء الأندلس » .

• العلوم :

ولقيت الدراسات الفلكية في النصف الثاني من القرن العاشر عناية تامة ، وكان فلكيو الأندلس ، مثل نظرائهم في المشرق ، يؤمنون بتأثير النجوم ،

واعتبارها سبباً فيما يحدث من شئون هامة بين الميلاد والموت على سطح الأرض ، وكان الفلك يستخدم في تحديد قبلات المساجد ، وتعيين مواقيت الصلاة على امتداد العام ، والاستيثاق من مواعيد الأهلة ، ولم يكن مسموحاً بالتنبؤ وقراءة الطالع ، ومع ذلك كانت الجاهير ، من وراء ظهر الدولة ، تقبل على أدعياء الفلك ، من المنجمين والعرافين ومن يستخرجون الفأل ، والمتنبئين والسحرة وصناع الأحجية . وكان الفلكيون يعملون في الكيمياء أيضاً ، وقد ازدهرت دراسة الفلك على يد مسامة الحريطي (ت ٣٩٨ هـ = ١٠٠٨ م) ، تحت رعاية الحكم الثاني ، وعرض له ابن حزم في «طوق الحمامة» ، وإلى جانب الفلك كان أستاذاً في العلوم الرياضية ، ومن بينها فن مساحة السطوح ، وإليه يعود النضل في إدخال «رسائل إخوان الصفاء» إلى الأندلس .

وأزهر علم الطب في قرطبة إزهاراً عظيماً ، وفي منتصف القرن العاشر الميلادي أرسل إمبراطور بيزنطة ، قسطنطين السابع ، سفارة إلى عبد الرحمن الناصر ، كان بين ما حملته من الهدايا نسخة مكتوبة بالإغريقية من كتاب ديسقوريدس Dioscorides في الطب ، ولم يكن في قرطبة من يعرف الإغريقية ، فسأل الناصر الإمبراطور أن يبعث إليه واحداً من العارفين بها وباللاتينية ، فأرسل إليه الراهب نيقولا لكي يقوم بتحديد أنواع النباتات الواردة في الكتاب ، وأنجز ذلك العمل بمعاونة لجنة بينها : حسداى بن شبروط ، الذائع الصيت ، وأبي عبد الله الصقلی ، وكان عارفاً باليونانية ويتحدث بها ، وله إلمام بتركيب العقير ، وعبد الرحمن بن إسحاق بن الهيثم ، ومحمد بن الكتاني ، وعلى رأسهم أبو القاسم الزهراوى ، وعدد آخر من الأطباء وعلماء النباتات وكان لمعرفة الأندلسيين بهذا الكتاب أثر حاسم في تطور دراسات الطب والنبات ، وتميز الذين عملوا في ترجمة الكتاب كأطباء فيما بعد ، في بلاط الحكم الثاني ، والمنصور بن أبى عامر .

وأعظم أطباء ذلك العصر ، من غير شلك ، أبو القاسم خلف الزهراوى ،

نسبة إلى مدينة الزهراء الشهيرة في قرطبة ، ويعرف في اللاتينية باسم Abulcasis ( ت ٤٠٣ هـ = ١٠١٣ م ) . وطار ذكره شرقاً وغرباً بالبراعة في الجراحة ، وتعتمد شهرته على مؤلفه المسمى : «التصريف لمن عجز عن التأليف» ، أى العون لمن ليست له قدرة على استيعاب المؤلفات الضخمة ، ونلخص في القسم الأخير منه المعلومات الجراحية التي كانت مائدة في عصره ، واهتم المؤلف بالآراء الخاصة بكى الجروح ، وتفتيت «الحصوة» في داخل المثانة ، وأهمية التشريح والفحص الدقيق . وكان هذا الجزء ، ونشر في اللاتينية باسم الجراحة ، في البندقيّة عام ١٤٩٧ ، وفي بل عام ١٥٤١ ، وفي اكسفورد عام ١٧٧٨ ، أهم وأذيع كتاب في تاريخ الطب كله ، وارتفع به الزهراوي في أعين الناس إلى طبقة أبقراط وجالينوس . وهو أول مؤلف يجعل الجراحة علماً قائماً بذاته ، مستقلاً عن الطب ، وأقامها على أساس من العلم بالتشريح ، وتضمن رسوماً للآلات الجراحية التي كان يستعملها العرب ، أو نقاوها عن غيرهم .

\* \* \*

في هذا الجومن الحضارة المصقولة ، والثقافة المزدهرة ، ولد ابن حزم ونشأ ، وتفاعل معها ، غلاماً يافعاً ، وصبيّاً دارساً ، وشاباً قلماً ، ورجلاً يعمل بكل ما أتيح له لكي يوقف انحدر الخلافة وتلاشيها !

## شاهد عصر

لا أحد يختار اللحظة التي يولد فيها ! :

وقدر لابن حزم أن يجيء إلى الحياة في أشد لحظات الأندلس إقساوة ومأساة وحسماً . شهد شمس الخلافة تنحدر نحو المغرب ، وقاوم ما استطاع لكي يبقى عليها ، ورآها تتناثر مزعاً ، وتقوم على أنقاضها دويلات صغيرة ، يحكمها أمراء صغار ، سوف يدخلون التاريخ تحت اسم : « ملوك الطوائف » . وعاصر فوضى هؤلاء الملوك وصغارهم ، ورأى دولهم تتحرف ببطء ، وتسرع نحو الهاوية في بلاد . وعبثاً نجد جواباً لسؤال يتردد في خاطر أحيانا : ماذا لو عاش ابن حزم في غير هذه الأعوام ، لوجاء قبلها بقرن ، أو تأخر به القدوم بعدها بزمان ؟ . المؤكد أن حياته وسط هذه الأحداث شاهداً ، ومشاركته فيها مؤثراً ، جعلت منه قمة الفكر الإنساني في مطلع القرن الحادي عشر ، في الشرق والغرب ، في العالمين الإسلامي والمسيحي على السواء . كان سياسياً ورجل دولة ، شاعراً وكاتباً ومؤرخاً ، مفكراً وفيلسوفاً ، وفقهياً جديلاً للدعوة ، غنييف الحوار .

ولن أمضى مع حياة ابن حزم تفصيلاً ، لقد درسها في عمق ورزانة وثأن المستشرق الإسباني ، العالم الفيلسوف ميجيل أسين بلاثيوس ، في كتابه : « ابن حزم القرطبي » ، وقد أنهيت نقله إلى العربية ، وسأدفع به إلى المطبعة قريباً ، وفيه الغناء ، كل الغناء ، لمن يطلب المزيد . وسأكتفي هنا بالملامح البارزة ، التي تعيننا على فهم إبداع ومحتوى وإشارات « طوق الحمامة » ، وكان مقدراً لهذا الكتاب أن يكون مقدمة له .

● أسرة من المولدين :

ينحدر ابن حزم من أصول ليست واضحة تماماً ، وأشدّها احتمالاً ،

وهو أمر غير مؤكد : أنه ينتسب في أسرة من المولدين ، أى أنه ينحدر أصلا من الأجناس التى وجدها المسلمون لحظة الفتح . ولا يمكن الجزم بأصول هذه الأسرة ، هل هى لانيية أوقوطية ، أو من بقية الأجناس التى مرت بشبه الجزيرة واستقرت فيها من الأفارقة والفينيقيين والسلتيين . ولا يمكن الجزم كذلك بالديانة التى كان عليها أسلافه ، أهى الكاثوليكية أم ديانات أخرى ، أم الوثنية ، و كان لها عباد فى القرى النائية لحظة الفتح الإسلامى . وخارج عن العلمية — طبعاً — أن يقال : إنه كان إسبانيا ، بالمعنى العلمى أو القومى للمصطلح فى عصرنا الحديث ، فالقومية الإسبانية لا يمكن أن نذهب بها ، فى أشد الاحتمالات ، إلى أبعد من أخريات القرن الثالث عشر .

وليس للأسرة تاريخ عريق فى الإسلام ، فلم تكن مع السابقين إليه لحظة الفتح ، أو مانلاها من أعوام . كانت كملايين آخرين ، من صغار الفلاحين فى القرى النائية ، تضى حياتها هينة متشابهة ، بلا ألام ولا أحلام ولا أيجاد ، تعيش من الزراعة ، على أرض لها ، فى ضيعة صغيرة ، كانت تسمى على أيام ابن حزم منت لشم Mont lisam ، وأخذت فى الإسبانية المعاصرة صورة متيخر Montijar ، أو بلدون الراء الأخيرة ، فى مقاطعة ولبة Huelva ، جنوب غربى الأندلس .

ولم تكن الحياة فى هذه المنطقة سهلة ولا ميسرة ، ولا تزال حتى يومنا ، محدودة الموارد فى الزراعة ، قليلة الصناعة ، لا يكاد إنتاجها من الحبوب يكفى فلاحها ، على حين تزداد العاصمة قرطبة ثراء وتقدما ، وتصبح الحياة فيها أمنية ، تتسوى عامة الناس وبسطائهم ، وتداعب آمال كل طامح ، وبخاصة أحلام أسرة ترغب ، وتعمل جاهدة ، فى تحسين واقعها الاقتصادى ، فترك سعيد ، جد ابن حزم صاحبنا ، ولبة حيث يقيم ، وجاء إلى العاصمة . ولان تلك معلومات وافية عن حياة سعيد فى قرطبة ، والقليل الذى وصلنا منها غامض ومتناقض ، ولدينا أخبار وفيرة عن ابنه أحمد ، والد أبى محمد هلى موضع درسنا .

كان أحمد ، فيما يبدو ، فطناً ودوداً ، مثقفاً أديباً ، مستقيماً عاقلاً ، مقتصداً ومأهراً في شئون المال ، بارعاً في مواجهة المواقف السياسية المناقضة ، ذا طموح يقظ ، قادراً على كبح جماحه عند الضرورة ، مسالماً دائماً ، ومسلحاً بكل هذه الصفات بدأ يشق طريقه ليكون له في مناصب الدولة نصيب . وفي هذا الوقت كانت منتديات قرطبة تنهض حديث نجم بمضى صعوداً بلا توقف ، فتى من أبناء الأقاليم يدعى المنصور بن أبي عامر . كان مثل سعيد ابن حزم ريفياً ، هبط قرطبة ذات يوم ، ضائعاً مغموراً يبحث عن المجد ، ويوئمل أن يلقاه في عاصمة الغرب الإسلامي . ولكنه على العكس من سعيد ينتمى في أسرة عربية عريقة ، ولو أن معلوماتنا أيضاً عن أيامه الأولى قليلة وغامضة .

ولم يكن المنصور فرداً في طموحه وصعوده ، كثيرون كانوا يرقبونه ، وعلى نية أن يتبعوه ، وقد بدأ دم جديد يتدفق في شرايين الدولة ، فأتى على الأسوار العالية ، التي أقامها أبناء البيوتات العريقة ، وكانت المناصب الكبرى وفقاً عليهم ، سنة جارية ، وتقليداً محترماً . وهكذا وجد أحمد طريقه إلى مناصب الدولة ، ربما لأنه كان مولى لبني أمية ، وهذه تحسب له ، وأكيداً لأنه أشاع الثقة فيمن حوله ، بقدرته وحنكته ، ومع البداية واصل سيره قدماً ، ونجهل خطواته الأولى ، ولا بد أنه كان ذا دهاء سياسي رفيع ، لبطال وفيها هشام المؤيد الخليفة ، وموضع ثقته ورعايته ، دون أن يشير في أعماق المنصور ، وكان الحاكم الفعلي أو في طريقه ليصبح كذلك ، روح الشك والخوف ، بل حاول المنصور أن يربحه ، وأن يضمه إلى جماعته .

وقد ترك أحمد منزله ، لأول مرة ، في بلاط مغيث ، في الجانب الغربي من قرطبة ، إلى « منية المغيرة » في الجانب الشرقي من المدينة ، مكان قريب من الزاهرة ، المدينة التي بناها المنصور لتكون مقر الحكمه ، وعظمت فيه ثقة المنصور ، فجعل منه وزيره ، يقول ابن الأبار في كتابه « إعتاب

الكتاب » ، نقلاً عن ابن حيان : إن المنصور « استوزره قبل سائر أصحابه ، في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (= ٩٩١ م ) في خلافة هشام المؤيد بالأندلس واستخلفه أوقات مغيبه على المملكة ، وصير في يده نعامه » .

تلك هي الأميرة التي ولد بينها ابن حزم ، أسرة ثرية من طبقة الخاصة الوليدة ، طبقة كبار الموظفين ، تعيش فيترف ورفاهية ، وفي مستوى حياة أعلى طبقات المجتمع القرطبي ، وبضغط عليها في طيات النفس أمران غيّر ظاهرين : تواضع الأصل ، ولا إسلامية السلف ، وكان عليها أن تتحرر منه ، وأن تتغلب عليه ، وفي أشجار النسب متسع ، وهو طريق سلكه قبلهم ، ومن بعد ، آخرون كثيرون . والأمر الثاني : الولاء الموزع بين هشام المؤيد ولي نعمته ، والمنصور راعيه .

#### • طفولة بين الحريم :

ولد أبو محمد ، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، في قرطبة ، صبيحة الأربعاء آخر يوم من رمضان عام ٥٣٨٤ = ٧ من نوفمبر ٩٩٤ م . وطبقاً لبيرويه ابن حزم نفسه ، في مواضع مختلفة من كتابه « طوق الحمامة » ، صريحاً أحياناً ، وموارباً أحياناً أخرى ، نعرف أنه أمضى طفولة رعية وضعيفة وكسولة ، طفولة ابن وزير ، يشب في ألباء القصر ، وتحت رعاية الخدم ، وبين مناغاة النساء ، من القيان والجوارى والإماء ، على أيديهن نشأ ، ومعهن تربي ، ولم يعرف غيرهن من الرجال حتى حد الشباب ، وكن حاضناته وأستاذاته ، علمته القرآن ، ورويته الشعر ، ودربته في الخط ، ومنهن تعلم أشياء أخرى ليست أقل نفعاً ، ولكنها مؤذية في سن الطفولة . لقد أظهرنه في سن مبكرة على أسرار الحياة الجنسية ، ومناورات القصور ، وحيل النساء . فنشأ صبياً مربع التأثير ، كثير المرض ، ملحوظ العصية ، متوقد الذكاء ، مطبوعاً على الغيرة ، سيئ الظن بالمرأة وقد خبرها عن قرب ، وأشرف من أسبابها على غير قليل .

أقصى ما عرف من العالم في صباه شوارع « منية المغيرة » ، حتى كبار موظفي البلاط ، الملاصق لقصر الزاهرة ، في نزعات أغلب الظن أنها لم تكن طويلة ، ولم يكن فيها وحيدا ، وربما قاده قدماءه إلى قصر المنصور نفسه ، وكان ابن أبي عامر ودوداً جداً مع الأطفال ، يهش لرؤيتهم ويسعد بمحضهم . ولم يشر ابن حزم إلى شيء من هذا في مؤلفاته ، ولكن صديقه وتوأم روحه ، أبو عامر بن شهيد ، قص علينا بعض ما حدث له ، في رسالة جميلة ، كتبها فيما بعد رجلاً ، إلى المؤمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ، وقد أصبح أمير بلنسية ، وأورد لنا ابن بسام فقرات طوالها منها في كتابه « النخيرة » . يتحدث ابن شهيد عن صلاته بالمنصور طفلاً فيقول : « إني نشأت في حجره ، وربيت في قصره ، وارتضعت ثدي كرائمه ، واعتجرت رداء مكارمه ، واغذيت من فيه ، أكلا زقنيه ، وماء علبه ، فصرت أفراخ نعمائه الحمر الحواصل ، ولحقت بأخوة أبنائه الغر العباهل » .

وكان ابن شهيد ندا لابن حزم ، ويكبره بعامين فحسب ، وينتمي في أسرة عربية عريقة ، وكان أبواهما موظفين كبيرين ، وزيرين في قصر الحجابة ، وعلى نفس المسافة من المنصور ، فليس مجازفة إذن أن نتصور أن ابن حزم ، كابن شهيد ، كان يتردد على قصر الحجابة ، ويحظى بحنان المنصور ، والطريق إليه أبسر من الوصول إلى الخليفة الوقور المحتضر ، وقد دفنه المنصور حياً .

#### • ثوار وعباد جمال :

في عام ٣٩٢ هـ = ١٠٠٢ م ، تحققت رغبة المنصور العظيم ، أن يموت في ساحة الوغى ، وأن يلقي الله مجاهداً ، أثناء عودته من حملة قام بها على قشتالة ، وهي الحملة الخمسون من حملاته العسكرية ، وطبقاً لوصيته دفن حيث لفظ نفسه الأخير ، في مدينة سالم ، ومعة الغبار الذي تجمع على درعه أثناء حملاته المتعددة ، وكان يحتفظ به لهذا الغرض ، وعلى قبره هذا الشاهد :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه

تا الله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحصى الثغور سواه

وتولى الحجابة بعده ابنه عبد الملك المظفر ، ومعه أمّلت الأندلس خيراً كثيراً ، وبخاصة في أيامه الأولى ، وكان ابن حزم في الثامنة من عمره ، يطل على العالم قلماً ، ويشق طريقه إلى الحياة في خطى محسوبة ، وتعكس مواقفه نضجاً مبكراً . في بينهم بدأ غرامياته الأولى مع جواريههم ، وقرأ أوليات المعارف من فقه ولغة وأدب ، ولقى كبار الأساتذة في قرطبة ، يجيئون إليه أويذهب إليهم ، أساتذة يمثلون كل الأفكار : من أشد الناص ورعاً وتصوفاً وزهداً ، إلى أكثرهم جرأة وتحرراً وتمرداً . وخلال ذلك بدأ ينمي صداقاته ، مع صبيان وفتيان من سنه ، صداقات عمرت طويلاً ، وأخذ بعضهم شكلاً حميماً .

وفي الثانية عشرة من عمره ، في عيد الفطر لعام ٣٩٦ هـ ، نامتقى به في مجلس الحاجب المظفر ، يشارك في سماع المهنتين من الشعراء بالعيد ، ولا يقف به الأمر عند هذه المجالس الرسمية ، وإنما يتجاوزها إلى الحرم نفسه ، فهو يحدثنا في « الطوق » أن ضنا العامرية ، كريمة المظفر ، اقترحت عليه أن يصنع لها أبياناً من الشعر ، اقترحت عليه أفكارها ، لتصنع لها الحنا ، وتجعل منها صوتاً يغنى .

ولم يتجه ابن حزم إلى دراسة الفقه جاداً ومتمكناً إلا شاباً مكتملاً ، في السادسة والعشرين من عمره ، على ما يقول هو ، حين أخطأ في صلاة الجنائزة على شخصية هامة : فكان موضع سخرية الحاضرين . وقد شك غرسية غومت في الخبر ، ورآه لوئناً من المداعبة ، لأن ابن حزم يجب أن يكون قد درس الفقه وعلم الكلام مبكراً ، ولا أرى تناقضاً بين الأمرين ، لأن الدراسة النظرية لا تعني عدم الخطأ ، لأن العبادات العمالية — وصلاة الجنائزة ليست مما يصلى كل يوم أو حتى كل شهر — تلعب فيها الممارسة دوراً أكبر من القراءة والدرس ، وإشارة ابن حزم إلى أنه بدأ دراسة الفقه لا تعني أكثر من أنه راجع ما قرأ ، وتعمق فيما درس ، واستحضر ما كان غائباً من تفصيلات .

وأباً ما كان الأمر ، فقد اختار ابن حزم في هذه الفترة المبكرة من شبابه ، أن يكون واحداً في رفقة من الأصفياء ، ربطت بينهم صداقة وطيدة ، أقلية من العشاق المصقولين ، تنتمي إلى أعلى طبقة في المجتمع القرطبي ، عرض ابن حزم لبعضهم في « طوق الحمامة » ، وأثنى عليهم كثيراً ، يتميزون بالأناقة ، ويرتدون أفخم الثياب ، في أحدث الأنماط ، يفتنهم الجمال ، وتستوهم الطبيعة : تطربهم الموسيقى ، ويفضلون الأدب ، ويتبعون فيه منهجا ثورياً . كان هؤلاء الفتية ، كما تخيلهم غرسية غومث ، يرتدون ملابس بيضاء ، ويحاولون بين أروقة بيضاء ، يغمون بالأوز ، ويعشقون النساء الشقرات .

كان هؤلاء الفتية من الخاصة في قرطبة يقفون عند نماذج الأدب المشرق ، يعرفونها ، ثم يطرحونها ، ويحاولون أن يرتفعوا إلى مستواها . كانوا باختصار يقرأون كثيراً ، ويتمثلون ما يقرأون ، ويرجلون عبر العالم واقعاً أو قراءة ، ثم يبدعون أخيراً . لقد التزموا منهجاً وسطاً ، ينأى عن التحلل الهابط ، ويتجاوز التقليد المميت ، ويزاوج بين حداثة الفكرة ، ودقة الصياغة ، وحرية الاختيار ، وهي القواعد التي جعلت منها الخلافة طابع المجتمع في قرطبة . وكان الأدب الجديد يطمح أن يكون في مستوى الحياة ، ومواءماً للتطور السياسي حوله ، وكما يحدث عادة ، جاء ذلك متأخراً . وحين تهاوى نظام الخلافة بغتة ، أطبق على هذا الأدب بين خرائبه ، ولما يعطى إلا قليلاً جداً من ثماره ، ثمار مبكرة ، وكثرتها غير ناضجة ، ولكنها شهية من الطراز الأول .

كان أبو عامر بن شهيد رأس هذه الجماعة ، مواضعة وعرفا ، وترك لنا في رسالته « التوابع والزوابع » ، وهي أول رحلة علمانية في التاريخ إلى عالم الآخرة ، ما يمكن أن نعهده دستور الجماعة . لقد صلب الكاتب شيطانه إلى عالم الأرواح ، والتقى هناك بشياطين كبار الشعراء ، جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، وبعض الكتاب ، فأشده أشعاراً لأصحابهم ،

وأسمعهم شيئاً من شعره . وعرض على نواب الكتاب بعضاً من رسائله .  
وخلال الرحلة ينقد مجتمعهم وما يفتقده فيه ، ويعرض آماله ، وما يطمح  
أن يكون عليه .

فهو يأسى لقرطبة تتحدث لكنة أعجمية . تؤدي بها المعاني نادية المحوس  
والنبط . ليس لسيبويه في كلامها عمل ولا للخليل إليه طريق ، ولا للبيان  
عليه سمة ، ويشكو قوماً من المعلمين في العاصمة ، « ممن أتى على أجزاء  
من النحو ، وحفظ كلمات من اللغة ، يحنون على أكباد غلاظ ، وقلوب  
كقلوب البعران . ويرجعون إلى فطن حمئة ، وأذهان صندقة ، لا منفذ لها  
في شعاع الرقة ، ولا مدب لها في أنوار البيان ، سقطت إليهم كتب في البديع  
والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد الناني من الرقص على الإيقاع ، والزمزم على  
الآلحان ، فهم بصرفون غرائبها فيما يجري عندهم تصريف من لم يرزق آلة  
الفهم . ومن لم تكن له آلة الصناعة » . ويكتب أحياناً يتافس بها الشعراء  
المشاركة ، ويؤكد أن الأدب الجيد يعتمد على الموهبة . قبل أن يقوم على  
سعة الثقافة ، أو مراعاة قواعد النحو . وأن « أول أدوات الكاتب العقل ،  
ولا يكون الكاتب غير عاقل » . ويعنى بالعقل الذكاء في لغتنا المعاصرة .  
والأدب هبة من الله ، لا يعلمه أستاذ . ولا يلتقط من كتاب ، والشاعر  
يولد ولا يصنع . وشر الفن ما كان وسطاً . « لا يحسن فيطرب . ولا يسىء  
فيلهى » . وهى قاعدة جريئة في الأدب العربي . ونيس دونها جرأة في  
تلك الأيام ما رآه . من أن « لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل  
طائفة من الأمم نوع من الخطاب ، وضرب من البلاغة . لا يوافقها غيره ،  
ولا تهش لسواه » .

وتوفي ابن شهيد . عام ٤٢٦ هـ = ١٠٣٥ م . إثر داء عضال ، عانى  
مرارته زمناً ، وتحمل عناءه صابراً . وخلفه ابن حزم في رئاستها ، وكان له  
دائماً صديقاً وفياً ومخلصاً ، فسار على النهج نفسه . واحترم تقاليد الجماعة  
وأسلوبها .

## • أزمة الخلافة :

قبل أن تعطى هذه المدرسة الأدبية ثمارها ، أو إذا شئنا الدقة قبل أن يخطط ابن حزم أى كتاب مهم له ، إذا استثنينا المقطعات الشعرية وبعض الرسائل الأدبية ، وقبل أن يتولى أية وظيفة سياسية فى مستوى تكوينه وطبقته الاجتماعية ، تفجرت الحرب الأهلية فى قرطبة ، وعكرت بعنف صفو الحياة المصقولة ، والهادئة ، لهؤلاء الشبان القرطبيين من عشاق الفن والجمال ، وسوف أدرس هذه « الفتنة » وما كان لها من نتائج بالغة السوء فى فصل خاص ، ويكفى أن أشرهننا لماماً ، وفى إنجاز شديد إلى ما أحدثته فى أسرة ابن حزم : وفى حياته نفسه ، ليبقى خيط الأحداث متصلاً .

لقد توفى العامرى الثانى ، الحاجب عبد الملك المظفر ، فى ١٦ من صفر ٣٩٩ هـ = ٢٠ من أكتوبر ١٠٠٨ م ، فولى الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن الملقب بشنجول ، وكان مجرداً من المواهب ، فاغتيل فى قرطبة بعد شهر من توليه الحجابة ، فى ٣ من رجب ٣٩٩ هـ = ٣ من مارس ١٠٠٩ م ، وعزل هشام الثانى عن الخلافة ، وبويع بها محمد المهدي ، وأعفى أحمد بن سعيد من مناصبه ، وترك « منية المغيرة » حى كبار موظفى البلاط ، قرب رضى الزاهرة ، وقد أتى عليه الثائرون هدماً وتخريباً ، وعاد إلى سكنهم القديم فى بلاط مغيب ، ليواصل الحياة هادئاً ، وبعيداً عن صخب السياسة ، واستطاع أن يحتفظ ببعض ماله من هبة ، وسئلتنى به فى العام نفسه ، فى ٢٧ من شعبان ٣٩٩ هـ = ٢٦ من أبريل ١٠٠٩ م . يشهد المسرحية الرائعة المحزنة ، لدفن هشام الثانى ، المزيف طبعاً ! وكان معه ابنه على صاحبنا ، وترك لنا وصفاً صادقا وموثراً لما حدث ، يقول فى سياق كلام له عن صلب المسيح وقتله : « وقد شاهدنا نحن مثل ذلك ، وذلك أننا ندر أننا لا لجبل ، لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر ، فرأيت أنا وغيرى نعشاً فيه شخص مكفن ، وقد شاهد غسله شيخان جليان حكمان من حكام المسلمين ، ومن عدول القضاة ، فى بيت ، وخارج البيت أبى

رحمه الله ، وجماعة عظماء البلد ، ثم صلبنا في ألوف من الناس عليه ، ثم لم يلبث إلا شهوراً نحو السبعة حتى ظهر حيا ، وبويع بعد ذلك بالخلافة ، ودخلت عليه أنا وغيرى ، وجلست بين يديه ، ورأيت ، وبقي ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام .

وفي ١٠ من ذى الحجة ٤٠٠ هـ = ٢٣ من يولية ١٠١٠ م ، اغتيل المهدي بعد خلافته الثانية ، وبويع ثانية هشام الثانى . بعد أن قيل للناس أنه مات ودفن ، وبعد أن شهدوا جنازته وصلوا عليه ! ، وكان الظن أن يعود بنوحزم إلى سابق عهدهم ، ومكانتهم القديمة ، غير أن الأمور سارت على النقيض . لأن لعبة السياسة المعقدة . والموقف الحذر الذى سار عليه أحمد بن سعيد ، حتى ذلك الحين ، جعله يصطدم مع القائد الصقلبي واضح : محسوب الخليفة ، فلاحقه وسجنه وصادر أمواله . وحيث رأى الأسرة ، وقد تمزقت بقايا العامريين . أن لها الحق ، مع غيرها ، فى أن تغضب وأن تقاوم ، فاشتريت فى عمل المناهضة الصقلبية ، ولكن المؤامرة فشلت ، وجلبت على أحمد بن سعيد مصائب كبيرة .

ومع هذه الفتن اجتاحت الطاعون قرطبة ، وعاث فيها ، وفقد أحمد ابنه أبا بكر ضحية له ، فى شهر ذى القعدة عام ٤٠١ هـ = يونية ١٠١١ م ، وبعد عام كامل توفى أحمد نفسه صريع هذه الأحداث ، فى ٢٨ من ذى القعدة ٤٠٢ هـ = ٢٣ من يونية ١٠١٢ م ، وعلى صاحبة ١٨ عاما لما تكمل ، وكان عليه وهوى هذه السن الصرية ، وفى عنفوان تعاسة أسرته ، أن يواجه الموقف . وأن يدبر دفة الأحداث .

وبقيت كوارث أخرى أشد هولاً ، ففى نهاية شهر شوال ٤٠٣ هـ = مايو ١٠١٣ م ، استسلمت عاصمة الخلافة للبربر ، ودخلها سليمان المستعين خليفة للمرة الثانية . وليبقى شهرين فحسب ، ومعه نهبت قرطبة فى قسوة ، وانتهكت الحرم ، وعمت الاغتيالات والمذابح ، واجتاح الدمار ، بلا حساب ، كل الأحياء . وأتى البربر على بيت ابن حزم فى بلاط مغيب كاملاً . على نحو ( م ٦ - ابن حزم )

ما قص علينا في صفحة من النثر الجميل ، في كتابه «آطوق الحمامة» ، وكان على ابن حزم أن يهاجر إلى المرية في ١ من محرم سنة ٤٠٤ هـ = ١٣ من يولية سنة ١٠١٣ م .

• منفى ومتآمر :

في وسط هذه الدوامة من الفوضى والتمزق ، كان يحكم المرية خيران ، صقلبي من فتيان العامرين . ووه لها ابن حزم رفقة صديقه أبي بكر محمد ابن إسحاق ، وأمضيا في البدء أياماً هادئة ، بعيدين عن القلاقل ، فالمدينة أموية الولاء ، لما نزل - اسماً - تحت سيادة الخليفة ، وأصبحت قبلة العامرين والأمويين الفارين من قرطبة . وأمضى فيها ابن حزم أعواماً ثلاثة لم يتوقف عن تحصيل المعرفة ، وعن تكوين صداقات جديدة ، ففيها كما يحدثنا في «الطوق» انصل بطبيب يهودي ، يدعى اسماعيل بن يونس ، يتردد على دكانه ، ويجلس إليه في لمة من الأصحاب ، ولسوء الحظ فإن معلوماتنا عن هذا الطبيب معدومة ، لا نعرف عنه شيئاً إلا إشارة ابن حزم هذه .

ولكن خيران ما لبث أن رأى مستقبله السياسي في أن يتخلى عن الولاء لبنى أمية ، وأن يوازر على بن حمود الإدريسي في الاستيلاء على قرطبة ، فدخلها في زفة في ٢٢ من محرم ٤٠٧ هـ = ١ من يولية ١٠١٦ م . وأصبحت المرية مدينة عاوية لا أموية ، وبربرية لا صقلبية ، ولم يعد خيران ينظر بعين الرضا إلى هذين الشابين الرفيقين المشفقين ، يؤمنان بحق بني أمية في الخلافة ، حفاظاً على الشرعية ، وتمكيناً لهيبة الدولة ، ولا يقبلان هذا مساومة ، فاعتقلهما بتهمة التآمر ، وهي تهمة ربما كانت محتملة ، ولو أن ابن حزم أنكرها على أية حال ، وما لبث أن نفاهما .

ومنفيان في حصن القصر Aznalcazar ، قرية توجد في مقاطعة مالقة ، أو مرسية ، غير التي تحمل الاسم نفسه الآن قريبا من سان لوكر San Lucar سمعا من يتحدث عن ثورة قام بها أموى يطالب بالخلافة ، في أرض بلنسية

شرق الأندلس ، وأنه أعد جيشاً سوف يزحف به على قرطبة لملاقاة بنى حمود ، ليجمع الشمل ، ويعيد الخلافة ، ويوحد الدولة ، فلم يتردد لحظة ، ابن حزم وصاحبه أبو إسحاق ، وكانا فيبيعة النشباب ، من التوجه شرقاً إلى بلنسية في أول سفينة يجدان بها مكاناً

كان المطالب بالخلافة في هذه المرة شاباً من أحفاد عبد الرحمن الناصر ، يدعى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ، اكتشفه وحرضه على الثورة خيران الصقابي صاحب المرية ، بعد أن نسي أمسه وغير جلده ، وأصبح رسوله إلى منابر التجبي صاحب سرسطة ، والذي وقف إلى جانبه ، وزاد فطلب له العون من خليفة كونت برشلونة . وفي ١٠ من ذي الحجة ٤٠٨ هـ = ٢٩ من أبريل ١٠١٨ تجمع الجيش والأعوان في شاطبة ، وبويع عبد الرحمن بالخلافة ، وتلقب بالمرتضى . ولم تستطع قرطبة وقد طاله بها الشوق إن أمجاد الأمس الزاهر ، ونقد صبرها في انتظار من يطالب بالخلافة ، أن تتحمل المزيد من المعاناة والألم ، فاغتالت على بن حمود في ١ من ذي القعدة ٤٠٨ هـ = ٢٢ من مارس ١٠١٨ م ، فجم على صدرها آخره القاسم .

وبينما قرطبة تطوى الضاوع على ثورة صماء ، وكراهية غير مكتومة لبني حمود تحرك المرتضى نحوها على رأس جيشه . عن طريق جيان ، وكان ابن حزم ، فيما يرجح ، ضمن هذا الجيش ، وكانت عاصمة الخلافة مهدأة لاستقبال الخليفة ، وكل الظروف تجعل من النصر أملاً ممكن التحقيق ، لولا حيانة خيران ومثله في اللحظة الحاسمة . لقد ظن كلاهما ، في البدء ، أن المرتضى سوف يكون مجرد لعبة في أيديهما ، ظلالا يحتمان من ورائه ، فلما وجداه ذا شخصية قوية ، تآذرت على اتخاذ القرار المناسب في اللحظة المناسبة أضمرأه الخنجر ، ومن موقعهما مستشارين وحالفين قدما له نصيحة قاتلة : من الأفضل له ، قبل أن يتقدم إلى العاصمة ، أن يقضى على بنى زيري ، من بربر صنهاجة ، وقد استقروا في كورة

للبرية ، واتخذوا من غرناطة عاصمة لهم ، وكان على رأسهم حينئذ الأفريقي العجوز الداهية ، زاوى بن زيرى ، الذى لم يهزم أبداً ، والذى اضطر بعد قليل ، وفى قمة مجده ، أن يتنازل عن رياسته ، وأن يعود إلى إفريقية ليموت هناك مسموماً . وقد التقى الجيشان . وتحدثنا مصادر كثيرة عن نتيجة المعركة ، دون أن يقدم لنا أى منها تاريخاً لها ، محدداً وديقاً .

لقد هجم البربر بشراسة على جيش المرتضى ، وفى اللحظة الحاسمة تخلى عنه خيران ومنذر ، فتمزق جيشه شر ممزق ، وهرب المرتضى نفسه إلى وادى آش ، وفيها اغتالته حصابة مأجورة من المرية ، على حين توزع القتل والهرب والأسر جيشه ، وكان ابن حزم من بين الأسرى ، وطبقاً لما يذكره فى كتابه « الطوق » ، كان أثناء الأحداث قد تسلل إلى قرطبة سرا ، فى شوال من عام ٤٠٩ هـ = فبراير من عام ١٠١٩ م . للقيام باستطلاع الموقف السياسى ، وجس نبض المدينة على التأكيد .

وبعد أن أفلت ابن حزم من الأسر البربرى انسحب إلى شاطبة ، نفس المكان الذى تحرك منه جيش المرتضى التميمى فى ساعة نحس ، وفى شاطبة ، بين عامى ٤١٢ و ٤١٣ = ١٠٢٢ م ، فيما يحتمل ، حرر كتابه « طوق الحمامة » ، وله من العمر ٢٨ سنة ، استجابة لرغبة صديق له من المرية ، كتب إليه يقترح عليه أن يصنف له رسالة فى الحب ، ثم جاءه فيما بعد شخصاً إلى شاطبة ليراه ، ونزل معه فى داره مدة إقامته بها .

#### • بريق انتصار :

لم تطل فترة خلافة بنى حمود فى قرطبة ، وكانت أشبه بجملة بين قوسين فى تاريخ الخلافة الطويل ، على حد تعبير غرسية غومث ، فقد ضعف أمر القاسم بن حمود ، واضطرب الحبل فى يده ، وتسלט عليه البرابرة حتى احتقروه ، وأراد هو أن يخلص من سلطانهم فأحل السوداى مكانهم ، واتخذ منهم جنده ، وأخذ يضرب أولئك بهولاء ،

فتأمر البربر عليه ، بمعارضة يحيى وإدريس ابن أخيه ، فترك قرطبة ،  
وهرب إلى إشبيلية عام ٤١٢ هـ = ١٠٢٢ م . وتولى الخلافة مكانه يحيى  
الذى انصرف عنه السودان والبربر جميعاً ، فأثر السلامة ، وترك قرطبة  
كما تركها عمه من قبل ، في ٢١ من جمادى الآخرة سنة ٤١٣ هـ = ٩  
من سبتمبر عام ١٠٢٣ م . وبينما غن تطوق قرطبة من كل جانب ،  
بدأت تحاول شيئاً ببناء إلى أقصى حد ، وجديداً لم تألفه العاصمة من قبل ،  
إذا لم نقل ثورياً في عالم السياسة المضطرب : أن ينتخب الشعب الخليفة في  
المسجد الجامع ، طبقاً لأسمى قواعد الشريعة الإسلامية وأدقها ، أن  
يحيى الخليفة مختاراً لا وارثاً ، ولا معيناً من سابقه ، ولا مفروضاً بقوة  
السلاح . وهو تقليد يحدث للمرة الأولى منذ قيام دولة بنى أمية في الأندلس .

لم تكن ساطة الخلافة الفعلية في هذه اللحظة تتجاوز أحواز المدينة ،  
وماذا يهم ؟ . . . ألم يحدث شئ يشبه بهذا ، حين انحصر سلطان العاصمة  
في عصر الأمير عبد الله ، وتحمل القرطبيون المهانة ، في انتظار أيام مجيدة ،  
جعلت من قرطبة مصدر القوة والجلال والثقافة ، على أيام عبد الرحمن  
الناصر ، والحكم الثاني ، والمنصور بن أبي عامر ؟ . إن الأمل آخر شئ  
يمكن أن يفقده الإنسان العظيم .

وفي ١٦ من رمضان سنة ٤١٤ هـ = ٢ من ديسمبر عام ١٠٢٣ م ،  
وقع الاختيار على واحد من بين الأمراء الأمويين الثلاثة : سليمان بن المرتضى  
وعبد الرحمن بن هشام ، وعلى بن محمد العراقى ، ولم يكن أحد بدءاً  
يفكر فيه على الإطلاق ، اختاروا عبد الرحمن بن هشام ، خامس الخلفاء  
الذين حاولوا هذا الاسم ، وتلقب بالمستظهر . وكان الخليفة الجديد على حمالة  
سنه ، كما يصفه ابن خيكان : « لبقاً ذكياً ، يقطاً لودعياً ، ليبيد أديباً ، حسن  
السلام ، جيد القرينة ، مليح العبارة ، يتصرف فيما شاءه من الخطابة ،  
بديهة وروية ، ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة ، لم يكن في يده يومئذ

أبرع منه منزلة ، وكان قد نقلته المخاوف ، وتقاذفت به الأسفار ، ففتحك  
وتخرج وتمرن فيها .

كان المستظهر يطمح أن يعيد إلى الخلافة بهاءها ، وإلى قرطبة أمجادها ،  
فأحاط نفسه بخيرة الأدباء على أيامه ، وجلهم ينتمون إلى جماعة المثقفين  
الذين أشرنا إليهم من قبل . فكان بينهم ابن حزم ، وابن عمه أبو المغيرة  
عبد الوهاب ، وأبو عامر بن شهيد ، والشاعر البارح حسان بن مالك ،  
والكاتب الرائع ابن برد . ولكن هذا الاتجاه أحقد عليه الشيوخ ، ومحترفي  
السياسة ، والمنتفعين بالمصائب ، فضبوا يالبون عليه العامة ، ويشيرون الفتن  
والدسائس بين الخاصة ، ويبيعون الأحلام للظالمين ، فلم يستطع أن يبقى  
في الحكم أكثر من شهر ونصف ، فقد أعدم في ٣ من ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ  
= ١٧ من يناير عام ١٠٢٤ م ، وبذهاب الخليفة استقر ابن حزم في السجن  
من جديد .

#### ● خيبة أمل ، وتغيير الطريق :

في هذه اللحظة أشرق ذكاء ابن حزم وضيقاً ، ليقتنعه بأن العالم السياسي  
الذي ينتمى إليه ، وناضل من أجله ، انتهى تماماً ، مات ولا سبيل إلى بعثه ، وقد احتاجت  
قرطبة إلى سبعة أعوام كاملة بعده لتقتنع بالنتيجة نفسها . وعندها خرج من السجن ،  
والإحساس بالخيبة مملأ داخله ، قرر أن يتخلى بطريقة نهائية وحاسمة عن ممارسة  
السياسة ، فنبذ الوزارة وأطرحها اختياراً ، وأقبل على قراءة العلوم ، وتقييم  
الآثار ، من شريعة وفلسفة وتوحيد وتاريخ ، وظل موصول السبب بها  
حتى في أحلك لحظات حياته ، رجل دولة أو مغامراً أو لاجئاً ، « ونال من  
ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس » ، والشئ الوحيد الذي لم يتخلى عنه ،  
وما كان بوسع أن يفعل لأنه يحمله في دمه ، هو روح المخالفة والأصالة  
والجرأة ، ورافقت حياته دائماً . لم يستطع أن يكون تقليدياً مالكي المذهب ،  
ورأى كبار علمائه مرات كثيرة ، كما هو شأن كبار الفقهاء ورجال الدين  
عادة ، وفي كل مكان إلا ما ندر ، يتحالفون مع السلطان ، ويأتقون مع كبار

الموظفين ، وبغيتون موافقهم على النحو الذى يرضى الحكام ، فأصبح المذهب المالكي بفضلهم هو السائد فى قرطبة ، تعليماً وشعائراً وفتوى . وحوم حول المذهب الشافعى قليلاً ، وأقام عليه زمناً ، وراه أكثر توفيقاً وتعادلاً ، رغم قلة أتباعه ، ومناهضة الدولة لأوليائه ، ثم انصرف عنه ، فقد وجدته يلفظ أنفاسه ، وانتهى به المطاف فقيهاً ظاهرياً ، قبل عام ٤١٩ هـ = ١٠٢٩ م ، وكانت له من قبل صلوات بالمذهب ، ورفقة مع السائرين على دربه ، وصلات أدبية ، على الأقل ، مع علمائه .

أوفى مسجد قرطبة الجامع ، إلى جوار أستاذه الظاهرى ، أبى الخيار مسعود بن سليمان بن مغت الشنترينى ، أخذاً يدرسان أصول المذهب الظاهرى ، مع آخر أيام الخلافة ، وقد أصبحت هذه شكلاً مهلهلاً ، حوالى أعوام ٤١٨ - ٤٢٠ هـ = ١٠٢٧ - ١٠٢٩ م . وقد آثم علماء المالكية ، والجمهور من ورأئهم ، الأستاذين الجليلين بأنهما خطر على العقيدة ، ويفسدان تدين الشعب ، فاستشار صاحب المدينة فى أمرهما هشام الثالث ، آخر خليفة أموى ، ورمق قبل أن يدخل المدينة ليأمر من سلطاته ، وتقرر منعهم من تدريس المذهب الظاهرى . ومن تلك اللحظة أصبح ابن حزم عالماً ثائراً ، غير مرغوب فيه ، يواجه وحيداً التخلف والتقليد والجمود ، وتزييف نصوص الشريعة لخدمة الأقوياء ، وبدأ يبشر بفكر إسلامى راق ، وفلسفة مستقيمة ، ولم تفت رحيمته أبداً ، رغم كل المضاعف الجمة التى تعرض لها . ومع هذه المرحلة الجديدة من حياته سوف تقل معلوماتنا عنه كثيراً ، وسوف تصبح كتبه مصدرنا الوحيد لكتابة تاريخ حياته فيها .

#### • جهد ثماني عملاق :

حتى ولو أخذنا فى الاعتبار أنه عمر نسبي ، فإن ما قام به فى حق الدراسات الإسلامية كان فرداً وعملاقاً ومتميزاً ، ويقول عبد الواحد المراكشى ، فى كتابه « المعجب فى أخبار المغرب » ، وألفه فى ظل الموحدين وهم ، يناهضون المالكية ، فجاءت أخباره بعيدة عن التعصب ، قريبة إلى الواقع ، إن ابن حزم

كان أكثر أهل الإسلام تصنيفا ، وإنه « صنف في الفقه والحديث والأصول والنحل والمال ، وغير ذلك من التاريخ وكتب الأدب ، والرد على المخالفين له ، نحواً من أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ، وهذا شيء ما علمناه لأحد من كان في مدة الإسلام قبله ، إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري » ، وبعض هذه المجلدات كما نعرف رسائل صغيرة ، ولو أن ذلك لا يقلل من جهد المؤلف ؛ ولا من قيمة الرسالة . ومحال أن نقف في هذه العجالة عند هذه المؤلفات محللين ؛ ونحيل الراغبين في هذا إلى الدراسة القيمة التي قام بها ميجيل أسين بلاثيوس لهذه المؤلفات ؛ في كتابه العظيم عن « ابن حزم القرطبي » ؛ وقد نقلناه إلى اللغة العربية ؛ وسوف يصدر عن قريب . ولقد أرى ؛ ويرى غيري معي ؛ أن الأمر رغم ذلك يحتاج ؛ على المدى البعيد ؛ إلى جهد آخر متأن ؛ في ضوء ما عثر عليه من مخطوطات جديدة ؛ وما نشر له أخيراً من تراث .

يكفي أن نقف هنا عند كتابه « طوق الحمامة » ، وسنعرض له تفصيلاً فيما بعد ، وأن نشير من بين أعماله إلى مؤلفاته ذات الأهمية القصوى في الفكر الإنساني ، على امتداد كل العصور ، ولم تذهب به الأحداث . ويأتي في مقدمتها كتابه المسمى « الأخلاق والسيرة في مداواة النفوس » ، وقد أجمل أسين بلاثيوس وصفه بقوله : « إنه أشبه بيوميات دون فيها ابن حزم ملاحظاته ، أو اعترافات تتصل بحياته ، وتأتي الملاحظات في ثنايا الكتاب دون ترتيب يقصد به إلى التربية والتعليم ، ولم يراع في تنسيقها منطقاً . ونحن إذ نقرؤه نجد فيه الوقائع كما سجلها رجل يقظ ، دقيق الملاحظة ، أثناء تجاربه الواسعة ، وصاغها في قالب مبادئ عامة وحكم ، وأعظم قيمة لهذا الكتاب ، وألفه ابن حزم وقد اعتزل الناس في قريته منت لشم ، وصدر عن نفس يشوبها التشاؤم والتصوف ، أنه يقدم لنا صورة حقيقية وحية لنفسية مسلمي الأندلس في القرن الحادي عشر ، وقواعد الأخلاق التي كانت مرعية في مجتمعهم ، إلى جانب الفقرات التي تتصل بحياة ابن حزم نفسه » .

ثم كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، وهو تاريخ تقدمى للأديان والفرق والمذاهب ؛ غنى بمادته وأفكاره ، وحاول فيه ابن حزم أن يوفق بين العقل والعقيدة ، فسبق ابن رشد في ذلك بقرن من الزمان ، ويعرض لشتى مذاهب الفكر البشري في موضوع الدين ، من الإلحاد المطلق لا يؤمن أصحابه بشيء ، إلى إيمان العوام بمسجون كل شيء . ويرى أن خير العقيدة ما أخذ طريقاً وسطاً بين العقل والنقل . مما يطابق تمام المطابقة المذهب الظاهري الذي كان هو نفسه عليه .

وخلف لنا ابن حزم مادة طيبة في التاريخ ، يهمن أن نشير من بينها بخاصة إلى كتاب « جبهة أنساب العرب » ، وهو أحسن قائمة بانساب العرب في الغرب الإسلامي ، ولئن بارسون تاريخ الإسلام في المشرق والأندلس : وكتاب « نقط العروس » ، وهو رسالة موجزة عن تاريخ الخلفاء والحكام في المشرق والأندلس ، وفيما يبدو كن نقاطاً وضعها ابن حزم لينشئ حولها كتاباً مطولاً . وله رسالة في « بيان فضل الأندلس وذكر علمائه » ، وجاء المقرئ بنصها كاملاً في « نفح الطيب » ، وحررها ابن حزم رداً على رسالة تلقاها ابن عمه ، أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم ؛ من أديب القيروان ابن الريب التميمي ، أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد ، وربما كانت الأولى في تاريخ الأدب الأندلسي ، وأول محاولة للإشادة بأمجاده ، ورغم قصرها جاءت شامة بما ألف الأندلسيون في صنوف الآداب والعلوم .

ولابن حزم مؤلفات أخرى ، فلسفية وفقهية أو في علم الكلام ؛ أو التاريخ ، أو الأدب الخالص ، وأحيل لغارئ بشأنها إلى الكتاب الذي أشرت إليه في بداية الكلام .

#### • في مواجهة العواصف :

أنجز ابن حزم هذا العمل العملاق وهو يواجه أعنى العواصف والأعاصير ، هدفاً لكل ألوان الحق والكرهية والتآمر ؛ اضطهده صغار ملوك اللوائف ،

وكلهم صغار ، وأنهم رجال الدين بالمرق ، فلم تلن له عريكة ، ولا وهن منه عزم ، وبقي وحده ، ومعه قلة مؤمنة صابرة من أصحابه وتلاميذه ، يواجهون المحنة في صلابة ؛ جباههم عالية ، وقاماتهم مرتفعة ، يحركون الأفكار الجامدة ، وينثرون العقول المظلمة ، وهزون مسلمات كثيرة متخلفة ؛ ومن هنا فإن الجانب الأكبر من مؤلفاته الفقهية والعقائدية ، ولد كلاماً يقال ، جدلاً عنيفاً مع خصومه ، وإدانة صريحة لهم ، وكانوا يتمتعون برهابة الدولة وحمايتها .

كان ابن حزم مجادلاً لا يكل ، جاد الكلمة ، عنيف المناظرة ، واحفظ جانب كبير من إبداعه بحرارة الحوار وشدته ، وكان في حيويته هذه ، في القرن الحادى عشر ، «مدرسية Scolastique» حية ومتوهجة ، تفوق «مدرسية» المسيحيين في أوروبا ، وقد أفرغوا الحوار من محتواه ، ودفعوا به جملاً باردة ، لاروح فيها ، مما حكة خواء ، ورغم أنها بداية من عصرها الثانى ، مع الدم الجديد الذى تدفق إليها من الفلسفة الإسلامية عبر الأندلس ، ومع توماس الأكوينى ، شهدت فترة ازدهار وحياة ، إلا أنها كانت تهم للعلماء وحدهم ، وقليل ما تتجاوز آثارها قاعة البحث ، أما في قرطبة القرن الحادى عشر ، فكانت تهم الجمهور كله ، ويتابع صداها شغواً . لقد تميزت «مدرسية» قرطبة ، بشدة الإيقاع ، وأصالة المحتوى ، وحرية المنهج ، والدفع والتجدد والبساطة ، ومشاركة عامة الناس على نحو ما .

لقد عاين ابن حزم من ألوان الظلم ما أنضب في أعماقه معين الرقة واللين ، وشاهد من مساات السياسة ما نفره منها ، وأوذى في نفسه وكرامته ، فاعتزل الدنيا محاصراً ووحيداً ، قرينه منت لشم ، من بادية ولبة ، يواصل رسالته بنفس القوة التى بدأ بها حياته ، شاباً واعدأً ومتاضلاً عنيداً ، «يبث علمه فيمن ينتابه بباديته تلك ، من عامة المقتبسين منه ، ومن أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة ، يحدتهم ويفقههم ويدارسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ؛ والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف ، حتى

كل من مصنفاته في فنون العلم وقر بعير . لم يعد أكثرها عتبة بابيه ، لتزهد  
الفقهاء طلاب العلم فيها ، حتى أحرق بعضها بإشيلية ، ومزقت علانية ،  
ولا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة في نشرها ، وجدالا للمعاند فيها ، إلى أن  
مضى لسبيله .

في رسالة ابن حزم « فضائل أهل لأندلس » فقرة ، كأنما عني بها نفسه ،  
رغم أنه كتب الرسالة في زمن مبكر نسبيا ، ولا يستطيع الدارس لحياته أن  
يمر بها دون أن يقف عندها . يقول : « أزهق الناس في علم أهلهم ، وقرأت  
في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا يفقد النبي حرمة إلا في بلده » .  
« ولا سبيا أندلسنا . فلما خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم ،  
الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به . واستهجانهم حسناته ، وتبجحهم  
سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته . بأضعاف ما في سائر البلاد .  
إن أجاد قالوا : سارق مغير ، ومنتحل مدع . وإن توسط قالوا : غث  
بارد ، وضعيف صاقل . وإن باكر الحيازة لقصيب السبق قالوا : متى كان  
هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أي زمان قرأ ؟ ولأمة الهبل ! .

وبعد ذلك إن ولجت به الأقمار أحدطريقين ، إما شفوفاً بائناً يعليه على  
نظرائه ، أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها ، فهناك حمى الوطيس على  
البائس ، وصار غرضاً للأقوال ، وهدفاً للمطالب ، ونصباً للتسبب إليه ،  
ونهباً للألسنة ، وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نحل ما لم يقل ،  
وطوق ما لم يتقلد ، وألحق به ما لم يفه به ، ولا اعتقده قلبه ، وبالخرى  
وهو السابق المبرز ، إن لم يتعلق من السلطان بحظ ، أن يسلم من المثالف ،  
وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليف غمز ولمز ، وتعرض وهمز ،  
واشتط عليه ، وعظم يسير خطبه ، واستشنع حين سقطه ، وذبحت محاسنه ،  
وسترت فضائله ، وهتف ونودي بما أغفل ، فتتكسر لذاك همته ، وتكفل  
نفسه . وتبرد حميته . وهكذا عندنا نصيب من ابتداء يحوك شعرا ، أو يعمل  
بعمل رياسة ، فإنه لا يفلت من هذه الحبال ، ولا يتخلص من هذه النصب

إلا الناهض الفائق ، والمطفئ المستولى على الأمد .

• محافظون ومجددون :

هذا الموقف من رجل كان أستاذ نفسه ، حاد الذكاء ، موسوعي الثقافة ، صلب العزيمة بلا حدود ، عنيف المواجهة دون مثال ، لعب دوراً هاماً في تطوير الفكر الأندلسي ، وزعزعة المسلمات الأساسية للثقافة السائدة ، والرسمية في الوقت ذاته ، لقد احتضن الأندلس حتى القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ، لونين من الثقافة ، يسيران في خطين متوازيين دون أن يلتقيا : المحافظون وهم الكثرة الغالبة ، والمتحررون . وكان المحافظون وأعني بهم علماء المذهب المالكي السائد في الأندلس ، وقفوا بنشاطهم الثقافي عند حد التشريع العملي ، لا يتجاوزونه إلى مشاكل الثقافة المتصلة بالعقيدة نفسها ، واتهموا كل من يتكلم في المنطق بالزيف ، وكل تفكير عقلي في مسائل الدين بأنه زندقة . وكان الاتجاه الثاني يتحرك بين قلة مثقفة ، ولكنها لا تنطمح ، ولا ترى لها مصلحة ، في مواجهة المحافظين أو الدخول معهم في خصام ، وارتضت لنفسها أن تقف منهم ساخرة ومتجاهلة .

وقد ظل المالكية حتى القرن السادس الهجري يقاومون الأشعرية ، ولكنهم تركوا الأرسطوطالية تتحرك في حرية ، وقد وصلنا كتاب « تقويم الذهن » لأبي الصلت الداني ، أمية بن عبد العزيز ، المتوفى عام ٥٢٨ هـ = ١١٣٤ م ، وهو رسالة في المنطق ، توجز آراء أرسطو . وكان ابن حزم عالماً فرداً ، واتجاهاً متميزاً ، ولم يكن مالكيّاً ولا أشعرياً ، ولا زاهداً ولا أرسطوطاليسياً ، بل واتهمه ابن حبان بأنه لم يفهم أرسطو ، ومحدود الأنباع كظاهري ، يبذل جهداً فائق النظر ، لكي يقيم جسراً بين العقيدة والمنطق .

ومهما يكن من أمر ، فقد نضجت شخصية ابن حزم ، واستكمل عده ، ومكنت له الأحداث من صقل مواهبه ، وزادته اعتداداً بنفسه ، ففضى في طريقه ، يتمرد على التقاليد القائمة ، ويشور على الجمود الديني ، ويهاجم

المذاهب المختلفة ، فقهية وكلامية ، مسلمين وغير مسلمين ، مهاجمة عنيفة متصلة ، كلما أتاحت له الفرصة ، بالمناظرة في المجالس ، وبتأليف الكتب والرسائل ، واتسم جدله بقوة الحججة ، ونصاعة البيان ، وقوة الدليل ، ولكنه وقد ملك لساناً ذرباً ، مسلحاً باللغة المواتية ، حتى قال عنه الصوفي الأندلسي ابن العريف : « لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان » ، لا يقف عند البيان والبرهان والإقناع ، وإنما يحتد في أحيان كثيرة ، فيتجاوزها إلى التسفيه والتكفير والتفسيق . وهي حدة تعود في جانب منها إلى عصبية مزاجه ، واعتلال صحته طفلاً ، ولا أراها مما يعاب عليه جملة ، فهي تأتي منه ، غالباً ، في موضعها ، وقولة الحق تحتاج دائماً من المؤمن بها إلى صوت مرتفع ، لتوقظ نائماً ، وتذبه غافلاً . يقول عن نفسه :

« ولقد أصابني علة شديدة ، ولدت على ربوا في الطحال شديداً ، فولد ذلك على من الضمجر : وضيق الخلق ، وقلة الصبر والنزق ، أمرا حاصبت نفسي فيه ، إذ أنكرت تبدل خفي ، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى : وصح عندي أن الطحال موضع الفرح إذا فسد تولد ضده » .

وهكذا انصدع ما بين ابن حزم وعلماء عصره ، وكان منه ما أسماه ابن حيان « أنه يجهل سياسة العلم » ، وجعلها مصادر معظم أخطائه . ونحن نكتب عن حياة عظيم ، مرت عل وفاته أكثر من ألف عام ، وعاش في بيئة جد مختلفة ، يستحيل علينا أن نجزم ، أوحى فرجح ، ما كان عليه أن يتبعه من سياسة في ملاقة معاصريه .

• مناظرات وملاحقه :

لا نعرف ، كما أشرنا من قبل . شيئاً دقيقاً وموثقاً عن الأعوام الأخيرة من حياة ابن حزم . نعم ، نعرف أنه أصبح مثقفاً عنيداً ، أخا سافر ، جواب آفاق ، يتنقل بين دول الطوائف المختلفة . يخاور العلماء ويجادل الفقهاء ، ويتناظر أهل الكتاب ، ولا عنف دائماً . كما هي عادته . صنع ذلك في قرطبة والمرية وطلبيرة وميورقة ، وربما في مدن أخرى لم يصلنا خبرها . وفي

ميورقة ، وجاءها لاجئاً بعد عام ٥٤٣٠ = ١٠٣٩ م وجد الحماية والتقدير في شخص عاملها الوزير الكاتب أبي العباس ، أحمد بن رشيق ، وكان مولى لبني شهيد ، وتأدب في قرطبة . ووجد أيضاً مزاحمة شديدة في شخص قرطبي آخر مثله ، أصغر منه سنّاً أبو الوليد الباجي ، من كبار فقهاء المالكية ، وكان قد رحل إلى المشرق ، ولبت في رحلته هذه ثلاثة عشرة عاماً ، لقي فيها كبار العلماء في الفقه والحديث وعلم الكلام ، « فبرع في الحديث وعلمه ورجاله ، وفي الفقه وغوامضه وخلافه ، وفي الكلام ومضايقه » ، وكان إلى هذا ، كابن حزم ، أديباً يقول الشعر ، ويحسن تدبيج الكلام .

ولما عاد من رحلته وجد ابن حزم مجادلاً ، وصاحب مذهب متميز ، تسد شهرته الأفق ، وخصومه من الفقهاء وغيرهم ضائقون به أشد الضيق ، وعاجزون عن ملاقاته أبلغ العجز ، ففرحوا بمقدم أبي الوليد الباجي إلى ميورقة ، وأثاروه على ابن حزم ، رغم ما بين الرجلين من إعجاب متبادل . وانعقدت بينهما المناظرات في الفقه ، وعلم الكلام أيضاً ، وكان أبو الوليد مقدم الأشاعرة في الأندلس ، وابن حزم خصماً لدوداً لهم ، وليس ثمة شك في أن ابن حزم وجد في مناظره لوناً جديداً من العلماء لم يعهده من قبل ، وسوف يعترف فيما بعد ، في رسالته عن « فضائل أهل الأندلس » : « لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي ، بعد عبد الوهاب ، إلا مثل أبي الوليد لكفاهم » .

لم يتوقف الذين عجزوا يوماً عن مواجهة ابن حزم في ساحة الجدل والمناظرة عن الكيد له ، والدمس عليه ، عند سلطات الجزيرة ، فلم يجد بداً من تركها ، وما من أحد في ملوك الطوائف يرغب في أن يستضيف بأرضه عالماً مزعجاً ، لا بسبب آرائه الدينية فحسب ، وإنما لاتجاهاته السياسية أيضاً ، فقد ظل ابن حزم متمسكاً بشرعية الخلافة الأموية ، لم يتزحزح عن رأيه أبداً ، حتى عندما أصبحت نظرية مجردة ، لاصلة لها بالواقع ، ولا مطمح أن تعود ، ولكنه لم يشارك في اللعبة السياسية المعقدة التي كانت تجري على أيامه هذه ، ولم يحتضن فكرة أية جماعة معارضة ، وفي رسالته « التلخيص

لوجوه التخفيض » ، وجاءت رداً على سائل يطلب الرأي عنده في قضايا كثيرة . سؤال عن الموقف الذي يجب على المرء أن يتبعه « من أمر هذه الفتنة ، وملابسة الناس بها . مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض » ، كانت لإجابة ابن حزم : « ... فالخلص لنا فيها الإمساك بالألسنة جملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذم جميعهم . فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه » . ولقد ذم ماوك الطوائف جميعهم في رسالته هذه ، وحمل عليهم في غير هودة : « وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أئدلسنا هذه ، أولها عن آخرها . محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد . والذي ترونه عياناً من شتم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم . وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها . ضاربون المكوس والجزية على رقاب المسلمين ، مسيطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله » . ونحن « نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم » ، « وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً . فأخاوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس . لعن الله جميعهم . وساطع عليهم سيفاً من سيوفه » .

ولم يرحم طائفة من الفقهاء على أيامه ، وعلى أيامنا أيضاً ! . فتاواهم معدة ، وأقلامهم مشرعة ، يدعمون بها الطغاة خوفاً ، ويبررون لهم المظالم طمعا ، ويسبحون بحمد الحاكم ملقا ، ويشغلون عامة الناس عن الجاد من أمور الدنيا ، بغير العاجل من شئون الآخرة . « فلا تغالطوا أنفسكم ، ولا يقرنكم الفساق والمنسبون إلى الفقه : اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم » .

وأقصى هجوم خص به ماكا من الطوائف ، كان موجهاً ضد أمير غرناطة ، باديس بن حبوس الذكي الدموي الداهية ، رأس البربر ، وخليفة

زاوى بن حبوس الذى قضى على محاولة المرتضى ، على نحو ما أشرنا ، وأخذ ابن حزم سجيننا ، ذلك أن باديس جمع فساد بقية ملوك الطوائف وزاد عليه بأن اتخذ وزيره الأول ، ومستشاره الأمين ، من اليهود ، ابن النغيلة الشهير الذى مكن لأبناء قومه من رقاب المسلمين ، فسيطروا بعون منه على الاقتصاد والإدارة ، ثم أخذته العزة بالإثم « فألف كتاباً قصد فيه ، بزعمه ، إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل فى القرآن اغتراراً بالله تعالى أولاً ، ثم بملك ضعفه ثانياً ، واستخفافاً بأهل الدين بدءاً ، ثم بأهل الرياسة فى مجانة عوداً » . وقد رد عليه ابن حزم قوياً وغنيماً فى رسالته : « الرد على ابن النغيلة اليهودى » ، فنقض آراءه ، وفند حججه ، وبين مساوئ قومه ، وأراد لصوته أن يكون عالياً وقاسياً ليبلغ ملك غرناطة ، ودون أن يذكره بالاسم حمل عليه ناقداً ومهدداً ومستنهضاً : « إن أُملى لقوى ، وإن رجأتى مستحكم ، فى أن يكون الله تعالى يسلط على من قرب اليهود وأدناهم ، وجعلهم بطانة وخاصة ، ما سلط على اليهود ، وهو يسمع كلام الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم فإِنَّه منهم » . « وإن من فعل ذلك لحرى أن يشاركهم فيما أوعد الله تعالى فى توراتهم » ، فى السفر الخامس ، إذ يقول لهم تعالى : « ستأتىكم ، وستأتى عليكم ، دذه اللعنة التى أصف لكم ، فتكونون ملعونين فى مدائنكم وفدائينكم ، وتلعن أجدادكم وبقاياكم ، ويكون نسلكم ملعوناً ، وتكون اللعنة على الداخل منكم والخارج » .

هل قنع ابن حزم بهجومه الفكرى ؟ .

فى كتاب « الذخيرة » لابن بسام ، فقرة مثيرة ، نقلها عن المؤرخ القرطبى العظيم ابن حيان ، جاءت خلال حديثه عن الهزيمة المريعة الى أوقعها باديس ابن حبوس ، أمير غرناطة ، بزهير الصقلبى أمير المرية ، وفيها أن باديس ظهر على قوم من وجوه رجال زهير ، ففعل على الفرسان والقواد بالقتل ،

واشتمل الأسارى على حملة الأفلام ، وفهم وزيره التياه أحمد بن عباس الجار لهذه الحادثة ، قيد إلى باديس وصدرة وصدور أصحابه تغلى عليه ، بما أوقد من هذه النائرة ، فأمر بحبسه ليستخرج منه مالا ، وشفائه الولوغ دمه ، وعجل عليه بعد دون أصحابه من حملة الأفلام ، عف باديس عن دماهم من بين أصحاب السيوف إلا من أصيب منهم فى الحرب ، وأطلق ابن حزم والباجى وغيرهما . ويرى غرسية غومث أن الإشارة هنا تنصرف إلى ابن حزم صاحبنا ، وقد ارتبط بالمرية دائما ، ولعله أراد أن يثار لأسره الأول فوق فى الأمر الثانى ، وكان برفقة أبى الوليد الباجى ، مناظره اللدود والعنيد فى مناظرات ميورقة . بينما يرى الأستاذ الجليل ، الدكتور طه الحاجر ، فى كتابه «ابن حزم : صورة أندلسية» وقد وقع على النص قبل أن تقع عليه عين المستشرق الاسبانى ، والتفت إليه ، أنها تنصرف إلى أبى المغيرة .

كان عداء ابن حزم لباديس أمير غرناطة ، ورأس البربر فى الأندلس ، عنيفا وجادا وله ما يبرره ، ولكنكم يلقى به ، وهو رجل مبدأ لا يحيد عنه ، فى أحضان الحزب المعارض لباديس ، وهم بنو عباد فى إشبيلية ، مع ما كانوا عليه من سخاء وترف بعامة ، ومع رجال الفكر بخاصة ، وكانوا ، بحق ، قادة الجانب العربى فى معركة النزاح بين الأجناس المختلفة ، وسادة المنطقة التى استقر فيها بيت آل حزم من قديم ، وبها تراهم وديارهم ، ورغم ذلك كله ، أدار لهم ابن حزم ظهره ، لأنه صلب العقيدة ، طاهر السيرة ، يرى الخلافة شرعة ، وفى بنى أمية شرعا ، لا يساوم ولا يتراجع ولا يتأول ، ولا يرتضى أنصاف الحلول . وكان المتعضد أمير إشبيلية ، وحكم من ١٠٤٢ م إلى ١٠٦٩ م ، كقرينه أمير غرناطة ، دمويا قاسيا ، يأخذ بالظنة ، ويخفر الدمة ، ويبلغ فى المثلة ، فلم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سام عليه قريب ولا بعيد ، ولا بد أن رأى ابن حزم فيه كان كراهيه فى باديس . ونجمل التاريخ أو الظروف التى أمر فيها أمير إشبيلية بتمزيق كتب ابن حزم ، وحرقتها علانية ، وفيها نظم ابن حزم أبياته الشهيرة عندما بلغه أمرها ، والتقطها كل الذين أرخوا له :

دعوني من إحراق رق وكاغد  
وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى  
فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذى  
تضمنه القرطاس ، بل هو فى صدرى  
يسير معى حيث استقلت ركائبي  
وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى  
● هزيمة دون كيشوته :

وحيداً ضد الجميع ، وضد كل شيء ، وأشد مرارة وتشاؤماً من مواطنه  
كيشوته الإسباني ، بطل رواية مرفانتييس الشهيرة ، وعاش على الأرض نفسها ،  
بعده بخمسة قرون ، وذهب كلاهما ضحية أحلامه . وقد حدد لنا ابن حزم  
منهجه فى كتابه « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » : « لا تبذل نفسك  
إلا فيما هو أعلى منها ، وليس ذلك إلا فى ذات الله عز وجل ، وفى دعاء  
إلى حق ، وفى حماية الحريم ، وفى دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى ،  
وفى نصر مظلوم ، وبإذل نفسه فى عرض الدنيا كبائع الباقوت بالخصى » .  
و « إننى لا أبالى فيما أعتقد حقاً عن مخالفة من خالفته ، ولو أنهم جميع من  
على ظهر الأرض ، وإننى لا أبالى موافقة أهل بلادى فى كثير من زهم الذى  
قد تعودوه لغير معنى ، فهذه الحصلة عندى من أكبر فضائل التى لا مثيل لها » .  
لقد دافع عن الإسلام الحق بعنف ، عقيدة وسلوكاً ومنهجاً فى الحياة ،  
ودعا إلى سلامة الباطن ، وخفوص النية ، واستقامة العمل ، وناضل  
عما يؤمن به دون هوادة ، وفى كل مكان ، وأثار على أعدائه حرباً شعواء  
متصلة . دافع عن الإسلام فى وطنه وبين أهله ، وبعيداً عنه خارج حدوده ،  
بالموعظة الناصحة ، والشروح الكاشفة ، والمواجهة الحاسمة عند الضرورة ،  
وحين نظم نقفور فوكامس إمبراطور بيزنطة ، مزهواً بانتصاراته ، قصيدة  
قدم فيها الإسلام ، وبعثها إلى الخليفة المطيع فى بغداد ، تولى ابن حزم الرد  
عليه ، بقصيدة أبان فيها فضائل الإسلام ، وكشف عن تناقضات المسيحية ،  
وأرسلها إليه ، وأورد لنا السبكي نصها فى كتابه « طبقات الشافعية » .

وظل حتى آخر رمق من حياته يدافع عن شرعية الخلافة الأموية في الأندلس ، وقد اختفت إلى الأبد ، وشديد القناعة بأن « نوار الفتنة لا يعقد » . وكان يحس بأنه لم يخلق لعصر الطوائف ، وظل يبشر بمذهبه الظاهري وسط المتاعب والصعاب ، و « مواجهة الجميع » ، ويقاوم نفوذ اليهود وسيطرتهم على الاقتصاد والسياسة ، على نحو ما فعل مواطنه أبو إسحاق الإلبيري ، وكان شاعراً وفقياً ، ودفع بقصيدته الرائعة مسلح غرناطة موطنه ، إلى الثورة على مظالم يهودها ، فانتقموا منهم ، وأتوا على نفوذهم ، في يوم عاصف مربع . وانتهى المطاف بابن حزم وحيدا ، فكراً وإحساساً ورفقة ، شبعا لعصر مضى ، وكان عليه أن ينسحب إلى ديارهم الأولى في قرية منت لشم ، من وديان ولبة ، في تاريخ نجهله لسوء الحظ ، رفقة أولاده فحسب ، ولم يحدثنا عن أسرته القريبة أبداً ، في كل ما كتب ، ومع عدد قليل للغاية من تلاميذه الأوفياء .

آية مشاعر حزينة كانت تغمره ، وهو يعود إلى قريته في الريف مهزوماً ، مغلوباً على أمره ، قريته التي خرج منها جده قبل جيلين فقط ، مغمورا ينتسب في أسرة اعتنقت الإسلام من قريب ، وصنع لها والده مجداً موثلاً ، يومها كتب في « الأخلاق والسير » : « أشبه ما رأيت بالدنيا خيال الظل » ، وهي تماثيل مركبة على مطحنة خشب تدار بسرعة فتغيب طائفة وتبدو أخرى ، ولم يتوقف هناك عن العمل ، مضى في قريته يؤلف كتبه ، ويعرر رسائله ، ولو أنها على حد تعبير ابن حيان : « لا تتجاوز عتبة داره » ، وأوضحها كتابه « الأخلاق والسير في مداواة النفوس » . وهو سلسلة من الاعترافات سجلها وله من العمر ٦٩ عاماً شمسياً ، أو ٧٢ عاماً قمرياً ، وتوفي برحمه الله في ٢٨ من شعبان ٤٥٦ هـ - ١٥ من يولية ١٠٦٣ م :

كأنك بالزوار لي قد تناذروا	وقيل لهم أودي على بن أحمد
فيارب محزون هناك وضاحك	وكم أدمع تدرى وخذ محمد
عفا الله عني يوم أرحل ظاعنا	عن الأهل . حملوا إلى بطن ما جد

وأترك ما قد كنت مغتبطاً به      وألقى الذى آتست دهرًا بمرصد  
فوارا حتى إن كان زادى مقدما      ويانصبي إن كنت لم أتزود

• تلاقى التقيضين :

درج الباحثون على تقسيم حياة ابن حزم الأدبية إلى مرحلتين هما ، فيما يرى أسين بلاثيوس : « واحدة حتى الثلاثين من عمره ، والأخرى منهما حتى موته » . وفى الأولى وقف حياته على الأدب والسياسة ، وفى الثانية ترك السياسة ليتفرغ للدراسة الشريعة والعقائد . وهى تفرقة يمكن أن تكون مقبولة كتبسيط نظرى فحسب ، لأن المرحلتين تعايشا واقعا ، على امتداد حياته ، ولهذا ألقينا على حياة ابن حزم كلها نظرة شاملة ، ودون ذلك ليس ثمة مجال لالتقاط نفسيته شابا ، ومعرفة الكثير من إشارات طوق الحمامة ، وإدراك عدد من فقراته يتوقف على الإلمام بها .

ويرى غرسية غومث ، ودون أن أمضى معه إلى نهاية الطريق ، أن تلاقى الأضداد فى شخصية ابن حزم ، وازدواجية الصوت عنده ، وتجاور اللطف والخشونة ، والرقّة والعنف ، والنبيل والعامية ، دون أن يذوب أحدهما فى الآخر ، يجعل منه شخصية محببة لنا ( الضمير يعود على الإسباني ) ، لأنها قضعه إلى جوار عدد من أقسم الأدب الإسباني فى عصره الذهبى ، أولئك الذين يتجلى فيهم مزاج الشخصية الإبرية واضحاً ، مثل الشاعر القرطبي جونجرة Gongora ( ١٥٦١ - ١٦٢٧ ) ، والموسوعى كيبيدو Quevedo ( ١٥٨٠ - ١٦٤٥ ) ، ونستطيع أن نذكر آخرين كثيرين ، ليس بينهم ثرفانتيس مؤلف الرواية العالمية الخالدة دون كيخوته ، وأعطانا المثل رائعا ، ولا يتكرر ، كيف تلتقى متناقضات صلاتنا الجذرية فى تركيب إنسانى ومفهوم ، حلوا وحزين ، وإلى ذلك ، وفى خط مواز له ، يمكن أن نضيف الشموخ الإسباني ، وأعطانا ابن حزم خلاصته فى بيت شعري ينضح خبلاء ، وفى مرات كثيرة اتخذت منه رمزا للإسلام الإسباني :

أنا الشمس فى جو العاوم منيرة      ولكن عيبي أن مطالعى الغرب

• لائق على الدوام :

كان ابن حزم متمرداً وثائراً في شببته الأدبية ، وفي شيخوخته العلمية ، وحتى آخر رفق من حياته ، مع ظلال مختلفة . توائم كل فترة ، وقليلون سبقوه في أفكاره ؛ وأقل أولئك الذين ساروا بعده على طريقه ، وحتى أبناؤه أنفسهم كانوا عاديين ، تخلصوا من نير الأدب ، والتصقوا بعصرهم ، وأشهرهم الفضل أبو رافع ، وأصبح وزيراً لبني عباد في إشبيلية ، وشاعرهم المداح ، وما أشد ما كرههم أبوه ! ، ومات في معركة الزلاقة لكي ينتصر المرابطون وهم أشد التصاقاً بالمذهب المالكي ، وضيقاً في فهمه ، وانصباعاً لفقهائه ، وكانوا أشد الناس ملاحقة لأبيه . ولقد تبعه إلى قريته عدد قليل من الطلاب ، ولكن المدرسة الظاهرية ، وتحديد أسين بلاثيوش لها في دراسته لابن حزم لا يعلى عليه ، ظلت موضع الملاحقة حتى في المغرب ، ولم يبق لها غير حياتها الذاتية بالكاد . وأما الثناء النسبي الذي حظى به ابن حزم في عصر الموحدين ، والتقدير الذي حظى به من علماء حباقة ، كالغزالي ، وابن عربي ، وابن رشد ، فيعود أكثره إلى ظروف سلبية ، كعارضتهم لفقهاء المالكية ، أو إلى توافقات عقلية في المقام الأول ، أكثر مما تعود إلى تقبلهم لآراء ابن حزم ، وشق عليهم من بينها مناهضته العنيفة للأشعرية . والحق أن معظم الدارسين على أيامه ، وبعدها ، حاول أن يرسل به إلى زوايا النسيان ، لأنه هاجم الجميع ، ولم يقف بهجومه عند المسلمين ، لقد هاجم ، وبعنف كالعادة ، اليهود والمسيحيين ، واستطاع هؤلاء فيما بعد أن يردوا له الصاع صاعين ، حين مضى إلى ركاب الله ، وبدأ عصر الترجمة في الأندلس المسيحية ، فلم يأخذ اسمه طريقه إلى أوروبا في تلك الفترة ، ولم يصبح في قامة علماء كانوا دونه ، كابن رشد وموسى بن ميمون ، فخفت اسمه ، وتلاشت سيرته ، وظلت مؤلفاته تحت الأرض لا يعرفها إلا عدد قليل للغاية ، وظل كذلك إلى أن اخترعت المطبعة العربية ، وازدهر عصر الاستشراق ، وأفلتت الدراسات الأندلسية في إسبانيا من قبضة التعصب ، واستردت القاهرة قيادتها الثقافية للعالم العربي .

وإنه لم يرحقاً ، أن العداوة البالغة ، لهذه الشخصية العملاقة في تاريخ  
الأدب الأندلسي ، أسهم فيها رجال الدين المتخلفون في العالم الإسلامي  
المعاصر ، واضطلع بالجانب الأكبر منها العلم الأوربي ، واشترك فيها عدد  
غير قليل من الإسبان ، فظل اسم ابن حزم ، وعلمه ، موضع جدل كبير  
ونقاش حاد ، ولكن أحداً لم يستطع أن يشجبه أبداً ، وعلى الرغم من كل  
شيء تقاسمته ألقاب جليلة وكريمة : أحسن شاعر ، وأحسن فيلسوف ،  
وأحسن متكلم ، يثق فيه علماء البلاغة ، ويحمله رجال الأدب ، ويحترمه  
المثقفون .

كان واحداً من أعظم عمالقة الفكر الإنساني على امتداد تاريخه الطويل !

## فتنة البربر

قدر لابن حزم أن يشهد غروب شمس الخلافة ، وأن يشهد مع غروبها ألواناً من الانهيار السيامي والخلقي ، ومن المظالم والجور ، ما لا مثيل له . وأن يعيش سنوات حملت من الخيانة والهوان والأحزان والأدران ، فوق ما حملته حياة المصريين قبل ومع هزيمة ٥ يونيو من عام ١٩٦٧ . ولا يمكن فهم إبداعه وما يتضح به من مرارة ، ولا أسلوبه وما اتصف به من حدة ، ولا مرمى فلسفته واتجاه أبحاثه ، ولا مثله العليا وطباعه ومزاجه ، إلا إذا أدركنا حقيقة تلك الأيام ، وكانت أقسى مما خط أى مؤرخ ، وأشد هولاً من تصوير أى خيال ، وهى أحداث دخلت التاريخ تحت اسم : فتنة البربر أو البرابر ، وشغلت الربع الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد عرضنا لها من قبل إشارة وإجمالاً عند دراستنا لحياة ابن حزم ، ما اتصل منها بنشاطه السيامي ، وما أسهم فيه رأياً وتديراً وعملاً . ونأتى الآن على هذه الأحداث ، من البدء وتفصيلاً :

. . .

ورث عبد الرحمن الناصر عندما تولى الإمارة عام ٩١٢م دولة تحكمها الفوضى والحروب الأهلية ، مزقتها الفتنة والفرقة ، موزعة بين عدد من الرؤساء ينتمون إلى مختلف العناصر ، فتخطى الصعاب وتغلب على المشكلات ، وجعل منها خلافة ، عام ٩٢٦م ، لها من السلطان والقوة ، والغنى والثروة ، والترف والحضارة ، والعلم والثقافة ، ومن المهابة والخوف عند جيرانها ، ما لم تبلغه يوماً قبله ولا من بعد .

وبعد أيام مجيدة ، امتدت حتى بلغت ٤٩ عاماً ، ما بين إمارة وخلافة ، توفى الناصر فى ١٦ أكتوبر عام ٩٦١م ، وخلفه ابنه الحكم الثانى ، بوصاة منه ، وتميز بثقافة واسعة ، لإيجاريه فيها واحد من أسلافه ، مكتبته

أحب مكان إليه في قصره ، ومجالسة العلماء والأدباء أقرب إلى قلبه من حوار القواد وحديث الحروب ، فازدهرت الثقافة على أيامه ، واتسع قلبه لعامة شعبه ، فكان ودوداً رحيماً محباً للسلام . وعلى أيامه بدأ ينمو حوله ما نسميه في أيامنا بمراكز القوى ، من خصيان وصقالبة وجوار ، وعرب وبربر ومولدين ، ويهود وآخرين . وعندما لفظ آخر أنفاسه في ٥ من فبراير عام ٩٧٦ م ، لم يكن حوله غير الحصين فائق وجوذر ، وفيما عداهما أنت قرطبة ، والأندلس بأسره ، يجهل أن الخليفة قد رحل إلى جوار الله احتفظاً بالسر إلى أن يختار الجماعة التي ينضم إلى لها ، وكان هذان الحصيان غليظان ، في خلقهما ذعارة ، وفي سلوكهما جفوة ، وطالما شكنا الناس منهما .

وكان الحكم الثاني قد أخذ البيعة ، في العام الذي توفي فيه ، لابنه هشام ولياً للعهد من بعده ، فبوجع بالخلافة بعد كثير من المؤامرات والدسائس ، ولكنه كان طري السن ، ضعيف العقل ، محدود الذكاء ، خور العزيمة ، فأخذ الأقوياء من حوله يتقاتلون على السلطة ، وكان الفوز حليف فتى عربى من الأزد ، دخل القصر موظفاً بسيطاً ، وما لبث أن استرعى أنظار السيدة صبح زوجة الحكم الثاني ، وأم الخليفة هشام الثاني ، جارية من الباسك اسمها في لغتها Aurora ، ذكية وطموح ، قوية الشخصية ، وذات تأثير بالغ على الخليفة ، فاخترته قائماً على أموالها ، بعد أن أعجبت به فكراً ومظهراً ، بين آخرين كثيرين تقدموا للوظيفة ، وتوثقت الصلة بينهما ، فتجاوزت الوظائف والأموال ، لتصبح علاقة حب ، عميق وحنون .

كانت صبح وراء المنصور في بدء حياته ، رأياً ودعماً ومالاً ، لكي يصرح في طريقه إلى السلطة خصومه الأقوياء ، واحداً وراء آخر ، حتى أصبح حاجب الخليفة ، أو رئيس الوزراء في لغتنا المعاصرة . وحقق بغيته كاملة حين أرسل بالخليفة ابنها ، غصناً وطرياً ، عديم الخبرة والتجربة ، إلى عالم النسيان ، داخل قصر في ضواحي العاصمة ، لا يزور ولا يزار إلا بإذن من

رئيس الوزراء ، وقلة من الناس في العاصمة تعرفه اسماً أو شخصاً ، ومع ذلك فالجميع يحبونه ويوقرونه ، لأنه رمز الدولة والسلطة الشرعية فيها وابن الخليفة العظيم : الحكم الثاني . وقد دُنع المنصور في طريقه إلى السلطة الثمن غالياً ، تجاوز ذكرياته مع صبح وعارضها ، وأعدم ابنه له تأمر عليه . والحق أن المنصور ، رغم أخطائه العديدة ومنها ما سار فيه على خطى الناصر ، من اتخاذ البربر والصقالبة ، والمأجورين والمرزقة ، وإقصاء العرب ، أعطى الأندلس ما أعطاه لها عبد الرحمن الناصر قبله ، من الهدوء والوحدة ، والثراء والهيبة ، مما تجاوز الأمم المجاورة وبلغ الخافقين .

في ربيع عام ١٠٠٢ م قام المنصور بآخر حملة حربية له ، وكانت غاية أمانيه أن يموت مجاهداً ، ويحس في أعماقه بأن رغبته سوف تتحقق يوماً ، ومن ثم فهو يحمل معه دواما كفته ، وقد خاطته بذاته ، واشتراه من حر ماله ، مال جاءه إرثاً من أرضهم القديمة ، وكان يرى أن بقية ثروته وما يملك ويقبض من راتب يختلط فيها الحلال بالحرام ، ويحمل معه التراب الذي تجمع على ملابسه في غزواته ، ليدفن معه ، فلا يدخل النار من اغبرت قدماه جهاداً في سبيل الله . وفي مدينة سالم توفي ، في ١٠ من أغسطس عام ١٠٠٢ ، وفيها دفن عملاً بوصيته : أن يدفن حيث يموت . (١)

وقد ولى ابنه عبد الملك الحجابة ، أو إن شئت الحكم ، من بعده ، وعلى عادة الخلفاء اتخذ المظفر لقباً له ، وواصل سياسة والده ، ولكن الأندلس كان يشهد تغيراً جذرياً في حياته ، لقد حل الصراع الطبقي محل الصراع العنصري ، وظهرت اتجاهات جديدة في الدين والسياسة ، وطفئت على السطح الظواهر العامة التي تسبق أية ثورة ظهرت قديماً ، أو حتى في أيامنا هذه ، والتي ستودي بالخلافة بعد قليل : سحق عام وعميق ،

(١) أنظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٨٩ ، هامش رقم ١١ ، بتحقيقنا ،

وفساد حقيقى يمتد واقعا أو تصورا إلى الطبقة الحاكمة ، وثروات ضخمة تظهر فجأة دون مقدمات ، ولا يملك أصحابها من المؤهلات أو رأس المال شيئا ، إلا صلات مربية بالحكام ، أو من يتصل بهم من زوجات وبنين وبنات وموظفين ، وشيوخ من يحكمون فى الظلام ، أو من وراء ستار ، أو بالتعبير السياسى الحديث ، أولئك الذين يحكمون وليسوا مسئولين لا دستورا ولا عرفا ، ومكاسب قليلة ، براقة وخادعة ، تسكر الحاكم ، وتذهب بعقله ، وتغرس فيه الغرور بدل التأمل ، ومحاولات غير جادة وفاشلة لوقف ذلك كله . ثم تنفجر الأرض عن تنظيم سياسى خفى ، يأتى بنظام جديد غير متوقع حتى لأولئك الذين يفكرون فى التغيير أو قاموا به .

ولم تطل أيام المظفر ، شهد طلائع الثورة ، وإمارات التغيير ، ورحل فى زهرة شبابه قبل أن يطحنه ثقلها ، عام ١٠٠٨ م ، وقدر لأخيه عبد الرحمن الملقب بشنجول ، وأمه من الباسك مثل هشام الثانى ، أن يتولى الحجابة فى سن طرية ، لا يتجاوز العشرين عاما ، ويفتقد كل الخصائص والمزايا التى كانت لأبيه أو أخيه من قبل ، وربما لهذا أقدم على ما لم يقدم عليه واحد منهما : حدثه نفسه بأن يصبح ولى عهد للخليفة هشام الثانى ، وتحدث بهذا لخاصته ، فأثاوت محاولته بنى أمية ، وعامة أهل قرطبة ، فانتهر أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر ، ويدعى محمد بن هشام ابن عبد الجبار ، وكان المظفر قد قتل والده ، فرصة أن عبد الرحمن شنجول فى غزوة ضد ألفونسو الخامس ملك ليون ، فقاد ثورة استولى بها على قصر الخلافة ، وفى مواجهة الأحداث ، وليحتفظ هشام الثانى بحياته ، أقال عبد الرحمن شنجول من الحجابة ، وتنازل عن حقه فى الخلافة ، ووليها محمد ، واتخذ لنفسه لقب المهدي بالله ، ولما بلغ الخبر عبد الرحمن « قفل إلى الحضرة مدلا بمكانه ، زعما بنفسه ، حتى إذا قرب من الحضرة تسلل عنه الناس ، من الجند ووجوه البربر ، ولحقوا بقرطبة ،

وبايعوا المهدي » ، ثم اعترضه منهم : من قبض عليه ، واحتز رأسه ، في ٤ من مارس عام ١٠٠٩ م ، وحمله إلى المهدي ، فصلب وإلى جواره قائد حرسه يلعنه ويلعن نفسه ، وذهبت دولة العامين :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

\* \* \*

سعدت قرطبة بالنصر الأموي . وكانت العامة أكثر سعادة ، رأت فيه ، وهي أشد اندفاعا نحو الغضب أو البهجة : طريقا أفضل ، نحو غد أسعد ، على حين تحفظت الطبقة الوسطى ، وقد أحست بالآلام ونتائج الثورة ، قبل أن تقف بجانبها ، وربما راودها أن طغيان العامين ، وأعطى الازدهار الاقتصادي والمجد العسكري ، أفضل بكثير من الفوضى ، ومن حكم هؤلاء الجند المستبدين ، يثقلون عواتقهم بالضرائب والمظالم .

وإذا كان المهدي قادرا على أن يأمر بالنهب ، فقد كان غير قادر على منعه ، ولما كان يتوقع ماسيحدث فقد أمر بنقل الأشياء الثمينة من مدينة الزاهرة ، مقر العامين ، إلى قرطبة ، ولكن الخيلاء سبقوه ونهبوا كل ما في القصور وماحولها حتى الأبواب ، على امتداد أربعة أيام كاملة ، ولم يستطع الخليفة أن يصنع شيئا لمقاومة النهب ، أو لم يجروا في الحقيقة ، وقد تردد قليلا ، ثم اندفع يأخذ بحظه من الغنائم . ورغم أن الجماهير سبقته إليها ، كان نصيبه منها كثيرا : مليونان ونصف مليون دينار من الذهب ، ومليونين ومائة ألف دراهم من الفضة ، وبعد ذلك بزمن عثر على صناديق فيها مائتا ألف دينار ذهبي ، وعندما أفرغت القصور من محتوياتها أضرمت فيها النيران ، وعادت المدينة الجميلة كومة من الخرائب والأنقاض .

ولم ترد الجماهير ، وهي التي صنعت الثورة ، أن يكون حكامها من القواد القدامى ، أولئك الذين كانوا من شيعة المنصور وجنده ، فجاء محمد المهدي بقواد من الشعب ، من الطبقة الوسطى : أطباء ونساجين وجزارين وسراجين ، وبدا الأندلس بلدا ديمقراطيا لأول مرة في تاريخه ، لقد

أفلتت السلطة من يد العامرين ومن طبقة الخاصة على السواء .

\* \* \*

في البدء بدا كل شيء وكأنه يسير تبعاً لرغبة المهدي ، لقد رفعه شعب قرطبة إلى الخلافة ، واعترف به البربر ، وتلقى رسالة ولاء من واضح ، أقوى الصقالبة ، وحاكم الثغر الأدنى ، ولما تمخض على مصرع عبد الرحمن شنجول غير خمسة أيام ، ولم يكن المهدي يتوقع منه ولاء سريعاً ، لأن واضحاً يدين بمركزه و ثروته للمنصور بن أبي عامر ، والد عبد الرحمن ، ولهذا أسرع المهدي فالتقط القفاز ، وأرسل إليه أموالاً ، وملابس شرف ، وجوادة ، وبراعة بتوليته على كل الثغور .

والتيهت كل الجماعات ، في الظاهر على الأقل ، حول الحكومة منذ اللحظة الأولى ، ولو أن الإجماع وقعاً أقل قوة وتماسكاً مما يبدو للعيان ، كان تيار الثورة يندفع من وراء ظهر السلطة ، فقد أدرك الناس سريعاً أن ذهاب العامرين لا يعني أن الأمور استقرت ، والمظالم انتهت ، والمفاسد توقفت ، وليس ثمة ما يشتكى منه ، في ظل الحكم الجديد . ولم يكن المهدي يتمتع بالذكاء أو الفضيلة ، قاس ودموى وأحمق وغارق في الملذات ، وزاد فأخرج العامرين من قرطبة ، وفصل أعداداً كبيرة من العمال واستغنى عن خدمات جمع كبير من الصقالبة ، وأغضب الأتقياء لأنه قل ما يخرج من القصر ، وفيه يتجاوز نزواته ، واشتدت ثورة هؤلاء حين علموا أنه يقيم حفلات ساهرة ، يبلغ الموسيقيون فيها مائة ، مابين عازف على العود أو الناي ، صنيع شنجول من قل ، وهو ما يفض الناس فيه . وأطلقوا عليه اسم « السكير » ، واحموه بأنه خرب البيوت ، ومزق الأسر ، ونهب الممتلكات ، مثل ما كان يفعل سابقوه ، وهكذا بدأ يدفع بالرأى العام كله إلى صفوف المعارضة .

لقد أصبح ضده الشعب والصقالبة والأتقياء ، وكل الناس الطيبين ، ولم يصنع شيئاً يستبقى به البربر ، واختاروا جانبه بلوادتهم ، ولم يكن لهم

في الجانب الآخر مكان ، لأن سكان العاصمة يكرهونهم من الأعماق ، ولم ينسوا لهم أبدا أنهم كانوا العمدة التي قام عليها الطغيان العامري ، ولولا ما لهم من العصبية لاستأصلهم الناس . وأمرهم المهدي ، وربما تملق السكان قرطبة ، ألا يركبوا ولا يتسلحوا . ورد بعض رؤسائهم من باب القصر ، ولم يكن ذلك حالهم في ماضي الأيام . وأحسن البربر ، رغم قوتهم ، أنهم لم يعودوا يمثلون شيئا في الدولة ، وأن قصورهم نهبت دون أن تحاول الشرطة حمايتهم ، فمضى وفد منهم ، على رأسه زاوي بن زيدي ، لمقابلة الخليفة ، وشكوا له ما أصابهم ، فخاف موقفهم ، واعتذر إليهم ، وقتل من أتهم من العامة في أمرهم . ومالبت أن شفى من رعبه ، وعاد من جديد يظهر بغضهم ، وبجأهر بسوء الثناء عليهم .

كان المهدي يقدر خطر البربر تماما ، رغم ما يمكنه لهم من بغض ، وأشد ما يخشاه أن يصبح انتم هشام الثاني ، الخليفة المعزول ، راية تليق عندها كل الجماعات التي أساء إليها ، عامدا أو دون قصد ، ففكر واهتدى إلى حل وسط ، ألا يقتل أسيره ، وأن يكفى بإعلان موته . وفعلنا في ٢٦ أبريل ١٠٠٩ م توفي مسيحي ، أو يهودي ، كبير الشبه بهشام ، فأمر المهدي بحمل جثته إلى القصر مرارا ، وأظهره لأشخاص يعرفون هشاما ، وسواء أكان الميت صورة دقيقة من هشام أم لم يكن ، فالذين شهدوه قبضوا ، وأعلنوا أن هذه جثة هشام الخليفة السابق ، ودعا المهدي بالفقهاء وعلية القوم ، وصلى على الميت صلاة الجنائز ، ودفن في مقابر المسلمين ، ن جلال ملكي يليق بخليفة سابق . بينما هشام الحقيقي سجين في أحد قصور وزرائه .

وبعدها ظن الخليفة أنه يستطيع أن يصنع أي شيء ، فأودع السجن في شهر مايو واحداً من أبناء عبد الرحمن الناصر ، متقدماً في السن ، يدعى سايمان ، دون أن يعرف السبب ، وترك الناس يتحدثون عن رغبته في قتل عشرة من رؤساء البربر ، فتجمع هؤلاء بزعامة هشام بن سايمان ، وبايعوه بالخلافة ، واتخذ لنفسه لقب الرشيد ، وأشار ابن حزم إلى ثورته في طوق

الحمامة ، وقد استطاع أن يجمع حوله مريعاً سبعة آلاف مقاتل ، من  
المنافقين للمهدي ، ومضى بهم إلى فحص السرادق ، شمال قرطبة ، وهناك  
انضم إليهم البربر ، فسار بهم جميعاً إلى قصر المهدي ، وقد أخطر الخليفة  
بالثورة وهو غارق في ملذاته ، وانتزع منها بقوة لكي يواجه الأمر ، فأرسل  
يسأل : ماذا تريدون ؟ . ورد هشام الرشيد : أنت وضعت والدي في  
السجن ، وأجهل مصيره . فأطلق الخليفة في الحال سراح سليمان ، وظن  
أن الجماهير سوف تقنع وتنصرف ، وخدع نفسه ، لأن هشام أرسل إليه  
يسأله أن يتنازل عن الخلافة .

وأراد المهدي أن يكسب الوقت ، فتظاهر بالرغبة في التحدث مع  
هشام ، وطال الحوار ، وفقد صبر البربر والعمال ، فانطلقوا يعملون دون  
انتظار لنهايتهم ، نهبوا حوانيت سوق الحرس وأحرقوها ، وحينئذ حمل  
القرطبيون السلاح ، دفاعاً عن بيوتهم ، لاعتن الخليفة ، وجاء الجنود  
لمساعدتهم ، واستمرت المعركة يوماً بأكمله ، وفي صباح الجمعة ٣ من  
يونية ، فر البربر نجاة بأنفسهم ، في فوضى منقطعة النظير ، وقد لاحقهم  
القرطبيون حتى ضفاف وادي أرملاط على حين احتل آخرون منازلهم ،  
وأخذوا نساءهم ، وأمر هشام ووالده ، وأمر الخليفة المهدي بقطع رأسيهما .  
ومالبث البربر أن أعادوا تنظيم صفوفهم ، وأقسموا أن يثأروا لمزيمتهم ،  
أقوياء وشجعان لكن مهارتهم محدودة ، غير أن زاوي بن زيدي كان  
معهم لحسن حظهم ، وينتمي في قبيلة صنهاجة ، وكانت تحكم جانباً من  
أفريقية غاصمته القيروان ، وهي أكثر تحضراً ، وأشد ذكاء من بقية أخوتهم .  
وقد فهم زاوي أن من الضروري قبل أي شيء البحث عن منافس في  
مستوى المهدي ، لإعطاء التمرد طابعاً شرعياً ، فبحث بين أحفاد عبد الرحمن  
للتناصر عن من يصلح لهذه المهمة ، فوقع على سليمان بن الحكم بن سليمان ،  
حفيد عبد الرحمن الناصر ، وابن أخ هشام الرشيد ، وعرض على رفاقه أن  
يبايعوه خليفة ، فعارض بعضهم ، لأن سليمان رجل طيب ، ليست لديه

الإرادة ليكون رئيس جماعة، ولا التجربة ليصبح قائد جيش، ورفض آخرون أى رئيس عربى ، ولكن زوى أقنعهم فاستجابوا له ، وبايعوا سليمان ، واتخذ لقب المستعين ، ومنذ البدء لم تكن له أية سلطة على البربر ، اختاروا قوادهم دون مشورته ، لم يكن بالنسبة لهم غير أمير أموى أعارهم اسمه ليعملوا فى ظله .

ورحل البربر إلى وادى الحجارة ، واحتلوا المدينة ، وعرضوا على واضح أن يعملوا معا ، وأن يفتح لهم أبواب مدينة سالم ، ولكن واضحاً رفض ، وتلقى إمدادات من المهدي فهاجمهم ، وطاردهم ، ولم يسعدوا بانتصارهم طويلاً ، لأن واضحاً قطع عنهم التموين ، وخلال أسبوعين لم يكن لديهم ما يأكلونه غير الحشائش . ولمواجهة هذا الحصار أرسلوا جماعة منهم إلى شانجه ، كونت قشتالة . يطلبون تدخله ، ويعرضون عليه تحالفهم ، إذا رفض المهدي وواضح الصالح معهم .

وعندما وصل السفراء إلى قصر الكونت وجدوا سفارة من المهدي سبقتهم إليه ، تسوق بغالاوخيولا وهدايا أخرى ، ووعدوه بالتنازل له عن عدد من القلاع والحصون إذا أسرع إلى مساعدة خليفة قرطبة ، وسبحان مغبر الأحوال ، لقد أصبح خلفاء قرطبة يتلقون الأوامر من أمراء المسيحيين فى الشمال ، فيما يتنل بأخص شئونهم ، وما يتوقف عليه مستقبل بلادهم ! .

كان شانجه يعرف أخبار جيرانه جيداً ، وأدرك أن بقاء المهدي مرتبط بخيط رفيع ، فوعد البربر بأن يقف إلى جانبهم ، إذا وعدوه بأن يتنازلوا له عن القلاع والحصون التى وعد المهدي بأن يتنازل نه عنها ، فوافقوا ، حيثئذ صرف شانجه رسل المهدي ، وأرسل إلى معسكر البربر ألف ثور ، وخمسة آلاف خروف ، وألف عربة محملة بالأغذية ، وأعد البربر أنفسهم فوراً لبدء حملتهم ، وعندما انضم الكونت شانجه إليهم ، أخذوا طريقهم إلى مدينة سالم . وعندما وصلوا أسوار المدينة حاولوا ، ثانية ، أن يكسبروا واضحاً إلى جانبهم ، فام ينالوا منه أكثر مما نالوا من قبل ، واعتقدوا بحق أن

عليهم ألا يضيعوا وقتهم ، فأخذوا طريقهم نحو قرطبة ، في شهر يولية من عام ١٠٠٩ م ، فتبعهم واضح وهاجمهم ، واضطر بعد أن فقد الكثير من رجاله أن يلوذ بالفرار عائدا إلى قرطبة .

علم المهدي بسير البربر نحو قرطبة ، فعجن كل القادرين على حمل السلاح ، ولم ينتظر وصول العدو ، فخرج يبحث عنه ، والتقى الجيشان في قنطيش ، في ٥ من نوفمبر ١٠٠٩ م ، وكانت نتيجة المعركة هزيمة مروعة للقرطبيين ، كانوا حشداً غير مدرب ولا منظم ، ما بين شيخ ضعيف وحدث غر ، فاستطاع ثلاثون فارساً من البربر أن يقتحموا صفوفهم ، إقولوا هاربين لا يابى بعضهم على بعض ، ووضع البربر السيف عليهم ، وقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، وغرق كثير منهم في الوادي ، وفي الجميع إسقوط بعضهم على بعض ، ودخل البربر أرباض قرطبة ، وبات الناس على سطوح دورهم في وجل وخوف .

وأدرك واضح في الحال أنهم خسروا كل شيء ، فانسحب مع فرسانه نحو الشمال ، ولما ذهب المهدي بقصره ، وبعد قليل حاصره البربر ، فظن أنه ينجو بنفسه ، إذ أورد الخلافة هشام الثاني ، فأخرجه من السجن ، وأقعده في مكان حيث يراه الناس ، وأرسل القاضي ابن ذكوان إلى البربر ليقول لهم : إن هشام المريد لما يزل حياً ، وأنه يعترف به خليفة ، وليس هو إلا حاجباً له . وضحك البربر من الرسول ومن الرسالة ، وردوا عليه : سبحان الله يا قاضي ! ، يموت هشام بالأمس ، وتصلى عليه أنت وغيرك ، واليوم يعيش ، وترجع إليه الخلافة ! . وخلال المفاوضات كان القرطبيون يرتعشون لمجرد رؤية سليمان المستعين ومعه البربر يهددون أسوار مدينتهم ، فخرجوا للقائه واعترفوا له به خليفة .

وبينما سليمان يأخذ طريقه إلى داخل العاصمة ، ارتكب البربر والقشتاليون كل الجرائم التي تخطر على البال ، وأفلت المهدي واختفى في قرطبة ، وطاب شأنه من سليمان أن يوفى له بوعده في التنازل عن القلاع والحصون ، واعتذر

سليمان بأنها ليست في يده الآن ، ووعده للمرة الثانية بان يتركها له حين تصبح ملكه ، وحينئذ غادر كونت قشتالة قرطبة مع جنوده ، في ١٤ نوفمبر ١٠٠٩ م ، وقد جمعوا ثروات طائلة ، مما نهبوا من أملاك القرطبيين .

وخلال ذلك وصل المهدي إلى طليطلة ، فاستقبله أهلها في حفاوة ، فتبعه سليمان ، وأرسل إلى أهل طليطلة من يحذرهم غضبه إذا استمروا في تمردهم عليه ، ولم يستجيبوا له ، وتحاشى أن يقتحم هذه القلعة الحصينة ، فتجاوزها إلى مدينة سالم ، على وهم أنها سوف تسقط يوماً . وخلال سيره انضم إليه عدد كبير من الصقالية ، فاستولى على مدينة سالم دون قتال ، لأن واضحاً أخلاها له ، ولجأ إلى طرطوشة ، ومن هناك كتب إلى سليمان أنه يعترف به خليفة طالما تركه باقياً في منصبه ، أراد بموقفه هذا أن يكسب وقتاً ، وأن يقلت من ملاحقة سليمان ، وكان له ما أراد .

حين أطلقت يد واضح تحالف مع أمراء قطلونية ، ووعدهم بكل ما يريدون ، ورحل إلى طليطلة مع جيشه ، وجيش آخر من القطلان ، انضموا إلى المهدي فيها ، وساروا جميعاً إلى قرطبة ، ثلاثون ألف مسلم وتسعة آلاف مسيحي ، وحين علم سليمان استنفر أهل قرطبة للقائهم ، فأظهروا العجز ، وجنبوا ، وطلبوا منه معافاتهم ، وأثر البربر أن يكون لهم وحدهم شرف تحقيق النصر ، والتقى الفريقان في قرية عقبة البقر ، على مسافة غير بعيدة من قرطبة ، في النصف الأول من شهر يونية عام ١٠١٠ م . وقد وضع البربر سليمان في ساقة الجيش ، وجعلوا معه خيلاً من المغاربة ، ونصحوه ألا يترك موضعه حتى ولو وطنه الخيل ، ثم تقدموا ، فحمل القطلان عليهم حملة شديدة . فراجع البربر لهم لئتمكنوا منهم ، فلما رأى سليمان خيل الإفرنج خرقت صفوف البربر ، قلد أنهم هزموا فولى هارباً ، على حين كر البربر على العدو . فقتلوا من القطلان سبعين قائداً وأميرهم ، ولما رأى البربر سليمان فارق موضعه انحازوا إلى الزهراء ، وأخرجوا عيالهم وأموالهم ، وفر سليمان إلى شاطبة ، واقتحم عامة قرطبة (٨ م - ابن حزم) .

مدينة الزهراء ، فنهبوا ما وجدوا فيها ، ودخلوا الجامع ونهبوا حصره وقنادياه ، ومصاحفه وسلاسل قناديله ، وصفايح أبوابه .

• المهدي خليفة من جديد :

ودخل المهدي قرطبة ، وتعرضت المدينة السيئة الحظ لنهب شامل من القطلان ، كما نهبا البربر والقشتاليون قبل تسعة أشهر ، وأخذت له البيعة خليفة للمرة الثانية ، وكان هشام المؤيد أول من بايعه . ثم خرج يلاحق البربر ، وقد انسحبوا نحو الجزيرة الخضراء ، والتقى معهم عند التقاء وادي آره بالوادي الكبير ، على مقربة من رندة ، وفي المعركة حقق البربر نصراً ثأروا به لهزيمتهم في موقعة « عقبة البقر » ، وهزم جيش المهدي ، وقتل عدد كبير من القواد الصقالبة ، وأكثر من أربعة آلاف من القطلان ، ولقي عدد كبير من الجنود حتفهم غرقاً في مياة الوادي الكبير .

وعاد المهزومون إلى قرطبة ، وبلغ الغيظ بالقطلان مبلغه ، فأرادوا أن يثأروا لهزيمتهم من عامة الناس ، فقتلوا كل أولئك الذين يشبهون البربر على نحو ما ، وكل من أراد أن ينتقم من شخص صاح فيه هذا بربري ، فيقتل دون أن يسأل ، وأخذ جندي قطلوني ابنة رجل من البادية جميلة ، وعرف أبوها ، فحمل شكواه إلى واضح ، وقال إنها ليست بربرية ، فرد عليه ، دعلك من هذا ، ما إلى ردها إليك من سبيل ، وعلى ذلك عاهدناهم ، فمضى الرجل باكباً إلى الجندي ، وحمل إليه ٤٠٠ دينار ذهبي يفتدي بها ابنته ، فأخذها منه ثم قتله !

وطلب المهدي من القطلان أن يعودوا إلى قتال البربر من جديد فامتنعوا ، زعموا أن ما خسروه من الرجال لا يسمح لهم بالعودة إلى القتال ، وتركوا قرطبة في يوم الجمعة ٨ يولية ، ورغم كل السوء الذي ارتكبهوه ، حزن أهل قرطبة لرحيلهم ، حتى كان بعضهم يلقي بعضه فيعزيه جزعاً وخوفاً من عودة البربر بعدهم . وبدأ المهدي زحفه نحو البربر ، ولكن جيشه فقد أهميته بعد رحيل القطلان ، وبعد مراحل من سيره تغشاه رعب قاتل ،

وامتلاء داخله خوفاً من البربر ، فعاد إلى العاصمة من جديد ، ينتظر العدو فيها ، وأمر بحفر الخنادق حولها ، ولكن القدر أراد له أن يسقط قتيلًا بيد الصقالبة ، لا بيد البربر .

لقد كان واضح إلى جانب المهدي ، ولكن صقالبة آخرين ، مثل خيران وعنبر : ظلوا في الجانب المعارض : وقد أدركوا أخيراً أن عليهم أن يحددوا إذا أرادوا أن يحققوا مطالبهم ويستولوا على السلطة ، وقرروا أن يلتفوا من جديد حول هشام المؤيد ، ولتحقيق غرضهم اتولى واضح إثارة السخط بين أهالي قرطبة ، فأرسل الإشاعات تدق كل باب عن حياة خليفة لا يفيق من السكر ، بين ملذاته ونسائه ، وأنه يهاجم علناً فوضى الجند واعتداءاتهم ، ويرضى عنها سراً ، بل ويخصم عليها ، وعندما أتت الإشاعات إلى ما بقي للخليفة من شعبية وهيبة : سارع خيران وعنبر وقواد آخرون من الصقالبة ، كانوا يعملون في جيش سليمان بتقديم خدماتهم للمهدي ، وما إن دخلوا قرطبة حتى بدأوا يعملون على إسقاطه ، وفي يوم الأحد ٢٣ من يولية ١٠١٠ طاف الصقالبة شوارع قرطبة على خيولهم يصيحون : « يحيا هشام المؤيد » ، ثم أخرجوه من سجنه ووضعوه على العرش .

في تلك اللحظة كان المهدي يأخذ حمامه ، وأعلم بما حدث ، فطار إلى

اللقاء وجلس إلى جانب هشام . ولكن عنبر شده بقوة ، وحمله ليكون في مواجهته . وقد أنبه هشام في مرارة : وعاتبه على ما ارتكب في حقه ، وما عانى بسببه ، ثم أخذه عنبر من ذراعه ، وشده إلى المنصة ليقطع رأسه ، فأمسك المهدي بيده المشرعة ، وفي اللحظة نفسها سقطت عليه سيوف صقالبة آخرين .

لقد اعتلى العرش بمؤامرة ، ومؤامرة أخرى أنزلته عنه ، وعن الحياة !

مع هشام الثاني ، ضعيف ومحاصر ، أصبح الصقالبه أكثر من أقوياء ، وتولى واضح منصب الحجابة ، وحاول أن يحكم الأندلس على نحو ما فعل من قبل سيده المنصور بن أبي عامر ، ولم يدرك أن الظروف تغيرت كثيراً ، وأنه ليس المنصور . ولم يجد في البدء معارضة من سكان العاصمة ، وعرضت رأس المهدي في الشوارع دون أن تسمع همهمة واحدة ، فليس ثمذ من يحن إلى أيام هذا الطاغية ، وداعب الأمل واضحاً في أن البربر سوف يعترفون بالخليفة الذي رد إليه تاجه ، وأقنع نفسه بهذا ، وكان واهماً ! . وعندما بعث إليهم برأس المهدي يطلب منهم الولاء لهشام غضبوا ، وتدخل سليمان لحماية من حملوا الرسالة حتى لا يفتكوا بهم ، وبكى سليمان نفسه ، فاضت دموعه غزيرة ، حين رأى رأس ابن عمه ، فأخذها ونظفها وأرسل بها إلى عبيد الله ، ابن المهدي ، وكان قد اتخذ من طليطلة مقاماً .

وجد واضح البربر على غير ما توقع ، وعرف أن له أعداء في العاصمة نفسها ، وأن بعض الأمويين لا يرضون حكم الصقالبه ، ويرون مصلحتهم في أن يؤيدوا سليمان ، وقد أرسلوا إليه سراً أن يعود إلى العاصمة ، وحددوا له يوم ١٢ من أغسطس ، وأنهم سوف يسلمونه المدينة ، ووعدهم سليمان بتحقيق رغبتهم . وعرف واضح المؤامرة ، أعلمه بها خيران وعنبر ، فاعتقل المتآمرين ، وعندما وصل سليمان إلى أسوار المدينة في اليوم المحدد ، واجهه هجوماً عنيفاً فارتد القهقري سريعا .

وظن واضح أن الهزيمة أضعفت البربر ، فعاد يفاوضهم من جديد ، دون أن يحقق شيئاً ، والوقت نفسه كان سليمان يطلب عون شاذي ملك قشتالة ، حليفه القديم ، ووعد به بأن يتنازل له عن عدد من الحصون والقلاع على الحدود بينهما ، كان المنصور قد استولى عليها . ووجد الكونت الفرصة مواتية لتوسيع رقعة مملكته دون حاجة إلى القيام بحملات حربية ضد الأندلس ، فأرسل إلى واضح بأن يتنازل له عن هذه الحصون

والقلاع ، وكانت في قبضته ، وإلا فسوف يساعد البربر . ولم يجرؤ  
واضح على اتخاذ القرار وحده ، فدعا القاضي والفقهاء والعدول ، وأبلغهم  
برسالة شانجه ، وطلب منهم الرأي . وأخرس الخوف من روية البربر ،  
ومعهم القشتاليون لمساعدتهم ، الإحساس بالشرف القومي في أعماق هؤلاء  
السادة ، فكان رأيهم : أن يستجيب لمطالبه ! . وفي شهر سبتمبر ، أو  
أغسطس ، عام ١٠١٠ م ، وقع واضح معاهدة مع شانجه ، تنازل له فيها  
عن أكثر من مائتين ، بين قلعة وحصن . واتخذ بقية أمراء الشمال من  
المسيحيين الحادث مثلاً يحتذى . لأنهم يستطيعون بشيء من التهديد والصخب  
أن يأخذوا ما يريدون من حصون وقواعد ، فأرسل لهم كونت آخر  
يطالب منهم بدوره أن يتنازلوا له عن عدد من الحصون والقلاع . وإلا انضم  
لسليمان والبربر ، فلم يجرؤوا على أن يرفضها له طلباً ولقد ساءت حال  
القرطبيين بعد العامرين ، وكان عليهم أن يحنوا رءوسهم أمام أعداء دينهم ،  
وأن يعانوا من نزوات الحاكم ، صقلياً أو بربرياً ، وأن يتعرضوا  
لنهب والمظالم من أولئك وهؤلاء ، وباختصار أن يتحملوا كل النتائج  
التي تعرض للشعوب حين تذهب إلى الثورة ، وتلقى بنفسها في أنون  
الفتن ، دون أن يكون وراءها هدف واضح محدد ، ودون أن تدفعها  
أفكار سامية وعظيمة !

ضرب البربر الحصار على قرطبة على امتداد شهر ونصف ، نزلوا  
ربض شقندة وفج المائدة ، يغيرون على العاصمة ويقتلون ، وواضح وجنده  
خلف السور لا يتجاوزونه شبراً ، وأصاب الناس ضيم مروع في الأنفس  
والأموال ، وزاد الحال سوءاً تفشى المرض والوباء . ثم توجهوا إلى  
الزهراء ، وأصبحوا سادتها بعد حصار دام ثلاثة أيام فحسب ، لأن قائد  
خان واجبه ، وسلمهم أحد أبواب المدينة ، في ٤ نوفمبر ١٠١٠ م ، وبدأت  
المذبحة في الحال ، قتلوا حرم المدينة بأجمعه تقريباً ، ولجأ سكانها إلى المسجد ،  
ولكن حرمة لم تمنع البربر من اقتحامه ، وأتوا ذبحاً على جميع من فيه ، دون  
فرقة بين الشيوخ والشباب والنساء والأطفال ، وبعد أن نهبوا المدينة

أشعلوا فيها النار ، ومن ذلك اليوم تحولت هذه القصور ، أفخم ما عرفت أوربا في العصر الوسيط وما بعده ، وحتى أيامنا ، إلى أكوام من الخرائب والأنقاض . وخرب واضح منية الرصافة ، حرقاً وتدميراً ، وكانت من أجمل ضواحي قرطبة ، خيل إليه أن البربر سوف يقتحمونها ، فسبغهم إلى نهبها وتدميرها .

ولم يتوقف البربر عند العاصمة ، فأخذوا يغيرون خلال الشتاء على ماحولها ، ينهبون ويحرقون ويخربون ويقتلون ، ومنعوا دخول الأغذية إلى العاصمة ، ويرسل إليهم واضح كتائب من الفرسان فلا تلقاهم خوفاً ، وإنما ينهبون ما فضل منهم في القرى والأقاليم ويعودون . ونزح أهل الأرباب إلى العاصمة أفواجا ، خوفاً من البربر ، وصاروا أكثر من أهلها ، ومات أكثرهم جوعاً ، أو مقتولاً بخارجها ، وفنيت مواشيم ، وكان من الصعب إيواءهم فمات أغلبهم جوعاً ، بعد أن « أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم ، وأكلوا الميتة والجيف ، وكان قوم في السجن فمات منهم رجل فأكلوه ، ومع هذه المحن كانوا يشربون الخمر ظاهراً ، وأصبح الزنا مباحاً ، واللواط غير مستور ، ولا ترى إلا مجاهراً بمعصية » .

وكانت الحكومة في النزاع الأخير ، وباع واضح الجانب الأكبر من مكتبة الحكيم الثاني ، ليحصل على شيء من المال ، وبدأ الناس يزحون إلى السواحل والبادي ، ووقعت أكثر المدن أهمية في يد البربر ، وتعرض سكانها لما تعرض له سكان الزهراء . وتحولت القرى إلى صحارى مجدية ، وتمضى بك السبل أياماً وأياماً قبل أن تلقى كائناً حياً ، في طرق كانت من قبل عامرة بالذاهبين والعائدين .

وفي صيف عام ١٠١١ م ، أناخ الشقاء بكل مكانه على الأندلس بعامة ، وقرطبة بخاصة ، وأخذ ينمو من جوانبه ويشدد ، فاجتاحها الطاعون ، وحدثننا عنه ابن حزم في « طوق الحمامة » ، وأن أخاه ذهب ضحية له ،

وبدت المدينة النعسة كما لو كانت سعيدة بالآلامها ، فهي تزيد النار التهاباً ،  
والشقاء ضراماً . بما تختلف فيه ، وتكاثفت الطبيعة على تكثيف آلامها ،  
فتدافعت السيول ، وفاض نهر قرطبة ، على امتداد أيام ثلاثة ، فهدم في  
قرطبة وأرباضها نحو ألفي دار ، وما لا يحصى من المساجد والقناطر ، ومات  
فيه نحو من خمسة آلاف ردماً وغرقاً ، وذهبت أمتعة الناس وأموالهم ،  
وهدم أكثر السور ، وردم كثيراً من الخندق . ونسب الجنود إلى واضح  
أنه سبب الشقاء الذي يعانون ، وأدرك آخرون أنه بيت النية على الهروب ،  
وأخذ القائد الصقلي : ابن وداعة ، وكان على شرطة المدينة ويكره واضحاً  
من أعماق قلبه ، يغذى هذا السخط ، وأهين واضح علانية ، وحين  
أحس بضعف موقفه عهد إلى رجل يعرف بابن بكر أن يحمل رغبته في  
السلام إلى سليمان ، فأثار عمله أقوى موجة من الغضب ، وعندما عاد  
ابن بكر من سفارته تلقفته السيوف دون أن يتيحوا له فرصة إعلان الرد  
الذي تلقاه ، اغتالوه بمراى الخليفة ومراى واضح ، واحتزوا رأسه ،  
وطافوا به البلد ، وحينئذ قرر واضح أن يلجأ بين البربر . ولكن الجند  
بقيادة ابن وداعة اقتحموا عليه القصر في ١٦ أكتوبر ١٠١١ م ، وعاتبوه  
على ما تكلف من الأموال ، وما عزم عليه من مصالح البربر ، ثم قام إليه  
ابن وداعة فضربه بالسيف ، وحمل عليه القوم ، واحتزوا رأسه ، وطافوا  
به الشوارع على رأس رمح ، كالعادة ، وألقوا جسده في الرصيف ، إلى  
جانب جثتي المهدي وابن عسقلانة .

ومر عام ونصف قبل أن ينجى البربر ، لينزعوا من الصقالبة ومن  
القرطبيين متعة الاغتيال المتبادل ، وعبر هذه الفترة اشتد ابن وداعة  
على أهل الريف ، وهابة الجند وغيرهم ، ودفع بالفقهاء درجات إلى  
الوراء ، ودعا إلى الجهاد . ولم يعد لدى القرطبيين أى شك في  
المصير الذي سوف ينتظرهم على يد البربر ، فازدادوا كراهية لهم ،  
وتعصبوا عليهم ، وقتلوا كل من أتى على ذكر الصلح معهم ، قتلوا في الحال

رجلاً من وجوه أهل العلم قال في المسجد الجامع : اللهم أصلح علينا ! ،  
وقتلوا آخر في المكان نفسه ، قال : إن الله أحب الصلح وأمر به . ومثل  
ذلك كثير .

ثم وقع في أيدي القرطبيين محارب بربري ممتاز ، في شهر مايو من عام  
١٠١٢ م ، حياصة بنى ماكسن ، كان قد نزل عن جواده ليستريح بعد  
معركة ساخنة ، فأرسل فيه صقلبي سهما ، وأطبق عليه صقليون آخرون ،  
وأخذوه أسيرا ، وحين عرفوه شفوا غلهم منه ، لطالما احتقرهم وأكثر القتل  
فيهم ، احتزوا رأسه وأرسلوا به إلى القصر ، وتركوا جسده لعبيث العامة ،  
سحلوه في الشوارع ، ومثلوا به ، مزعوه قطعاً ، ثم أسلموه إلى النيران ،  
وحاول أخوه حبوس أن يسترد جسده فلم يستجيبوا له وقد حزن عليه البربر  
جميعاً ، وعزموا على أن يثأروا له ، وضاعفوا من قوتهم ، ولكن اليأس أمد  
القرطبيين بقوة خارقة ، وقادهم ابن وداعة في هجوم قوى ، واضطر  
البربر إلى رفع الحصار ، وعرف أيضاً كيف يصدhem عن إشبيلية ،  
وسرعان ما ظهر البربر أمام أسوار العاصمة من جديد ، وعلى الرغم من  
مقاومة القرطبيين المستميتة ، استطاعوا أن يعبروا الخندق ، وأن يستولوا على  
الجانِب الشرقى من المدينة ، ولكن الحظ ، وللمرة الثانية ، اتخذ بجانب  
القرطبيين ، فأرغموا أعداءهم على الرحيل عن الحى الذى استولوا عليه ،  
وكان هذا آخر انتصار لهم ، ففي يوم الأحد ١٩ من إبريل ١٠١٣ م ،  
اقتحم البربر المدينة من الباب المقابل لربض شقندة ، لأن قائدا خائناً باع لهم  
نفسه وأسلمهم الباب .

ودفعت قرطبة ثمن مقاومتها أنهاراً من الدماء ، لقد انسحب منها  
الصقالبة عندما فقدوا الأمل ، واندفع البربر عبر الشوارع في صباح حاقد  
ومرعب ، يهبون هنا ، وينتهكون الأعراض هناك ، ويقتالون في كل مكان ،  
وذهب كثيرون من الطيبين والشيوخ ضحية الغضب الأعمى : قتل سعيد بن  
منذر شيخ مهالك ، اشتهر بالورع والتقوى ؛ وكان خطيب المسجد الجامع

شهد أيام الحكم المستنصر ، وقتل مروان بن يحيى من أسرة بنى حدير الشهيرة ، وكان قد فقد عقله نتيجة إخفاقه في حب أهله ، وقتل ابن الفرضي ، صاحب تاريخ علماء الأندلس ، وقاضى بلنسية أيام المهدي ، وكان قد سأل الله الشهادة في آخر حجة له ، فاستجاب الله دعاءه ، وبلغ الضحايا من الكثرة عدداً كبيراً ، حتى أن أحداً لم يفكر في عددهم ، أو يعط لهم رقماً . وجاءت الحرائق حارة متوهجة ، ساطعة الضوء ، تلتقي بأنوارها على هذه المشاهد المرعبة ، واتخذت لها وقوداً من أعظم القصور فخامة وترفاً ، ومن بينها قصور ابن حزم وآله ، وقد بكأها شعراً ونثراً في صفحة رائعة من كتابه « طوق الحمامة » .

وبعد يومين من احتلال المدينة دخل سليمان قصر الخلافة ، وجاء القرطيون الذين أفلتوا من سيوف البربر صدفة ، واصطفوا في طريقه ، يطل الرعب من عيونهم ، وجرحى في أعماق قلوبهم ، « متلقين له ، ومسلمين عليه » ، فأشهد متمثلاً :

إذا ما رأوني طالعاً من ثنية يقولون: من هذا؟ وقد عرفوني  
يقولون لي: أهلاً وسهلاً ومرحباً ولو ظفروا بي ساعة قتاوني .  
وجئ بهشام المؤيد ، فاعتذر لسليمان ، وتبرأ من الخلافة ، خلغ نفسه ، وسام الأمر إليه ، وغاب عن الناس خبره ، قيل قضى عليه عند دخوله القصر ، وقيل فر . واستقر البربر بدءاً في مدينة الزهراء ، وسكنوا القصور التي أفلتت من قبضة النيران ، وبعد ثلاثة شهور فاضت بهم ، فزحفوا على العاصمة ، وحكم على القرطبيين بالنفي ، باستثناء الذين يقيمون في المدينة ، وفي الجانب الشرقي ، وصودرت أملاكهم لصالح المنتصرين ، « ولحق بيوتات قرطبة معرفة في نسائهم وأبنائهم » .

• • •

منذ بداية الفتنة أحطن عدد من الولاة باستقلالهم ، وجاء استيلاء البربر

على قرطبة ضربة قاصمة لوحدة الخلافة الأندلسية ولم تعد سلطة الخليفة تتجاوز خمس مدن : قرطبة وإشبيلية ونبله وأكشنة وباجة. وغاض الأمل في أن تتحسن الحال ، وبدأ البربر يتمتعون بالثروات التي نهبها في قرطبة وغيرها من المدن . ولم يكن سليمان المستعين نفسه محارباً ، رغم أنه اضطر إلى الحرب على امتداد أربعة أعوام كاملة ، ومن سخرية القدر أن يكون رئيس هذه العصابات الشرسة التي مزقت الخلافة أميراً مستقيماً ، حلواً وكرماً ، يهوى الأدب ، ويقرض الشعر ، يذوب صباية ويتغزل عفاً ، ولديه من هدوء النفس ، وفراغ البال ، وسط هذا البلاء ، ما يتيح له أن يعارض أبيات هارون الرشيد الشهيرة :

١

ملك الثلاث الآنسات عناني	وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها	وأطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى	وبه قوين ، أعز من ساطاني

وأن يسبقه معنى ونغماً في أبيات طويلة يصفها ابن بسام بأنها « تشعشت بها الكؤوس ، وتهادتها الأنفاس والنفوس » :

عجيباً يهاب الليث حد سناني	وأهاب سحر فواتر الأجفان
وأفارع الأهوال لا متهيأ	منها سوى الإعراض والهجران
وتملك نفسي ثلاث كالدمى	زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظري	من فوق أغصان على كشيان
حاكت فيهن السلو إلى الرضى	نقضى بسلطان على ساطاني
هذى الهلال ، وتلك بنت المشتري	حسناً ، وهذى أخت غصن البان
فأجنح من قلبي الحمى وتركني	في عز ماسكي كالأسير العاني
لا تعذلوا ملكاً تذلل في الهوى	ذل الهوى عز وملك ثاني
ما ضر أنى عبدهن صباية	وبنو الزمان وهن من عبداني
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى	كلفاً بهن فاست من مروان

لقد كانت غايته فيما أسهم به أن يخفف من قسوة العاصفة ، ولكن فساد قواته وسوءها ، وشهد مظالمها دون أن يستطيع لها دفعا ، جعلت منه شخصا بغضاً إلى الأندلسيين ، لا يرون فيه غير إنسان زنديق وغاصب ، وضعه البربر ومسيحيو الشمال على عرش الخلافة ، وكان القرطبيون يحتفظون لكل الإثنيين ببغض عميق .

وبعد أعوام ثلاثة ، في ١ من يولية عام ١٠١٦ م ، استيقظت قرطبة على ضجيج غاز جديد ، على بن حمود وحلفائه .

ينتسب على في أسرة إدريس الأول ، مؤسس أسرة الأدارسة في المغرب ، وتبررت أسرته بعد إقامة في المغرب تجاوزت المائتي عام ، حتى أن العربية استدارت في لسانه ، وكان حاكماً شبه مستقل على مدينتي طنجة وسبتة ، على حين يحكم القاسم . أخوه الأكبر ، الجزيرة الخضراء . ولم تكن مطامع على تقف عند حد ، وحدثته نفسه أن يسعى إلى الخلافة ، ولكي يبلغها تحالف مع الصقالبة . وانضم إليه جانب كبير من البربر كان يرى في سليمان إنساناً طرياً ، عارياً من المواهب العسكرية ، وهي الشيء الوحيد الذي يقدرونه ، ووجدوه في على ، فهم يحترمون فيه شجاعته وفروسيته . وينظرون إليه كواحد منهم .

جاء على في جموعه ، وخرج سليمان للقائه ، وكانت الدائرة عليه ، وسبق أسيراً إلى جانب أخيه وأبيه ، وكان المنتصرون يطعمون في أن يجلدوا . شاماً المؤيد على قيد الحياة ، وقد سئل عنه سليمان فترا من دمه ، ودعا على بهم ، فضرب عنق سليمان بيده ، وأخيه من بعده . ثم أبيهما الشيخ ، وكان تقياً صالحاً ، بعيداً عن السياسة ، لم يتشبث بشيء من الدنيا ! . وحاول على في البدء أن يكون معتدلاً ، واتخذ جانب الأندلسيين ، رغم أنه نصف بربري ، يستمع إلى شعرائهم مهتماً ، على قلة ما يفهم مما يقولون ، ويشيهم سخياً ، وجلس بنفسه لمظالم الناس ، وهو مفتوح الباب ، مرفوع الحجاب ، للوارد والصادر ، يقيم الحدود مباشرة بنفسه ، ولا يحاجي أحداً من أكابر

قومه ، ويعارض بشدة ما يقوم به البربر من نهب ، ويعاقب بتمسوة على الجرائم ضد الممتلكات العامة مهما صغرت ، وأراد أن يعيد للقرطبيين ما أخذ من البربر ، ولكن طموح خيران دفع به إلى أن يغير موقفه .

في الأيام الأولى أخلص خيران لعلی ، وكان في مقاطعته المرية يعاقب ويعتقل أولئك الذين يأخذون جانب الأمويين ، ومن هؤلاء ابن حزم على ما يقص لنا هو نفسه في كتابه « طوق الحمامة » ، ولو مضى خيران في طريقه هذه ، ووقف عند قدره ، لربما أسهم في استتباب الأمن وعودة النظام ، ولكنه طمح في أن يمثل دور المنصور بن أبي عامر ، ولكنه علياً رجل لا يقنع بما قنع به هشام المؤيد ، وخيران يعرف ذلك جيداً ، ومن ثم عزم على أن يعيد الأسرة الأموية ويحكم باسمها ، فبحث عن مطالب منها بالخلافة ، ووجده في شخص حفيد عبد الرحمن الأوسط ، ويحمل اسمه ، ويقم في بلنسية ، ووعد جماعة من الأندلسيين بتأييده ، ومن بينهم المنذر حاكم سرقسطة ، وحليفه ريموندو كونت برشلونة . وعرف على أن رفاقه باعوه ، وأن شعب العاصمة يؤيد عودة بني أمية ، فقسا عليهم ، ورمى بهم بين أنياب البربر ، وأباح لهؤلاء أن يتصرفوا في قرطبة أحراراً ، كما لو كانت بلداً عدوا فتح عنوة ، وأعطاهم المثل من نفسه ، فصب على القرطبيين ضرباً من التنكيل والمغارم ، وانتزع السلاح منهم ، وهدم دورهم ، وقبض أيدي الحكام عن إنصافهم ، وأغرم عاصمتهم ، وتوصل إلى أعيانهم بقوم من شرارهم ، فتحوا له أبواباً من البلايا أهلكوا بها الشعب ، وتقربوا إليه بالسعاية ، وفاضت المدينة بالشرطة والجوسين والوشاة ، وأصبح نصف السكان يتجسس على النصف الآخر ، وباع كثيرون أنفسهم للحاكم ، وساد العاصمة رعب أسود ، وتزامل الفجور والمظالم ، ولزم الناس البيوت ، وتطمروا في بطون الأرض ، وقل ظهورهم بالنهار ، وخلت منهم الأسواق ، فإذا دنا المساء ، وقل الطلب ، انتشروا تحت الظلام لبعض حاجاتهم .

واعتقل الأعيان ، وصادر أموالهم ، وامتنع بعضهم بالضرب ، وفقدوا

أنفسهم فأمر بإطلاق سراحهم ، فلما أحضرت دوابهم للركوب استوى عليها ، وأمرهم أن يعودوا إلى بيوتهم راجلين ، وأقسم أن يدمر قرطبة بعد أن يخليها من أهلها أو يقضى عليهم ، وأعفاه الموت من أن يبر بقسمه ، لأن ثلاثة من غمار صقالبة القصر ، كانوا قبل في خدمة الأمويين ، ويتمتعون بثقة على ورعايته ، قرروا أن يضعوا لطغيانه غير المحتمل حداً ، فقتلوه ليلاً وهو في حمامه ، وأراحو قرطبة منه ، وتردد البربريين مبايعة ابنه حاكم سبتة ، وأخيه القاصم وإلى إشبيلية ، واستقر رأيهم على هذا الأخير ، وبايعه الناس بعد ستة أيام من موت أخيه .

ودعا خيران ومنذر أنصارهم إلى اجتماع كبير عقد يوم ٣٠ أبريل ، ومثل الفقهاء جانباً ملحوظاً فيه ، وقرر المؤتمر أن تكون الخلافة بالانتخاب ، واختاروا عبد الرحمن الرابع ، وتلقب المرتضى ، وكان يقيم في بلنسية . وبعد اتخاذ القرار رحلوا إلى غرناطة ، في طريقهم إلى قرطبة . وعندما وصلوا إلى أسوار المدينة تبادل المرتضى وزاوى بن زيرى حاكم غرناطة رسائل عنيفة ، وانتهيا إلى أن يكون السيف حكماً بينهما . وعبر الطريق أدرك خيران ومنذر أن المرتضى ليس الشخص الذى يبحثان عنه ، ولم يكن حق الأمويين في الخلافة عندهما كثيراً ، إنهما يقاتلان من أجل أموى يحكمان باسمه ، والمرتضى دون ما يطمحان ، بل وكان يملى عليهما آراءه ، فبيتا النية على الغدر به ، ووعدا زاوى بأن يتخليا عنه في اللحظة التى تبدأ فيها المعركة . ولم يقدموا على جريمتهم منذ البدء . وقاتلا أياماً ، ولم يستطع زاوى أن ينتصر ، فطلب منهما الوفاء بما عاهداه عليه ، فاستجابا له ، وأسلماه سيفيهما . ولم يوافق القواد على خيانتهم ، وغضب كثيرون . ومن هؤلاء سليمان ابن هود وكان قائد الفرقة المسيحية في جيش المنذر ، وتبعهما البعض ، وانهزم جيش المرتضى بعد أن كان قاب قوسين من النصر وأدنى ، وكان ابن حزم رفقة جيش المرتضى ، ووقع أسيراً . وقاتل المرتضى حتى بعد أن تخلى عنه الجانب الأكبر من قواته ، ودافع في شجاعة نادرة ، وأوشاك أن يقع

في أيدي أعدائه ثم أفلت هارباً ، ووصل إلى وادي آش ، وهناك دس عليه خيران من قتله غدراً .

وانتهى خيران بأنهب حربه ، وبجبنه وعار خيانتة ، ولم يعد الصقالية في حالة تسمح لهم بجمع جيش ، وأصبح البربر أعداؤهم سادة جنوب شرق الأندلس ، وحاولت قرطبة أن تأسو جراحها ، تأمل أن تعيش في ظل سلطنة أقل طغياناً وأكثر سلاماً ، فقد كان قاسم بن حمود يؤثر السلامة ويميل إلى الراحة ، ولم يصف إلى آلام القرطبيين وتعاستهم مزيداً ، وأرادهم أن ينسوا خلافاتهم القديمة فاستقدم خيران وصالحه ، وأعطى زهيراً ، صقلبياً آخر كان والياً على مرسية ، مقاطعات : جيان وقلعة دباح وبباسة .

كان القاسم شيعياً ، أو على الأقل على صلة بالشيعة ، ولكنه لم يظهر ذلك ، ولا غير على الناس عادة ولا مذهباً ، وأمل الناس معه شيئاً من الهدوء ، وكان يعرف أن شعب العاصمة لا يحبه ، فترك ذلك للزمن يخفف منه أو يأتي عليهم .

كان القاسم يشك في البربر ، فبحث عن التأييد بين جماعات أخرى ، اشترى السود الذين كانوا في خدمة البربر والصقالية ، وكون منهم جيشاً يحرسه ، وعهد إلى رؤسائهم بالأعمال الهامة ، فغضب البربر ، وعرف ابن أخيه يحيى كيف يركب روح السخط فيهم ، وزحف بهم إلى قرطبة ، وأزاح القاسم عنها ، في عام ٤١٢هـ = ١٠٢١م ، وعين نفسه خليفة ، وتلقب للمعتلى ، واستقر فيها بعد صراع مرير مع أبناء عمومته ، ثم تركها ولحق بإمكانه من مالقة ، ثم رده القرطبيون ثانية وقتل فيما بعد ، وهو يحاصر إشبيلية ، يوم الأربعاء ٨ من المحرم عام ٤٢٧هـ = ١٠٣٥م وانهزم البربر معه .

وظن القرطبيون أن الأمر خلع لهم ، فاتفق رأيهم على رد الأمر لبني أمية ، وفي شهر نوفمبر ١٠٢٣م تألفت اللجان ، وبدأت المناقشات ، ووضع الوزراء أمام الشعب ثلاث شخصيات ليختار الخليفة من بينهم : سليمان

ابن عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى ، وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار أخا المهدي ، ومحمد بن عبد الرحمن العراقي ، وظن الزعماء أن سليمان ، ووضع اسمه على رأس القائمة ، سيكون الخليفة المختار ، فأعد الوزير أحمد ابن بردة وثيقة البيعة باسمه ، وكان سليمان دون ما تصور أتباعه بكثير ، وعبد الرحمن فوق ماظنوا وتحيلوا .

كان عبد الرحمن لبقاً ذكياً ، وأديباً لودعياً ، في العشرين من عمره ، ليس في بيته يومئذ أبرع منه منزلة ، ثقافته المخاوف ، وتقافته الأسفار ، فتحنك وتخرج وتمرن فيها ، وقد نفاه الحموديون أيام دولتهم ، وسرعان ما عاد إلى قرطبة سرراً ، فشاهد الفتن الحادثة بين البرابرة وأهلها ، وهم فيها بالوثوب ، وبث دعائه إلى أهلها ، فلم يصح له شيء مما أراد ، وأنكر الوزراء المدبرون أمره ، فتجردوا لطلبه وطلب دعائه ، وسجنوه ولم يخرجوا من السجن إلا يوم جلوس صاحبهم عبد الرحمن هذا للإمارة . وقد أدرج اسمه في قائمة المرشحين لأن غضبه يثير عدداً من القرطبيين ، ولم ير فيه للذين يدبرون الحطط منافسا مخيفاً لسليمان ، ارتفعوا به في أكثر تقدير إلى مستوى محمد العراقي ، ولم يكن هذا يتمتع بأية شعبية .

أما وقد وثق الوزراء من النصر فقد دعوا الخاصة والجند والعامّة إلى اجتماع يعقد في المسجد الجامع لاختيار الخليفة ، وفي اليوم المحدد جاء سليمان أولاً ، صاحبه الوزير عبد الله بن نخامس ، في ملابس فخيمة ، وعلى وجهه لبسامة وضئنة ، واثقا من اختياره ، وتقدم إليه أنصاره فأجلسوه على مرتبة لاتصلح لأحد سواه . ثم أقبل عبد الرحمن في خلق عظيم من الجند والعامّة ، وقد تكفّفه أمير الدائرة محمود وعمر في رجالهما ، شاهرين سيفيهما أمامه ، وما أن تجاوزوا عتبة المسجد حتى نادوا به خليفة وسط التكبير والتهافت ، فأسقط في يد الوزراء ، وخذلتهم حيلهم ، ولم يكونوا يتوقعون شيئاً كهذا ، ودخل عبد الرحمن المقصورة فبوع لوقته ، واستدعى سليمان ، وجيء به مبهوتا ، فقبل يده ، وهناك فأجلسه إلى جانبه ، ثم وافى محمد بن العراقي أيضا

فقبل يده وباعه ، وتمت البيعة لعبد الرحمن في اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٤١٠ هـ = ١٠١٨ م ، وحينئذ محاذ الوزير ابن بردة اسم سليمان من وثيقة البيعة ، ووضع مكانه اسم عبد الرحمن الخامس ، وتلقب بالمستظهر .

كان عبد الرحمن يعتمد على الشباب الصاعد من أبناء الخاصة ، فاختر وزراء له ابن حزم ، وابن عمه عبد الوهاب ، وكانا فيما يقول ابن حيان المؤرخ القرطبي الكبير « من أكمل فتیان الزمان فهماً ومعرفة ونفاذاً في العلوم الرفيعة » ، وأبا عامر بن شهيد الشاعر الكاتب . وهؤلاء رغم ما يتمتعون به من مواهب غير شعبيين ، وليسوا محبين إلى الفقهاء والمحافظين لارتقاء سلوكهم ، وتحرر أفكارهم ، واحتقارهم للعادات المتخلفة ، ولم يغفر له أنصار سليمان لعبته ، وانتصاره عليهم ، ونقمت عليه طوائف أخرى اعتقاله أقاربه من بني أمية ، ومن بينهم الذين كانوا مرشحين معه لتولي الخلافة .

ومن جانب آخر ساءت الحالة الاقتصادية ، وأغاض الشقاء شامل كل بواذر الأمل ، وعمت البطالة ، وأصبح عامة الناس على استعداد في أية لحظة أن يأتوا بفئوسهم على بناء المجتمع القديم ، واتخذوا من محمد ابن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر رئيساً لهم ، ورأوه أحق بالخلافة من غيره ، رغم أن اسمه لم ينطق به أحد ولا جرى في خاطر ، لأنه إنسان عادي ، بلا مواهب ولا ثقافة ، ولا يعرف من الحياة غير الموائد الحافلة والنساء الجميلات ، ويرى في نفسه غير ما يرى فيه الآخرون ، فنقم لأن الخلافة تجاوزته ، وبيت النية على الثورة ، ودفع إليها بالعامية ، وكان قريباً منها ، يخالطها ويتودد إليها ، فهي ترى فحشه تقوى ، وجهالته حنكة ، واستهتاره تحرراً ، وفتح شهيتهم للسلب والنهب ، وكل ما حولهم يجعل منها حقاً مقررأ .

وانضم الخاصة إلى العامة بعد موت سليمان ، جمع بينهما ابن عمران ،

شخصية خطيرة ، كان في السجن . ورد إليه محمد الخامس حريته في لحظة تقوى مفاجئة ، رغم أن أصحابه حملوه منه : « إن مشى ابن عمران في غير سجنك باعاً بتر من عمرك عاماً ! » . وبدأ ابن عمران يستميل رؤساء الحرس فاستجابوا له بسهولة ، لأنهم ناقلين على الخليفة ، أفقد وصلت فرقة بربرية إلى قرطبة لتقدم خدماتها إلى الخليفة ، قبل إطلاق سراح ابن عمران بيومين ، ولأنه أحس بالخطر يحرق به من كل جانب وفي كل لون ، فقد أكرم مثواهم ، وأنزلهم دار الملك ، فأثار ذلك غيرة رجال الحرس ، وزادهم ابن عمران إثارة ، ونزل بهم إلى العامة يقولون : « نحن الذين قهرنا البرابرة وطردها من قرطبة ، وهذا الرجل يسعى في ردهم إلينا ، وتمكينهم من نواصينا » .

ورغم أن عبد الرحمن لم يكن قد صنع شيئاً بعد ، فقد اجتاحت العامة القصر ، وحرروا الأشراف الذين كانوا في سجنه ، وفهم الخليفة أنهم يريدون رأسه فطلب النصيح من وزرائه ، ولكن هؤلاء كانوا بدورهم يفكرون في حياتهم ، وربما في الجماعة التي من الأفضل لهم أن ينضموا إليها ، وانتصرت الأنانية في أعماق الكثيرين ، فتركوا الخليفة لقدره ، وتسלّلوا عنه واحدا وراء آخر . وسرعان ما أدركوا أنهم خدعوا أنفسهم ؛ فقد كانت السيوف بالأبواب تنتظر رعوس الخارجين منهم دون تمييز .

وأراد عبد الرحمن أن يخرج من باب الحمام فأظهر له الحراس سيوفهم وأشبعوه سبا . فعاد للقهقري ، وترجل عن فرسه ، وتجرد من ثيابه ، حتى بقى في قميصه واستخفى في موقد الحمام ففقد شخصه ، على حين أخذ العامة والحرس يطاردون البربر في كل مكان لجأوا إليه وبدأ الموت يحصد هؤلاء دون رحمة أو هوادة ، في القصر أو الجامع ، « وفضح حريم عبد الرحمن ، وسبى العامة أكثرهن ، وحملوهن إلى منازلهم علانية ، وجرى عليهن ما لم يجر على حرم سلطان في مدة تلك الفتنة » .

وانتصر محمد ، وبويع خليفة ، وتلقب المستكفى ، في ٨ من يناير ١٠٢٤ م ، وقام محمد وعمير على رأسه بالسيوف مقامهما بالأمس من ابن عمه عبد الرحمن ، وأمر محمد بالبحث عن عبد الرحمن في كل مكان ، فوجدوه أخيراً في أبزن الحمام ، قد انطوى انطواء الحية في مكان حرج ، فأخرج في قميص مسود بخال قبيحة ، وجيء به إلى المستكفى فبطش به بعض الرجال القائمين على رأسه ، فتهلّل وجه ابن عمه ، وأخذ في تدبير سلطانه .

كانت إمارة المستظهر إلى أن قتل سبعة وأربعين يوماً ، لم تنتشر له فيها طاعة ، ولا التأمّت عليه جماعة ، ولانجاوزت دعوته قرطبة ، وكانت سنة يوم قتل ثلاثاً وعشرين سنة هجرية .

وكان على حدّاته سنة ذكياً يفظاً ، لبيباً أديباً ، حسن الكلام ، جيد القريحة ، ملبح البلاغة ، يتصرف فيما شاء من الخطابة بلسنة وزواجة ، ويصوغ قطعاً من الشعر مستجادة . وكان في وقته نسيج وحده ، ختم به فضلاء أهل بيته الناصرين ، فلم يأت بعده مثله ، وأورد لنا ابن بسام في القسم الأول من ذخيرته طائفة من أشعاره قالها في « حبيبة » بنت « مشنف » من سليمان بن الحكم ، وكان يحبها ، وحاول خطبتها من أمها فلوته ، وهى أشعار جيدة ورقيقة ، وتعكس نفساً شاعرة حقاً .

حاول المستكفى أن يصبح شعبياً ، فتلقى جميع الناس بالإيناس ، واستأنهم بالأهوية ، ورأى المال عزيزاً فظن البشر الرخيص يقوم مقامه ، فكان يقول للناس أجمعين : ارتعوا كيف شئتم ، وتسموا من المناصب ما أحببتم ، فتسمى بالوزارة في أيامه مفردة ومثناة أراذل الناس ، وأخابث النظر ، وزعانف الكتاب والخدمة ، وأخذ الفقهاء أيضاً يحظهم من هذه المناصب ، وجاءوا في ذلك بطامة لم تسمع في العصر الخالية ، فأخطأوا وألحقوا بالدين وصمة ، وفتنوا بالمناصب العالية ، وشدوا أيديهم عليها ، واضطربت قرطبة بكثرة ما أصبح فيها من المردة ، وقبض المستكفى على جماعة من بني عمه

وحاشيته ، ومستشارى سلفه ، وفيهم ابن حزم ، وابن عمه ، وسجنوا بالمطبق ،  
وعاجل ابن عمه عبد العزيز العراقى فخنق ، وأمسى ميتا ، ونعاه إلى الناس  
فلم يخف عليهم اغتياله . وهرب آخرون حتى لا يواجهوا نفس المصير ،  
ومن بين هؤلاء أبو عامر بن شهيد ، لجأوا إلى مالقة ، وفيها استثاروا حاكمها  
يحيى بن حمود لكي يضع حدا للفوضى السائدة في قرطبة .

وفكر يحيى طويلا ، وقبل أن يقرر اندلعت الثورة في العاصمة في مايو  
١٠٢٥ ، واتفق الملاء على خلع المستكنسى ، ونصحه الحرس بأن يهرب ،  
فاستجاب لهم ، وخرج على وجهه ، وقد لبس ثياب الغايات متنقبا بين امرأتين  
لم يميز بينهما لمرانه على التخنيث ( التعبير لابن حيان ! ) ، وخرج عن قرطبة  
فات بأقلش ، فكانت دولته سبعة عشر شهرا ، صعبا نكدات ، سودا  
مشوهات ، فنيها استوصل بقية قصور الناصر بالخراب ، وطمست أعلام  
قصر الزهراء واقتلع نحاس الأبواب ، ورصاص القنى ، وغير ذلك من  
الآلات .

وكان المستكنسى على أهل قرطبة محنة وبلية ، غفلا عطلا ، مجبولا  
على الجهالة ، عاطلا من كل فضيلة ، عضته الفتنة فأملق حتى استجاز الصدقة  
ولم يلحقه الاعتقال على امتداد أيام الفتنة تحقيرا لأمره ، فكان يقصد أهل  
الفلاحة وأنضمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكليما ومخاطبة . وكان  
معروفا بالتخلف والركاكة ، مشتهرا بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانية ،  
أمير الشهوة ، عاهر الخلوة ، والجانب الوحيد الذى دخل التاريخ من بابه  
هو أنه والد ولادة ، الشاعرة الأديبة ، وصاحبة « النصالون » الأدبى  
الشهير في عاصمة الخلافة .

وخلت قرطبة من أى خليفة أو أمير أو حاكم على امتداد ستة شهور ،  
نعم كان هناك مجلس للدولة ، ولكن حكمه أقرب إلى السوء منه إلى الصلاح ،  
وما كان لموقف كهذا أن يدوم طويلا ، فالنهاية تقرب ، النظام القديم  
يغرق ، والجديد في طور التجربة ، على حين يرى القرطبيون في الخلافة

أنها الشكل الوحيد القادر على إنهاض الدولة من كبوتها ، ولكن من النبي يستطيع أن يقيمه ؟ وأين الأمير الأموى الصالح ؟ لقد حاولوا واختاروا أفضل أموى فى هذا البيت ، عبد الرحمن الخامس ، ومع ذلك فشلت المحاولة . لا بديل إذن عن أمير يعتمد على قوات أجنبية ، يمنع السلب والنهب والاعتقال ، ويفرض الأمن والنظام ويحمى هبة الدولة ، وليس بين الأمويين من يتوافر على أهله القوات ، ففكروا أن يعيدوا الخلافة إلى الحموديين وإلى يحيى بن على بن حمود بالذات ، وبدأوا المفاوضات معه ، وكان يقيم فى مالقة ، فقبل عرض القرطبيين دون أن يتحمس له كثيراً وربما داخله شيء من الشك ، فقرر أن يبقى حيث هو ، وأرسل إلى قرطبة قائداً بربرياً مع فرقة من الجنود فى نوفمبر ١٠٢٥ م .

وأظهرت الحوادث فيما بعد صدق حدسه ، فكره سكان العاصمة حكم الأتقارقة سريعاً ، وأعاروا أسماهم لصقالية الشرق ، خيران وإلى المرية ، ومجاهد وإلى دانية ، وكانوا يرسلون إليهم : إذا أردتم أن تتحرروا فسوف نساعدكم ، ولم تذهب وعودهم عبثاً . وفى شهر مايو ١٠٢٦ زحف هذان القائدان إلى العاصمة فى جند كثير ، وثار القرطيون ، وعزلوا قائد يحيى ، وقتلوا عدداً من جنوده ، وفتحوا الأبواب لخيران ومجاهد ، وعندما بدأ الحديث عن الحكومة اختفى كلاهما . خاف خيران من حليفه فخانه وأسرع عائداً إلى المرية ، وظل مجاهد وقتاً فى قرطبة ، ومالبث أن غادرها دون أن يعيد الخلافة ، وبعد رحيله قرر مجلس الشورى أن يتولى ذلك بنفسه ، رغم أن التجارب السابقة أثبتت فشل المحاولة ، لأن أى أمير أموى يلقى بالخلافة على رأسه ، وسط الجماهير الساخطة ، دون أن تدعمه قوات أجنبية ، مقضى عليه بالفشل مسبقاً .

ومع ذلك رأى المجلس بإيعاز من على بن جمهور أقوى الأعضاء نفوذاً ، أن يقدم الخلافة لهشام ، الأخ الأكبر لعبد الرحمن الرابع المرتضى ، وكان يقيم فى حصن البونت لاجئاً منذ وفاة أخيه . وفى شهر أبريل ١٠٢٧ م بايعه

أهل قرطبة ، وتلقب المعتضد ، أه المعتمد في رواية ، ومريت سنوات ثلاث قبل أن يستطيع التغلب على الصعوبات التي تحول دون وصوله إلى قرطبة ، ظل خلالها ينتقل من مدينة إلى أخرى ، وفي ١٨ ديسمبر ١٠٢٩ م وصلت الأنباء بأن هشاما سوف يدخل المدينة ، فخرج الجند لاستقباله ، وعلت الأصوات مرحبة به ، وامتألت الشوارع التي سوف يمر بها بالجماهير ، توأمل فيه أن يقيم حكرمة قوية قادرة . وما أسرع ما تلاشى الأمل ، لقد دخل العاصمة في زى تقتحمه العين ، وهنا وقلة وعدم رواء وبهجة وعدد وعدة ، فوق فرس دون مراتب الملوك ، بحلية مختصرة ، عار من أية هيبة ، يسير هوناً ، والناس يهشرونه ولا يعلمون ما سبق لهم من المكروه به ، لأنهم يتوقعون أن تنتهى الفوضى معه .

ولكن هشاما الثالث لم يخلق لمثل هذه الآمال العظيمة ، فهو طيب ورقيق الحاشية ، كسول ومتردد وضعيف ، لا يقدر غير الذائد المائدة ، وأدرك الذين اختاروه أنهم أخطأوا الاختيار ، وما لبث الجند أن ثاروا عليه وخاضوه ، وأخرج من القصر مع حشمه ، والنساء حاسرات عن وجوههن ، حافية أقدامهن ، إلى أن دخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا ، فأقاموا هنالك أياماً يتعطف عليهم الناس بالطعام والشراب ، إلى أن أخرجوا عن قرطبة ، ولحق هشام ومن معه بالثغور ، ولم يزل يجول بينها إلى أن لحق بابن هود وكان متغلباً على سر قسطة وماردة وأفراغة وطرطوشة ، فأقام عنده إلى أن مات في ديسمبر من عام ١٠٣٦ م ، ولم يكن لموته أى صدى في قرطبة ، أو في غيرها من المدائن من باب أولى .

و بجنازه انقطعت الدولة الأموية من الأرض ، وانتشر سلك الخلافة بالمغرب ، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف ، وانتشر الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى بالجهات ، واقتسموا ، خطتها ، وتغلب بعض على بعض ، واستقل أخيراً بأمرها منهم ملوك استفحل أمرهم وعظم شأنهم ، ولاذوا بالجزى للطاغية ( ملك المسيحيين في الشمال ) ، أن يظاهر عليهم أو يبتز ملكهم ، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان ، حتى قطع إليهم البحر ملك

العدوة ، و صاحب مراکش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني ،  
فخاعهم وأخلى منهم الأرض ١ (١)

ومع سقوط الخلافة أخذت حياة ابن حزم وجهة أخرى ، على نحو  
ما أشرنا إليه في حياته ، لونت فكره بظلال قاتمة ، ومزجت مشاعره  
بأحاسيس مريرة ، رغم أنه تخلص عن السياسة والوزارة ، وعكف على الدرر من  
والقراءة والتأليف والحوار وطلابه ١ .

## ابن حزم ... قمة إسبانية

للمؤرخ الإسباني : سانتشث البرنس

شهد ثورات قرطبة ، وجاءت نتيجة حتمية للاستبداد العامري ، ورأى الحروب الأهلية التي تلتها ، وعاش في إسبانيا ممزقة ، تناثرت دويلات تحمل اسم « الطوائف » ، وفيما صب التيار الذي تكون خلال حكم المنصور بن أبي عامر ، وكان مستبداً ، وعمل والد ابن حزم وزيراً له . ومن ثم قدر لابن حزم أن يواكب فترة حرجة ، شهدت انهيار الخلافة القرطبية ، والانحدار الأندلس تاريخياً . وكما يحدث في أحيان كثيرة عبر التاريخ ، بلغ التطور الثقافي خلال المرحلة السابقة أوجه في عصر الطوائف ، وهو أشد حيوية وأقل صمغاً ، ومعاً حدث الانحدار السياسي والتفوق الفكري ، وفي قلب إسبانيا هذه ، ممزقة ومشرقة ، رفرفت شخصية العلامة القرطبي خفافة وعالية ، ويمكن أن تقارن بأعظم قمم الفكر الإسباني على امتداد كل العصور .

كان ابن حزم متكلماً وفيلسوفاً ، فقيهاً وباحثاً ، لغوياً ومؤرخاً ، شاعراً وناثراً ، عالم نفس وأخلاق ، ورجل فكر وعمل ، سياسياً وحالماً . ويمكن أن يوضع إلى جانب أعظم كبار المفكرين والشعراء في العصور الوسطى . ولو قدر له أن يكتب في اللغة اللاتينية أو الرومانشية لبلغ اسمه من الذبوع والشهرة ما بلغه دانتى ، أو القديس توماس الإكويني . ولكن على العكس ، ومن الضروري أن نصرح به ، استطاع أن يبلغ هذه المرتبة العملاقة لأنه كان إسبانياً مستعرباً ، ولو كان غربياً خالصاً في الأيام التي قدر له أن يعيشها لكان من الصعوبة البالغة بمكان أن يبلغ القمة التي خلق فوقها فكره ، لأن الثقافة الأوروبية خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر ، وانسمت بالفجاجة ، كان ممكناً أن تدمر القدرة الخالقة عند حفيد الإيبيريين الإسمان القدامى ، أبناء فرضة نهر ولبة Huelva

إن المعادلة الجبرية بين السلالة والأرض والوعاء الثقافي والتوتر التاريخي والحياة العائلية ، وكلها تلعب دوراً حاسماً في ازدهار شجرة العبقريّة ، معقدة للغاية ، ولأنها اكتملت حول ابن حزم استطاع أن يصبح على نحو ما كان عليه ، ولهذا نستطيع أن نفهمه فحسب إذا وضعناه وسط سلالته ، وعدنا به إلى أجواء عصره ، وتسربنا إلى أعماق شخصيته .

لقد حاول كبار المستشرقين تحليل هذه العناصر ، وتميز المستشرقون الإسبان من بينهم على نحو رائع ، وبخاصة ميغيل أسين بلاثيوس ، وإمبايو غرسية غومث . ولن أحاول اكتشافه الآن ، وأنا أرزح تحت أعباء سنين طالت ، لأن ذلك يكاد يدفعني إلى حالة من الوجد أمام أعماله ، أودعني تستحوذ على حماسة مبتدئ خطيرة ، وكلاهما - الوجد والحماسة - أفسدا الفكر الحاد لبعض المدركات التاريخية في كتب ابن حزم ، وفي الاعترافات الثقيمة المتأخرة للمفكر الأندلسي العظيم . ومنذ أن نشر أسين بلاثيوس شيخ المستشرقين الإسبان المعاصرين ، ترجمته لكتاب : « الأخلاق والسير : مداواة النفوس » عام ١٩١٦ ، والجزء الأول من دراسته عن ابن حزم وكتابه : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ونشره عام ١٩٢٧ - وما أكثر الأمسيات التي شهدت فيها أسين بلاثيوس يسود الصفحات البيضاء بترجمته للكتاب ، في مكتبته من شارع أنتشا Ancha - أحسست بالأهمية المتزايدة لهذه الشخصية الإسبانية المسلمة المنقطعة النظير ، وإحدى أفكاره عن الحروب الأهلية : « نوار الفتنة لا يعقد ! » باشرت تأثيراً حاسماً على موقفى من حرب الإخوة المتقاتلين في الحرب الأهلية الأخيرة ، ١٩٣٦-١٩٣٩ والتي مزقت وطنى في قسوة . وتوارد في ذهنى تفكير ابن حزم هنا ، وهو مصيب للغاية ، وجرى به قاصى في مقدمة كتابى : « حول أصول الإقطاع » وكتبته في مدينة بورديو بفرنسا ، بينما الإسبان يتقاتلون في وحشية قليلة النظير . وفيما بعد ، عندما أعددت كتابى عن « إسبانيا الإسلامية » كان على أن ألتقى مع ابن حزم مرة جديد . واعتزنى دهشة قوية عندما

تأكدت لى إسبانية مزاجه وشغلى الأمر مشتاقا ، فعرضت له فى عدد من المحاضرات ، وفى مقالين أو ثلاثة .

أحد كتب ابن حزم ، وهو طوق الحمامة ، ترجم إلى عدد من اللغات الأوروبية الحديثة : الإنجليزية والروسية والفرنسية والإيطالية ، والإسبانية أخيرا . وهذا السلسلة من الترجمات تؤكد الاهتمام الذى أناره الكتاب فى عصرنا خارج دائرة المستشرقين والعاكفين على الدراسات . لقد استطاع القرطى ، علامة عصر الطوائف ، أن يصبح معاصراً ، وأن يشد انتباه قطاعات عريضة من المهتمين بالظواهر الأدبية ، والمغرمين بالمشكلات التاريخية . وتقدم ابن حزم إلى المقام الأول من اهتمام المفكرين والمؤرخين والمتقنين والباحثين ، وحتى من ذواق الأطلمة الممتازة العارفين ، بين الآداب القديمة على امتداد كل العصور ، ببر اهتمامى بشخصه وبمؤلفاته ، ومع ذلك فإن أحلل لا هذا ولا ذاك . إن اهتمامى - كمؤرخ - ينصب على انحصار واستمرار ما هو إسباني فيه ، وشدنى إليه ما يثيره من سؤال حين نضعه داخل النمط الحيوى لشبه الجزيرة الإيبيرية ، وارتباطه به ، ارتباطات نستطيع أن نقول إنها دارجة مع إسبان آخرين من عصور متفاوتة جدا ، جاءوا قبل هذا القرطى المسلم ، أو بعده ، بألف عام ، وكتبه عن الحب ، يمكن أن يقرأه اليرم ملايين الغربيين فى لغاتهم القومية . وثمة مشكلة مسبقة تعترض طريقى ، طرحها وعرض لها على طريقته أورتيجا لى جاسيت .

لقد شرفت دراسة وترجمة « طوق الحمامة » إلى الإسبانية ، والى قام بها غرسية غومث ، بمقدمة للأستاذ العظيم أورتيجا لى جاسيت ، وحاول فيها أن يقدم تفسيراً - مبدئياً للعصور الوسطى ، وكان قادرا بعمق نظره ، وحدة ذكائه ، على أن يرى بوضوح ، وسط الضباب الذى يحول بين الآخرين ، وأنا أحدهم ، وبين تأمل أسرار التاريخ والحياة ، وأن يحدد مبدعا مرحلة ذات نتائج مأسوية بالغة الخطورة فى حياة أوربا ، على نحو ما فرضتها العصور الوسطى ، وكان الأمر ، مع ذلك ، مجازفة خطيرة ، وأو. تيغا

وحده يستطيع المغامرة بمواجهتها باطف وفي نجاح. نجاح فيما قدم لنا ، وليس مهما أن يكون نظرية لا تقبل الهجوم ، وهو نفسه حدد لنا العلم منذ أعوام بأنه مصباح ينير المشكلات موضع النقاش ، ولكنها أفكار كثيرة خصبة ، على المؤرخين أن يضعوها في حسابهم في قابل الأيام .

لقد حدد أورتيجا فكرته الجديدة عن العصور الوسيطة : « العصور الوسطى الأوروبية لا تنفصل في الحقيقة عن الحضارة الإسلامية ، لأنها تقوم بالدقة على التعايش ، إيجابا وسلبا في الوقت نفسه ، بين المسيحية والإسلام فوق رقعة مشتركة تشربت بالحضارة الإغريقية الرومانية » . لقد كتبت هذه الكلمات التي تشير إلى العصور الإسبانية عندما يقرب من ربع قرن ، في مقال لي بعنوان : « إسبانيا والإسلام » ونشرته في مجلة الغرب Occidente التي أسسها أورتيجا إلى جاسيت ، ودعمها على امتداد أعوام طويلة ، وانتهت فيه إلى أن إسبانيا برزت ثمرة اللقاء بين المسيحية والإسلام على أرض شبه الجزيرة في حالي الحرب والسلام على السواء . وأنا لا أنكر خصوصية التعايش بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى ، غير أنني لا أقبل القول بأن المنعطف التاريخي للعالم المسيحي ، بكل ضبابه المتراكم ، تطوره الحاسم ودوره في نهضة أوروبا الحديثة ، كان وليد ذلك التعايش . ولكني أتمنى بقوة أن يكون لهذه الصيحة العالية التي أطلقها أورتيجا دوى وأن تجد لها خارج إسبانيا صدى ، لأن المؤرخين حتى يومنا لا يقدرون الدور الذي لعبه الإسلام في التاريخ الأوروبي الوسيط ، ولا يعطونه ما يستحقه من اهتمام .

وأخشى أن يكون أورتيجا قد ذهب بعيدا حين انتهى إلى أن الجرمانية والعربية كانا « جسمين متشابهين للغاية فيما يتصل بموقفهما الجوهرى من الحياة » في بداية العصور الوسطى . لأن من الواضح أنها مختلفتان بدءا ، ولكن أحدا من المؤرخين لم يغامر بإبداء رأيه على غير أساس ، وفي غير أناة ، عن نظرية « عدم المجانسة » إن ازدرأ أورتيجا إلى جاسيت للمؤرخين ظالم ومألوف ، وجاء وليد إطلاق اسم هؤلاء على العلماء الموسوعيين الخاص ، وهؤلاء

تعودوا أن يطلوا على التاريخ من وراء غمام ، كخيال المصارعين حين تظهر في حلقة مصارعة الثيران . ولأنه تعود على الحرية الرائعة لحركة الفلاسفة ، الذين يستطيعون أن يمتطوا اسراعاً صهوة الأفكار المندفعة ، ومن ثم فهو لا يستطيع أن يقيم في دقة مأساة المؤرخين ، تقديمهم الأحداث التاريخية في قسوة ، أحداث ليست هي التاريخ ، ولكنها تصنعه وتخلده وتعتهله . وإذا كان بيننا كثيرون يستحقون أن يجلدوهم بسياط نقده . فإن ذلك لا يعطيه الحق في أن يابوح بها ضد الجميع .

ويؤكد أورتيجا ، وتأكيده مقنع ، وواقع أن الشعوب ذات الثقافة البدائية ( والتشابه في البدائية لا يعدل — في رأيي — التشابه الجوهرى ، فثمة أنواع كثيرة من الوجود البدائى ) كنت تشغل فراغاً اجتماعياً ، على رقعة الإمبراطورية الرومانية ، وسبقها حضارة بلغت قمة الرقى ، وللسبب نفسه كانت أشد تعقيداً وأرقى صقلاً . ولكنه لم يقف عند حد التفرقة بين الاختلافات الكبيرة التى كانت تفصل بين القارتين قديماً ، في عالم العرب والجرمان . اختلافات خصبة ، ذات نتائج تاريخية بالغة الأهمية . ألا يبدو له من الأهمية بمكان أن هؤلاء دخلوا علماً ثقافياً ، تأثر بالثقافة الجرمانية إلى حد بعيد ، وهى حقيقة لا تقبل المناقشة ، ولا يمكن أن تنسى في عالم اليوم ، وأنهم دخلوها مخلوقات عارية ، تحت راية الرغبة ذاتها ، ووحدها ، وتدفعهم القوة أو الخوف — والخوف ، لكى لا ننسى ، عامل تافه في الحدث التاريخى — دون أن يحملوا على أسنة رماحهم ، أو في أطراف سيوفهم ، أى كتاب مقدس ، ودون أن يخفوا منهم القوى في أن يصبحوا سادة البلاد التى فتحوها ، ودون أن يرفعوا علماً أية فكرة خصبة وجذابة وقادرة على أن تثير الحمية في نفوس الجماهير الغربية ؟ .

ولم يكن العرب كذلك . لم يتوغلوا في عالم العروبة ، باسم الرغبة الحالصة والوحيدة في أن يصبحوا سادة بلاد الأعداء ، ولم يدخلوها عراة من الثقافة ، وإنما عبروا حدود الجزيرة العربية ليكملوا وصاة الرسول ،

ولينشروا بحمد السيف عقيدة جديدة، ولأنهم ، بوضوح ، حققوا فتوحاتهم تحت راية عقيدة دينية ، وفتحوا صفوفهم فوراً للراغبين في اعتناق الإسلام من أبناء الشعوب التي أخضعوها . وكانت خلافة دمشق في الحقيقة إمبراطورية سورية ، وخلافة بغداد إمبراطورية عراقية ، وكلاهما محتما بقبلة الإسلام . ولقد حاول العرب في البدء أن يستردوا دفعة الإسلام السياسية والاقتصادية عن طريق الحرب ، وانتهت بأن أشعل السوريون النار في المدينة المقدسة ، وفيما بعد لم تستطع القلة من العرب التي استقرت في البلاد المفتوحة ، وقد فاضت بسكانها ممن اعتنقوا الإسلام ، دين العرب ، في سرعة عجيبة ، أن تحتفظ إلا بالقليل من تكوينها الحيائي الأصلي . ويمكن القول أن أبناء الشعوب المفتوحة هم الذين صنعوا تاريخ الإسلام ، بينما واصلت أغلبية العرب حياتهم في جزيرتهم شبه الصحراوية ، دون أن يتلقوا الحضارة التي صنعها المنحدرون من أصلاب الذين انهزموا أمام الإسلام .

لا أستطيع اليوم أن أقف مع الرأي القائل بأن أوربا الإقطاعية كانت عملاً جرمانياً — كما كان يعتقد قديماً — ولكن من الضروري الاعتراف بأن الجرمان ، بما فيهم أولئك الذين ظلوا في مواطنهم البدائية الأولى فيما وراء نهر الراين لم يكونوا بمنأى عن هذه المغامرة العملاقة الخلافة ، على حين كان عمل العرب الخالص في تكوين حضارة وأسلوب الحياة الإسلامية محدوداً .

وآسف لأنني استخدمت تعبير « أسلوب الحياة الإسلامية » ، لأنني أشك كثيراً في أنه يوجد في الحقيقة أسلوب إسلامي للحياة . وقد دفع اعتبار الإسلام وحدة جوهرية وثقافية بأبيركو كاسترو إلى أن يرتفع بيننا نظرية بالغة الضعف . ولقد تساءل أورتيجا إلى جاسيت منزه أعوام طويلة : يا إلهي ! ... ماذا تكون إسبانيا هذه ؟ وبالصرخة المأسوية نفسها يمكن أن نسأل : ما الإسلام ؟ . لأنني لا أؤمن بوحدة التكوين عند الشعوب التي تعبد الله الرحمن الرحيم . لا أستطيع

أن أوافق أورتيجا فيما وصف به ابن حزم من أنه عربي إسباني ، وأجروا  
على أن أناديه بما هو نقيض لقوله : إسباني متعرب .

من الواضح أننا إذا احتفظنا بصفة «إسباني» لمن عاشوا طبقاً لأشكال  
الحياة الإسبانية المعاصرة ، فإن مؤلف « طوق الحمامة » ليس إسبانياً . وأسمح  
لنفسى أن أرد هنا على التجديد البسيط الذى أعطاه أميركو كاسترو لمفهوم  
«إسباني» . إذا أطلقنا لفظ «إسباني» على أولئك الذين فكروا وأحسوا  
وعاشوا ، على نحو ما كان شائعاً في فترة ما من تاريخ إسبانيا ، مهما تكن ،  
فإن أسلافنا من ثلاثة آلاف يمكن أن ينكروا ، وبحق ، صفة إسباني  
على أورتيجا أى جاسيت ، وأميركو كاسترو أو غرسية غومث وأنا . لأننا  
لا نفكر ولا نحس ولا نعيش على نحوهم .

أعتقد أن الرجل هو التاريخ ، على حين يرى أورتيجا أن الشعوب تتغير مع حركة  
الأجيال السريعة ، وأن الأمس يختلف دائماً عن اليوم ، وأن اليوم يغير الغد .  
ولا يوجد عصران إسبانيان متماثلان . وذلك يسمح لنا . بل يضطرنا . أن نعتبر  
إسبانيين كل أولئك الذين على امتداد التاريخ ، داخل إسبانيا وخارجها ، فكروا  
وأحسوا وعاشوا على نحو ما كان مألوفاً إذ ذاك ، في إسبانيا الرومانية . قبل  
فريباتو Viriato بزمان طويل ، وحتى بعد بريم Prim بقرون عديدة (١) .  
وأمر آخر لا يمت لذلك بصفة ، أن نحدد ما إذا كانت هناك ملامح مشتركة  
بين إسبانيا الماضية البعيدة . وأمس واليوم . والموضوع هام لكني نحدد بدقة  
قدر ما في مؤلف «الحمامة» من إسبانية حققة . وثمة أخبار مثيرة لرحالة  
أفريقي من القرن السادس قبل الميلاد ، يروى أن سكان مرسيلى كانوا مغرمين  
بقصص الحكايات والروايات ، ويمكن أن نجد شواهد أخرى كثيرة مشابهة .

---

(١) فريباتو أيبرى تزعم الثوار في غرب شبه جزيرة إيبيريا ضد الاستعمار الروماني ،  
فدفع الرومان بمن أغناله عام ١٤٠ قبل الميلاد .  
وبريم ، قائد عسكري إسباني ، اشتهر في الحروب الأهلية التي سمت إسبانيا في النصف الأول  
من القرن التاسع عشر .  
( المترجم )

ومهما يكن عدد الذين يمكن أن يتسع لهم هذا الباب ، فإنى لا أومن بأن للأرض أو السلالة تأثيراً حاسماً عبر التاريخ ، ولا فى استمرار الخصائص الجماعية للشعوب إلى مالا نهاية . إن التاريخ وليدلعية معقدة بين قوى مختلفة ، منها الأرض والسلالة ، وكلاهما يلعب ، بالطبيعة ، دوراً فعالاً . والتركيب الحيوى للشعوب ليس خالداً ، لأنه يرتبط بالتطور التاريخى الخاص بكل شعب : ثباته أو تغير ماورث من مزاج ، واستمرار بعض الملامح المميزة لشخصيته والإيقاع الذى يسير عليه فى علاقته مع الآخرين أخذوا وعطاء .

وليس صعباً ولا أجروء على أن أخط مخاطرة ، لأنها لم تكن كذلك ، فالتاريخ وليس المغامرة هو الذى سهل لطارق بن زياد ، وموسى بن نصير عبور مضيق جبل طارق - أن نوضح أن ، خصائص التاريخ الإشباني الوسيط حددت مسار تقدمنا التاريخى ، وجاء فى زحف الساحفة خلال حرب « الاسترداد » وليغفر لى أورتيجا أن أنقل عنه هذه الاستعارة القديمة التى استخدمها قبلى ، ولو أن محتواها يمكن أن يكون موضع نقاش . فنحن شعب أوربى ، أقرب ما يكون بماضيه المتميز إلى أسلافه القدامى ، وقد مضت عليهم آلاف الأعوام . وهى خصائص حاولت أن أوضحها مفصلة ، وأودعتها كتاباً ضخماً . وحتى خلال الحكم الإسلامى واصل الكثير من هذه الخصائص الإشبانية القديمة حياته ، لأن الإسلام الأندلسى اعتقل فى ماضى سكان شبه الجزيرة الإيبيرية ، لأسباب احتفظ بها الآن .

ليس السلالة أو الأرض إذن هما اللذان صنعنا من مؤلف « طوق الحمامة » إشبانياً ، وإنما صاغه التاريخ من طين ولبة الإيبيرية ، ومن دم إيبيرى يتدفق عبر جودده المولدين ، وهى حقيقة نسيت ، كما نسى من قبل أن نهر تينتو Tinto أقدم نهر إشباني .

وفى شعب يتقدم عبر التاريخ بخطى بطيئة ، ونقول هذا لإبراء الذمة الإشبانيين ، فإن ثلاثة قرون غير كافية لتغيير التكرين المزاجى للمجموعة ونحن نعلم من أن تفكر مثل أميركو كاسترو فى أن إشبانياً قد تعربت ثقافياً

وحيوياً بعضاً سحرية منذ لحظة الفتح عام ٧١١ م . لقد كان التعريب الثقافي بطيئاً للغاية ، ويقول غرسية غومث فيما كتب من قريب : « بعد اكتشاف « الخرجات » الرومانشية للموشحات ، وشيء مثير من محبّات العصر الأدبية ، بدأنا ندرك اليوم بوضوح أهمية النتائج التي أدّى إليها الازدواج اللغوي في إسبانيا الإسلامية ، وأصبحنا نعرف الرقعة المحدودة التي لاذت بها العربية الفصحى في نطاق الدولة » وأما التعريب الجيوى لإسبانيا الأندلس فربما لم يتحقق أبداً ، إذا فهمنا من « التعريب الجيوى » شيء يتجاوز اتخاذ العادات الخارجية للحياة اليومية . وفي كل الأحوال رأت إسبانيا الإسلامية شعباً يتحرك في توتة ، ليصبح هجين الفكر على مهل ، وطبقاً لما قاله ، وكرره ، كل المستشرقين ، كانت المسافة واسعة بينه وبين كل ما هو شرقي حقيقى في كثير من مظاهر مزاجه . ولقد أبرز غرسية غومث « غربية » شعور ابن حزم ، وأزاح ابن حزم نفسه الستر عنها حين قال :

أنا الشمس في أفق العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلقى الغرب لا ، في ثلاثة قرون لم يكن مسالموا الأندلس قد أهدروا كل تراثهم من المزاج الإسباني ، ومن ثم كان ابن حزم إسبانيا تعرب ثقافة ، ولم يكن عربياً إسبانياً . ابن أحد وزراء المنصور بن أبى عامر ، ذكثاتور الأندلس ، وكان معاصروه وتلاميذه من شبه الجزيرة يرونه حفيداً لمولدين ، أى أنه ينحدر أباً من أصول إسبانية أسلمت ، وكانت الأم إسبانية على التأكيد ، لأن مسلمى الأندلس ، حتى الخلفاء منهم ، ولدوا لأمهات ينحدرن من سلالات إسبانية عريقة ، فهم من هذا الجانب إسبانيون جميعاً ، ولكن ابن حيان المؤرخ ، وابن سعيد صاحب « المغرب في حلى المغرب » ، يصرحان بأن ابن حزم كان كذلك من جهة الأب أيضاً .

يقول المثل الإسباني : « أنت أشبه بمن تعيش بينهم منك بمن ولدت لهم » ، لوهى فكرة لا يعمل تردديها ، في كلمات أكثر نبلا ، أولئك

الذين يعتقدون أن التربية تنصرف على الدم في تكوين الشخصية الإنسانية . ولكن حالة ابن حزم تقف عالية في مواجهة هذا القول ، فهو مسلم ومتغرب حتى الأعماق ، ولكن روحه واصلت إسبانيته دون أن تنحرف . وما نعرفه عن الداخل الروحي للمفكر القرطبي العظيم قليل جداً ، وقد توقف بإزائه تلاميذه ودارسوه ، في فطنة أحياناً ، ومزوجة بالغضب أحياناً أخرى . وكشف هو عنها في كتاباته ، وألف - كما قلنا - حول موضوعات وفيرة التنوع ، من كلام وفلاسفة وفقه وأدب وتاريخ وغيرها . ولكن شخصيته تبدو في قمة توهجها خلال ثلاثة كتب شهيرة : « طوق الحمامة » ، وفيه يلتقي الشاعر وعالم النفس ليرسم لوحة جميلة للحياة العاطفية على أيامه . وكتاب « الفصل بين الملل والأهواء والنحل » ، وهو تاريخ مقارن للأديان ، وفيه يدل على معارفه الواسعة من الثقافات ، إسلامية وفارسية وإغريقية ومسيحية ولايتينية ويظهر عمق ذكائه الفلسفي ، وقوة عقائه الخلاق . وكتاب « الأخلاق والسيرة في مداواة النفوس » ، وفيه أورد ملاحظاته على نفسية معاصريه موشاة بحكم أخلاقية ، واعترافات ذاتية صادقة ، تجمعها صنو ديمقريط Democrite ، وسينكا Seneca ، وتارة يشبه القديس أغسطين ، أو يذكر تيوفراست Teofraste ، أو يسبق في أفكاره بيبكون Bacon أو لا بروير La Bruyère ، أو يبدو كما لو كان سلفاً للشاعر الإسباني كيبيدو Quevedo ، أو مواطنه المفكر أونامونو Unamuno (١) .

(١) . ديمقريط : فيلسوف إغريقي عاش قبل الميلاد ، وانهض فلسفته على السخرية من جنون الإنسانية .

• سينكا : (٤ قبل الميلاد - ٦٥ بعد الميلاد) فيلسوف وخطيب ومسرّح إيبيري ، ولد في قرطبة وعاش في روما ، وترك عدداً من المؤلفات الفلسفية والمسرحيات الشعرية وغيرها .  
• القديس أغسطين : (٣٥٤ - ٤٣٠ م) ، راهب كاثوليكي ، من شمال أفريقية ، ولد لأب وثني ، وأضحى شاباً متهكاً ، ابن من علاقة غير مشروعة ، واتخذ من الرهبنة

وليس من الصعب أن نكتشف في الملامح النفسية التي أوردها عنه من ترجموا له ، أو تناثرت فيما كتب لنفسه عن نفسه ، أو في اعترافاته ، عمق حيويته الإسبانية ، ولكن ... فلنمض في رحلتنا معه على مهل ! :

• من مدينة الزهراء إلى الإسكوريال :

لطالما وجدتني مشدوداً إلى الموازنة بين تاريخ إسبانيا الإسلامية وتاريخها المسيحي ! .

ومنذ سنوات رسمت صورة لحقتين من حياة إسبانيا ، تفصل بينهما قرون عديدة من الزمن ، وألوان مختلفة من الثقافات ، ولقد أبدت اهتماماً كبيراً في دروسى ومحاضراتى بمدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر تحت جبل العروس ، من قبله الجبل ، شمال قرطبة ، بين عامى ٩٣٦ و ٩٦١م ، أى منذ ألف عام ، وما أكثر ما أشرت إلى بنائها تفصيلاً ، فى ضوء المعالمات الضافية التي أوردها لنا ابن حيان ، المؤرخ القرطبي العظيم ، فقد ذكر الأعمدة ، عددها ، والرخام الذى استخدم فيها وثمنه ، ونفقات قطعه وحمله وألوانه ، وعدد العمال الذين كانوا يشتغلون فى البناء ، والدواب التي تستخدم

---

= لباساً ، وأصبح من كبار رجال الدين الكاثوليك ، وبلغ فى مجال الكتابة درجة عالية ، ومن أشهر مؤلفاته : إعرافات .

• تيوفراست : ( ٣٧٢ - ٢٨٧ ق . م ) فيلسوف إغريقى .

• بيكون : ( ١٢١٤ - ١٢٩٤ م ) ، عالم وفيلسوف إنجليزى شهير ، صاحب المذهب

التجريبي فى الدراسة .

• لابروير : ( ١٦٤٥ - ١٦٩٦ ) كاتب وأخلاق وروائى ومسرعى فرنسى .

• كييلو : ( ١٥٨٠ - ١٦٤٥ ) شاعر وكاتب إسبانى .

• أونامونو : ( ١٨٦٤ - ١٩٣٦ ) ، كاتب إسبانى ، فيلسوف وشاعر ، مسرحى

ودوائى ، ومناضل سياسى ، ودنيا واسعة من الثقافة العريضة والعميقة ، غزير الإنتاج ، ويلتقى مع كاتبنا العظيم عباس محمود العقاد فى جوانب كثيرة ، ويصلحان موضوعاً شيقاً لدراسة مقارنة ( المترجم ) .

في النقل من بغال وجمال ، ومقدار ما تنقل ، وما يدفع لها وللعامل عليها  
 من كراء ، نجى وتذهب في قوافل لا تنقطع بين قرطبة والزهراء ، محملة  
 بالرخام والحيار والجلص والأخشاب ، وكل ما يتطلبه البناء من مادة وأدوات .  
 ولقد أسعدنى ما أثارته هذه الحقائق من دهشة بين السامعين . ثم وصفت لهم  
 فخامة قصر الخلافة ، وبنى بأعلى الزهراء ، والحدائق الخضرة تطوق المدينة  
 من كل جانب ، وتشغل ما بينها وبين مرتفعات الشارات ، وقد اتخذها  
 الناصر « لنزله ، وكرسيا لماسكه ، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين  
 ما حفى على مبانيهم الأولى ، واتخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء ،  
 متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظلة بالشباك ، واتخذ فيها دوراً لصناعة  
 الآلات ، من آلات السلاح للحرب ، والحلى للزينة ، وغير ذلك من  
 المهن ، وكانت تضم منازل رجال البلاط ، وكبار الموظفين . وتأنيث  
 وأنا أرسم صورة للبهو الأعظم ، وكان معداً لاستقبال السفراء والوفود  
 وكبار الزائرين ، سقفه من الرخام المذهب ، وفرشت أرضه بالسجاد  
 الفاخر ، وأقام له في رأسه كرسيا من الذهب الخالص ، وتوسطه بركة  
 كبيرة من الزئبق ، وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب ، قد  
 انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ،  
 قامت على سوارى من الرخام الملون والبلور الصافى ، وكانت الشمس تدخل  
 على تلك الأبواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطان فيصير من ذلك  
 نور يأخذ بالأبصار . وكان الناصر إذا أراد أن يفرغ أحداً من أهل مجلسه  
 أو ما إلى أحد صقاليته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق  
 من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ، حتى يخيل لسكل من في المجلس أن  
 المحل قد طار بهم ، مادام الزئبق يتحرك . وأنهيت وصفى لمدينة الزهراء  
 بكلمات دامعة ، وقفت فيها على أطلالها ، وأسفت لتدمير الكثير من  
 روائعها في الثورات التى اجتاحت قرطبة بسبب دكتاتورية المنصور وأبنائه  
 من بعده .

وحدث للشيء نفسه في مدينة بونس أيرس عاصمة الأرجنتين ، عام ١٩٣٣ ، في محاضرة ألقيتها عن « الحياة في قصور خلفاء قرطبة منذ ألف عام » : « وفجأة ومض في داخل خاطر ، وقفز فسكرو بعيداً ، في الزمان رني المسكان ، لسكى أنتقل إلى قصر ملكي آخر ، لأمراء إسبانيين ، أقيم على نهر ، ما فعل عبد الرحمن الناصر في سطح جبل آخر ، قريباً من عاصمة إسبانيا على أيامهم .

لقد خلق بي الخيال عالياً ، ومشدوداً إليه ، تجتاحني مشاعر وذكريات ركنين في وطني البعيد والمعبود ، ولحظتان حاسمتان من تاريخه ، وجدنتي أقول :

« لا ترد في خاطري مدينة الزهراء أبداً إلا وجمع بي حصان خيالي ، والآن ، كما يحدث دائماً ، انطلق بي تذكرها ، بأسرع مما ينطلق الفرس ، أوتندفع الرصاصة ، إلى سلسلة جبال وادي الرمة ، وعبر خيالي ، في رحلة طائرة رائعة ، أشجار سلسلة جبال « مورينا » ، ووديان « لامنتشا » ، وقمم جبال طليطلة المتلاحمة ، ومنعطفات نهر « تاجه » تطوق المدينة مثل حمائل سيف مفضض ، وقباب مدريد وغاياتها ، وناطحات سحابها ، لسكني أتأمل في شوق حزين قصور مدينة ملوك إسبانيا من أسرة أشتورياس : الإسكوريال ! »

مدينة الزهراء والإسكوريال ! ، وليس ثمة تناقض أشد حدة مما بينهما فلإ جانب قصور خلفاء قرطبة ضوء أندلسي يعشي البصر ، وأرض ذات أسرار ، وخضرة شبة ، وبرتقال وزيتون ، وحول قصور ملوك مدريد بلوط وصفصاف ، وأعشاب وزعر ، وصخور شهباء ، وصقيع وبرد . وفي مدينة الزهراء رخام وفسيفساء ، وزخارف فاخرة ، وبرك وحمامات ، وقاعات مذهبة ، وفي الإسكوريال رخام ومعمار تحكمه هندسة دقيقة ، وصوامع غبرة ، وممرات عابسة ، وعنف . في مدينة عبد الرحمن الناصر قصور ومساجد ، خصيان ونساء ، شعراء وجنود ، موسيقى وألوان

متوهجة ، وسجاد وحرير وعطور ، وأقوام تتحدث العربية ، وفي الإسكوريال . مقر فيليب الثاني ، رهبان وراهبات ، وأغنيات دينية ، ومحادثات هامة كالصلاة ، وأردية سوداء من نسيج قشالي ، وصممت وهدوء . في «شارت» قرطبة للذاذات وقسوة ، ودم وشهوة ، وعواطف متفجرة ، وفي وادي الرمة الثلج صلوات خاشعة ، ومشاعر مكبوتة وتصوف . وعلى منار مسجد الخليفة صوت المؤذن يدعو إلى الله الرحمن الرحيم ، وألسنة النواقيس في أبراج الدير الملصكي ، في الإسكوريال ، تدعو المؤمنين بآبن الإنسان وآبن الله إلى القداس . ليس ثمة تناقض أشد واحدة مما بين مدينة الزهراء والإسكوريال ، ومع ذلك ، وكما يقول بيت من الأغنية الشعبية الأندلسية ، «ثمة خيط خفي يوصل بين الإثنين» .

نعم ، مدينة الزهراء والإسكوريال ١ . كل واحدة منهما تمثل قمة مرحلة في حياة إسبانيا . كانت مدينة الزهراء ، في القرن العاشر الميلادي ، حاضرة الأندلس ، وإسبانيا الإسلامية القوة الأولى في غربي البحر الأبيض المتوسط ، تملك مضيق جبل طارق ، وتسيطر على المغرب الأقصى ، ويطلب صداقتها والتحالف مع خلفائها إمبراطور جرمانيا ، وقيصر بيزنطة ، ويرسلان إليها السفراء والهدايا ، وقرطبة إذ ذاك أكبر مدن الغرب ، وأعظمها ثقافة وأكبرها غنى . وفيها نضجت الثقافة الأندلسية الرائعة ، وستأخذ موضع الأستاذ من أوروبا الغارقة في الظلام ، وتدفع بها إلى أول نهضة أوربية عرفها القرن الثالث عشر الميلادي . وعلى حين يسود في شمال جبال البرانس اقتصاد بدائي ، وكل النشاطات التجارية والصناعية خامدة ، كان يزدهر في شبه جزيرة إيبيريا اقتصاد يستخدم النقود ، وتدعمه حياة ناجحة متحضرة ، وصناعات متنوعة ، وتجارة نافقة يتجاوز الحدود نشاطها .

وعندما ارتفع بناء الإسكوريال ككلا في القرن السادس عشر ، فوق صخور وادي الرمة ، كانت إسبانيا أعظم قوة في العالم ، اكتشفنا

وغزونا أمريكا، وعندما انتصرنا على الأتراك في موقعة لبانتي lopante (١) غيرنا إلى الأبد التكوين الجغرافي للحضارة التي كانت تعيش حول البحر الأبيض المتوسط ، وانحسر الإسلام ، وكان إحدى القوى العالمية في مطلع العصر الوسيط ، إلى المشرق وإفريقية ، وبدأت البابوية والإمبراطورية ، شمسا سماء العصر الوسيط ، تدوران في فلك الشمس الإسبانية ، ففرنسا خصمنا مقهورة وعاجزة ، وتعانى من تدخل مدريد النشط ، حتى أصبح الجنود الإسبان زينة باريس . وفي سلمنقة فتحت مدرسة فيتوريا Vitoria المحال واسعا أمام حقوق الجماهير ، وفي طليطلة يرسم الجريكو El Greco ، وفي أبله تكتب سنتا تريزا وخوان دى لا كروث ، وكان ثرفانتيس ولوى دى فييجا فى طو ، التكوين ، وأنقذ علماء اللاهوت والمفكرين الإسبان القيم الأخلاقية الخالدة ، وكان عصر النهضة ممثلا فى شخص مكياڤلى Machiavelli وبودين Bodin قد ألقى بها فى القاع ، وأنقذت أيضا سيادة الروح بعد أن هددها انتصار العقل ، وأملت حركة الإصلاح ، فى أن تكون سيطرته على العالم مطلقة . أى أن إسبانيا ولدت الحداثة ، واحتفظت ، مثل ما حدث فى أركا سنتا Arca Santa ، بقوى كانت ضرورية للرجال فى أيامنا هذه ، كترىاق لشفاء العقل الخالص من الضلال (٢)

عرضت لقمتين من تاريخ إسبانيا المنتصرة ، حاكمة الشعوب ، ومبدعة الثقافات ، ولكن مدينة الزهراء والإسكوريال يرتبطان أيضا ، فى ذاكرتى ، بموازنا أخرى ، تتصل بحياة وموت عدد من الأمراء الإسبان . فعبد الرحمن

(١) معركة بحرية جرت فى خليج لبانتي عام ١٥٧١ ، بين الجيش العثماني ، وجيوش أوروبا مجتمعة بقيادة دون جوان ملك النمسا ، وقد أنزلت الأساطيل الأوربية الكاثوليكية المتحالفة هزيمة فادحة بالأسطول العثماني .

(٢) • الجريكو : ( ١٥٤١ - ١٦١٤ ) ، من أشهر الرسامين فى إسبانيا ، ولد فى جزيرة كريت ، وعاش فى إسبانيا ، وتوفى فى مدينة طليطلة ، وله فيها متحف خاص به يجمع درائع لوحاته .

الناصر مشيد مدينة الزهراء القرطبية أمر بإعدام ابنه عبد الله ، وفيليب الثاني الذى أقام مدينة الإسكوريال قرب مدريد ، سجن ابنه كارلوس ، وتركه يموت سجينا ، بل ويمكن أن أقوم بموازنة بين أمراء بنى أمية الأندلسيين فى القرن العاشر الميلادى ، وملوك إسبانيا المنحدرين من أسرة أستورياس فى القرن السادس عشر . لقد ورث كل من عبد الرحمن الناصر و كارلوس الخامس عن جدودهما ؛ إسبانيا متميزة وفريدة ، وواجه كل منهما مشاكل خطيرة ، وكانا محاربين قوين ، وعاشقين عظيمين ، بحبان الحياة والمتع ، وانتصرا كثيرا فى ساحة القتال ؛ وهربا ، كل واحد منهما ، فى يوم مظلم كى ينقذ حياته وحرته . هرب الناصر فى شمنقش Simancas ، وهرب كارلوس الخامس فى إنسبروك Innsbruck ، ومنذ هذه اللحظة أحسا بالفشل ، وتحررا من الكآبة ، وعاشا مابقى لهما من الحياة بعدها . وورث كل من الحكم الثانى وفيليب الثانى إمبراطورية قوية عظيمة ، وكانا يتفران من الحرب على نحو متساو ، ولم يحدث أبدا لأى منهما ، وهويدفع بجيشه للمعركة ، أن دفع الضريبة فى ساحة القتال لإله الحرب من دمه أوراحته ، وأسهم فى

- سفتا تريزا : ( ١٥١٥ - ١٥٨٢ ) ، رابطة إسبانية ، متصوفة وشاعرة وكاتبة ، تعرضت لملاحقة مستمرة من محاكم التفتيش ، وتركت وراءها عددا من الأعمال الأدبية الجيدة .
- خوان دى لاكروث : ( ١٥٤٢ - ١٥٩١ ) ، لاهوتى وشاعر ومتصوف إسباني ، تأثر فى فكره بالفلسفة الإسلامية ، بدأ حياته يعمل ممرضا فى مستشفى ، والتقى بسفتا تريزا ، واستجاب لدعوتها الإصلاحية .
- ثرفانتيس : ( ١٥٤٧ - ١٦١٦ م ) ، أعظم روائى إسباني ، وصاحب رواية « دون كيخوته » الخالدة ؛ ذات الشهرة العالمية .
- لوبى دى فيجا : ( ١٥٦٢ - ١٦٣٥ ) ، من أعظم كتاب المسرح الإسبانى ، وأخصبهم إنتاجا ، وترك وراءه عددا كبيرا من المسرحيات تتناول موضوعات مختلفة .
- ميكافيل : ( ١٤٦٩ - ١٥٢٧ ) ، كاتب وفيلسوف ودبلوماسى إيطالى ، وأشهر مؤلفاته : « الأمير » ويدور حول مبدأ الفاية تبرر الوسيلة فى الحكومات والسياسة .
- بودين : ( ١٥٣٠ - ١٥٩٦ ) ، عالم إقتصاد فرنسى . ( المترجم )

فى القتال بنفسه . وكانا يحبان الورق والكتب ، فلم يفارق أولهما مدينة الزهراء ، ولا غادر الثاني قصره فى الإسكوريال ، وكان الحكم المستنصر ويبعث فى الكتاب إلى الأقطار رجالا من التجار ، ويرسل إليهم الأموال لشراؤها حتى جلب منها إلى الأندلس مالم يعهدوه ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده .

وأرسل فيليب الثاني أمبروسيو مورالس Ambrosio de morales فى رحلة ثقافية عبر شمال إسبانيا فجمع عددا من المخطوطات والمؤلفات والكتب لمكتبة الإسكوريال الغنية . وكلاهما يحب مجالسة الأدباء والفنانين ، وكلاهما حرمه للقدر من ولى عهد قادر على حكم مملكته العظيمة . فهشام الثاني ولى عهد الحكم ، وفيليب الثالث ولى عهد فيليب الثاني ، كانا على السواء تقيين مصلحين ، ضعيفى الإرادة ، حتى أنهما تركا حاشيتيهما تتحكمان فيهما . ولا يمكن أن نقارن بهما المنصور العبقري ، ولا المركيز دى ليما de Ierma الأخرق ، ولكن لا يمكن الإنكار أن خلفاءهما عجلوا بنهاية الأندلس وإسبانيا ، ودفعوها إلى الهاوية والدمار . نعم ، تم ذلك بإيقاع مختلف ، يتناسب مع ما اتصف به كل وزير من عبقرية أو حمق ، فكان مريعا فى إسبانيا الإسلامية بعد المنصور ، بطيئا فى إسبانيا الكاثوليكية بعد دى ليما .

مدينة الزهراء والإسكوريال ، عبد الرحمن الناصر و كارلوس الخامس ، الحكم المستنصر وفيليب الثاني ، هشام الثاني وفيليب الثالث ، المنصور بن أبى عامر والمركيز دى ليما ، ثمة خيط رفيع خفى يربط بينهم دائما ، فى ذاكرتى ، ولكن هذا التقارب يأخذ خطا متميزا فيما يتصل بعبد الرحمن الناصر و كارلوس الخامس : كلاهما يفيض قوة واندفاعا ورغبة فى العمل ، دلتعهما الآلهة ، ودللها المجد ، وعاشا حياة عدنية ، أمضيها وهما فى قمة التمتع بالحب والرفاهية ، والقوة والثروة ، وقد عاش الأول أكثر من ٧٣ عاما ، حكم منها ٤٩ سنة ، وترك مذكورة مشيرة ، كتبها بخط يده ، سجل فيها أيام مروره وصفوه وهى لاتزيد عن ١٤ يوما على امتداد حياته . وعزف

الثانى عن المجد أخيرا وسجن نفسه فى « يوست Yuste » بانتظار الموت .

١ [عبد الرحمن الناصر و كارلوس الخامس يمثلان علامة معذبة . ماذا ينتقصهما؟  
لقد ولدا لأبوين إسبانيين ، ورغم الأصول المشرقية البعيدة لعبد الرحمن  
الناصر ، والأصل القلمنكى لوالد كارلوس الخامس ، كان يوجه مصائرهما  
روح إسباني أصيل ، تجمعت فيه كل عواصف الروح الإسباني وصراعه  
الداخلي ، واندفاعه المتصاعد ، وحماسه الفاترة ، ويأسه القاتم . كان يحكم  
كل منهما روح إسباني عبقرى ومعقد . ومن ثم عاشا أسيرى رغبة نهمة لا ترتوى ،  
وقلى دائم لا يتوقف ، وعاشا معركة داخلية معذبة . ماذا ينتقصهما ؟ . . .  
ينتقصهما كل شيء ، لأن الإسباني الحقيقي الغارق فى السعادة مظهرا ، يمكن  
دائما أن يتخذ أحيانا من كلمات مخسمة وندو Segismundo (١) المرعبة مثلا  
ينطبق عليه : « الحياة حلم » .

مدينة للزهراء والإسكوريال ! . لقد نهبت الأولى وأحرقت خلال  
الثورات القرطبية ، وأصبحت أرضها الحزينة اليوم مرعى للثيران الهائجة ،  
واستسلمت جدرانها لأساها العميق . بالأمس عظمة وبهجة وروعة ، واليوم  
خراب وأنقاض وبؤس . ومنذ أعوام اكتشف بقاياها فى سفح « سيرا »  
قرطبة رجال عصر كان أكثر تطلعا إلى الماضى ، ربما خوفا من الغد ، لهم  
ملامح قاسية ومؤسفة ، رجال كانوا يبحثون فى الأرض عن بقايا حضارات  
قديمة منسية ، ربما لأن هاجسا غامضا كان يوشوش فى آذانهم بقرب نهاية  
عصرهم . أما الإسكوريال فلما يزل قائما . فلتحفظه الآلهة من غضب الرجال  
ومن حق زمان لا يرحم !

• إسبالية ابن حزم :

قاومت مؤلفات ابن حزم عن الزمن أكثر مما قاومتها مدينة الزهراء ،  
اندثر الرخام وعاشت المخطوطات ، لأن روائع الفكر الإنسانى تتميز بإمكان

(١) بطل مسرحية « الحياة حلم » للكاتب الإسباني كالدرون . (الترجم)

نسخها إلى ما لا نهاية ، وانتقالها وانتشارها عبر القارات والمحيطات ، حتى قبل أن تخترع الطباعة . وللمغامرة طموح ، ذلك أن « طوق الحمامة » ، وقد ترجم اليوم إلى معظم لغات العالم المثقفة ، أنقله من الضياع مخطوطة وحيدة ومشرقة .

ولم تضايف وأمتد قدر مؤلفات ابن حزم ، والأخبار التي نقلها لنا معاصروه ، والأوفياء له ، عن شخصه ، تسمح لي بالدفاع عن حقيقة إسمائته .

لقد أصبحت الكامة التي أرسلها عنه أبو العباس بن العريف المري مثلاً شاع عبر العالم الإسلامي كله : « لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان » ، ولأن الحجاج كان أشد قواد بني أمية في دمشق قسوة ، فليس ثمة مدح أعظم للكلمات ابن حزم القرطبي الحادة ، وقلمه الإسباني الصارم من هذه الكلمات .

يقول ابن سعيد (١) ، صاحب المغرب في حلى المغرب : « وكان يجادل عن علمه هذا من خالفه ، على أسرار في طباعه ، وبذل بأسراره ، واستناداً إلى العهد الذي أخذه الله على العنماء من عباده ، « ليبينه للناس ولا يكتُمونه » ، فلم يك يلفظ بما عنده بتعريض ، ولا يزفه بتدريج ، بل يصك به معارضه صك الجنادل ، وينشقه أحر من الخردل . »

ويقول عنه معاصره ابن حيان : « المؤرخ القرطبي العظيم : « ... حتى استهدف إلى فقهاء وقته ، فمالأوا على بغضه ، وردوا قوله ، وأجمعوا

---

(١) الواقع أن هذا النص ليس لابن سعيد ، وإنما هو لابن حيان ، وقد نقله عنه صاحب الذخيرة ، ونقله ابن سعيد عن الذخيرة ونسبوا إليها ، أنظر : «

• المغرب في حل المغرب ، ج ١ ص ٣٥٤ - ٣٥٥ ، « طبعة دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤ .

• ابن بسلام : الذخيرة : في بحار أهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ١٤١ ( المترجم ) .

على تضليله ، وشنعوا عليه ، وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه ، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ، ويسيرونه عن بلادهم ، إلى انتهوا به إلى منقطع أثره بترية بلده من بادية لبلة ، وبها توفي رحمه الله سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع إلى ما أرادوا به ، يث علمه فيمن ينتابه ببياديته من عامة المقتبسين منه ، ومن أصاغر الطلاب الذين لا يخذلون فيه الملامة ، يحدّثهم ويفقههم ويدارسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف ، حتى كمل من مصنفاته في فنون العلم وقر بعير ، ولم يعد أكثرها عتبة بابه ، لتزهد الفقهاء طلاب العلم فيها حتى أحرق بعضها بإشيلية ، ومزقت علانية ، ولا يزيد مؤلفها ذلك إلا بصيرة في نشرها ، وجدالا للمعاند فيها ، إلى أن مضى لسبيله .

« وأكثر معانيه - زعموا - عند المنتصف له ، جهله بسياسة العلم التي هي أعرض من إيعابه ، وتحلفه عن ذلك على قوة سبحة في غماره ، وعلى ذلك كله فلم يكن بالسليم من اضطراب رأيه ، ومغيب شاهد علمه عند لقائه ، إلى أن يحرك بالسؤال فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء ، ولا يقصر عنه الرشاء . ويتحدث ابن حيان أيضاً عن تعصب ابن حزم الأعمى لأفكاره . »

« ونحاول الآن أن نتعرف إلى عالم قرطبة من خلال كتاباته نفسها ، وإليك الدليل على لداعة قلمه ، يقول : « إن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أئدلسنا هذه ، أولها عن آخرها محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد . » وينتقد بشدة من يمكن أن نسميهم بالكهنة ، وهم ليسوا كذلك في الحقيقة ، لأن الإسلام لا يعرف نظام الكهنوت ، ولكن يقترّب من هؤلاء في واقعهم المسيحي علماء العقيدة أو الفقهاء المسلمين : « فلانغاطوا أنفسهم ، ولا يغرنكم الفساق والمنسوبون إلى الفقه ، واللابسون جلود الضأن

على قلوب السباع ، والمزيتون لأهل الشر شرهم ؛ الناصرون لهم على فسقهم .

ولتستمع إليه يعلن الحرب على النفاق والكذب : « ما رأيت أخزى من كذاب ، وما هلكت الدول ، ولا هلكت الممالك ، ولا سفكت الدماء ظلماً ، ولا هتكت الأستار بغير النائم والكذب ، ولا أكدت البغضاء والإحن المردية إلا بنائم لا يحظى صاحبها إلا بالمقت والخزى والذل ، وأن ينظر منه الذى ينقل إليه ، فضلاً عن غيره » ، بالعين التى ينظر بها من الكلب .

ونبرهن على إسباته الكيخوتية (١) من قوله : « حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين والحريم ، وعن الجار المضطهد ، وعن المستجير المظاوم ، وعن الهزيمة ظلماً فى المال والعرض ، وفى مائر سبل الحق ، سواء قل من يعارض أو أكثر ، والتقصير عما ذكرنا جبن وخور ، وبذلها فى عرض الدنيا تهور وحمق » . ثم يضيف : « وأما الذى يعينى به جهال أعدائى من أنى لا أبالى فيما اعتقده حقاً عن مخالفة من خالفته ، ولو أنهم جميع من على ظهر الأرض ... فهذه الخصلة عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها » .

ونكتشف مفهومه الإسباني للعلاقة بين الإنسان والله فى قوله : « إذا لم يكن بد من إغضاب الناس أو إغضاب الله عز وجل ، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الحق فأغضب الناس ونافرهم ، ولا تغضب وبك ولا تنافر الحق » .

وليك البرهان على احتقاره للعادات الاجتماعية ، ونفوره من خفة الدين

---

(١) نسبة إلى دون كيخوته ( أو كيشوته ) بطل رواية ثرفانتيس الخالدة ، وتحمل اسم البطل نفسه ، وهو رجل كان يعلم بإشاعة العدل ، ورفع الظلم ، وتنظيم الكون ، ثم رأى أحلامه تنهار حلاًماً وراء آخر .

يعبدون الشطارة ، وينسون الطريق المستقيم ، إنه يعترف : « إني لا أبالي »  
موافقة أهل بلادى فى كثير من زيمهم الذى قد تعودوه لغير معنى ، فهذه  
الخصلة عندى من أكبر فضائلى التى لا مثيل لها ، ولعمري لو لم تكن فى  
— وأعوذ بالله ! — لكنت من أعظم متمنياتى وطلباتى عند خالقى عز وجل .  
ويقول أيضاً : « إياك وأن تسر غيرك مما تسوء به نفسك فيما لم توجهه عليك  
شريعة أو فضيلة » . ويضيف : « وأما إحكام أمر الدنيا والتودد إلى الناس  
بما وافقهم ، وصلاح عليه حال المتودد من باطل أو غيره ، أو عيب أو  
ما عده ، والتحيل فى إنماء المال ، وبعد الصوت ، وتسبب الجاه بكل  
ما أمكن من معصية ورذيلة ، فليس عقلاً . ولقد كان الذين صدقهم الله  
فى أنهم لا يعقلون ، وأنخبرنا بأنهم لا يعقلون ، سائسين لدنياههم ، مشمرين  
لأموالهم ، مدارين للملوكهم ، حافظين لرياستهم ، لكن هذا الخلق يسمى  
الدهاء ، وضده العقل والسلامة » .

ولنصغ إلى ثنائه الإسبانى حرفياً ، وإلى ثرثرته الإسبانية العادية :  
« لكل شئ فائدة ، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة ،  
وهى أنه توقد طبعى ، واحتدم خاطرى ، وحمى فكرى ، ونهيج  
نشاطى ، فكان ذلك سبباً إلى تواليف لى عظيمة المنفعة ، ولولا استثارهم  
ساكنى ، واقتداحهم كامنى ، ما انبعثت لتلك التواليف » . ويكتب كاشفاً  
عن موقفه الإسبانى بإزاء الثروة : « وذننى أيضاً بعض من تعسف الأمور ،  
دون تحقيق بأنى أضيع مالى ، وهذه جملة بيانها أنى لأضيع منه إلا ما كان  
فى حفظه نقص دينى ، أو إخلاق عرضى ، أو إلتعاب نفسى ، فإنى أرى  
الذى أحفظ من هذه الثلاثة ، وإن قل ، أجل فى العوض مما يضيع من مالى ،  
ولو أنه كل ما ذرت عليه الشمس » .

ويقول معترفاً بغضبه الإسبانى ، وبما يعتمل فى أعماقه من صراع داخلى  
إسبانى : « كانت فى عيوب قلم أزل بالرياضة واطلاعى على ما قالت  
الأنبياء صلوات الله عليهم ، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين

في الأخلاق وفي آداب النفس ، أعانى مداواتها ، حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه . وتعام العدل ورياضة النفس ، والتصرف بأزمة الحقائق ، هو الإقرار بها ، لينتظ بذلك متعظ يوماً إن شاء الله .

و فيها كلف في الرضا ، وإفراط في الغضب ، فلم أزل أداوى ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط ، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار ، وتحملت من ذلك ثقلاً شديداً ، وصبرت على مضض مؤلم ، كان ربما أمرضني وأعجزني ذلك في الرضى ، وكأني ساءت نفسي في ذلك ، لأنها تمثلت أن ترك ذلك لوئم .

والإليك برهان شعري جميل على اعتزازه الإسباني ، في مواجهة الحسد ، وهو إسباني أيضاً :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عبي أن مطلعي الغرب  
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكرى النهب  
ولى نحو آفاق العراق صباية ولاغرو أن يستوحش الكلف الصب  
فإن ينزل الرحمن رحلى بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب  
فكم قائل أغفلته وهو حاضر وأطلب ما عنه تجيء به الكتب  
هنالك يدرى أن للعبد قصة وأن كساد العلم آفته القرب  
فيا عجباً من غاب عنهم تشوقوا له ، ودنو المرء من دارهم ذنب  
وإن مكاناً ضاق غنى لضيق على أنه فيح مهامه سهب  
وإن رجلاً ضيعوني لضيع وإن زماناً لم أنل خصمه جذب

أننى المؤرخون الإغريق والرومان على وفاء الإسبان في صداقتهم ، ويقول لنا ابن حزم فيما يتصل بهذا الأمر : « إنى جبلت على طبيعتين لا يهتفى معهما عيش أبداً ، وإنى لأبرم بحية باجماعهما ، وأود التثبت من نفسى أحياناً ، لأفقد ما أنا بسية من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لا يشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والغيب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة التى لم تعزف بها نفسى عما دريته ، ولا تنطلق إلى عدم من

صحبته . وعزة نفس لا تنقر على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من  
تغير المعارف ، مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو  
إلى نفسها ، وإنى لأجنى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة ، والتلوم  
الذى لا يكاد يطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر ، وحميت نفسى تصبرت  
وفى القلب ما فيه ، ويضيف ، فى نبرة إسبانية أصيلة « الخطأ فى الحزم خير  
من الخطأ فى التضييع » . وقد سبق كالديرون بقوله « العرض أعز على  
الكريم من المال . ينبغى للكريم أن يصون جسمه بماله ، ويصون نفسه  
بجسمه ، ويصون عرضه بنفسه ، ويصون دينه بعرضه ، ولا يصون  
بدينه شيئاً أصلاً » ، ويمكن أن نضيف إلى ما قال جملة جاءت على لسان  
بطل مسرحية وعمدة السلمية Alcañede Zalamea ، الخالدة لمؤلفها كالديرون :  
« الله وحده يملك أرواحنا » .

لقد أحسست بسعادة غامرة ، لأن غرسية غومث ، وهو ناقد بصير وعلى  
معرفة واعية بابن حزم ، ارتأى إسبانية مؤلف « طوق الحمامة » ، وأنه فى  
الحقيقة كان دون كيخوته من القرن الحادى عشر . قلته قديماً ، واليوم  
أحاول أن أكتشف الكيخوتية الإسبانية فيه ، قبل أن يعرفها آخرون  
من شبه الجزيرة سبقوا ألونسو كيجانو Alonso Quijano ، ومن يسرع لى دراسته  
يوفر على عملا يشدنى إليه ، وأشدك أننى سأكمله يوماً .

وضع غرسية غومث جملة : « تناقض جوهري » عنواناً لفقرة فى مقدمته  
لترجمة الطوق ، وفيها كتب يقول « هذا التناقض الجوهري المستمر ،  
والإزدواجية غير المنصهرة ، من اللطف والخشونة ، ومن العواطف  
الرقيقة والجافية ، ومن النبل والعامية ، تجعل ابن حزم من أحب الشخصيات  
إلينا ، لأنها تجعل منه قريباً لعظماء آخرين من مستواه ، عرفهم عصرنا  
الذهبي ، وفيهم تبدو الإيبيرية كاملة وقوية ، ولقد أشرنا من قبل عرضاً  
إلى جونجورا Gongora وكيبيدو ، ونستطيع أن نذكر آخرين ، ليس من  
بينهم ثرفانتيس ، قمة مثل لايتكر ، وفيهم تلتقى تناقضات سلالتنا

الجلدية ، في تركيب إنسانى مفهوم ، حلو وحزين .

وأنا أشارك غومث رأيه ، بعامة ، ولقد ربطت أيضاً بين شاعرنا كيبيدو وبين أديبنا ابن حزم ، وأجروا على أن أقوم بموازنة خاطفة ، فيما بعد ، بينه وبين أونامونو . لقد وضعت خطأ على مسئوليتى تحت الجملة السابقة من كلام غومث ، والتي تتصل بدور «الإبيرية» ، قديمة وثابتة ، فى أخلاق ابن حزم ، لأنها تقف فى مواجهة فكرة أميركو كاسترو ، التى ترد مثل هذه الانصالات إلى التفاعل بين ما هو مسيحى وما هو إسلامى ، وإليها ينسب تشكىل ما هو إسبانى . لم أكتب كلمات مترجم «طوق الحمامة» إلى الإسبانية ، لأننى لا أعرف ما إذا كان هذا التناقض يمتد إلى أصول بعيدة جداً ، ولكنى حاولت ، على الأقل ، وفيما أعتقد استطعت أن أفهم امتداده خلال ماضينا ، عبر طرق تختلف عن طريق كاسترو ، وهى مشتركة إلى حد كبير ؛ وفضلاً عن ذلك فلانى أميل إلى عدم الاستخفاف بأن تشابه الصيغ الجبرية ، فى معادلة بين الروح والمشاعر والغرائز ، أو الأرواح الثلاثة بتعبير أورتيجا إلى «جاسيت» ، يولد تقارب الأمزجة عند رجال من لحم وعظم ، والذين هم ، وكانوا ، الفلاسفة والفنانين والكتاب . لأننى أعتقد أن هؤلاء لم يكونوا ، وليسوا دمي يرمى بنحويطها كائن ثقافى مجرد ، ولكن من الواضح أن تكرار عدد من أشكال هذه المعادلة الجبرية ، بين القوى الحيوية الثلاث ، بين أعضاء جماعة تاريخية - والإحصاء المطبق فى التاريخ ، ولو أنه يبدو متناقضاً ، يثبت اتجاهها مزاجياً - يصدر بالضرورة عن ملامح جماعية متأصلة فى التكوين العصبى للشعب ، و فى تركيب يرتبط وراثته مع المراحل الأكثر بعداً فى التاريخ ، وتمضى على امتداده ، كما هو واضح ، تغيراً وثباتاً ، فى إيقاع ونتائج مختلفة ، كالأنهار ، تندفق مسرعة أو بطيئة ، وتمضى مستقيمة أو منعطفة ، وفى طريقها تخصب أو تدمر .

وفى موازنة مع كبار الشخصيات الأدبية الإسبانية فى العصر الذهبى ،

يمكن ، على نحو ما كتب غرسيه غومث ، أن نجعل له من السكبرياء  
الإسباني نصيبا ، وأن نرد إليها أيضا وحدته الآدمية . ويضيف مترجمه :  
« لقد عرف مؤلف كتاب « طوق الحمامة » كتاب « الزهرة » لابن داود  
الأصفهاني مباشرة . . . ولكن من واجبنا أن نضيف ، أنه بالرغم  
من الإشارات الحرفية القليلة ، ومن الاتجاه العاطفي المشترك ، فإن « الطوق »  
يدين بالقليل جدا لكتاب « الزهرة » ، لأن النظرية فيه تغربت وتأسبت ،  
وفقدت دلالتها الرائع وتحذلقها الخنث ... وما كان يقال في بغداد نثرأ رائعا  
أو شعراً لا ينسب لقائل ، كان يكتبه مؤلف « الطوق » في شاطبة ساخنا  
وإنسانيا ، ويتخذ له المثل من حياته ، ومن حياة أصدقائه في قرطبة . لقد مزق  
مافيه من عاطفة وملل إسبانيين السياج الواقى للنبي ، وشربا منه ، كل  
على وجهه ، وخطا هذين المصلين بدمه » .  
ياله من برهان بالغ الروعة والجمال ، في جانب إسبانية مؤلف  
« طوق الحمامة » ! .

وبدعم غرسيه غومث رأيه بنقل صفحة من رسالة ابن حزم في  
« فضائل أهل الأندلس » ، وهي تذكرنا بلارا (Larra) (١) وفيها يعلق ،  
في مرارة إسبانية ، على فقرة من الإنجيل لوقا (الإصحاح السادس ، الآية  
٢٤) : « وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا يفقد النبي  
حرمته إلا في بلده » . « ولا سيما بأندلسنا ، فإنها خصت من حسد أهلها  
للعالم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي إليه ، واستهجانهم  
حسناته ، وتبعيةهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف  
ما في سائر البلاد ؛ إن أجداد قالوا : سارق مغير ؛ ومنتحل مدع .  
وإن توسط قالوا : غث بارد ، وضعيف ساقط . وإن باكر الحيازة

(١) لارا : ( ١٨٠٧ - ١٨٣٧ ) ، كاتب إسباني ، نشر كثيرا من المقالات ، بتوقيع  
مستعار في صحف كثيرة ، وكانت مقالاته نقدا عبقريا ، وداميا للتقاليد المتخلفة في عصره .  
( المترجم ) .

لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفى أى زمن قرأ ؟  
ولأمه الهبل ! . وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقتين إما شفوفاً  
بائناً يعليه على نظرائه ، أو سلوكاً فى غير السبيل الذى عهدوها ، فهنا لك  
حمى الوطيس على البائس ، وصار غرضاً للأقوال ، وهدفاً للمطالب ،  
ونصباً للتسبب إليه ، ونهباً للألسنة ، وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما  
نحل ما لم يقل ، وطوق ما لم يتقلد ، وألحق به ما لم يفه به ولا اعتقده  
قلبه ، وبالحرى وهو السابق المبرز ، إن لم يتعلق من السلطان بحظ أن يسلم من  
المتالف ، وينجو من المخالف . فإن تعرض لتأليف غمز ولمز ، وتعرض  
وهمز ، واشتط عليه ، وعظم يسير خطبه ، واستشنع حين سقطه ، وذهبت  
محاسنه ، وسرت فضائله ، وهتف ونودى بما أغفل ، فتكسر لذلك همته ،  
وتكل نفسه ، وتبرد حميته ، وهكذا عندنا ، نصيب من ابتداء يحوك  
شعراً ، أو يعمل بعمل رياسة ، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل ،  
ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفاتح ، والمطفف المستولى على  
الأمد .

من الضرورى أن يفرك الإنسان عينيه بعد أن يقرأ هذه الصفحة  
الحزينة ، ليقتنع فى دهشة بالغة لا يمكن إنكارها ، أنها خرجت من  
قلم ابن حزم ، لقد كتبها المفكر الإسباني ، والقلق يغمره ، بين عامى  
١٠٣٥ و ١٠٤٠ م ، فجاءت تعكس بدقة المناخ الكريه ؛ الطافح  
بالحسد ، الذى عاش فيه ، وتسائر شموخ إسبانيا المعاصرة ؛ وحتى فى  
عصور أخرى كثيرة من تاريخها فى الماضى . لم تزد هذه اللبلة  
الحديثة جنوبى جبال البرانس فحسب ، لأنها تنمو سريعاً خلال الأزمات  
وفى لحظات السقوط القومى ، فى أى مكان ؛ ولكن لم يحدث أنها  
تأصت وترعرعت وآتت أكلها كما فى إسبانيا أمى ؛ مرة أخرى ، ثمرة  
مرة للسلالة والأرض الإسبانية ؟ لا إنها مرة أخرى ثمرة فاسدة  
لتأثير تاريخنا العريق والفريد فى الإنسان الإسباني متصهراً ، وهذا حق !

من طين شبه الجزيرة ودمها . وكل الأحوال ؛ مرة أخرى ، دليل آخر واضح على إسبانية ابن حزم ، والذي كتب منذ قرون مضت ، في مرارة عميقة وتشاؤم أسود ، قبل أن تكون روح الإسبان ، كما يدعى كاسترو ، قد أصيبت بعدوى الحزن والحنق من يهود شبه الجزيرة الإيبيرية ، عدوى يفسرها ( أى كاسترو ) حتى الشعور بمأساوية الحياة عند الإسبان .

• مع ترجمة الطوق :

قلنا من قبل إننا نستطيع اليوم أن نقرأ طوق الحمامة ، جوهره الأدب الأندلسي ، في اللغة القشتالية بفضل غرسيه غومث . لقد عرض ابن حزم نظريته النفسية عن الحب في ثلاثين بابا ، مع ملاحظات دقيقة ، وفكر مخلق ، يغزو ويشد على الدوام اهتمام من يطل بين صفحاته رغم أن وراء الكتاب ألف عام من التاريخ ، ووراء قارثه تراث هائل من الثقافة الغربية .

لقد أثار كتاب « الطوق » كثير آ من المشكلات أمام الدارسين المحدثين ، ولكي يهيئ غرسيه غومث القارئ لجولة أكثر فائدة عبر صفحات الكتاب ، قدم له بدراسة عن ابن حزم اتكأ فيها على السيرة التي رسمها له العلامة ميغيل أسين بلاثيوس ، شيخ المستشرقين الإسبان ، وتصرف فيها بإيجاز أو إطناباً أو تقويماً ، وفي كل الحالات دفع بين سطورها بمزيد من الحياة . لقد أغرانا بالصورة السريعة والدقيقة التي رسمها لابن شهيد طفلاً ، يظهر أمام المنصور بن أبي عامر ، وسوف يصبح فيما بعد شاعراً عظيماً ، وصديقاً حميماً لابن حزم ؛ ورأس جماعة من أبناء الخاصة في قرطبة ، أنيقون يعبدون الجمال ، ويسرحون شعورهم على أحدث نمط ، ويهيمنون إعجاباً بكل جديد ، ويعشقون الأدب والفنون الجميلة ، وقد انضم إليهم مؤلف الطوق في اللحظة التي تجاوز فيها سن المراهقة ، ولقد وعدنا غرسيه غومث بدراسة عن ابن شهيد ، صديق ابن حزم ، تنتظرها في صبر ناقد .

وقد أوضح لنا المثل الأعلى في الأدب لهذه الجماعة ، ذات الانجاء العربى ،  
تحقر كل ما هو إسباني ، ولكنها قومية ، تحاول التغلب على التقليد الأعجمي  
لكل ما هو مشرقى .

وعرض غرسية غرمت للأحداث البارزة في حياة ابن حزم ، ورافق  
بطله في منفاه ، وفي بريق انتصاره ، وفي أخيرة أمله ، وتغيير خط حياته .  
وبشير مأخوذاً إلى جهده الثقافي العملاق ، وإلى صراعه ضد العواصف  
والأنواء ، وإلى روحه الصافية ، وتحوله من مُتهم إلى مُتهم ، وموته  
مهزوماً مثل دون كيخوته ، وتعاور الحشونة والرفقة عليه ، ونسيان  
المفكرين والكتاب المسلمين له ، إلى أن رد له العلم الغربى الحديث  
وبحق مكانته .

ثم حلل كتاب « الطوق » متعمقا ، ومحللا بمشرطه الدقيق النافذ  
مختلف الجوانب التي يمكن أن تساعد على التقاط أسرار الخلق الفني عند  
ابن حزم . ودرس اتجاهات المدرسة التي انتمى إليها ، وخطواته الأولى  
في عالم الكتابة ، ومن بينها ما كان مينديث بيدال Menéndiz Pidal (١)  
يدعوه « المقطعات » ، والطابع الشخصي للطوق ، وما يقدم من سيرة  
ذاتية لمؤلفه ، والصدق الأدبي عند مؤلفه ، وما أثاره ويثيره من نقاش ،  
وما يتميز به في شعره من زهد وفلسفة ، في نطاق الشعر الغنائي الأندلسي  
وعرف بالطيش والشهوة ، والعفة الخالصة المستقيمة وسبق بها الشاعر  
الإسباني جونجرة . وهو كتاب عن الحب ، ويجب أن يقرأ بحذر ، رغم  
أنه كتب بنية صافية وطاهرة ، ودون أن يقصد المؤلف من ورائه غرضاً  
فاحشاً . ولكن تهب عبر صفحاته رياح من الشذوذ الجنسي ، ويتدفق عليها  
نهر صغير من واقعية بدئية ، وما يمكن أن يحس به بعض القراء المحدثين من  
خيبة أمل لزاء أفكار ابن حزم وآرائه ومفاهيمه ، لأنها اليوم عادية وشائعة ،

(١) مينديث بيدال : ( ١٨٦٨ - ١٩٦٨ ) ، عالم ولغوى ومؤرخ إسباني ، وله أبحاث  
هامة وجادة عن تاريخ أسبانيا في العصر الوسيط ، في جانبها الإسلامي والمسيحي ( المترجم ) .

غير أنها كانت شيئاً جديداً وفذاً على أيامه ، أى منذ ألف عام . وحدة الإحساس بالجمال الحسى ، كقوة مبدعة مجالى الحب والأدب ، والعشور فى « طوق الحمامة » على صدى لأفكار أفلاطونية ، وأصل شعر الحب البغدادى ومفهومه ، أو الحب العذرى العفيف فى المشرق ، وانتشاره فى الأندلس حين التقطه ابن حزم هادياً لفكرته عن الحب ، فيما يرى مترجم « الطوق » ، وما آل إليه أمر هذا الحب فيما بعد ، حين غرق سريعاً فى موجة الشهوة العارمة على أيام دول الطوائف .

ولكن دراسة غرسية غومث لابن حزم وكتابه تحتاج إلى شيء من تعليق ، لنعرف على نحو أفضل ما هو إسباني فى المفكر العظيم والشاعر ، والذى ندين له « بطوق الحمامة » ، إلى جانب الشخصيات الإنسانية العملاقة الأخرى ، التى تنتظم فى عقد مندينيكا حتى أونامونو .

ويجب أن نشير إلى جملتين مما كتبهما مؤلف « الطوق » ، وقد اقتبسهما غرسية غومث ، ولاتنس الجملة التى وضعت تحتها خطأ فيما مضى ، وهما : « نوار الفتنة لا يعقد » ، ولو أنه لأسباب بيئية (١) لم يوضحها عندما التقطها ، وعلى العكس مر بها سريعاً ، والجماعتان تساعدان على فهم ابن حزم ، وفهم إسبانيا الإسلامية أيضاً ، وكل تاريخ إسبانيا على اختلاف مراحلها ، وقوله : أنا الشمس فى جو العلوم منيرة . ولـكن عيبى أن مطلعى الغرب ولقد جمعت عبارات ليست بأقل منها ارتجافاً فى شعوخها ، كتبها مرسيال Marcial ، وابن قزمان ، ورايموند ال Raymund Lull (٢)

---

(١) يشير الكاتب إلى أن غرسية غومث كان يكتب فى إسبانيا الفاشية ، وقد انتصرت - مؤقتاً - بعد حرب أهلية طاحنة ( ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ) دمرت إسبانيا تماماً ، وعلى امتداد أيامها ، التى افتتحت الآن بموت الجغرافى فرانكو ١٩٧٥ ، كانت الرقابة على الفكر والفن عنيفة وقاسية ، وكان محالاً على غومث أن يوضح فكرته ، على حين أن سانتشيث البرنس كان يكتب من منفاه فى الأرجنتين .

(٢) • مرسيال<sup>١</sup> : ( ٤٣ - ١٠٤ م ) شاعر لائى ، وقيق وماجن ، ولد فى مدينة بيبليس ، قلعة أيوب الآن ، فى إسبانيا .

وآخرون من عمالقة الفكر الإسباني ودبه على امتداد عصوره ، جملاً  
كالتى كتبها ابن حزم ، تبين إلى أى مدى كان كبرياء الأقلية الإسبانية  
المثقفة يطاول الحسد الحقيق الذى يجلد هم من كل جانب - ولست أدرى  
ما إذا كان ابن حزم مصدر هذا الجلد الحاقط أو كان رد فعل ضده - فى  
البيئة القاتمة التى وصفها لنا مؤلف « طرق الحمامة » فى أسبانية قادرة  
ومروعة ، عندما سخر من جمود وتصاب وضييق أفق فقهاء المالكية فى  
الأندلس ، وكانت الدولة على مذهبهم تقريباً ، ونعتهم بأنهم « أصحاب  
المذهب القديم » . ما الذى كان فى حياة الإسبان الدينية ، قبله ومن بعد ،  
ليستحووا هذا الوصف من ابن حزم ، وكان مؤمناً تقياً ، ومتدين؟  
غوراً؟ .

لقد أبرز غرسيه غوث حرص مؤلف « طرق الحمامة » دائماً على شرفه ،  
وهذا الحرص حرك فى داخلى سؤالا متلقاً ، وموضوعاً مغرباً ، أما السؤال  
فهو : ماذا يفهم المسلمون بعامة من كلمة الشرف ؟ . وأما موضوع الدراسة  
الذى عرض لى : إلى أى مدى أثرت غريبة ابن حزم فى إحساسه القوى  
بالشرف ؟ .

وأشار المترجم ، محتمياً بكتاب ابن حزم ، إلى قضية تأثير الشعر  
الأندلسى فى نشأة الشعر البروفنسالى ، وهى موضع نقاش دائم ،  
وذكر أن العثور على « خرجات » رومانسية فى الموشحات الأندلسية  
بغير من مادة المشككة ، ولكنه يصح على ما لطرق الحمامة من قيمة ،  
كنص هام للمقارنة بين المدرستين الشعريتين ، ويميل إلى تجنب المبالغات ،

- = • ابن قزمان : ( ١٠٦٨ - ١١٦٠ م ) ، شاعر وزجال قرطبى ، ينتمى فى بيت بنى قزمان  
العريق ، وترك لنا ديوان زجل كاملاً ، الوحيد من نوعه الذى وصلنا من تراث الأندلس .  
• رايوندى ل : ( ١٢٣٥ - ١٣١٥ م ) ، فيلسوف إسباني من قطونية ، وكان يجيد  
اللغة العربية ، وفيها كتب بعض مؤلفاته ثم ترجمها إلى لغته ، وتأثر بالثقافة الإسلامية إلى حد بعيد .  
( المترجم ) .

ويرفض أن يقبل إنكار الشاكن . وأصاب عندما اتخذ موقفاً متعقلاً ، لأن ظهور كتاب « قصة المعراج Libro de Escala » أكد في فحواه نظرية أسين بلاثيوس عن التأثير الإسلامى فى الكوميديا الإلهية لدانتى ، واكتشاف الخرجات ، وما حدث به خوليان رييرا عن وجود شعر غنائى رومانى فى الأندلس يمكن أن يودى إلى نتائج مشابهة .

وقد واجه غرسية غومث أيضاً نظرية أميركو كاسترو عن تأثير « طوق الحمامة » فى كتاب « الحب المحمود » ، وارتأى أنهما مختلفان جداً ، فى خصائص وحياة وأعمال مؤلفيهما : ابن حزم وكاهن هيتا . ووازن بين فقرات من « الطوق » وأخرى من « الحب المحمود » ، ولأن بعض هذه المشابهات يمكن أن يحىء وليد الصدفة ، والبعض الآخر يتصل بالجانب الأكثر إنسانية وشيوعاً فى « الطوق » ، ومن ثم فالقول بتبعية الكتاب الثانى للأول مباشرة ابتسار ومغامرة . وأميل إلى أن أذهب بأبعد من ذلك إنكاراً ، وأشك أن أياً من الموازنات الخارجية التى قام بها غرسية غومث جاء صدفة ، لأن مصدرها ، فيما أرى ، أن كلا من المؤلفين اندمج فى بيئة حياتية تقرب كثيراً من بيئة الآخر ، إلى ما بين الموضوعين نفسيهما من تشابه . وفى فصل طويل من كتابى الذى أشرت إليه من قبل ، عارضت رأى أميركو كاسترو الرائع والملمهم فى كاهن « هيتا » ، وشرحت رأى من خلاله ، وازددت به اقتناعاً بعد أن قرأت ما كتب غرسية غومث : « لابد أن كتاب ابن حزم الرائع كان محدود الانتشار ، فهو كتاب خاصة وصعب ، وتفصاه عن كتاب « الحب المحمود » هوى حقيقية ، واختلافات فكرية » ، وهذه الكلمات الدقيقة ، فما يبدو لى ، تعكس رأيه الصديد ، وتناقض ترخصاته الجدلية واللطيفة ، لأن قلة انتشار كتاب ابن حزم ، وصعوبته وأرستقراطيته ، لا تتفق مع الانتشار الواسع الذى يجب أن يكون عاناه ، عبر طرق ملتوية ، لكى يمكن أن يبلغ كاهن « هيتا » .

وأرفض أيضاً افتراض كاسترو من أن ابن حزم « كان يتحرك فى عالم

مشبع بروحانية متصوفة» وعن الرأى الذى يقول بأن ابن حزم كان يمزج الحب الإلهى بالحب الإنسانى كتب كاسترو : « لا يوجد شيء فى كتابات ابن حزم المتصلة بالعقيدة شيء عن الحب الإلهى فى مفهومه الدقيق ، بمعنى يلتقى مع ما نفهمه نحن من استخدام هذا المصطلح ، ولا يمكن أن تكون فى الفقه الظاهرى » . ويرى غرسية غومث أننا حتى ولو استبدلنا كلمة «إلهى» بتعبير «وضعى» لا يمكن أن يتفق مع كاسترو ، وأنا أشاركه هذا الرأى . وأعتقد أن رأى غومث فى نظرية زميل مدير يد القديم ( أى كاسترو ) غير كافية ، وأشير إلى ما يظن أنه طريق المسلمين الإسبان بين ظلال ساهرة ، وافترضه أن مفهومهم للحياة أنها تدفق أو انزلاق بين عالم هراب وظاهرى ، نظرية يدعمها كاسترو ويتخذ لها دليلا من استعارات طوق الحمامة . إما أنا حار أو ابن حزم . والقرطبيون من جيله يتقدمون على صفحات الطوق ، بخطى ثابتة على الطريق ، فى جو صحو وشفاف ، وأعين مفتوحة للغاية على الحقيقة ، ومشاعر تنضح دفئا وإنسانية ، بلا سائر ولا ظلال ولا رموز . واستعارات جميلة فحسب ، يلفها بخار رقيق من شعر ، لا بين الإسبان المسلمين ، وقص لنا ابن حزم حكاياتهم الغرامية ، ولكن بينهم وبيننا . ضوء ساطع فى مدينة من الجنوب ، وواقعية بذية وثاقبة أحيانا ، وذلك هو الجو الحياتى الذى عبر القرطبيون خلاله فى « طوق الحمامة » ، والعالم حولهم لا يتلاشى ، لأن حماسة حرة تدعنه ، على نحو ما يريد أمير كوكاسترو .

لا أدري ما إذا كنا نحتاج إلى الوقوف طويلا ، وفى تأمل وباهتمام أكبر ، عند افكار ماسينيون عن الإبداع التنى عند المسلمين . وقد ترجم غرسية غومث هذه الدراسة منذ أعوام ، افكار ما أكثر ما رجعت إليها ، وأفدت منها ، أفدت منها كثيرا ، وأتاحت لأمر كوكاسترو أن يتعمق فى بعض القضايا التى درسها ، وربما لغرض لم يتوقف ليدرس مستوعبا موضوع هامين : أهمية طوق الحمامة لمعرفة الحياة فى قرطبة على أيام الخلافة ، ونظرية الحب عند ابن حزم والمسلمين الأندلسيين . وقداهم المستشرق الفرنسى الكبير ليفى بروفنسال ،

لحسن الحظ ، بالموضوع الأول ، وشغل غرسية غومث ، وأورتيجا  
إلى جاسيت ، بالموضوع الثاني ، في مقدمة ترجمة الطرق ، بعمق فكرهما  
المعهود .

ولقد سبق ليفي بروفنسال في مقاله : « نزهة بلا رابط خلال طوق  
الحمامة » غرسية غومث عندما حاول تحديد الشخصيات الواردة في الطوق ،  
الظاهرة والمغمورة ، والنقط بعض الأخبار التي وردت في الكتاب عن تاريخ  
الأندلس ، وعن الحياة في قرطبة خلال عصر الخلافة . وليس من أهدى الآن  
لحديث عن دقة هذا التحديد ، أولقد أظهرت أن ابن أبي عامر المختل  
الأعصاب ، والذي رأى فيه أمير كوكاسترو أول « دون جوان » ، لم يكن  
حفيداً للمصور ابن أبي عامر ، كما افترض كلا المستشرقين ، ليفي بروفنسال  
وغرسية غومث ، نعم تهمننا الأخبار الأخرى ، ولقد أنكر أسبن بلاثيوس  
أن « طوق الحمامة » دراسة نفسية ، وأوضح قيمته التاريخية وأفاد منها ،  
على حين يصغر غرسية غومث وليفي بروفنسال على أنه دراسة نفسية ، وحاولا  
أن يفيدا من المعلومات التي جاء بها ابن حزم هنا وهناك ، وحول نفس المسرح  
الذي جرت عليه الأحداث ، تراجع لآخرين أو لنفسه ، يأتي بهامثلا يدعم  
به تأملاته الدقيقة عن الحب . ومع ذلك يعترف المستشرقان الشهيران كلاهما  
بأن الأخبار التي جاء بها طوق الحمامة عن عصاة الخلافة قليلة وموجزة ،  
والشيء نفسه يمكن أن يقال عما يقدمه لنا عن الأشياء بعامة . لقد اعتاد ابن حزم ،  
خلال أعوام صباه على الأقل ، أن يدق النظر في الرجال أكثر مما يتوقف  
عند الأشياء التي يتحرك بينها هؤلاء ، ولم أر واحداً بين كل الذين اقتربوا  
من الطوق وقف عند هذه الملاحظة . وواقعيته ، وكتاب ابن حزم كتاب  
واقعي رغم أنه دراسة نفسية ، واقعية روح أكثر منها واقعية أشياء خالصة ،  
واقعية عميقة الإسبانية أيضاً . ولقد أبرز دمسو أونسو Damaso Alonso (١)  
ربحق ما هو إسباني من هذه الواقعية ، بمناسبة حديثه عن « الأسلوب والإبداع

(١) شاعر وكاتب وفاد وفنوى معاصر ، وهو الآن رئيس الجمع الملكي للفن الإسباني .

فى ملحمة السيد (١)، ولكنها لم تكن مصحوبة عند مؤلفنا بقدرة متكافئة، لنتقظ فى حساسية الواقعة الشفافة للأشياء التى فى عالم ما حولنا . وليس فى « الطوق » فقرة واحدة نستطيع أن نجد فيها حتى ولا ظل واحدة من تلك السهرات الحمراء ، الواقعة التى نصطلم بها أكثر من مرة فى كتاب « الحب المحمود » لكاهن « هيتا » ، رغم محاولة أميركو كاسترو المناشلة لربط كتاب القسيس القشتالى بكتاب الشاعر القرطبى .

• ابن حزم والحب :

بوئكد أورتيجا إى جاسيت أن فقه اللغة العربية لم يصل بعد إلى تحديد دقيق لما يمكن أن يفهم من كلمة « حب » . إسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى ، وطرح موضوع الحب بوصفه نظاماً واكتشافاً وقواعد إنسانية ، عندما عثر بأبيات ابن حزم الرائعة التى أهداها إلى صديق له ، ويقول فيها :  
أودك ودّاً ليس فيه غضاضة      وبعض مودات الرجال مراب  
وأحضنتك النصيح الصريح وفى      الحشا لودك نقش ظاهر وكتاب  
فلو كان فى روى هـواك اقتلعت      ومزق بالكفين عنه إهاب  
ومالى غير الود منك إرادة      ولا فى سواه إليك خطاب  
إذا حزته فالأرض جمعاء والورى      هباء وسكان البلاد ذباب  
وأوافق على أن الرجل تاريخ ، وكذلك أفكاره ومشاعره ، ولكنى أعتقد أنه إلى جانب التغير الدائم فى أفكاره ومشاعره ، هناك بعض الميول الفكرية والعاطفية تتجاوز حدود الزمن والقارات ، وثمة غايات مثالية فى الحياة ، علامات مضيئة تثير الطريق أمام تقدم الرجال التاريخى ، إلى غد لمسا يزول بعيدا .

وفى مقابل ما يفصل بين نظرية الحب عند مسلمانى الأندلس ، ونظريتنا نحن الإسبان الكاثوليك ، أوضح أورتيجا إى جاسيت عدداً من التوافقات غير قليل : كثير من علامات الحب الكاشفة « بهت يقع ، وروعة

(١) ترجمت نص الملحمة ، وقدمت لها بدراسة مستفيضة ، بعنوان : « ملحمة السيد » ، ونشرتها دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٧٠ ( المترجم )

تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة ، وطلوعه بغتة » ، وتأثير الحب الأول في الغراميات التالية ، والاختلاس قمة الحب ... وبعض هذا التشابه يمكن ، مع أورتيجا ، رده إلى تأثير « مفاتيح الإيماءات الجسمية » ويوجد داخلنا تحت تصرفها لتعبّر عن نفسها . ولكن عدداً من هذه التوافقات أو تلك يمكن تعليلها دون أن ترد إلى هذا التأثير . أليس ممكناً أن نشك ، لنكمل نظرية أورتيجا ، ونختار أحياناً ، على العكس من مفاتيح الإيماءات التي تخدم الرجل ليعبّر بها عن داخله ، انسجومات مختلفة لكي نحكي بعض هذه المشاعر نفسها ؟ . لأنه فيما عشنا من الحياة ، أورتيجا وأنا ، ولو أن تاريخي — وأستعير الكلمة التي استخدمها أورتيجا عندما وازن بين عمره وعمر غرسية غومث — أقصر من تاريخه ، فقد كان أستاذاً عندما كنت طالباً ، وتعلمت عليه دائماً ، وكلانا شهد تغيرات واضحة في طرائق الحب ، وتجديداً في الإيقاع العاطفي القديم ، ولكني لأدري ما إذا كانت أفكار الحب الجوهرية قد تغيرت حقاً ، منذ أيام شبابنا — آي ! — البعيدة .

ورغم نائحات التقدم الحالية ، والظن بأن هذا يتم في خط مستقيم ، وليس في نسق تصاعدي مستمر ، فإن الرجل يتقدم ، ومع الرجل أفكاره ومشاعره ، نحو غايات مضيئة لما تزل بعيدة ؛ وحسبوا وقد تغشاهم مراب أحرق ، أن هذه الغايات الأخيرة في متناول اليد ، نمضي إليها عبر منحنيات حازونية معقدة ، ولكن دون أن ينحرف بنا الطريق أخيراً . ولو أننا نعتقد أحياناً أننا نتفهم حتماً نحو مواضع بليدة ، وبالطبيعة يحدث هذا في الحب أيضاً ، ويمكن أن يبرهن عليه من يكتب ، في غد أراه بعيداً ، التاريخ المقارن لأفكار الرجال عن الحب ، على نحو ما كتب ابن حزم ، منذ تسعة قرون تقريباً ، تاريخه المقارن عن الأديان .

نظرية ابن حزم ومسلمى الأندلس عن الحب لما تزل تنوء بالشذوذ الجنسي ، هل كان مفهوم الحب هذا عاماً أيضاً على امتداد الخلافة ،

وهي أقل تشبهاً بالمتأيد الإغريقية والرومانية، وأقل عدوى بالمشاعر المقتصرة في بلاط الأندلس؟ يبدو لي أنها تنتمي إلى مجموعة تقاليد البحر الأبيض المتوسط، والتي استقرت وتأسست في إسبانيا الإسلامية على امتداد تاريخها. ولم يدرس المستشرقون ولا غيرهم حتى الآن، وكاسترولايشاك في أهمية المشكلة، السلسلة الطويلة من النتائج التاريخية للإسلام في إسبانيا، وإسبانيا المسيحية، التي أدى إليها اعتقال شبه جزيرة إيبيريا عام ٧١١ م، وسط العالم القديم، وظل أشد سرعة في حياته الألفية، وكان البحر الأبيض، ذو التاريخ العريق، في خدمتها طريقاً ومحوراً، وقد جعل منه الإسلام صلة تقارب بعد أن كان الهوة التي تفصل بين عالمين ثقافيين مختلفين خلال قرون. وقد تأقلمت الحضارة الأوربية، وبقيت إسبانيا متميرة في المنطقة، لأن الإرث الحيوي الكلاسيكي القديم، واصل سيره على نحو أكثر تفجراً وقوة. ومن ثم حتى ولا مفهوم الحب المنتصر في ق. طبة الخلافة، على أيام ابن حزم، يجب أن تكون له بالضرورة أصول عربية، وتأريخ حيوية ما كان في إسبانيا قبل الإسلام ينتظر من يدرسه. وقد حاولته في كتابي: «إسبانيا لغز تاريخي»، باستثناء ما يسمى بالحب العذري، أو الحب البغدادي إذا شئت، وشق طريقه نحو أقلية رفيعة الذوق من عباد الجمال، ولكني لا أعرف ما إذا كان الإحساس بالحب، وعنه كتب طوق الحمامة، قد تأصل حقاً أم لا.

نكي نفصل الحب الطروب Cortez : ونشأ في فرنسا مع نهاية القرن الحادي عشر ومطلع القرن الثاني عشر، عن الحب العذري، وكان هذا أصلاً لذلك فيما يرى المستشرقون لإسبانيا، كتب أورتيجا: «إن الحب الطروب، حتى وهو شعور ناء، طامح بالأشواق، لا يتطلب تخلياً، وإنما يعكس رغبة كاملة». ولقد قلت في كتابي «إسبانيا الإسلامية»: «توجد مسافة شاسعة بين مفهوم الحب عند ابن حزم والحب الصوفي العذري، لأن ذلك لا يتطلب العزوف عن الرغبة» وبعد أن قرأت «طوق الحمامة» في

ترجمته الجديدة ، مازلت عند شكى فى أن مؤلفه كان يطبق الحب العذرى ،  
أو البغدادى فيما يقال ، فى حياته الحقيقية ، وإذا شئت لم يتخذ صراحة  
حتى ولا فى الجانب الأدبى من حياته ، يقول فى كتابه « طوق الحمامة » :  
« إن الوقوف عند حد الطاعة لمعدوم إلا مع طول الرياضة ، وصحة المعرفة ،  
وتفادى التمييز ، ومع ذلك اجتناب التعرض للفتن ، ومداخلة الناس جملة ،  
والجلوس فى البيوت ، وبالحري أن تقع السلامة المضمونة ، أو يكون الرجل  
حصوراً لا أرب له فى النساء » . وبعد أن ذكر عدداً من الحالات المثيرة فى  
مقاومة الرغبة أضاف : « وقد يعظم البلاء ، وتكلب الشهوة ، ويهون  
القيح ، ويرق الدين ، حتى يرضى الإنسان فى جنب وصوله إلى مراده  
بالقبائح والفضائح » . وعن نفسه يقول : « يعلم الله ، وكفى به علماً :  
أنى برىء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، تقى الحجة ، وإنى  
أقسم بالله أجل الأقسام أنى ما حللت مئزرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبنى  
ربى بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا » نعم . إن فقه اللغة لم يحدد  
مفهوم الحب فى إسبانيا الإسلامية ، ولكنه سجل موقف الفقه المتسامح  
بإزاء الجماع المشروع عند المسلمين ، وقد كتب ابن حزم نفسه يقول :  
« لولا مكان هذا العنصر من الإنسان ، وأنه غير مأمون الغلبة ، لما خفف  
الله عن البكرين ، وشدد على المحصن » . وفى الباب الذى كتبه فى « الطوق »  
ويخصه بقبح المعصية ، اعتبر اللواط والزنا فحسب من الكبائر :

ثم يقول فى كتابه « الأخلاق والسير فى مداواة النفوس » : « حد  
العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التى لا تحل لك  
فما عدا هذا فهو عهر ، وما نقص حتى يمسك عما أحل الله تعالى فهو  
ضعف وعجز » . وأشار أسين بلاثيوس إلى أن ابن حزم فى معاداته  
للصوفية يعتبر العذرية عيباً ، والرهبنة نقيصة .

لو قرر أورتيجا أن يتسرب على مهل ، حاملاً عدسة مكبرة ، إلى كتاب  
« طوق الحمامة » مكتشفاً ، ليدرُس نظرية الحب فى قرطبة الخلافة ،

وقد أحس الرغبة في أن يقوم بها ، لحركة النسيج الجوهري للكتاب ،  
فما أرى ، أن ينظر إلى التفاصيل ، إذن لأنكر على ابن حزم « صفة  
عذرى » . ودون عذسة مكبرة يبدو واضحاً أن القرطبيين من عصره لم  
يكونوا كذلك أيضاً

لقد وشى ابن حزم نظريته عن الحب بأخبار مختلفة ، اتخذ منها  
مثلاً يدعم بها آراءه ، وبأشعار جمية استدعتها المناسبة . و الأخبار  
التي جعل منها نموذجاً يحتذى ، ترك سيرته العاطفية تتحرك حولها ،  
وكذلك الحياة العاطفية لأصدقائه ، ولقرطبيين آخرين كثيرين ليسوا  
دائماً معروفين له . هذه الأخبار النموذجية التي وشى بها ابن حزم تأملاته  
عن الحب ، واتخذ منها مثلاً ، لاتسمح لأميركو كاسترو بتأكيده الغريب  
من أن مؤلف الطوق كان يسرب حياته الخاصة من خلال حياة الآخرين ،  
وترجمة غرسية غومث تحت إمرة القراء الذين يتحدثون الإسبانية ، ومثلها  
الترجمات الأخرى في اللغات : الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، وبوسع  
الذين يتكلمون بها ، أو يعرفونها ، أن يعودوا إليها ، وكلها تناقض نظرية  
كاسترو المغامرة . إن ابن حزم يذكر في كل خطوة الخبر الذي يمكن أن  
بدعم نظريته ، يشير إلى أحداث وقعت في حياته ، أو في حياة الآخرين ،  
طبقاً لواقع كل حالة ، ولكن دون أن يتوغل في تراجم بعيدة عن ترجمته ،  
ويؤكد صدق الوقائع بشهادة شخصية منه ، لأولئك الذين عرفهم ،  
أو يأتي بها متصلة الإسناد حتى يبلغ به من شاهد الحادث الذي ألمح إليه .  
وعندما يطل ابن حزم على حياة الآخرين فإنما ليؤكد ، في الواقع ، صدق  
ما يروى من أخبار .

ومجموعة الأشعار التي جاء بها في « الطوق » تكون ديواناً كبيراً ،  
والجانب الأكبر منها ذو طابع فلسفي عميق ، وتفصلها طبيعة موضوعاتها  
الغزلية ، وألف هام من التاريخ ، عما ندين به لأونامونو ، وأحياناً تقرب  
منه براثها وعمق تفكيرها . ولكن أونامونو لم يقع أبداً على كلمة نابية ،

أو تعبير فاحش ، أو فكرة خارجة ، وهو ما يحدث لابن حزم أحياناً ، فهو مثلاً عندما يشير إلى حفيد الشاعر الجزيري ، يقول عنه ، إنه « رضى بإهمال داره ، وإباحة حريمه ، والتعريض بأهله ، طمعاً في الحصول على بغيته من فتى كان علقه » ، أو « رشا » فيما يقال أحياناً ، وهى لفظة لطيفة ، تتردد كثيراً في الشعر العربي ، وتطلق على الغلمان ، فإذا تجاوزنا هذا الفرق فإن عمق الفكرة في القطع الشعرية للأندلسي الإيبيري الذى عاش في القرن الحادى عشر ، ولالإيبيري الباسكى الذى عاش في القرن العشرين ، تكمل التقارب بين هاتين القمتين من قمم الفكر الإسباني .

#### ● غنيت بياقوتة الأندلس :

لقد اقتربنا من الربط بين ابن حزم والقمة الفكرية الأخرى في الأدب الإسباني ، وكما برهنا كان ابن حزم إسبانيا روحاً ودماً ، وجدبراً بأن يضم إلى خير من يجسدون الإسبانية ، على امتداد كل العصور . تطلع إلى المشرق كموطن للنسبة وثقافته ، والهب لإحساسه بيفض جارف لمسيحية شبه الجزيرة الإيبيرية ، ولأنه إسباني حتى النخاع ففزت سهام فكره ، ونبال مشاعره ، فوق ورعه وتقواه ، لتواصل اندفاعها الثقافي والشعوري إسبانية خالصة ، إسبانية ألقية تضرب جذورها بعيداً في أعماق ما قبل التاريخ — وسأظهر ذلك يوماً — على نحو ما كان عليه ، وأكرر ما قلت وكتبت في مرات كثيرة ، عدد كبير من شخصيات الإسلام العظيمة في إسبانيا ، شخصيات لا يمكن أن تستثنى ، لأنها مسلحة ، من إرثها الفكري الإسباني .

ولنذكر أن الملامح النفسية التي ينسبها إلى ابن حزم من كتبوا سيرته ، وللصفحات التي خط عليها نفسه جانباً من سيرته ، تؤكد إسبانيته في عم : الشموخ ، والعاطفة ، والعنف ، وطلاقة اللسان ، واستقامة الكلمة ، والوفاء ، وتحليق الروح نحو الله ، والقسوة في نقد الوطن ، وحب الحقيقة ، وشدة الخلق ، والحماسة التي تبلغ حد التضحية بالحياة دفاعاً عن أفكاره وشرفه ،

والنضال من أجل المثل العليا على نحو ما ناضل «دون كيخوته» ، واحتقاره للثروة في مواجهة الشرف ، وكراهية النفاق ، واحتقار الماتق ، والصلابة في الشدائد ، وعبادة الصداقة ، وجود يبلغ حد السرف ، وسهولة الغضب ، والبلاغة ... إنها إسبانية عريقة ، وتؤكد في وضوح ، على الرغم من أسين بلاثيوس ، صدق ما قاله ابن حيان وابن سعيّد عن أصوله الإسبانية ، وعن جلوده المسيحيين .

كان ابن حزم إسبانياً في أخفى طبائ أعماق روحه ، ومن العدل أن نضعه بين أسى قمم الفكر الإسباني على امتداد كل العصور ، لأن حجمه وتعمده ونفاذ إنتاجه الأدبي والفلسفي والفقهى والعقائدى يعطى له هذا الحق .

ليس ثمة حياة تشبه الأخرى ، إذا درسناها بوعى ناقد وجاد ، نعم ، توجد بعمامة مقابل ذلك أرواح متآخية ، أرواح شقيقة بين كثيرين من كبار الرجال في كل الأزمان ، وفي كل البلدان . وتتقارب بخاصة أطراف الأبناء الأكثر عبقرية في كل شعب ، تتقارب في خصائصها الجوهرية ، لأنها عندما تعرض النفسية القومية ، الدائمة والتميزة ، ونمط حياتها الخاص ، فلنأخذ تعكس دائماً الصورة نفسها في الجانب الآخر من المرأة .

سينكا مثلاً لم يشعر أبداً أنه إسباني ، وحتى كتب مرة ضد البطل القومي الإسباني العظيم فريباتو ، ولكنه ولد في قرطبة ، وأثر أصله الأندلسي في إرثه المزاجي وفي تكوين شخصيته . وترد دراسات مومسن Mommsen وميننديث بلايو Menéndiz Pilayo ، وجستون بواسيه G. Boissier ودراسات أخرى معاصرة . وكلها دقيقة وموضع ثقة عظيمة ، بعض خصائص أعمال سينكا إلى أصوله الإسبانية . ويمكن أن نكتشف اليوم ملامح جديدة لإسبانيته ، حيوية ونفسية : وأشارت إليها وأنا أدرس لغز إسبانيا التاريخي . ويتسع الأمر للظن بأن الألوان التي طبعت مذهبه الرواقي تعود إلى إسبانيته هذه ، وألح على القارئ في أن يعود إلى صفحات كتابي الذي

أشرت إليه ، ومن ثم يمكن إذن أن نبدأ به السلسلة الرائعة لكبار المفكرين  
الإسبان والتي تمتد حتى تبلغ في أيامنا هذه أونامونو وأورتيجا  
إلى جاسيت ،

ستظل هذه السلسلة مقطوعة إذا لم نضمها الحلقات الإسبانية الإسلامية ،  
وأحدهم مؤلف « طوق الحمامة » ، ولقد قلت من قبل : لو أن ابن حزم  
كتب مؤلفاته في اللغة اللاتينية أو الرومانشية ، للمع اسمه اليوم إلى جانب كبار  
الشخصيات الغربية في العصر الوسيط مثل : دانتي وتوماس الإكويني ،

وإذا كان ابن حزم يمثل حلقة السلسلة التي تبدأ منذ كتاب إسبانيا  
الرومانين حتى المفكرين الإسبان المعاصرين ، فلأنى أتخيل مع ذلك أن هذا  
القرطبي المسلم ، وهو شاهد ناطق على أزمة الخلافة الإسبانية في القرن الحادى  
عشر ، يقترب بخاصة من أونامونو ، ذلك الباسكى القوى الذى عاصر سقوط  
الملكية الإسبانية ، في آخر الثلث الأول من هذا القرن . وأكرر لا توجد حياتان  
متشابهتان ، وإنما روحان متآخيان ، ولكن روحى هذين الإسبانين الممتازين  
كانا توأمين .

تعرف أوروبا وأمريكا الفكر الملهب لكاتب إسبانيا العظيم ، ذو التاريخ  
البعيد ، والكلمة المهاجمة ، والمطرقة العنيدة ، والقلم الحاد ، والاهتمامات  
الفكرية الحرة والمتنوعة والودود ، وتمكنه المذهل من الموضوعات التى يعالجها ،  
وتمكنه من اللغة العربية ، وجدله القوى ، وعشقه للأحاديث الجادة ،  
وطلقات هنا وهناك ، وذكاؤه الفطن ، واحتقاره للمسلمات والعادات الاجتماعية  
وكرهه القوية للنفاق والرياء ، وأمانته الزوجية ، وحملته على الفجور ،  
ورفضه الحاد والدائم ، وإصراره وتشده فى محاربة المظالم كلها ، ومقاومته  
للغنيمة ، وخلافه مع الذين حوله ، وجه الحار المتدفق الناقد لإسبانيا .

ومع ذلك ليس صعباً أن نقيم صلة قوية بين روح أونامونو الملهب ، على نحو  
ما هو معروف لنا جميعاً ، وبين صورة ابن حزم الخلقة القومية ، كما تطل  
واضحة من الآراء المختصرة والناقدة التى سجلها عنها معاصروه ، ومن سلسلة

الاعتراقات الذاتية التي خطتها بقامه. وعلى الجانب الآخر من هذه المرأة المزجوجة،  
 ألا يمكن أن نكتشف في كل خطوة من الخطوات كثرية من التحليل النفسي لأونامونو؟  
 فالتذكر الإطراء الذي يضرب به المثل، للكلمات ابن حزم الصارمة، وأقلقه  
 الحاد، وثناء ابن حيان وابن سعيد على استقامة سلوكه، وشمول معارفه،  
 ونطرفه في نقده الأندلس وطنه، وإخلاصه دون تخفيف، ونقده اللاذع،  
 وتعصبه المنفعل. ونقرأ ثانية الكلمات الحادة للمفكر الأندلسي العظيم ضد  
 الطغاة والقساة والفقهاء المنافقين، وضد الكذب والرياء، ودفاعه الحار عن  
 المثل العليا التي اتهم بها أعداؤه، وسخريته الجارحة من المداينة والحيل،  
 واكتشافه الخالص لما يعمل في داخله من صراع لكي ينتصر على غضبه، وثناؤه  
 المستطاب على الصداقة، وكلماته الجميلة تعكس إحساساً مشوباً بكبرياء عنيف  
 وصارخ. وتصريحه الجلي بأنه انتفع «بمحاك أهل الجهل منفعة عظيمة»، وهي  
 أنه: «توقد طبعي، واحتدم خاطري، وحمى فكري، وتبيح نشاطي، فكان  
 ذلك سبباً إلى تواليف لي عظيمة المنفعة، ولولا استثمارهم ساكني، واقتداحهم  
 كامنني، ما انبعثت لتلك التواليف». ثم الجملة النبيلة، وتبدو كما لو كانت  
 قد خرجت من قلم أونامونو: «الخطأ في الحزم خير من الخطأ في التضييع».

تقارب هذين الروحانيين الإسبانين التوأمين، يفضي إلى ما هو أبعد من  
 هذا. لقد تربى ابن حزم في الإسلام المستقيم، واتخذ من الظاهرية مذهباً،  
 وترى أن أي مسلم مؤمن يمكن أن يستقل في البحث بنفسه، خلال  
 النصوص القرآنية، عما يجب أن يعتقد ويعمل به، وهو ما أصبح الدراسة  
 المستقلة عند أونامونو، ويرأها أصل ومفتاح كل تفكير حر. وكلاهما كان  
 يفيض داخله بتدين عميق وفاق يهزهما من الأعماق. ولم يحاول عالم القرن  
 العشرين أن يخفي الصراع الذي يعمل في داخله، ويقول عنه الشاعر  
 متشادو: «أن يكون منشئاً ويقول، فيما أرى: الله، ويؤكد الشجاعة  
 الإسبانية». ولقد اكتشف قضية التدين في دقة، وتسامح بثقافة واسعة لمواجهة هذه  
 المشكلة الكبرى. وحاول القرطبي المسلم في العصر الوسيط قبل الإسلام في  
 (١٢م - ابن حزم)

المشرق ، وقبل « المدرسية » المسيحية بزمان طويل في الغرب ، وفي دقة عبقرية ، أن يوائم بين العقل والعقيدة في كتابه : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » وهو كتاب في تاريخ الأديان المقارن .

والصفة القاسية : « دين القدامى » ، والتي نعت بها ابن حزم الأعمال الخاشعة في عصره يمكن أن نخرج من شفتي أونامونو .

وإذا كان أونامونو رجل امرأة واحدة ، وأحس بالنفور من « الدون جوانية » ومن الفجور ، فإن الحب الرومانتيكي لابن حزم دفع بالمستشرقين إلى الخلاف حول أصل هذا الحب العاطفي لابن حزم ، ومن على شاكلته . هل هو حب عنصري مشرق أم حب إسباني مستعرب ؟ .. وكان هذا الحب بذرة خصبة أثمرت حب الفرسان في العصر الوسيط ، وربما كان ممكناً أن يكتب أستاذ سلمنقة ، أونامونو ، هذه الكلمات التي خطها القرطبي المسلم : « وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء ، إلا أنهم متفرغات البال من كل شيء ، إلا من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لا شغل لهن غيره ، ولا خلقن لسواه » .

ويتفقان أيضاً في حب الأبحاث المتصلة باللغة ، وأصبحت المتعة عند أونامونو « رغبة ملحّة » وباهظة ، ولم تدع ابن حزم أيضاً يقات من رشق سهامها ، فخصها مهتماً بالبحوث نفاذة من فكره . وندين له بالفضل عن المعلومات المتصلة بالخلافات الصوتية للهجات العربية في إسبانيا ، وبتأملات حادة عن أصول اللغات السامية ، وبأفكار عميقة تتصل بها ، وقد أعاد نبريخا Nebrija (١) صياغتها فيما بعد ، في اللغة القشتالية ، ونحن على عتبة المغامرة : « اللغة تسير في ركاب الإمبراطورية » .

---

(١) نبريخا : (١٤٤١ - ١٥٢٢) ، عالم إسباني متخصص في اللغات القديمة ، وأمضى حياته في إصلاح تعليم اللغة اللاتينية ، وكتب حول موضوعات متعددة ، ووضع كتباً عدة في قواعد اللغة الإسبانية ، واللغة اللاتينية ، واللغة العبرية ، عدداً من المعاجم ، ولكن أنضل مؤلفاته : فن تعليم اللغة القشتالية . ( المترجم ) .

وأوثامونو يمكن أن يرد على المتعصبين ممن هاجموا كتبه ومنعوا ، على  
نحو ما كانت تصنع محاكم التفتيش ، بما قال ابن حزم من شعر في ظروف  
مشابهة :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى

تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى

يسير معى حيث استقلت ركائبي

وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى

دعونى من إحراق رق وكاغد

وقولوا بعلم كى يرى الناس من بدرى

ولما فعمودوا فى المكاتب بدأة

فكم دون ما تبغون لله من ستر !

لقد أمضى هذان العظماء الإسبانيان شبابهما فى أتون من الصراع الدموى ،  
ابن حزم فى قرطبة ، بعد العام الألف من التاريخ الميلادى بسنوات قليلة ،  
هزتها الثورات ، ودمرت مدينتى الزهراء والزاهرة ، وطوقها البربر فى  
ضراوة ، وأوثامونو فى « بلباو » فى القرن التاسع عشر ، تحاصرها وتقائها  
جيوش دون كاراوس (١) . ولقد عاش رجل الياسك القوى بداية الحرب الأهلية  
الإسبانية الأخيرة ، وعانى ويلاتها ، وشهد القرطبى المسلم من جانبه معارك  
المصير التى لا تنتهى فى سنواته الأخيرة ، والتى دمرت الأندلس فى النصف الأول  
من القرن الحادى عشر . وكان رد الفعل عند كليهما واحداً ، نفس الروح  
التيبل فى مواجهة المأسى القومية الكبرى التى عاشها جيلهما ، وأحس

---

(١) أحد المطالبين بعرش إسبانيا ، وأمضى سنوات عديدة فى حروب متصلة لا تنتهى فى  
شمال إسبانيا ومدينة « بلباو » عاصمة مقاطعة فسكايا فى شمال إسبانيا إحدى ثلاث مقاطعات  
للإسك ، أو الباشكنس كما تسميهم المراجع العربية ، وهم من أصل غير لاتينى ويتحدثون لغة غير  
إسبانية وغير لاتينية ، ويطالبون الآن بالاستقلال ، ويخوضون من أجله معارك طاحنة مع الحكومة  
المركزية . ( المترجم ) .

كلاهما بالتعاسة نفسها ، مؤلمة وظافحة ، أمام تمزق وطنهما على مرأى  
منهما ، أندلس الأول وإسبانيا الثاني . وأصاب الفيلسوف المسلم وفكره  
أكثر من مكروب ، حين أدان الخلاف الدموي بين الإخوة ، في عبارته  
الجميلة ، والعميقة المعنى في الوقت نفسه ، وقد نقلناها من قبل ، والتي تعجب  
المفكر الحر في عالمنا الحديث ، دون ما شك ، إذا عرفها : « نوار الفتنة  
لا يعقد » .

وكلاهما ، مسلم قرطبة واليأسكي من بلباو ، أحبا لإسبانيا بعمق ، على  
الزغم من نقدهما العنيف لها ، ويقول متشادو عن أونامونو : « روح جنسه  
القاسى لما يزل نائما ، ويمكن أن يستيقظ يوماً تحت طرقات هراوته  
الحد يدية » ، ويمكن أن يقول الشيء نفسه عن ابن حزم : وكلاهما ،  
ابن حزم وأونامونو ، كان واقع إسبانيا يشيع الألم في أعماق قلبه ، وسبق  
كلاهما كل شعوب الأرض في كبريائهما المتشابه ، فأونامونو صاح يوماً ،  
دفاعاً عن وطنه : « فليخترعوا هم ! » ، والشاعر القرطبي كتب  
هذه الكلمات :

ويا جوهر الصبيح سحقاً فقد غنيت بياقوتة الأندلس

بياقوتة الأندلس ! ، أصاب ابن حزم كبد الحقيقة شعراً ، حين شبه  
وطنه الإسباني بهذه الجوهرة الكريمة التليدة . بياقوتة الأندلس ! ، شعلة  
من عاطفة متأججة ، أو حب ملتهب ، ودم يغلي في العروق يدفع إلى الحياة  
والعمل ، أو يراق فوق كل البحار والقارات ، دون كيخوته يدافع عن مثل  
عليابجنونة ، ومضات تطهر خطايا الإرادة ، وتحرق في الوقت نفسه حصاد  
الفكر . غنيت بياقوتة الأندلس ! ، واجب كل إسباني أن يهتم بها الآن  
ولو للحظة ، ففيها شفاء للذين يعبدون كل ما هو أجنبي . بياقوتة الأندلس  
ليست بياقوتة المسلمين ولا المسيحيين ، وهي أخيراً ، يمكن أن ترمز إلى  
الحياة التي ليست ركوداً شاحباً ، وإنما اندفاع خالق ! .

قلت فيما سبق إن ابن حزم لم يكن الحلقة الإسلامية الوحيدة في السلسلة .

التي تبدأ مع سينكا حتى يومنا ، كان ثمة مسامون كثيرون يمكن أن تضمهم هذه القائمة من التراث الرائع ، أسهموا بما هو إسباني بين من أمزجهم ، في بناء الحضارة العربية وثقافتها العظيمة ، وأكملوا رسالة جوهريّة من الحفاظ على الحياة الفكرية وتنميتها في علم حوض البحر الأبيض المتوسط ، على حين كانت المسيحية تدب بطيئة عبر منطقة مظلمة من منعطفات التاريخ ، ومن ثم فإن ثقافة الغرب لم تخسر كل الجهد الخلاق للمفكرين والفقهاء والشعراء والبراعاء في إسبانيا الإسلامية ، لأن هذه وقد تمثلت الثقافة الإسلامية المشرقية ، التي احتفظت بما هو جوهري من الحضارتين الهلينية والفارسية ، أضافت إليها أفكارها المشبعة بما هو غربي ، وعبرت بها إلى الأقليات المثقفة شمالى جبال البرانس ، بفضل ترجمات « مدرسة المترجمين » في طليطلة ، فقدمت خدمات هائلة لأوروبا ، مصدر ثقافتنا العريقة . وعندما أتأمل سمو الفكر عند ابن حزم ، في كتابه : « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، وسبق به بما يقرب من نصف ألف عام المغامرات الأوروبية الشبيهة ، ولأعمال الثقافية الأخرى المماثلة ، لعظماء آخرين من أبناء الأندلس ، مثل ابن حزم إسبانيين أصولاً وروحاً ، ينفذ دائماً في أعماق سؤال محير ، ويؤكد دوماً نظريتي فيما يتصل بالانحراف الأسوأ لقدر إسبانيا نتيجة اعتناقها الإسلام ، كلها تقريباً . كيف لا نسأل أمام إبانة ابن حزم الواضحة ، وإسبانيين آخرين في مثل قامته ، وأمام سمو عبقرياتهم ، ماذا كان يمكن أن يصبح عليه عمل المفكرين والمؤرخين ورجال العقيدة والفقه والعلماء والكتاب من الإسبان ، في إنصاج الثقافة الغربية خلال العصر الوسيط ، لو ظلوا منتبهي لها ولم يبتعدوا عن هذا الجذر الثقافي ذات يوم من عام ٧١١م ؟ وعندما أحصى الأعمال التي قاموا بها على امتداد حياتهم ، وكل إسبانيا الإسلامية ، وهم على هامش العالم الغربي المجاور ، وبعيداً عن مركزه ، طوال هصور التباور الخاسمة ، أحس بالغم دائماً ، لأنى أدرك الأذى الذي لحق بوطنى عندما فتحه الإسلام وحكمه .

## غراميات ابن حزم ومشكلة الحب العذرى في الأندلس

في عام ١٨٤١ اكتشف المستشرق الهولندي الكبير رينهاردت دوزي Reinhart Dozy (١٨٢٠-١٨٨٣) ، المتخصص في الدراسات الأندلسية ، النسخة الوحيدة من مخطوطة «طوق الحمامة في الألفة والآلاف» لابن حزم ، المفكر الأندلسي العظيم ، بين العديد من المخطوطات العربية والشرقية في مكتبة جامعة ليدين هولندا ، وعكف عليها قراءة ودراسة ، وأفاد منها في كتابه الرائع : « تاريخ مسلمي الأندلس Histoire des Musulmans d'Espagne » ووقف طويلا عند اعتراف مفصل مثير لابن حزم ، تضمن في صراحة بينة خطاه الأولى في عالم الحب . وكانت مفاجأة مذهلة ، أفقدت العالم الأوربي الكبير توازنه العلمي ، وربما للمرة الأولى على نحو ما سنرى بعد قليل :

يقول ابن حزم في اعترافه :

« وإنى لأخبرك عني : أني ألفت في صباي ، ألفة محبة ، جارية نشأت في دارنا ، وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرتها ودمايتها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مسيلة السر ، فقيدة الزام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الخدر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلدة النفار . لا توجه الأراجي نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمها ، تزدان في المنع والبخل ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجلد في أمرها ، غير راغبة في اللهو .  
« على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً ، فجنحت إليها ، وأجبتها

حبا مفراطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة ، وأسمع من فيها لفظة - غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع - بأبلغ السعى فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة .

« فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة (١) أختي - رحمه الله - من النساء ، ونساء فتياتنا ، ومن لاث بنا من خدمنا ، ممن يخف موضعه ، ويلطف محله ، فلبث صدرنا من النهار ، ثم انتقمنا إلى قصبة كانت في دارنا ، مشرفة على بستان الدار ، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها (٢) ، مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن .

« فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه ، أنسا بقربها ، متعرضاً للدنو منها ، فما هي إلا أن تراني في جوارها ، فترك ذلك الباب الذي صارت لايه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره . وكانت قد عامت كلفي بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنهن كن عدداً كثيراً ، وإذا كاهن ينتقلن من باب إلى باب لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطالع من غيرها عليها . واعلم أن قيافة النساء في من يحيل لايهن أنفذ من قيافة مدالج في الآثار .

« ثم نزلن إلى البستان فرغب عجايزنا (٣) وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها ، فأمرتها ، فأخذت العود وسوته من خمر وخجل لاعهدي بمثله ، وإن الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنة ، ثم اندفعت تغني بأبيات العباس ابن الأحنف ، حيث يقول :

إني طربت إلى شمس إذا غربت	كانت مغاريها جوف المقاصير
شمس ممثلة في خلق جارية	كأن أعطاها طي الطوامير
ليست من الإنس إلا في مناسبة	ولا من الجن إلا في التصاوير
فالوجه جوهرة والجسم عهرة	والريح عنبرة والسكر من نور
كأنها حين تمخطو في مجاسدها	تمخطو على البيض أو حلال القوارير

فلعمري لكان المضرب انما يقع على قلبي ، وما نسيت ذلك اليوم ،  
ولأنساه إلى يوم مفارقتي الدنيا ، وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكن  
من رؤيتها وسماع كلامها ..... (٥)

نقل دوزى النص كاملا ، في فرنسية راقية ، شفافة ومثيرة في كتابه  
الذى أشرنا إليه من قبل ، ثم عقب عليه بقوله :

« يلاحظ دون ما شك في القصة التي انتهينا من قراءتها ، ملامح  
عاطفة رقيقة غير شائعة بين العرب ، الذين يفضلون بصفة عامة ،  
الجمال المثير ، والعيون الفاتنة ، والابتسامة الآسرة ، والحب الذي كان  
يحلم به ابن حزم يختلط ، دون ريب بما هو حسي جذاب ، وعند  
ما يكون الحبيب المنشود اليوم غيره بالأمس ، يصبح الإحساس أقل قسوة  
لكن فيه أيضا ميل إلى ما هو أخلاقي ، من رقة بالغة واحترام وحماسة ،  
وما بأسره جمال رائق وديع ، فياض بالكرامة الخلوة لكن يجب ألا ننسى  
أن هذا الشاعر الأكثر عفة ، وأكاد أقول الأكثر مسيحية ، بين  
الشعراء المسلمين ، ليس عربيا خالص النسب ، إنما هو حفيد إسباني  
مسيحي ، لم يفقد كاية طريقة التفكير والشعور الذاتية لجنسه ، هؤلاء  
الإسبان المتعربون يستطيعون أن يهجروا دينهم ، وأن يتنهلوا بمحمد  
بدل المسيح ، وأن يلاحقوا بالسخرية إخوانهم القدامى في الدين والوطن ،  
ولكن يبقى دائما في أعماق أرواحهم شيء صاف رهيف وروحي ،  
غير عربي (٦) .

نشر دوزى كتابه « تاريخ مسلمي الأندلس » الذي ضمنه هذا الرأي ،  
عام ١٨٦١ م ، ولأن الرجل حجة في الدراسات الأندلسية ، وصاغ  
القصة في نثر فرنسي بليغ ، فقد أصبح كتابه مرجعا ، ورأيه عقيدة ،  
وفكرته الصواب قاطعا ، وتابعه فيه جمهرة الأوربيين من بعده ، إلى  
قريب من نهاية الثلث الأول من هذا القرن حين نشر الراهب الإسباني  
ميغيل أسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios (١٨٧١ - ١٩٤٥)

دراسته العميقة عن العالم القرطبي الجليل، وكان أسين بلاثيوس عالماً ثباتاً وحبّة في الفلسفة الإسلامية ، وقف عليها حياته : نشر مخطوطات ، ودراسة قرائن ، وحرر فيها عدداً هائلاً من الرسائل والأبحاث ، وترجم إلى الإسبانية أمهات كتب الفلسفة الإسلامية في الأندلس بينها كتاب : «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم وجعل من دراسة حياة المؤلف كالمقدمة ل ترجمته ، وجاءت الدراسة والترجمة في خمسة أجزاء كبار (٧) .

عرض أسين بلاثيوس لفكرة دوزي ، كما أوردناها ، وناقشها تفصيلاً ، ووجهة نظره تستحق أن نوردّها . كاملاً ، ولنا عليها استدراك وتعاليق . يقول : « الفكرة التي دافع عنها دوزي بوضوح في تعليقه هذا ، وفي أمكنة أخرى من كتابه : « تاريخ مسلمي الأندلس » ، يمكن أن نوجزها ، لتسهل مناقشتها ، في النقاط التالية :

• إن الإطار الذي رسمه ابن حزم لحبه في هذه الترجمة الذاتية ، في طهجة صادقة وسلامة نية نظرية ، يظهر لنا من نفسية البطل شعوراً ممتازاً ، أشد رقة وكملاً من الحب الحسي غير الخشنم . ويمكن اعتبار ابن حزم في هذا الجانب مثلاً استثنائياً نموذجياً للحب الروحي والعفيف ، الذي يسميه علماء النفس الحب الإفلاطوني أو الرومانتيكي .

• إن النفسية التي تكابد هذا الحب ليست من خصائص الجنس العربي ، ولا الأدب الإسلامي ، وكلاهما في عواطفه الغرامية يستمد إلهامه غالباً من الرغبات الجنسية المبتذلة .

• إن حب ابن حزم الرومانتيكي ، وبالتالي كل جبلته العاطفية ، لا يمكن تفسيرها إلا في ضوء أمها ورائه نفسية ، وارتداد منه لخصائص جنسه المسيحي والإسباني .

« فيما يتصل بالنقطة الأولى من هذه النقاط ، أبادر إلى القول ، قبل كل شيء ، بأن روعة الأسلوب الأدبي لدوزي ، وقد تجلت في ترجمته الجميلة

لقصة ابن حزم السابقة ، مقارنة بترجمة خوان فاليرا (٨) تدبر في أعماق روح القارئ العلماني ، ، غير اليقظ ، فسكرة أن ابن حزم كان ضحية ذلك الحب الأول لأيام شبابه ، يبكي بلا أمل ، بقية حياته ، المحظ التعس لقلبه المصدود . ومعنى آخر أعطى النغم الرومانتيكي لهذا الحب القصة مزيداً من القوة ، لأن دوزي تركنا في مهارة نتخيل أنه الحب الوحيد في حياة ابن حزم ، على حين أنه لا يمكن أن يجهل ، وقد استفاد من كل كلمة في النسخة المخطوطة لطوق الحمامة ، أن ابن حزم لم يصبر طويلاً ، وهو يمثل الدور الرومانتيكي لعاشق يائس ، إذ سرعان ما جفف دموعه ، لينسى في حب آخر ، أكثر سهولة ، أحزان حبه الأول ،

يقول : « كنت أشد الناس كلفاً ، وأعظمهم حباً ، تجارية لي ، كان فيما خلا اسمها نعم ، وكانت أمنية المتمنى ، وغاية الحسن خلقاً وخلقاً وموافقة لي ، وكنت أباً عذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ففجعتني بها الأقدار ، واختارتمها الليالي ومر النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، سنى حين وفاتها دون العشرين سنة وكانت هي دوني في السن ، فقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أنجرد عن ثيابي ، ولا تفتري دمة على جمود عيني وقلة إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ، وبيعض أعضاء جسمي العزيزة على مسارعا طائعا ، وما طاب لي عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها ، ولقد عفى جبي لها على كل ما قبله ، وحرم ما كان بعده .

وليس هذا الحب الثاني هو الأخير لأيام شبابه ، فبعد ذلك بأعوام ، عندما استطاع أن يعود إلى قرطبة وسط مغامراته السياسية الواسعة ، يحدثنا عن نفسه : وقد ضمنى المبيت ليلة في بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارف مشهورة بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قرابتها ، من اللاتي قد ضمها معنى النشأة في الصبي ، ثم غبت عنها أهواها كثيرة ، وكنت

تركها حين أعصرت ، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ، ففاض وانساب ، وتفجرت عيناها ينابيع الملاحة فترددت وتخبرت ، وطاعت في سماء وجهها نجوم الحسن فأشرق وتوقفت ، وانبعثت في خديها أزهير الجمال فبعت واعتمت ... (١٠)

إذن لم يخفق ابن حزم في حبه مرة واحدة ، بل مرات ، ومن هذه الزاوية الجديدة ، التي لم يردد دوزي أن يضحها أمام عين القارئ ، يفقد الحب اللقي لبطلنا ، دون شك ، درجات من مثاليته وأفلاطونيته ، لكن لا يمكن الإنكار أنه ينطوى على مشاعر رقيقة لم تفقد توهجها بعد ، ولا تعرف ما هو حسي . ومصدر ذلك تعاسة مزاجه ، أو بمعنى أدق ، جاء نتيجة ميل فطري عنده ، ويعترف ابن حزم نفسه بأن لديه دائماً قدرة بالغة ، وعزوفاً عن كل ما هو جنسي (١١) . ويرى أن اجتماع الأرواح ، وليس التقاء الأبدان ، هو الذي يبقى على الحب (١٢) . لقد كانت روحية عشقه حقيقة واقعة وظل صداها يتردد ، بعد قرن كامل من وفاته ، في خمرات الشاعر العربي ابن قزمان القرطبي ، وهو يصف لنا سهراته وليلاته الحمراء (١٣) :

لكن ليس صحيحاً أن حبه الأفلاطوني يجب أن يعد شيئاً شخصياً ، وطبعاً يتصل بخلافه ، وأنه استثناء واضح في نفسية الإسلام الإسباني ، ذلك أن المحقق التاريخي في كتابه « طرق المحبة » وهي مسلم بها وليست موض شك ، لأن مؤلفه يؤكد ذلك حرفياً في مقدمة الكتاب ، يقول : « كلفتني — أعزك الله — أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يتبع فيه . وله على سبيل الحقيقة ، لامتزياً ولا مفتناً » (١٤) وأغلب فصول الكتاب تتكون من روايات معاصرة عن شخصيات تذكر بأسمائها وألقابها وهي شاهد حي على الجذور العميقة التي بثها الحب الرومانتيكي في الأرواح وتعرضك في كل خطوة ، على امتداد صفحات الكتاب ، أسماء خلفاء ووزراء وقواد ، وشخصيات من أعلى طبقات الأرستقراطية العربية ، وفقهاء وأدباء وشعراء ورجال ، وباختصار من كل الطبقات المثقفة في

المجتمع القرطبي ، وهم يهتدون في حياتهم الغرامية بهذا الروح المثالي الراقى نفسه ، تشيع البهجة فيهم نظرة عابرة مسن فتاة أحلامهم ، أو مجرد زيارة شريفة ونخمية ، وتبتل صامت إلى المعبود في محراب الروح الخفى وتقديس يكاد يكون دينيا لما خلف من أشياء وحاجات شخصية يحتفظون بها تذكرة . ويبلغ نهاية الطرف المقابل للحب الأفلاطوني ، فيروى بالدموع عند احتداد النخبة ، رسائل يطلب فيها صدقة من حب ، أو يكتبها بدمه ، أو ينهى في قسوة مأساة حبه المصدود ، مضمنا الحبيب شيئا فشيئا ، أو ينطفيء بغنة نور عقله ، في انتحار غرامى مجنون (١٥) .

عندما نقرأ هذه الصفحات الزانخة بالشعر ، يمكن أن نفهم من مجموعها نفسية تلك الحضارة القرطبية ، وهي تقدم لنا في قمة قزوحها ، الدلائل على رقيها الثقافي والعاطفي ، وهما دائما طلائع أى انحدار . لم يكن إذن حب ابن حزم الأفلاطوني وايد عدوى سلالية فحسب ، وأنه تلقاه من نفسية أسلافه المسيحيين ، لأن من أبطال الغزل الرومانتيكيين كثيرين جدا ينحدرون من أصول عربية خالصة ، ولا يمكن أن تجرى في دمائهم الخصائص الموروثة التى نفترض أنها عند ابن حزم .

ولقد حفظ لنا طوق الحمامة» عن الرمادى أبو عمر يوسف بن هارون من كبار الشعراء الغنائيين الملهمين في عصر المنصور بن أبى عامر ، وهو كندى القبيلة ، يعنى الأصل ، رواية لطيفة ، ثابتة الوقوع ، جديرة بأن تروى لما فيها من عاطفة عميقة : « كان يوسف بن هارون مجتازاً عند باب المطارين بقرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه ، وتخلل حبها جميع أعضائه ، فانصرف عن طريق الجامع ، وجعل يتبعها وهي تاهضة نحو القنطرة ، فجازتها إلى الموضع المعروف بالربض ، فلما صارت بين رياض بنى مروان رحمهم الله ، المبنية على قبورهم فى مقبرة الربض ، خلف النهر ، نظرت منه منفردا عن الناس لاهمة له غيرها ، فانصرفت إليه ، فقالت له : مالك تمشى ورائى ؟ »

فأخبرها بعظيم بليته بها ، فقالت له : دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي ، فلا مطعم لك في ألبية ، ولا إين ما ترغبه سبيل . فقال : إني أفنع بالنظر . فقالت : ذلك مباح لك . فقال لها يسيدتي : أحرة أنت أم مملوكة ؟ قالت : مملوكة . فقال لها : ما اسمك قالت : خلوة (١٦) . قال : ولما أنت ؟ . قالت له : علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع المحال . فقال لها : يسيدتي وأين أراك بعد هذا ؟ . قالت : حيث رأيته اليوم ، في مثل تلك الساعة من كل جمعة . فقالت له : أما أن تنهض أنت ، وأما أن أنهض أنا ، فقال لها : أنهض في حفظ الله . فنهضت نحو القنطرة ، ولم يمكنه اتباعها ، لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا . فلما تجاوزت القنطرة أتى يفتوها فلم يقسح لها على خبر ، ولا أدرى أسماء لحسها أم أرض باعها ، وأن قلبي منها لأحر من الجمر . وهي خلوة التي يتنزل بها في أشعاره ، ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سبيلها إلى سرقسطة في قصة طويلة (١٧) .

لقد تأثر دوزي بما هو شائع معاد عن حسية الحب عند الجنس العربي أكثر مما تأثر بما هو حق ( ما زال أسدين بلاثيوس هو الذي يتكلم ) وهذه الأفكار المطروقة وليدة دراسات جزئية وسطحية وجانبية للأدب الإسلامي ، وهي مضطربة ، مثالها في ذلك خرافة لا نقل عنها انتشارا ، وهي عجز الجنس السامي عن الدراسات الفلسفية . لقد كرم الاستشراق الأوربي أغلب جهده ، في البناء ، بل وحتى كل جهده ، لدراسة شعراء الجاهلية . وأدباء الإسلام في العصر الكلاسيكي ، وخدع أوائل الباحثين منهم ، بما كان يترافق في هذه النماذج من عبادة وثنية للشكل والجمال الحسي ، دون أن يكون لديهم متسع من الوقت لكي يستوعبوا ، أو حتى يبدؤوا ، تحليل المعاني العظيمة للأدب الإسلامي ، وما زال مطويا لم ينشر ولم يدرس بعد . ومع ذلك جرعوا على أن يستخرجوا من المقدمات الناقصة والحادة نتائج عامة وفجة ، وأن يرتفعوا بها إلى مرتبة

القانون التاريخي أو الاجتماعي : ولكن خلال قرن مضى ( كتب أسين بلاثيوس كتابه عن ابن حزم بين عامي ١٩٢٦ - ١٩٢٨ ) حلت جوانب جديدة عديدة للنفسية العربية ، ومن الممكن الآن تكوين فكرة أكثر شمولاً ودقة عن ذى قبل .

ومن جانب آخر ، وكقابل لهذا الاتجاه الحسى ، ظهر منذ العصر الجاهلى لون من الغزل العاطفى ، عفيف وروحى ، كالحب المسيحى ، ففى الصحراء العربية ، قريباً من اليمن ، عرفت قبيلة بدوية كيف تسمو بفهمها إلى أدق ما يمكن أن يتصور من الحب البشرى . فبنو عذرة يفضاؤون الحزن الحلو المستسلم المشوق فى الحب الأفلاطونى ، على العواطف الحادة للغرائز الحيوانية البهجة ، ويعرفون كيف يموتون من الحب ، قبل أن يدنسوا بالشهوة الملول المشبعة عرس الأرواح العفيفة : لقد تغنى أعظم شعرائهم إلهاما ، فى قصائد تفيض رومانتيكية ، وبالحنانة المرة ، للرجبة الكظيمة إلى الأبد ، وكان جميل بن عبد الله العذرى ، إلى جانب شعراء آخرين من بنى هذيل ، النموذج الكامل الذى تتحقق فيه العفة المثالية . لقد مات من الحب دون أن يجرو يوماً على أن يمس بيده محبوبته بشينة .

إن عبادة العفة والعذرية ، وهما من خصائص الرهبنة المسيحية الشرقية فى العصور الوسطى ، لا يجب أن تكون بمنأى عن هذه الحركة الرومانتيكية ، والراهب المسيحى شخصية شائعة فى القصيدة الجاهلية ، وكانت الصوامع والأديرة تتناثر عبر صحراوات الجزيرة العربية ، وكان قرى الحجاج فيها تقليداً مرجعياً ، والتعايش والعرفان يؤديان إلى التقايد ، والحق أن شيئاً كثيراً من ذلك تخلف فى الأدب الدينى للقرن الأول الهجرى إن حكايات رهبانية ، ونماذج لأبطال متقشفين مما يوجد فى كتاب « حياة الآباء Vitae Patrum » انتقلت فى مرعة كبيرة للغاية إلى التراث الأدبى الإسلامى . وأحد هذه الأمثلة ، وربما كان أروعها جميعاً ، عبر مرجعاً البلاد الإسلامية التى تفصل موطنه عن الغرب ، حتى وصل

إسبانيا ، لأنها حكاية راهب مسيحي من طيبة أحرق أصابعه بالنار ليقاوم محاولة امرأة عارية . وقد قص ابن حزم الحكاية في « طوق الحمامة » ، بعد أن جردها من طابعها المسيحي (١٨) .

« الحب العذرى والعفيف لبني عذرة ، والمطهر هكلنا شيئا فشيئا بحرارة الزهر البدوي الإسلامي ، والسابق للصوفية ، أخذ شكاه النهائي في بغداد قريبا من القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي ، كنموذج مثالي للحب العامي ، وحتى للفضيلة الدينية . وكان البلاط العباسي ، وقد بلغ قدرا عاليا من الثقافة المصقولة ، يعاني في الوقت نفسه من تفاقم المشاعر المريضة ، وهو طابع كل المراكز الحضارية الكبرى ، وقد عانت منه قرطبة بعد وفاة ابن حزم بقرن من الزمان . وفي نوادي بغداد الأدبية كانت هذه الرومانتيكية التقليدية تباشر تأثيرا قويا على النفوس ، حيث شاع الحديث المنسوب إلى النبي : « من عشق فعمى ومات ، مات شهيدا » . وهذه المثالية العالية ألهمت روحا عظيما واسع الثقافة ، هو ابن داود الأصفهاني ، ابن منشئ المذهب الظاهري وخلفه فيه ، فعرف كيف يرفع حيثته مثلا لأديبا خالما للحب الأفلاطوني بكتابه « الزهرة » . وفيه يعترف بالأصل المادي والشهواني للميول العاطفية في الروح الإنساني ، وأنها تخضع لمثير دائم ، يتوقف على قدرها من التركيب النفسيولوجي . ومع ذلك ، عرف كيف يجعل منها مثلا أعلى ، بالعزوف المستمر عن متعتها ، لتصبح الرغبة أملا خالدا .

ومهما تكن خصائص الجنس البعيد لابن حزم ، التي نسبه إليها دوزي ، فقد تهاوت كلها أمام هذا العرض . وإذا كان ثمة أثر من مشاعر مسيحية حقيقية يمكن أن ينبض بها قلب ابن حزم ، العدو للودود للمسيحية ، وللأخلاق الإنجيلية ، فليست بالتأكيد المشاعر التي ورثها عن أجداده عبر دمائهم ، وإنما تلك التي اكتسبها لاشعوريا ، وعلى الرغم منه ، بفعل عدوى لا محيص عنها ، لجو المثالية المسيحية القوي ، والذي ازدهرت فيه الحياة الأدبية الإسلامية في المشرق طوال حياتها .... » (١٩)

تلك هي وجهة النظر غير العربية ، كما يعرضها مستشرق هو لندي غير منهم في حياته ، وعرف بكرمه لرجال الدين ، وبعده عن التعصب . وكما تصورهما راهب كاثوليكي إسباني ، عرف بغزارة علمه ، وتمكنه من العربية ، وبمعالجته للقضايا العلمية والأدبية في موضوعية لاتحدها لإرسالته كرجل دين تخضع كل كتاباته لمراجعة السلطات الكنيسية ورقابتها .

لكن دوزي كان متأثراً بما كان شائعاً في أوروبا على أيامه ، من أن السمو في الحب وليد المسيحية ، فطبق هذا الاتجاه في دراسته لابن حزم ، وكتابه « طوق الحمامة » . وحاول أسين بلاثيوس ، في مهارة ذكية ، أن يرد الغزل العذري كله ، لا الأندلسي منه فحسب ، إلى أصول مسيحية .

ونظرية كليهما ينقضها واقع الأندلس ، فهما يعرفان جيداً ، أن مسيحية الإسبان عند الفتح كانت رقيقة ، وأن علم الناس بها - خارج رجال الدين - كان مشوشاً . وأن جانباً لا بأس به من السكان كانوا وثنيين . وإذا كان من المرجح أن ابن حزم ينحدر من أصول إسبانية ، فمن المرجح أيضاً أن أجداده لم يكونوا قد اعتنقوا المسيحية عند دخول الإسلام ، لأنه من المنطقة الفقيرة ، في جنوب غربي إسبانيا ، وغالبية أهلها عند الفتح كانوا من الوثنيين . وعلى أي حال فإن ما كان يجري في الجانب العربي والإسلامي من الأندلس من مظاهر الحب الحسي ، كان يجري مثله ، وأفحش منه ، في الجانب الإسباني المسيحي ، ولم تجر في هروقه دماء عربية ، ولا اتخذ جدودهم الإسلام ديناً .

كان ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وجاء إلى الحياة بعد عامين من وفاة ابن حزم (ت ١٠٦٣) ، ملكاً كاثوليكياً ، أفنى حياته بقتال من أجلها ودفاعاً عنها ، ولكن الكاثوليكية بطقوسها لم تمنعه من أن يجمع بين ست زوجات ، في وقت واحد (٢١) . وكان على علاقة جنسية مع أخته أراكة Urraca وتذكر ذلك المصادر العربية المعاصرة له صراحة (٢١) ، وتحدث عنها الأغاني الشعبية الإسبانية منكرة أحياناً ، ومتشفية أحياناً أخرى . وكان لإنريك الرابع ملك قشتالة (ت ١٤٧٤) إسبانياً حتى آخر قطرة في دمه ، كاثوليكياً من أخمس

قدميه إلى قمة رأسه ، وكان شاذاً جنسياً مخفئاً ، يلاحق من لايخضعون لرغباته المخجلة من حاشيته بالقتل والسجن والنفي . ولم ير حرجاً في أن يعين عشيقته كثالين سندوفال رئيسة لدير راهبات القديس بطرس ، في ضواحي طلبطلة ، بعد أن طرد رئيسه السابقة . متحدياً أوامر المطران ، وقرار حرمانه من الكنيسة (٢٢) . ومن الثابت أنه كان عقيماً لا يلد ، وأنه طلق زوجته الأولى رغم كاثوليكيته وتزوج ثانية ، وأن زوجته الثانية جاءت به بنت نسبت إليه ، وكان معروفاً أن أباه الحقيقي أحد رجال الحاشية ، ولم يكن إنريك هذا حالة شاذة ، فهو نفسه يشك أنه ابن حقيقي لأبيه المنسوب إليه : خوان الثاني (٢٣) .

وكان فيليب الثاني (١٥٢٧ - ١٥٩٨) أعظم ملوك أسبانيا ، كاثوليكياً متعصباً ، ضيق الأفق في مفهومه الديني ، وله العديد من العشيقات ، وأولاد كثيرين غير شرعيين ، كما كان أبوه من قبل (٢٤) ، ومن الشائع أن كارلوس بن فيليب الثاني ، كان على صلة غرامية بزوجة أبيه إيزابيل ، ولذلك سجنه ، ومات في السجن في ظروف غامضة ، مسموماً أو مذبوحاً أو مخنوقاً ، فبكته إيزابيل بكاء مراراً ، فأصدر لها فيايب أمراً إمبراطورياً بأن تكف عن البكاء عليه (٢٥) .

ويقص علينا رحالة المسافر طاف بالجانب المسيحي من الأندلس في القرن الخامس عشر . أنه وجد الشذوذ الجنسي شائعاً في قشتالة ، وقشتالة هذه من أشد مقاطعات الأندلس في العصر الوسيط ، وحتى أيامنا هذه ، تعصبا للكاتوليكية ، وتعلقاً بالإسبانية . حتى أن اللغة القومية تنسب إليهم في أحيان كثيرة ، فيقال اللغة القشتالية بدل الإسبانية ، لأن ضجهم هي التي سادت بعد سقوط دولة الإسلام في الأندلس (٢٦) . ويلاحظ أن من المسيحيين علينا عند دراستنا لهذا الأمر في الجانب المسيحي من الأندلس الحصول على معلومات كافية ، لأنه لم يكن يجمع بما يجمع به الجانب الإسلامي من حرية في الإبداع والتسجيل والنشر : لأن شرعية الدينية على المؤلفات

كانت عنيفة وقاسية ولا تسمح بالإشارة إلى مثل هذه الأشياء (٢٧) .

\* \* \*

ويقول مؤلف كتاب : « تاريخ إسبانيا وأمريكا ، اقتصادياً واجتماعياً » ،  
وصدرت الطبعة الأولى منه في برشلونة بإسبانيا عام ١٩٥٧ ، وخضع  
لرقابة الدولة والكنيسة على السواء : « شهد القرنان الرابع عشر والخامس  
عشر أشد فساد شهدته الكنيسة الإسبانية ، وبخاصة في مملكة قشتالة ،  
والدراسات التي قام بها أوليز روبر Ulises Robert أظهرت الحالة  
المؤسفة التي انتهت إليها عدد كبير من الأديرة البندكتية . حيث يعيش  
الربان مع عشيقاتهم ، ويربون ويعلمون أولادهم في الأديرة نفسها . وثمة  
تعليمات أصدرها مطران أوفييدو في القرن الرابع عشر يمنع فيها الرهبان من  
السماح لعشيقاتهم ، أو أولادهم ، أو الراهبات ، أن يتواجدن على أبواب  
الأديرة ، أو يعشن فيها ضيوفاً على الرهبان . وثمة وثيقة أخرى نشرها  
فوشيه دلبوس Fouché-Delbos تشير إلى السمعة السيئة التي كان يتنعم  
بها رجال الدين الدومينيكان في القرن نفسه ، مما يؤكد أن الأوامر الخاصة  
بالسلوك المستقيم قد تنوسيت سريعاً . وفيما يبدو كان فساد الأخلاق عاماً  
في كل الأديرة ، إلى حد كبير ، وفيما يتصل بسلوك رجال الدين خارج  
الأديرة ، هناك أدلة وافية للجزم بأن الفساد كان أكثر شيوعاً في قشتالة  
منه في أرجون ، والبلاد الأوربية الأخرى . ففي منتصف القرن الثالث  
عشر ( أى مائتي عام بعد وفاة ابن حزم ) شاعت أغان تتحدث عن رجال  
الدين ممن فاض بهم الشبق ، وفي كتاب « الحيل » قصة رئيس دير أخفى  
عنده امرأة متزوجة ... »

« ونعرف من قرارات مجمع شنت ياقب Santiago عام ١٢٨٩ م ، أن  
من الشائع بين رجال الدين في المدينة ، أن يعيشوا على نحو ما يعيش العلمانيون ،  
يرتدون أفخر الثياب ، ويأكلون في الحانات ، ويلعبون « الزهر » علانية ،  
ويحملون الأسلحة ، ويأخذون بحظهم من حياة الليل ، ويتشاجرون مع

الأهالي والجنود ، وهذا المجمع نفسه أصدر قراراً بمنع رجال الدين من اتخاذ العشيقات علانية : ومن أن يؤمنوا أنفسهم على كتابة الرقى ، أو قراءة الطالع ... » .

« وفي عام ١٦٨٠ م ، أصدر مجلس سيورية قراراً يحول بين أبناء الرهبان من عشيقاتهم وبين أن يرثوا آباءهم . لكي يحول بين نساء أخريات مستقيمات : أرامل وعذراوات ، أن يصبحن لهم عشيقات ، وأن يقعن في الخطيئة ... » . وبعد سبعة أعوام أصدر مجلس بريغيسكا قراراً بمعاقبة أى امرأة تصبح علناً عشيقة لواحد من رجال الدين ... تعاقب في كل مرة تستسلم فيها له . » .

وتمضى بنا الكاتب إلى القرن الخامس عشر فيقرر : « إن عدداً كبيراً من الأديرة لم يكن إلا موضعاً لحياة اللذاعة والمرح ، وعدد كبير من أديرة الراهبات سقط إلى الخضيض . وإذا لم تصبح بيوتاً للمداعرة فعلاً ، فقد كان بينها وبين أن تصبح كذلك خطوة واحدة . » . وخلال حصار مدينة فوسة Fosa ، في الشمال الشرقى من إسبانيا . عام ١٤٦٢ ، وجهت رئيسة الدير توبيخاً لقائد الجيش المحاصر . لأنه سمح لضباطه بأن ينسوا واجباتهم العسكرية : وأن يمضوا الليل مستمتعين في دير « سنتا كلارا » للراهبات ، وكان خارج أسوار المدينة . وبعد ذلك بأعوام طلب المطران مساعدة السلطات المدنية لكي تساعد على طرد راهبات هذا الدير بالقوة ، ماعدا الرئيسة ، لأنها وحدها حافظت على كرامتها بين هؤلاء الراهبات للرجسات ، وقد أوقعن الرعب في قلب رئيسة الدير ، وأصبحت عملياً أسيرة الدين ... » .

« وتكرر في أديرة كثيرة ، في قشتالة وأرجون ، المشهد الذي حدث في فوسة » . وقد دافع رهبان منمنمة عن أنفسهم مستخدمين كل شيء حتى الأسلحة ، قبل أن يغادروا الدير : بينما الرهبان الفرنسيون في المدينة نفسها خرجوا يحرقون في الشوارع رفقة عشيقاتهم : أما رهبان طابطة

فقد خرجوا في مشهد ديني ، يطوفون الشوارع ، ويرفعون الصليبان ،  
ويترنمون بنشيد الخروج .. وأخيراً فإن ما يقرب من ٤٠٠ راهب أندلسي  
هددوا بأنهم سوف يهاجرون إلى شمال إفريقيا ، ويعتقدون الإسلام ، قبل  
أن يتخلوا عن عشيقاتهم» (٢٨)

ومضى المؤلف يعدد أحداثاً أخرى كثيرة من هذا القبيل ، ويطول في  
الحديث لو أشرت إليها جميعاً ، ولكنني أكتفي منها بما أوردت وأدعها  
إلى حديث آخر . ففي العام الذي سقطت فيه دولة الإسلام في الأندلس ،  
٢ يناير ١٤٩٢ ، كانت الملكة إيزابيلا تستقبل مغامراً إيطالياً يدعى كولون ،  
أو كولومبوس ، يعرض عليها مغامرة يريد لها تمويلًا ، وقبلت الملكة ،  
ومضى كولون في مغامرته ، وكانت النهاية اكتشاف العالم الجديد ، ومعه  
أصبحت إسبانيا أقوى دولة في العالم ، لانتعش الشمس عن أملاكها ، كما قيل  
عن بريطانيا فيما بعد ، وتدفق الإشباني على العالم الجديد ، وبخاصة من  
مقاطعة الجوف ، في الجنوب الغربي من إسبانيا ، « بعض القرى خلت من  
الرجال تماماً ، ولم يعد فيها غير النساء ، يلقيها ظلام صيفي وشقاء  
مرعب ، وملل يتجاوز الوصف . . . نساء تعسات ، حياتهن جافة  
ومنسيات ، لا أمل لهن أن يرين أزواجهن مرة أخرى ، دون أن يعنى  
هذا أن إحساسهن بحاجتهن الجنسية قد هدا ، وحوهن في كل مكان  
تظاهرات دينية : صلوات ، ودعوات ، وسحر .

والحقيقة المرة أن رجال الدين أصبحوا سادة « الفراخ » ، كثيرون  
عرفوا كيف يقاومون الرغبة في داخلهم ، وليسوا جميعاً . . . إن  
العناصر التي تتركب منها الشهوة بسيطة للغاية ، بسيطة مثل ذكاء أولئك  
الأشقياء أنفسهم : قليل من الدين ، وكثير من الهيجان ، يتخفى  
تحت ستار الكهانة ، وجسد يلتهب شهوة ورغبة . وفي مدينة  
يرينا Llerena ، وما يتبعها من قرى ، قام ثمانية من رجال الدين ،  
في مطلع القرن العاشر ، أطلقوا على أنفسهم اسم « المتنورين » وجوهر معاملتهم

أحط ما عرف من اتجاهات الفرق الدينية ، ، لأن دعوتهم لا تذهب إلى أبعد من إشباع شهواتهم الحسية ، وقد استطاع أحدهم ، الأب تشاميثو Chamizo أن يهتك عرض ثلاثين امرأة ، ممن يملكن على يديه مبادئ الدعوة الجديدة ، وربما كان ينقص هؤلاء ، وغيرهن ممن لقين المصير نفسه ، القدرة على إدراك الانحراف الذى يكمن وراء هذه الدعوة ، ولكن من المؤكد أنهن وجدن فيها فسحة ليشبعن رغباتهن ، وقد تركت الأساليب التى اتبعت معهن إصراراً وهوساً واضحاً فهن جميعاً .

ونبت يريتنا كان واحداً من أشد الحالات شهرة ، ولو أنه جاء متأخراً بالنسبة لحوادث أخرى . وكانت قضية هؤلاء « المتنورين » تعلق المسؤولين منذ زمن . وأول « متنور » فى زمن الكاردينال ثيسنبروس ، كان من طائفة الكاثوليك الفرنسيين وكان يدعى أوكانيا Ocarina ، وادعى أنه يتلقى الوحي . وأن الوحي أشار عليه بأن يضامع ألواناً من النساء ، لكى يحصلن منه بأنبياء . وقد انتهى به المطاف إلى سجن تحت الأرض ، ومالبث أن سارع بالارتداد عن دعواه (٢٩)

وتكشف إسبانيا أمريكا . وتصبح هذه من أملاك التاج الإسباني ، ويتدفق عليها الإسبان من كل لون ، مغامرون ومقاتلون ولصوص وجرمون وباحثون عن الثراء ، ومعهم أحياناً قبلهم رجال دين ينشرون الكاثوليكية هناك بين سكان العالم الجديد ، وما كان من هؤلاء فيما وراء الإطلنطى شئ فوق التصور ، كأنما كانوا غرائز انطلقت من عقابها . لا تهدد منها تقاليد ولا حدود ولا قيم . وقد صورت الكاتبة البيروانية كلورندا ماتو Clorinda Matto ، وهى كاثوليكية ، فى روايتها : « طيور لا عش لها Aves sin Nido » فى دقة واقعية شيئاً مما حدث ، فأسعدت الرواية تدور فى قرية ريفية فى بيرو ، وثمة امرأة من هنود أمريكا تعيش فى حماية زوجين من البيض ، والسكن القسيس والحاكم والرئيس

السيامي طمعوا جميعاً في زوجة الرجل الهندي وبنتيه ، واستطاعوا أخيراً أن يقنعوا السكان بالهجوم على منزلهم وتدميره ، ودفاعاً عن بيته قتل الرجل الهندي وزوجه ، وخلف وراءه بنتين عشق ابن الحاكم إحداهما ، وعند ما أراد أن يتزوج منها لم يستطع ، فقد اكتشف أنهما أخوان ، لأن القسيس كان أباً لهما ، أباً غير شرعي ، لأنه كان عشيقاً لزوجة الهندي وزوجة الحاكم معا .

تلك وقائع أوردها كتاب إسبان معاصرون وكاثوليك ، ولنا عليها محفوظان : أولهما أن ما كان يحدث أسوأ بكثير مما تحدثوا عنه ، وأعرف قراءة وواقعاً ما هو أشد تهتكاً . وثانيهما أننا لا نقع في الخطأ الذي يقعون فيه تعصبا ، فنرى رجال الدين في المسيحية كلهم كذلك ، لأنني شخصياً أعرف بينهم أناساً يملأ الإيمان قلوبهم ، وتتميز حياتهم بالظهر ، ووهبوا قواهم ونشاطهم لكل ما هو فاضل وجميل في الحياة .

\*\*\*

إن ربط العفة بالمسيحية ، والتبذل بالإسلام ، فضلا عن مخالفته للواقع التاريخي يتنافى مع بسائط أي منهج علمي ، مثله في ذلك : القول بأن مسلمي الأندلس الذين انحدروا من أصول رومانية ، كانوا أرقى في عواطفهم من الذين عبروا إليه المضيق فانحين أو وافدين ۞ إن المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام في الأندلس ، فقدوا شيئاً فشيئاً الإحساس بأصولهم التي انحدروا منها ، حتى أن بعضهم صنع له شجرة نسب عربية ، ترفعه إلى قبائل معروفة ومشهورة ، مقابل أثمان دفعوها ذهباً . وحافظ آخرون على ألقابهم الرومانية الأولى ، فكان هناك بنو أنجلين Banu Angelino وبنو شبريق Banu Sabrico في إشبيلية (٣٠) . وما كان المرء يستطيع أن يفرق بين الذين صنعوا لهم نسباً عربياً ، والذين احتفظوا بألقابهم الرومانية ، وبين الوافدين على الأندلس ، عرباً أو بربراً ، لقد صنعهم الإسلام على هواه ، وصاغ منهم مجتمعا متجانسا .

ويأتى أميركو كاسترو Americo Castro ، أحد كبار المفكرين الإسبان المعاصرين ، فيزيد الأمر دقة ووضوحاً : « إن تحليل دم الأندلسيين عمل علماء الأحياء ، وليس من صناعة المؤرخين . فلم يكن الأندلسيون ( يعنى بهم الماليك المسيحية فى شمال الأندلس ) إسبانيا ، ولم يشعروا بهذه الإسبانية أبداً قبل القرن الثالث عشر الميلادى ، وكان الذين يتقاتلون أو يتواديون على بطحاء الأندلس ، إما مسلمون أو مسيحيون » . « إن تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية فى العصور الوسطى ، لا يمكن أن يرى بوضوح : مادام ثمة مستشرقون كبار ، وآخرون غير مستشرقين ، يواصلون الحديث عن « جنس إسباني » واصل وجوده فى إسبانيا وراء اثنين هم من دم عربي » . « إن المستشرقين الإسبان يطبقون مفهوم الإسبانية على كل الأندلس ، مهما تكن الأجيال التى تفصل بين الأندلسيين المسلمين وأصولهم المسيحية ، فإذا ذهب مسلمو الأندلس ليقاتلوا فى المغرب سجدوا لإسبانيا ، وابن حزم إسباني ، وتغايب هذه الفكرة يعنى أن المسلمين تنقصهم الشخصية التاريخية الصريحة ، فهم جميعاً يصبحون بربراً فى المغرب ، ومصريين على ضفاف النيل » . ثم ينتهى إلى هذا القانون الاجتماعى : « الذين يتكلمون لغة جماعة إنسانية ، ويعتقدون دينها . ويطبقون نظمها السياسية والإدارية ، يصبحون جزءاً منها ، مهما كانت الظروف التى عاش فيها أسلافهم » ( ٢١ ) .

أما قول أسين بلاثيوس بأن الحب العذرى نشأ بين بنى عذرة نتيجة تأثير مسيحي ، فينقضه أن بنى عذرة هؤلاء كانوا بدوا ، يأخذون الدين مأخذاً سهلاً ، وقلما يبلغ من عقولهم ونفوسهم مبلغاً قوياً يتأثرون به ، ويكيفون حياتهم وفق مثله ، ولو كانت المسيحية وراء هذه الظاهرة لكان أولى أن تكون على نحو أوضح ، وأسبق ، فى نجران أو الحيرة أو بين الغساسنة ، حيث استقرت المسيحية زمناً ، وباشرت سلطانها على النفوس ، وأصبحت دين الأمرة الحاكمة ردحاً من الزمان .

ويبقى بعد ذلك : أن نشأة الحب العذرى فى الأدب العربى بعامة ،

ما تزال أرضاً بكرّاً تنتظر من يبحثها في ضوء مناهج البحث المتطورة ،  
هنا نصل فيها إلى جديد مقنع ومفيد .

٥ الهوامش والتعليقات :

(١) أسرتنا وأسرة .

(٢) الفحوص : الوديان والسهول والجبال المنخفضة التي تحيط بقرطبة .

(٣) لفظ «عجوز» كان يطلق في الأندلس على أية فتاة متزوجة ، حتى ولو كانت  
شابة ، وما زال هذا المعنى مستخدماً في كل من المغرب والجزائر وتونس حتى الآن .

(٤) فوز صاحبة عباس بن الأحنف .

(٥) أقرأ القصة كاملة في :

ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والآلاف ، ص ١٤٤ وما بعدها ، تحقيق مؤلف هذا  
الكتاب ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٦ .

(٦) Dazy, R. : Histoire des Musulmans d' Espagne, Tomo  
II, pag. 263, Trad. Espagnole, Buenos Aires, 1940 .

(٧) ترجمنا هذه الدراسة إلى اللغة العربية ، وسوف تأخذ طريقها إلى النشر قريباً .

(٨) Juan Valera ( ١٨٢٧-١٩٠٥ ) وواثق إسباني ، وقد ترجم إلى الإسبانية  
كتاب المستشرق الألماني فون شاك : « شعر العرب وفهم في إسبانيا وصقلية » . وشهرت ترجمته  
بأنها ذات لغة رصينة ، وأسلوب أدبي رفيع ، وقد تضمن الكتاب القصة التي نحن بصدها .

(٩) القصة كاملة في : ابن حزم ، طوق الحمامة ، بتحقيقنا ص ١٢٤ .

(١٠) القصة كاملة في المرجع السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(١١) أنظر مثلاً كتاب الأخلاق والسير في مداراة النفوس ، ص ١٠٢ ، وكتاب طوق  
الحمامة بتحقيقنا ص ١٦٥ ، ونص عبارته فيه : ( إن أقسم بالله أجل الأقسام أني ما حلت أمزرى  
على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا ) .

(١٢) الأخلاق والسير ، ص ٨٦ .

(١٣) ديوان ابن قزمان ، ج ١ ص ٢٧٢ ، الزجل رقم ٥٣ ، تحقيق غرسية غوث ،  
مدريد ١٩٧٢ ، والفقه المشار إليها هي :

يشعجب ابن حزم وقتاً يثد

ويشتهي كل حيناً يقصد

فمدحى له من سخاه ويولد :

فاز من جمر وندم من قصر

من كان كريماً في ثنائى يظهر .

(١٤) طرق الحماة ، ص ١٦ ، طبعة دار المعارف ، بتحقيقنا .

(١٥) أورد ابن حزم في كتابه ( طرق الحماة ) ، لكل واحدة من هذه الحالات ، أنظر :

الفصل ١ ، ص ٥ - ١١ ، والفصل ١٠ ص ٣٠ - ٣١ ، والفصل ٢٥ ص ١٨ ، ٩٤ ، والفصل

٢٦ ص ٩٥ - ٩٦ ، والفصل ٢٨ ص ١٠٧ - ١١٣ .

(١٦) هكذا في الأصل ، وأظنها حلوة ، وهذا المعنى الأخير ترجعها أسرين بلاثوس .

(١٧) المرجع السابق ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(١٨) الأصل المسيحي لفظة ورد في كتاب « حياة الآباء Vitae Patrum » من تأليف

Rosweyde وأورد ابن حزم مفصلة في كتابه « طرق الحماة » ص ١٨٥ طبعة دار المعارف

بحقيقنا ويلاحظ أن الذى روى القصة لابن حزم طبيب يهودى .

(١٩) أنظر بقية رأيه في كتابه : ابن حزم القرطبي ، الجزء الأول ، وقد ترجعناه إلى

اللغة العربية وسوف ينشر قريباً .

(20) William C. Atkinson : Histoire d'Espagne et du Portugal.

p. 81, Paris 1995 .

(٢١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ٥١ .

(22) Maranon Gregorio : Ensayo Biologica sobre Enrique

IV, p. 24. 9 edicion, Madred 1960.

(٢٣) المرجع السابق ص ٣٤ ، ٤٩ .

(24) Fornieles Salvador : La Espana del Siglo XVI pag. 88,

Buenos Aires, 1951.

(25) Pfandai Ludwig : Juana la loca, p. 181 ss, Madrid,

1959.

(٢٦) المرجع السابق ص ١٠ .

(27) Maranon, *op. cit.*, p. 107.

(28) *Historia de Espana y América : Social y Economica*, dirigida por : J. Vicens Vives 3 ed. p. 149 ss., Barcelona 1971.

(29) Federico Revilla : *El sexo en La historia de Espana*, p. 158 ss., Barcelona 1975.

(30) Lévi-Provencal, E. : *Espana Musulmana*, p. 47. Madrid, 1950 .

(31) Américo Castro : *La Realidad historica de Espana*, pag. 191 ss., 2 edicion, Mexico, 1962.

## مقدمة لطوق الحمامة •

للفيلسوف الإسباني الكبير : أورتيجا إي جاسيت

صداقتي لإميليو غرسية غومت مترددة : تتأرجح بين أن تكون أخوة وبين أن تكون أبوة ، الأبوة تأتي من أن عمري أكثر اتساعا من عمره ، وتعود الأخوة إلى أن طريقنا واحدة ، وعندما نتحدث عن فلان نتفق .

وعندما يتفق إثنان أو أكثر في رأيهم عن فلان ، يتفقون فيما عدا ذلك ، والعكس صحيح أيضا ، ولا يتطلب الاتفاق ، وحتى لا يفضل ، أن يكون الرأي متطابقا . ولسنا بصدد اتفاق الآراء ، وإنما توافق الحياة ، فليس في الدنيا من تماثل آراؤه مع آخر ، إذا كانت لديه آراء حقا ، لأن الرأي شيء ذاتي للغاية ، وغير قابل للانتقال . وعندما تكون لدينا فكرة مشتركة تأتي المخاطرة الكبرى في ألا تكون رأيا ، وإنما عكس ذلك تماما ، أن تكون شيئا مكرورا ، والشيء المكرور موضع ، والموضع عام ، إنه المكان الذي يتفق فيه الناس كثيرا ، ويتميزون ، وتحفظ عاينهم الأمور ، شيء لا يمكن أن يحدث إلا عندما يصبح الأفراد معادن ، ويفقدون صفتهم الإنسانية ، لأن الرجال في أصلهم ، وحقيقتهم ، اجتماعيون إلى حد كبير . و « المدرسيون » أنفسهم ، وإحساسهم يمثل هذه الموضوعات متواضع للغاية ، يعرفون الشخص بأنه غير قابل للانعزال ، ويرون أن الآراء يمكن أن تختلف إلى حد بعيد ، ولكنها تتفق فيما هو وحيد ومهم : في أنها كانت موضع التفكير من نفس المستوى . وأخيرا فإن معاناتنا عندما نتعامل مع الغير ، تجيء عادة من أننا نفكر ونشعر ونحس فوق مستويات مختلفة .

---

• كتب أورتيجا إي جاسيت هذه الدراسة كمقدمة لترجمة الإسبانية ، لكتاب « طوق الحمامة » ، وقام بها المستشرق الإسباني إميليو غرسية غومت ، وصدرت الطبعة الأولى منها عام ١٩٥٢ ، وأعاد نشرها في كتابه « دراسات من الحب » ، وهو كتاب واسع الانتشار ، وبلغت طبعاته في سلسلة واحدة ، حتى كتابة هذه السطور خمس عشرة طبعة ، فيما أعلم . ( المترجم ) .

وهذه بالدقة إحدى الهبات السحرية التي يملكها الحب ، ومنها يتحدث هذا الكتاب في عمق . إليه — مثلاً — تعود الظاهرة الرائعة في أن المرأة عشيق الرجل ، تبدو صفاتها أرفع بكثير من صفاته ، ولاندرى كيف ، ألجود أنه عاشق يرتفع إلى مستواها ، أو العكس . وقد التقط الشاعر الألماني الكبير جوته ، في بيتين من شعره ، في نهاية كتابه الخالد « فاوست » صورة هذا المستوى . فالأنثى الخالدة حقيقة محقة ، وعندما يحب الرجل يرتفع إلى مستواها ، لا بقوة الصعود نفسها ، وإنما بقوة الجذب ، فهو مجذوب إلى عالم أكثر سمواً . ولا ينكر أحد على أن المرأة ، إذا كانت شيئاً ، تكون جذابة ، جذابة بالضرورة ، ولكن جوته يسرعى انتباهنا بأن جاذبيتها دائماً ، دائماً ، قمة .

ما هو أنثوى

يجذبنا إلى أعلى

وبذلك سقطنا من باب مسحور في عمق هذا الكتاب ، وقد بذل إميليو غرسية غوث جهداً كبيراً ومضنياً في ترجمته ، وهو دين في عني الإسباني نهض به متعاونين ، لأن هذا الكتاب أروع ما خط عن الحب في الحضارة الإسلامية ، ولأنه وليد فكر وحياة إسبانيين ، وكتبه عربي « إسباني » على أرض إسبانية ، وقد ترجم من زمن إلى لغات أخرى ، ولكن أحداً لم يجرؤ قبل غرسية غوث على أن يمسك بمادته ، ويدفع بها خلال اللغة الإسبانية .

ومن الواضح أنني حين أدعوا بن حزم عربياً إسبانياً ، فلأنما أنسبه إلى العربية جداً ، وإلى الإسبانية بصورة غير مجدية ، ودون أن أحول بين الآخرين وبين أن يصنعوا ما يخطر لهم ، ولست مستعداً من جانبي أن أعامر فأدعو « إسبانيا » في جلدية كل من يولد على أرض شبه الجزيرة الإيبيرية ، حتى ولو كان من دم إيبيري أصلاً ، وحتى لو كان قد عاش فيها كل حياته . فالأرض والجبلية الدموية تأتي في آخر قائمة الخصائص التي يمكن أن تحدد قومية الإنسان . لأن هذه خلاصة الواقع التاريخي ، وإنما تكون لهذا فعالية فحسب ، حين تحتلان منه المكان الأول ، قبل كل الخصائص الأخرى . والدليل عليه ، بسيطاً وشهيراً ،

بتمثل في أن بالإمكان أن يصبح المرء إسبانياً ، بأقصى ما تحتماه الكلمة من معنى ، دون أن يكون قد رأى الأرض الإسبانية مطلقاً . وعلى النقيض ، يمكن أن يكونه ، وبالمستوى نفسه ، دون أن تجرى في عروقه نقطة من دم ، جزسنا ، أو فيه منه شيء قليل للغاية .

ويصدق ذلك في عصرنا الآن ، لأن إسبانيا ، منذ وقت طويل ، حققت كامل قوميتها ، أعظم بكثير جداً عما كانت عليه خلال القرنين العاشر والحادي عشر ، عندما بدأ الشيء الذي يدعى «إسبانيا» ينبثق فحسب . وكل هذه الصفات القومية تعني ، إذا أخذت بمعناها الدقيقة ، الانتماء الأصل للمجتمع محدد ، وكان مجتمع الأندلس العربي مختلفاً ، وشيئاً آخر غير المجتمع ، أو المجتمعات غير العربية ، التي كانت تسكن إسبانيا إذ ذاك (١) .

ولكن ذلك لا يلغي ، كما قلت ، علاقاتنا مع عرب الأندلس ، أو الإشبانيين ، ولا يعفينا من بعض الواجبات فيما يتصل بتاريخهم : واجبات عمادها ، في النهاية ، الفائدة التي تعود علينا من وراء القيام بها ، لأننا بهذا نغذي ذات جوهرنا ، ونثرى حاضرتنا ، ونعلى من قدر إسبانيتنا . لأن مجتمعنا عايش على امتداد قرون طويلة هذا المجتمع الأندلسي ، وجهاً لوجه ، في احتكاك مباشر ، من للقبيلات والمهام ، والأخذ والعطاء ، والتأثير والتأثر . وإحدى المجلات الكبيرة التي تعيب الدراسات التاريخية أنها في أوج تقدمها ، لم تستطع أن تجاو ، ولو من بعيد ، حقيقة العلاقات بين كلا المجتمعين : وذلك هو سبب التراجع المنطوف بين الآراء ، عن التأثيرات بين جانب وآخر ، والذي أشار إليه غرسيمة غومث في مقدمته . ومن الحق أن نعترف بأن المستشرقين الإسبان ، ابتداء من خوليان ريبيرا ، تقدموا خطوات هامة على طريق المحاولة ، وأظهروا في دقة كبيرة كيف تعايش

---

(١) لكي لا تبقى الفكرة غامضة ، أضيف أنني أنهم من «مجتمع» مجموعة من البشر يحكمها نظام معين من العادات .

الأندلسيون والإسبان ، ولكن القضية لا يمكن أن تقدم كثيراً إذا لم تؤخذ على نحو أكثر عمقا . ومن الضروري يمكن في الحقيقة أن نحدد بالدقة تركيب المجتمعين ، تحديداً منفصلاً وجيداً ، لكي نستطيع فيما بعد أن نظهر التكامل والتلاقى بينهما .

ومع ذلك ، لا يمكن أن نفهم بالقضية عند حدود إسبانيا وحدها ، فهي أكثر اتساعاً ، لأن الجانب الأكبر من أوروبا كانت له أيضاً صلات مستمرة مع الحضارة العربية ، وتجاوز مباشرة معها ، ولكن المؤرخين الأجانب أيضاً لم يسكبوا شيئاً من الوضوح فوق هذا العمل ، وهو إحدى الحقائق الكبرى في تاريخ الغرب ، وكان ذلك التقصير أحد الأسباب الجوهرية التي عاقت الذكاء الأوروبي الوسيط . وليس ممكناً أن نفهم حدثاً تاريخياً ، مهما يكن ، إذا لم نتجسس في تأمله من وجهة النظر التي تظهر ، على نحو أفضل ، معناه الأكثر دقة ، أى من تلك التي تدرك متدوقة ، وبكل طاقها ، مساحة الواقع الإنساني التي ينتسب إليها الحدث التاريخي . وكل نظرة إلى الواقع من خلال مساحة جزئية ، مهما تكن عميقة ، يشوهه أو يزيفه آلياً . وعلى أية حال فنجد أعوام طويلة ، وإميليو غرسيه غومث شاهد عظيم على ، وأنا أرى أن العصر الأوروبي الوسيط لا يمكن أن يرى بوضوح إذا نظرنا إليه وقد ركزنا تاريخ تلك القرون في تطور المجتمعات المسيحية وحدها .

إن العصر الأوروبي الوسيط ، في حقيقته ، لا ينفصل عن الحضارة الإسلامية ، لأنه يقوم بالدقة على التعايش ، إيجاباً وسلباً في الوقت نفسه ، بين المسيحية والإسلام ، فوق رقعة مشتركة ، مشبعة بالحضارة الإغريقية الرومانية ، ومن هنا فإن وجهة النظر الوحيدة المناسبة من عدم المبالاة أمام هذين المنحدرين من حياة العصر الوسيط ، متأملين ظاهرها المزدوج ، واختلافها وحدة واتفاقاً ، يحملان في داخلهما نموذجين مختلفين : والسبب القوي في هذا أن كلا العالمين المسيحي والإسلامي وجهان لعالم جغرافي واحد ،

يشكل تاريخياً من الثقافة الإغريقية الرومانية ، والإسلام نفسه يحى امتداداً للمسيحية (وناسخاً لها ! ) (١) ولكن هذا الامتداد ما كان ممكناً أن يتضح بدوره لولم تتلاق الشعوب الأوربية والشعوب العربية ، على مساحة احتلتها الإمبراطورية الرومانية على امتداد قرون من الزمان . فالعرب والجرمان شعوب خارجية ، تعيش على حافة هذه الإمبراطورية ، وتاريخ العصور الوسطى هو تاريخ ما يجري بين هذين الشعبين ، تبعاً لتوغلهم في عالم الإمبراطورية الرومانية : مقيمين فيه ، ومغتصبين جوانب من ثقافته ، جامعة ونخوة . والمهر الوسيط ، في جانب منه ، نبت من التلقى الملاق ، تلقى الشعوب ذات الثقافة البدائية للثقافة القديمة ، والعوايق المسيحية للإسلام ليست إلا حالة خاصة في مجال هذا التلقى ، أحدثته نفس الآلة التاريخية التي حملت عرب القرن التاسع على تلقي أرمطو وأبقراط وجالينو وإقليدس وديوفانوطلميوس ، وما أكثر ما نفسى ، أن العرب قبل محمد عاشوا سبعة قرون تحيط بهم من كل الجوانب شعوب كانت ، في قليل أو كثير ، مشبعة بالثقافة الهلينية ، وعاشت تحت الإدارة الرومانية ، لا في سوريا فحسب ، حيث هبت فوق العرب عاصفة التديم الكبرى ، وإنما في فارس وبكتريا والهند . وعلى النقيض من ذلك ، ظلت أوروبا في جانبها الشمالى متحررة من التأثير الإغريقى الرومانى ، واستطاعت أن تحتفظ لزمن أطول بأصولها البدائية سالمة .

أطوار هذا التلقى تتشابه في البدء كثيراً ، والاختلاف الوحيد في تلك الفترة ، وهوهم دون شك ، يتمثل في أن العرب تقوا ( القديم ) في شكاه الإمبراطورى الرومانى الشرقى ، وتلقاه الأوربيون في صيغته الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وأدى هذا — مثلاً — إلى أن العرب استطاعوا في مرة فائقة أن يكون لهم أرسطو الخاص بهم ، وعلى النقيض

(١) الإضافة التي بين القوسين من على . لتوافق الجلسة وجهة النظر الإسلامية

فلان المسيحية التي جاورت الإسلام كانت الفسطورية ، ومسيحية القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح ، وهما وجهان قديمان للعقيدة المسيحية . وفي الأطوار التالية أخذ التلقى شيئاً فشيئاً ملامح أكثر تميزاً ، إلى أن توقف في القرن الثالث عشر بين العرب ، فجمعت حضارتهم وتنجرت ، وقنعت بالقرآن ، وركنت إلى الصحراء ، ولأن الصحراء تطوق العالم الإسلامي من الشرق والجنوب كانت تدفع فوقه من حين لآخر بموجات من التمسك العنيف بالدين ، وكان البدو حملتها ، وآخر الموجات وصولاً ، وحدثت من قريب حركة الوهابيين في نجد ، وقد أطبقت بانتهاء الحرب العالمية الأولى ، وبقيادة ابن سعود ، على الجزيرة العربية ، واستولت على مدينتي مكة والمدينة .

فكرت في إذن أنه عندما بدأ ما يدعى بالعصر اللومبيط ، كانت الجرمانية والعربية جسمين تاريخيين متجانسين إلى حد بعيد ، فيما يشكل اللبنة الأولى لحياتهما ، وفيما بعد ، شيئاً فشيئاً ، أخذتا يتمايزان تدريجياً إلى أن وصلا في هذه القرون الأخيرة إلى تباين جذري . والرأي المعارض ، وهو الشائع دفع به جيل تلقائي بلا تفكير ، وهو شيء يحدث كثيراً في عالم المؤرخين ، لأنهم رسموا لتلك القرون صورة بالغة الخلف عما نجده الآن عند مجموعة هذه الشعوب أوتلك . ولكن ذلك بدوره ما كان ليوقع لوتعت تحليلياً عملية إعادة بناء التركيب الأسامي للحياة الإنسانية في العصر الوسيط ، إذن لبدا لهم ساعتهما إلى أي مدى كان حاسماً ، في تكييف سلوك الإنسان وفي الحياة ، واقع أن شعوباً ذات ثقافة بدائية واحدة ، جاءت لتعيش في حيز اجتماعي ، حيز الإمبراطورية الرومانية ، حيث سبقت إلى الوجود حضارة وصلت إلى آخر مراحل نموها ، وبالتالي أوج تعقدها وصقائها . ولحسن الحظ فإن هذه الحضارة توقف نموها ، وشاخت ، وبلغت قدراً كبيراً من الانحطاط ، وبالتالي فقدت بالضرورة جانباً كبيراً من ثرائها الوفير ، وعادت اختصاراً لما كانت عليه في سابق أيامها . تذكر مثلاً ، في المجال الثقافي ، الثقافة

الإغريقية الرومانية قريباً من القرن الثامن الميلادي ، لقد انحصرت وتركزت  
الملخصات والموسوعات والمناجم ، ولولم تكن هكذا لأصبح الصدام ،  
وبدءوه اليوم علماء الأجناس البشرية من الأجلاوسا كسون الاصطدام  
الثقافي ، مفرطاً وعتيفاً ومختلف النتائج إلى حد بعيد ، ولضاعت الشعوب  
الجديدة كما لو كانت في غابة مرعبة من فيض الحياة الكلاسيكية . ولحسن  
الحظ : وأعيد القول : فإن هذه تعرضت للاختصار ، على نحو مافي طبعاات  
الدلفين ، سواء أكان الدلفين عربياً أم جرمانياً (١) .

ونصل الآن إلى الملاحظة المشمرة حقاً ، ومعها نضع يدنا على مفتاح  
ذكاء العصر الوسيط ، ولم نر أبدأ من عبر عنه . فالثقافة الكلاسيكية حتى  
وهي متقلصة ، وجفت أنسجتها ، كانت ترمز إلى مجموعة من أشكال حياة  
بالغة التعقيد إلى حد بعيد ، وأرق من الحياة التقليدية لتلك الشعوب المغيرة ،  
ولم يستطع الجرمانى ولا العربى فهمه جيداً ، لا لأنها معتقدة ورقيقة  
فحسب ، ولكن لأنها انحدرت من أصول بعيدة عنهما ، أوحى بهما  
تجارب تاريخية تختلف عن تجاربهما ، ولكنها من جانب آخر فرضت عليهما  
في بعض الحالات لأسباب عملية ، كما في الإدارة ، ودائماً بسبب مكانتها  
الفريدة . ولست أعرف ، أخيراً ، ما إذا كان يمكن القول بأن الإمبراطورية  
الرومانية كانت الحدث الأعظم أهمية في التاريخ حتى وقتنا هذا ، ولكنى  
لا أرى مبالغة القول بأن ما كان لها من مكانة ، وقوة شديدة التماسك لما يزل  
يلقى بشقاء عايناً . ويمكن القول أن هذا أدى إلى ازدواجية درامية في أسس  
حياة العصر الوسيط نفسها ، عندما التقى الجرمانى والعربى في مجموعتين  
مختلفتين من الأشكال أمامه ، وكل واحدة منهما مثل مجرى ، تغرى الإنسان

١ - الدلفين لقب كان يطلق في فرنسا الملكية على ولي العهد منذ عام ١٤٢٩ م ، ثم  
أصبح يطلق على الضباط الممتازة للأدب الكلاسيكى اللاتينى التى تطبع ليستخدمها الدلفين ،  
ابن نوبس الرابع عشر ، وكانت تحذف منها النصوص ذات المجون الشيق ، وتطلق  
الآن صخرية على الطبعات التى تخضع لرقابة المكتبة أو غيرها .

بأن يتدفق معها عبر سلوكه الحياتي . والأنماط الموروثة من ماضيه تكشف ، على الأقل ، عن حياته اليومية ، ولكن هذه لا تترك الأثر بأنها « حياة » ، لأنها عادة خالصة ، وعندما نخرج عن عاداتنا التي اكتسبناها عن طريق العادة الخالصة فحسب ، ولا نقف عندها آلياً ؛ نصنع قضية « الحياة » ، وعندما نبحث عن النقيض المقابل « للحياة المعتادة » نبحث عن « الحياة كما يجب » . وأشكال الحياة الإغريقية الرومانية تبدو ، لمكانتها ، أمام الشعوب الجديدة في ملامح « الحياة كما يجب » في مواجهة « الحياة كما هي عادة » ، ولهذا كانت الحياة في العصر الوسيط بالغة الإثارة . لأنها حياة من طابقين دون انسجام كاف بينهما ، فهناك في أسفل طابق العادات القديمة المتأصلة ، وفوقها طابق السلوك النموذجي ، ذلك يعاش حقيقة ، وتلقائياً ، وهذا سلسلة اندفاعات مقلدة ، والعلاقة بين الإنسان وما يصنع ليست في التلقائية ، ولا في هذا الإحساس الصادق ، وإنما في الرغبة أن يكون غير ما هو

كائن . فالجرمان والعرب عكفوا على تقليد الإغريق والرومان ، في محاولة لصياغة أشكال حياتهم في الإدارة والقانون ومفهوم الدولة والعلم والشعر (١) . والدين نفسه أخذ عندهم جوانب مثيرة من الانسجام مع البديهة . فالإسلام امتداد للمسيحية ، بطريقة مغلقة مغلقة للدين الذي يعيش في الصحراء ، ومسيحية الجرمانى أيضاً ليست إلا تقليداً لمسيحية آباء الكنيسة .

هذا التركيب الأساسي لحياة العصر الوسيط كان وراء حدث بالغ الإثارة والروعة ، وراء المدرسين مثلاً ؛ أعنى وراء الفلسفة التي غرسها الجامعات الغربية بقوة خلال ذلك العصر ، وهو حدث مازال ينتظر من يجلو غوامضه ، لأن أحداً لم ينظر إليه حتى الآن في ضوء « فلسفات »

١ - لا أود بهذا أن أقول أن كليهما متساويان في الإفادة من هذه الفروع ، فعلى حين أن العرب - مثلاً - تشرّبوا العلوم الهلينية في الحال ، ظلوا جامدين في مواجهة الشعر القديم ، وكان الأوروبيون على النقيض منهم تماماً .

مدرسية ، أخرى كثيرة . وما شهر بهذا الاسم ليس إلا حالة خاصة في طبقة تاريخية واحدة ، من المدرسية في طابعها الشامل ، وأثمرت ولا تزال تعطى ثمارها في كثير من العصور والأمكنة . وتطابق المدرسية على كل فلسفة متلقاة ، في مواجهة كل فلسفة مبدعة ، وأطلق لفظ « متلقاة » على كل فلسفة تنتمي إلى محيط ثقافي مختلف ، ويبتعد في الحيز الاجتماعي أو الزمن التاريخي ، عن الفلسفة التي يتعلمها أو يطبقها .

والذين يجهلون من أية مادة تتكون الآراء يعتقدون في سهولة تسربها من شعب إلى آخر ، ومن عصر سابق إلى عصر لاحق ، يجهلون أن ما هو أطول حياة في هذه الآراء ليس ما نفكر فيه بوضوح ، ثم يجيئ ثمرة الإحساس بالتفكير فيه ، وإنما الغاية التي نفكر في ظلها ، ومما يبقى مما ذكرنا عند استخدامها . وهذه العناصر غير المرئية ، والخفية ، هي أحياناً نسيج شعب تكون خلال آلاف الأعوام . وهذا العمق النابض بالآراء ، والذي يبقى عليها فياضة ومغذية ، لا يمكن أن ينتقل ، كأي شيء هو حياة إنسانية حقيقية . إن الحياة لا تنتقل أبداً ، لأنها قدر تاريخي !

الانتقال الكامل للآراء خادع إذن ، إنما ينتقل « الساق » ، و « الزهر » فحسب ، وربما متديلاً من الأغصان ، ثمرة تلك السنة ، وهو الشيء النافع منها في تلك اللحظة مباشرة . ولكن في تربة المصدر ما هو حي من الآراء ، يبقى جذرها ، والنبت الإنساني أقل قابلية للانتقال من الأشجار بكثير ، إنه تحديد مرعب ، ولكنه حتمي ومأسوي ! .

والادعاء بأن أولئك الرهبان من ذوى الرؤوس الحليقة ، كانوا قادرين على إدراك المفاهيم الإغريقية ، كفكرة الوجود مثلاً ، جهل بالبعد المأسوي الذي يصحب الحدث التاريخي كالتحيط الأحمر يحضى مع كل حبال البحرية البريطانية . وعندما تلقى فلسفة بعيدة عنا ، فإن الجهد العقلي يستغل قيادته ويعمل ، لا لكي يفهم المشكلات ، والأشياء كما هي ، وإنما لكي يصل

لهم ما فكر فيه آخرون حولها ، وعبروا عنه في تعريفات معينة . والتعريف ليس كلمة من اللغة ، وإنما رمز مصطنع ، ولهذا لا يفهم دون زيادة . وقد وضع بمقتضى تحديد ما ، ويجب أن نصل إليه وفي ذهننا هذا ، وهو بدوره مكون من ألفاظ ، ومن هنا فإن « المدرسية » كلها ليست إلا تجريداً للمعرفة لتصبح مجرد مصطلح (١) .

ولم يكن أوائل « المدرسين » رهبان الغرب ، وإنما هرب المشرق ، فقد تعلم توماس الإكويني على أرسطو عن طريق ابن سينا وابن رشد ، وفضلاً عن ذلك فإن ملامح المدرسية أشد وضوحاً في الحضارة الإسلامية منها عند الشعوب الأوروبية الوسيطة . وهذه الشعوب ، حتى وهي في دور المراهقة ، كانت تملك منذ زمن مبكر جداً ، ربما بفضل تركيبها الجرماني ، أسلوباً خالفاً لم يكن عند العرب أبداً ، ولهذا تجمد هؤلاء في اللحظة التي توقفوا فيها عن التلقى . وما يهمنا هنا إبراز الطابع المدرسي المشترك بين الحضارتين ، والذي يعود إلى التكوين المزدوج ، غير الطبيعي ، للحياة الإنسانية خلال العصر الوسيط . ليس من الحتم ، إذن ، أن نبحث عن سبب هذا الطابع في نزوعات سلاوية مزعومة ، لأن « النوع » في إحدى المجموعتين من الشعوب ، يختلف عنه في المجموعة الأخرى ، ولكن كليهما خضع لضغط الظروف الأساسية نفسها : ظروف الحياة فوق تربة تحتلها ثقافة عظيمة ، وغربية عليه .

هذا الرأي عن الحياة في العصور الوسطى هو ، لا أكثر ولا أقل ، ما يجب أن يكون عليه أى رأى ، أى مشروع مربعات هائلة ، علينا أن نخلط فوقها واقع الحياة العربية الأندلسية ، وليست إلا كتاب الحب هذا ، وقد نسجته يراع ابن حزم . لأن الكتب ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، أعمال الرجال ،

١ - استخدم هنا فقرات من كتابي « فكرة المبدأ عند ليجنز وتطور نظرية الاستدلال » ومن ثم فإن « الإنسانية » عدوة « المدرسية » لم تكن بدورها إلا مدرسية ، ذات شمار مختلف ، ولكن النتائج متشابهة ، ولا تزال تلقى بثقلها على العقل الأوربي .

وليست زوائده نباتية في الأشجار ، أو رواسب جوية : وقد وقف الكتاب على الحب ، وفي منهج حديث ، على نحو ما أذعن وأصر عليه من زمن طويل ، وأول ما يتطلبه الكمال أمام نص أن تضع نفسك في موقف واضح من الشيء الذي يتحدث عنه . من الضروري أن تنتهي من هذا التحديد اللغوي الحرفي المختلط ، واعتقد أنه أدى مهمته في ربط نص بآخر ، وهكذا إلى ثم ما لا نهاية ، ونحن نطلب تحديداً لغوياً عملياً ، ومن ثم يجب أن نبدأ ، أمام هذا الكتاب العتيق : وقد شغل بالمهمة الإنسانية العظمى ، التي تسمى الحب ، بأن توضح قليلاً ماهية هذا الشيء . ولكن ذلك مستحيل الآن ، وهنا ، لأنه يحملنا بعيداً فحسب ، وليس من المناسب كتابة رسالة أخرى عن الموضوع الذي تعمق فيه القرطبي الصالح ، بل لأن كثيرين من حولنا الآن مقتنعون تماماً بأن العالم خلق لصالح الراهبات ، والحديث عن الحب حرام Tabu ، كما لو كان شيئاً شاذاً ، مرضاً تفجر في هذا العالم ، وهؤلاء الناس يزعمون السيطرة عليه لصالحهم ، ووفق طموحهم .

أول فضول أحسست به ، وأنا أطل بين صفحات « طوق الحمامة » ، تقصى ما إذا كان الحب عند العرب نفس الحب الذي بيننا . والظن بأن ظاهرة كالحب ، موعة في الإنسانية ، وجدت دائماً ، وتوجد إلى الأبد ، على صورة مماثلة ، خطأ فادح ، كالاعتقاد بأن الإنسان ، مثل المعدن والنبات والحيوان ، له طبيعة ثابتة ودائمة ، وجهل بأن كل شيء فيه تاريخي . نعم ، كل شيء فيه ، حتى ما يتسمى منه فعلاً للطبيعة ، كما هو الحال فيما ندعوه غرائز .

وليس ثمة شك أنه يوجد في الإيمان - وشكراً لله ! - مجموعة باقية من الغرائز ، بينها هذه الجاذبية الجنسية المثيرة بين شخص وآخر . ومن الواضح أن ذلك موجود دائماً ، ولكن من الضروري أن تضع في حسابنا أن بقية الغرائز حتى ولو كانت فعالة في الإنسان ، لا تؤثر ولا تعمل منفصلة أبداً . وحتى غريزة « حفظ النوع » ، وهي الأقوى بين كل الغرائز ، تبدو متداخلة مع أشد المواضع غموضاً وإنسانية في نوعيتها ، كالشرف والإيمان بعقيدة

دينية واليأس ، وتستطيع هذه أن توقف عماها . وهذا التوافق بين ما هو  
طبيعى وما هو ثقافى يجعل الغريزة متناقضة ، ويحولها إلى عظمة تاريخية ،  
تولد يوماً لتختفى فى يوم آخر ، وبينهما تعانى من أشد التغيرات عمقا .  
ولسوء الحظ- فإن فهم هذه الحقيقة مضطرب ، لأنها أساسية يجب  
أن تكون متألفة ، وقد جرت العادة ، معيبة ومتأصلة ، أن نطلق كلمة  
الحب وحدها على أشياء بالغة الثباين ، وهو نفس الخطأ حين نطلق كلمة  
شعر فحسب على ما أبدع هوميروس ، وما أنشد فرلين ، على حين أننا ، فى  
الحقيقة ، بصدد اهتمامات لا تكاد تتساوى . وفى الحالة التى نحن  
بصددنا نجد الموقف اللغوى تعسفاً على وجه خاص ؛ لأن كلمة حب amor  
تطلق فى اللغات الرومانشية romances على هذه المجموعة من المشاعر ،  
وهى كلمة ، بالنسبة لنا غامضة إلى حد بعيد ، لأنها تنحدر عن أصل ميت  
لا معنى له ، أخذته لغاتنا من اللاتينية ، ولكن الكلمة ليست لاتينية ،  
لأن الرومان تلقوها بدورهم من لغة الإيتروسك Etrusco (١) ، وهى  
اليوم لغة مجهولة وغامضة . وهذا الواقع اللغوى بليغ جداً بنفسه . ماذا  
يعنى أن يطلق الرومان على حقيقة بالغة الشفافية ، وإنسانية عالميا ، فيما يبدو ،  
مثل التوثر العاطفى ، كلمة ذات أصل أجنبى ؟ هل يعنى هذا أن الرومان  
قبل أن يحضرهم الإيتروسك لم يكونوا يعرفون هذا الشيء الذى كان  
هولاء يطلقون لفظ « حب » ، ومن ثم كان هذا بالنسبة لهم نظاماً جديداً ،  
شيثاً يشبه تغير النسق فى الحياة الخاصة ؟ لو أن شيئاً حدث شبيهاً بهذا ،  
يصبح دليلاً على أن هذا الحديث لغوى . وحينئذ يسأل كل واحد منا نفسه ،  
أى شيطان هذا الذى اخترعه الإيتروسك ، واثكب عليه وصقله أولئك  
الذين تلقوه عنهم ، ولأسباب ترتبط بمعانى الكلمات ، وتخفى علينا ،  
فإن لفظة « حب » تطلق على هذا الهدف السامى . والتاريخ ، إذا عرفنا  
كيف ننظر فيه ، ملئ بأبواب مسحورة مثل هذه . وما يعرف من حياة  
الإيتروسك يوضح فى كفاية أن « الحب » كان فى حياة ذلك الشعب شيئاً

(١) الإيتروسك : شعب مجهول الأصل عاش فى توسكانيا فى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد.

يختلف للغاية عما سوف ينتهى إليه بيتنا ، وربما عندما نطلق لفظ «حب» على مشاعرنا الأكثر دفئاً وصفاء تجاه امرأة ، نطلق عليها دون أن نعرف شيئاً قبيحاً . وكان شعب الإيتروسك واحداً من أشد الشعوب شهوانية على ظهر البسيطة ، وكانت شهوانيته مرعبة ، مغیظة وبائسة ، ولدى أفراد عبقريه أن يموتوا من شدة الشهوة .

فى صفحة ١٥ من كتاب ابن حزم نقرأ هذه الأبيات (١) :

أودك ودأ ليس فيه غضاضة      وبعض مودات الرجال مراب  
وأعضتك النصيح الصريح وفى      الحشى لودك نقش ظاهر وكتاب  
فلو كان فى روحى هواك اقتلعت      ومزق بالكفين عنه إهاب  
ومالى غير الود منك إرادة      ولا فى سواه إليك خطاب  
إذا حزته فالأرض جمعاء والورى      هباء ، وسكان البلاد ذباب

والقارئ غير المشلول ، وهو الأكثر شیعاً ، ينزلق بعينه عبر هذه الأبيات ، ويعتقد أنها مفهومة ، لأنها لا تضم رموزاً رياضية مبهمه ، ولكن القارئ الجيد ينتهى من قراءتها ولديه انطباع ، يكاد يكون دائماً ، أنه لم يفهمها تماماً . والحقيقة أن هذه الأبيات لا يمكن أن تفهم بدقة ، لأننا لا نعرف ماذا يريد المؤلف بكلمة «حب» ، أو «ود» .

لا أظن أن فقه اللغة العربى أصبح على قدر من التقدم والدقة فى دراسة معانى الأنفاظ ، وأنتا نستطيع معه أن نصل إلى تحديد ما كان يفهمه المجتمع الأندلسى من كلمة «حب» فى القرن العاشر الميلادى ، عندما يسمع هذه الكلمة أو يقرأها ، لأنها ، وأعيد القول ، كانت تعنى شيئاً مختلفاً إلى حد بعيد . يكفى أن نلاحظ أن الشاعر يتوجه بهذه

(١) أرقام الصفحات فى الأصل تشير إلى الترجمة الإسبانية ، أما هنا ، وفى المواضع التالية ، فقد جعلتها تعود إلى ( ملوك الحماة ) فى نصه العربى ، طبعة دار المعارف بتحقيقنا ، القاهرة ١٩٧٥ .

الآيات إلى رجل ، وطبعاً أعرف أنه يوجد بيننا أيضاً حالات من الشذوذ الجنسي ، حب الرجل لرجل ، ولكن المسلم به في أوروبا أن كلمة « حب » تعني أولاً ، وبالتحديد ، شيئاً يودعه الرجل في المرأة ، وترسله المرأة إلى الرجل ، أما حب الرجل لرجل ، والمرأة لامرأة ، فلا نفهمه ، دون أن أزيد شيئاً . بل علينا أن نمارس عملية صعبة نقوم على تجريد الكلمة من معناها الأول ، وأن نحاول خبط عشواء أن نلبسه معنى آخر مختلفاً ، لكي نتصور عشق الرجل لرجل ، وقد أثبت غرسية غوث في مقدمته لهذا الكتاب أن الحب لا يبالى بالثباين الجنسي ، وذلك كاف لكي نتصور الحب العربي حقيقة شديدة الاختلاف عما باشرناه ، ونباشره ، معشر الغربيين . وأيضاً لا يمكن القول أنه يشبه الحب الذي وصفه أفلاطون ، لأن الحب عند أفلاطون لا يدبر ظهره للجنس ، ومعناه الأصلي عنده حب الرجل لرجل ، وهو - أي أفلاطون - على النقيض منا ، لا يفهم جيداً ما يمكن أن يكون حب رجل لامرأة .

لست أهدف من وراء كل هذا ، إلا أن أدفع بمزيد من الحيوية ، بأشد الطرق لإيجازاً ، إلى الإحساس بأن موضوع الحب هذا خطير للغاية ، ولا يوجد حب طبيعي نضع في مواجهته ، كمتقابل له ، الغراميات الشاذة . نعم ، يستطيع الذين يتخذون الرأي المقابل لهذا الحكم ، الزهو إلى حد كبير بعقائدهم الأكثر سمواً ، وبدل أن يحتملوا في طبيعة مفترضة ، تنصح بحب تراه طبيعياً ، وترفض أنواعاً أخرى منه تراها شاذة ، أن يتحدثوا في حماسة عن ألوان معقولة منه ، وألوان أخرى غير صحيحة ، عما هو مستقيم وما هو غير أخلاقي ، والحب ، كما ألححت من قبل ، نظام وابتداع إنساني ، وليس ابن عم المضم أو زيادة الكلور في المعدة .

هذا الكتاب ذو العنوان الجميل (١) يبدأ بأفكار فلسفية مختلفة عن الحب ، ذات طابع «مدرسي» ، خائض ، وكان يمكن أن يقال بعد ذلك بقرن ونصف من الزمان ، في لائينية هزيلة ، على لسان أى راهب في الغرب . ففي صفحة ٢١ نلتقى عنده بأفكار استخاصها مما قال أرسطو ، وفي صفحة ٢٢ نصطدم «بمدرسية» تقليدية متحذقة ، وفي صفحة ٢٣ يحدد لنا أسباب الحب ؛ فيأجأ إلى الجانِب الآخر من المدرسية ، أعني الأفلاطونية . ومن المؤكد أن ابن حزم في هذه النقطة صوب فكر ابن داود ، وقد سبقه في محاولة وضع «نظرية الحب» ، ويتيح لنا هذا التصويب إدراك التقدم الذي أحرزته الأوساط العربية في معرفة أفلاطون ، على امتداد قرن ونصف من الأعوام . وفي الحق أن ابن داود ، ويدعى أنه أفلاطوني ، ارتضى في جد مضحك القول الماخرة لتفسير الحب ، ووضعها أفلاطون على لسان أرسطوفان البالغ السخرية ، وطبقاً له : «أن الله، جل ثناؤه ، خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضاً فجعل في كل جسد نصفاً ، وكل جسد لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قطع ، من النصف الذي معه ، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتتفاوت أحوال الناس في ذلك حسب رقة طينتهم» (٢) .

(١) فيما يرى غربية غوث فإن كلمة «طوق» تعني عقد ، ولكن أليس من الأفضل أننا بصدد ما يدعى في الغرب ، منذ الإغريق ، «عق» Cuella الحمامة ، وكان رمزا لثروة لا تنفذ من الألوان ؟ ففي صفحة ١٠٩ أجدهم هذه الفقرة : «إنما قصدنا التكلم فيما رغبته من أمر الحب فقط ، وهذا أمر كان يطول جدا ، إذ الكلام فيه يتفنن كثيرا» .

(٢) آثرت أن أجمي بنص ابن داود كاملا ، لتبدو فكرته ، أي فكرة أفلاطون ، أكثر وضوحاً ، وقد نسبها ابن داود إلى «بعض المتفلسفين» ، دون أن يذكر اسم أفلاطون صراحة . أنظر :

• كتاب الزهرة ، النصف الأول ، ص ١٥ ، الطبعة الأولى ، تحقيق لويس نيكول وإبراهيم طوقان ، بيروت ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ . (المترجم)

وقد اتخذ ابن حزم الأندلسي من هذا الكلام والمدرسي ، المطروق إطاراً فحسب ، هالج من خلاله موضوع العشق في دقة ، وهو في هذا ليس ومدرسياً ، على الإطلاق : وتفيض كتابات ابن حزم بذكرياته الذاتية ، وذكرياته عن غيره ، يقصها بطريقة مباشرة دقيقة وقويماً ، ويحلل في مواطن أخرى ، واضحاً وفطناً ومدهشاً ، مواقف مختلفة متصل بالحب . وليس مهماً أن أنقل هنا فقرات من النصوص التي سوف يجري بينها القارىء ، وأكتفى بأن أشير من بينها إلى عدد من الفقرات يبدولى مفيداً أن أوصي بها : في صفحة ٧ مجموعة رقيقة من الأشياء التي تدل على أن اثنين في حالة عشق ، وفي ٧٩ نلتقي بأسباب تمكن الحب من النساء ، لهن ، فيما يرى ابن حزم : « متفرغات البال ، إلا من الحب ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لا شأن لهن غيره ، ولا خلقن لسواه ، وفي صفحة ٤٤ حديث عن تفاوت رد الفعل عند ممارسة الحب ، وما يترتب على ذلك سلباً وإيجاباً ، وهي مشكلة حقيقية ، وشائعة بين الجنسين ، ونهم أطباء اليوم كثيراً ، وفي صفحة ٤٧ إشارة إلى تأثير الحب الأول في الغراميات اللاحقة ، مما يعيد إلى الذاكرة ما ذكره ديسكارت Descartes (١) عن نفسه ، وكيف أنه أحب أول مرة حواء ، فظل يشعر دائماً بالميل والاهتمام بكل النساء الحوليات ، وفي صفحة ٩٠ إحساس واضح بما للحب من تأثير نافذ على الكيان الإنساني لا يدانيه شيء . وتذكر مع في صفحة ٩١ أن الخلسة في الوصل قمة الحب - وبها من حقيقة كبرى ! - وفي صفحة ٩٦ وصف رائع للقاء غير متوقع بين حبيبين ، يحكيه صاحبه وأعضاؤه تضحك كلها بهجة ، وفي صفحة ١٧٢ قصة البحار وآلته وسكينه ، والعالقات

من الحج :

لا يمكن أن نستقصي أفكار ابن حزم ، وهو يعرض لنا ما كانت عليه ملامح الحب الأندلسي في أيامه ، ولا أن ندرك حقيقتها التاريخية ،

(١) فيلسوف ورياضي وعالم طبيعة فرنسي (١٥٩٦ - ١٦٥٠) (المترجم) .

ولا نستطيع أن نقارن بينها وبين الحب عند شعوب أخرى . إنما علينا أن  
نتمتع جيداً ما يقصه علينا ، وفيما يحدده لنا ، وفي الملامح المميزة لطريقة  
الحب تلك ، وسوف يبدو لنا للوهلة الأولى ، أنه لا يوجد خلاف ،  
وهو نفس ما يحدث لنا عند نقرأ الكتاب الوحيد ، الدقيق والحجة ،  
عن الحب عند شعب بدائي : « الحياة الجنسية عند البدائيين » ، لمؤلفه  
مالنوفسكى Malinowski (١) ، ونعرف منه أنه لا يكاد يوجد خلاف  
بيننا وبين « تروبرياند Trobriand » ، شعب بدائي للغاية يعيش في  
في جزيرة غينيا الجديدة ، في الواجبات العاطفية ، أكثر من أنهم  
يجهلون ، مثل شعوب آسيا ، تأثير القبلة الحلو ، وعلى النقيض يستأنفون  
عض الأهداب ، أمراً يبدو لنا غريباً وغير مألوف . وهذا الظاهر ،  
وهو ذاتي بحث إلى حد كبير ، يدفع إلى عقولنا بتحديد جوهرى ، في  
أن المواطن الإنسانية ثرية بقدر هائل لا يصدق ، في نباتها وفي حيوانها ،  
ولكن لا نستطيع وفقاً لطبيعتها أن نعبر عن نفسها ، وإنما تعتمد على الأعمال  
والملامح الجسدية ، ومجموع مفاتيح هذه الملامح الجسدية التي تجدها  
عواطفنا تحت تصرفها ، لتعبر بها عن نفسها ، محدود للغاية إذا قورن  
 بالتنوع الوافر لأشكال الحياة في مشاعرنا . ومن هنا عليها مع الملمح  
نفسه أن تظهر حقائق حنوناً ، بليغة التباين ، رغم أن كل الغراميات  
إذا تأملناها من بعيد تبدو متشابهة .

أعمال قليلة ، كهذا الكتاب ، أتاحت لى متعة عظيمة ، ولقد  
اقتنحت صفحاته بمجهر أحاول ، مبتدئاً بما يقصه علينا وما يفسره لنا ،  
الوصول إلى صيغة مميزة لما كان عليه الحب عند هؤلاء العرب المصقولين  
في القرن العاشر الميلادى ، وما تعنى بالنسبة لنا ، وهو موضوع يحتاج  
إلى مزيد من الوقت ومن الفراغ ، لأنه يستطرد بنا إلى موضوعات  
تنتمى إلى عالم العلاقة بين الرجل والمرأة ، وعنها ، ولو أنه يبدو  
أكذوبة ، كل شيء تقريباً في انتظار من يدرسه أو يقول عنه شيئاً .

وإذا أردنا أن نضرب مثلاً بالغ الروعة للإهمال الذي تعانيه هذه النماذج الإنسانية من الحب ، يكفي أن نتوقف لحظة عند الكلمات الأخيرة للفترة السابقة : « ما يكون الحب اليوم بالنسبة لنا » . عن أى « يوم » يتحدثون هنا ؟ لأننا لا نستطيع أن نقول إن العشاق الأوربيين منذ خمسين عاماً وعشاق اليوم شئ واحد أو متطابق ، رغم أن المسرح واحد ، وأن البعد بين الاثنين قصير جداً ، ومع ذلك فإن مسافة الخلف بين حب تلك الأيام وحب الأجيال الجديدة واسعة إلى حد بعيد .

لقد تسلطت الحروب والثورات على عقول الناس ، فلم يعبروا اهتمامهم الموضوع واضح ، وهو أن التغيير الأبعد غوراً في شكل الحب الأوربي ، منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، حدث في هذه المسافة القصيرة ، وفسدت خلالها ، في كثير من الحالات ، التقاليد العالمية المتنوعة ، وربما كان أبلغها فساداً ، ووقع صامناً دون دوى ، وعلى نحو لم يحدث مع أى شئ آخر ؛ وبطريقة جذرية عنيفة ، ما حدث في أساليب الحب . ومنذ تلك الأيام أخذت نماذج الحب تتطور على نحو مستمر ودقيق ، كجنس أدبي ، وهو كذلك على نحو ما ، حتى بداية هذا القرن . ولهذا مرت العلاقة بين الرجل والمرأة بعصر من الاضطراب العنيف ، وليس من موضوعنا هنا أن نتعمق فيها دراسياً .

لكي نعرف جيداً ماهية الأشياء يجب أن نمشي معها على مهل وأن نضع بعضها في مواجهة البعض الآخر ، ومع المقابلة تتوهج خصائص كل واحدة . وهكذا من الأوفق لنا الآن أن نضع طرائق الحب التي اكتشفها ابن حزم ، والذي ندعوه بالحب الأندلسي ، في مواجهة حب البدو ، وينشر بين القبائل التي تحتفظ اليوم بأصولها العربية في لقاء كامل ، وتعيش في الصحراوات العطشى لشرقي شبه الجزيرة العربية ، على ضفاف الخليج العربي . لقد نشر ديكسون H.R.P. Dickson في ١٩٤٩ م كتاباً مفصلاً وممتعاً عن الحياة بين هذه القبائل ، وقد ولد ديكسون في سورية ، وأرضعته بدوية تنتمي لهذه القبائل ، واعتبر كواحد من أبناء القبيلة الأقوى نفوذاً ، وهو يحدثنا كيف

أن هذه المنطقة من الجزيرة العربية ، وعلى نحو ما كل شبه الجزيرة ، لا تعرف الحياة الزوجية . صحيح أن سهولة الطلاق لاتدع فراغاً يمكن لهذه أن تأوى إليه ، ومن جانب آخر تضى المرأة محجبة ، وقد أخفت رأسها تماماً ، ولا يستطيع من يصنف نفسه حبيباً لها أن يعرف ، بها أكثر من مجرد روثتها على هذا النحو ، وإلا فسوف يرى نفسه مضطراً لأن يشك فيها ، فالمرأة إذن تدخل عالم الحب مثل كائن مجهول ، ولهذا لا مجال للدهشة إذا انطورت ليلة الزفاف على كفاح عنيف بين الزوج والزوجة ، عنف يبلغ حد أن تتعرض الزوجة غالباً لكسر واحد من أضلاعها أو أكثر .

كيف يمكن أن يكون الحب الذى يتحرك بين مثل هذه العادات ؟ والملك الحالى للجانب الأكبر من الجزيرة العربية ، ابن سعود العظيم ، وهو مسلم متشدد ورئيس الوهابيين المتشددين ، قصص على ديكسون أن عنده ، حتى وقت الحديث ، أكثر من أربع مئة امرأة ، لم ير وجه واحدة منهن . وبالنسبة لنا معشر الغربيين ليس سهلاً أبداً أن يكون حب بدون وجه ، لأن الوجه بالدقة هو المكان حيث يتدفق الحب الحقيقى ، ومن ثم وجب أن ، يعنى كثيراً بظاهرة أن الوجه الأنثوى لاثير للشهوة فى الرجل ، على حين أن بقية جسمها كانه ، حتى البدين ، يمثل دائماً إثارة خطرة ومريعة . وربما كانت الشفاه تقوم بواجب يتجاوز حد الحنان ، ولكنها تقريباً تأتى فى المقام الثانى ، عندما تكون الشهوة قد اندفعت عبر مجالات عاطفية .

والقضية التاريخية الكبرى التى تتخذ من هذا الكتاب منطلقاً ، يجب أن يكون واجها مهاجمة القول بتأثير العرب فى شعر الغزل الأوروبى الوسيط بعامة ، وفى شعر وتقاليد القروبادور بخاصة ، وهى نظرية شائعة ، وموطن نقاش فى الوقت نفسه . وهذه القضية عثم زنايز لم يحاول أحد حتى الآن أن ينظمه .

أففى نهاية القرن الحادى عشر ، ومضاع القرن التالى ، بدأت فى فرنسا طريقة لإحساس الرجل بالمرأة ، ليس لها صلة مباشرة بالثقافة القديمة ،

ولا يقررون العصر الوسيط السابقة ، يسعد الرجل حين يعتبر المرأة شيئاً أسمى منه ، ويخضع لها خاشعاً ، وتقوم العلاقات العاطفية بين الجنسين على فكرة « الفتى » ، الذى يبدأ فى اللحظة نفسها بإعلام المجتمع ، والمرأة سيدة ، والرجل تابع لها ، والشهوانية التى تتناثر هنا وهناك فى أشعار الغزل ؛ تأخذ فى أسلوب شعراء التروبادور بعامة طابعاً شادداً فحسب ، وعلينا أن نؤكد ذلك إزاء إصرار بريفو Briffautl على النقاط النصوص الجريئة (١) . ومشاعر التروبادور نحو المرأة تتطلب البعد ، فيما يبدو من نصوصهم ، وتبدو الحبيبة بالضرورة نائية المقام ، ويتردد بكثرة أنها كالثريا بعدا ، وليست فى متناول اليد ، وبالتالي ليست موطن مداعبة ، ليست شيئاً يداعب ويستمتع به ، وإنما شيء يتعدون عنه فى ألم ، ويشناقون إليه دائماً . ومن ثم يزهر شعر التروبادور الأنين والشكوى ، ويعرض الحب كالم لذيذ ، أو جرح محظوظ ، ويقول شاعر التروبادور جيوفروى رودال Geoffroi Rudal فى بساطة إن حبه « حب الأرض للقمر » ! .

ملاحظ حب التروبادور هذه لها خصائص أخرى كثيرة ، لا أستطيع أن أضيفها هنا ، وكانت سبباً فى أن نبحث لها عن أصل فى صورة الحب الذى أزهو بين العرب قبل ابن حزم بقرن من الزمان ، ويطلقون عليه عادة « الحب البغدادي » . ولكن حب بغداد هذا ليس إلا واحداً من التأثيرات التى حدثت فى جماعات كبيرة ، وأنحمت ثقافة على مائدة الأفلاطونية التى شاعت فى ذلك القرن ، وبين هذه الجماعات تشكلت أسطورة قديمة تتحدث عن قبيلة بنى عذرة ، وفيها يموت الرجال من الحب ، لعزوفهم عن التمتع بالحبوبة . هل يمكن حقاً تفسير الحب عند التروبادور بما يقابله من أشكال الزهد المنترفة ذات المحتوى العاطفى ؟ وهنا يحق لى أن أشكو من الطريقة التى عولجت بها كل القضايا التى

(١) Robert Briffaut, Les Troubadours et Le Sentiment romanesque , 1945 , pp. 92 - 94 .

تتصل بالشعر في القرون الثلاثة : الحادى عشر ، والثانى عشر ، والثالث عشر . فمن الواضح أنه قبل أن نقارن بين شعر الغزل الأوربى فى هذه القرون ، وبين نماذج منه عند الشعراء العرب ، من الأوفق أن نحدد فى دقة خصائص كل منهما ، ولو تحقق هذا لرأينا أن شعر الغزل الأوربى رغم أنه مشاعر تنأى عن « الحنين والشوق » ، إلا أنها لا تتطلب العزوف ، بل على النقيض ، ترغب فى كل شىء ، ولكن من بعيد . وهو ما يفسر لنا النصوص التى ننضح أديباً جنسياً ، وإلى التقطها بريفو ، ومن يدرى ربما كانت الشهوة الإنسانية الحقة ابنة التناهى ، ولا تنبت أو تزدهر إلا مع بعد الغاية ! .

## مـزاج ابن حزم

من خلال للطوق

صورة له بقلمه

لست أعرف فقيهاً كابن حزم ترك الآخرين يلبسون عيونهم وعقولهم في أعماقه ، لبروا على هدى من اعترافاته ، وفي ضوء ما على لهم من حياته كيف هو ومن يكون . ولقد حطم كل الحياء المصطنع ، وأتى على كل الأسوار العالية ، التي تعزل الفقه عن الحياة ، حين يقول الفقهاء للناس شيئاً ويصنعون شيئاً آخر ، أوحين يمسكون بخناق الناس تضيقاً ، جرياً وراء فهم قاصر ، أو نفاقاً للسلطان ، أو بحثاً وراء زائل من عرض الدنيا ، ويجعلون من سماحة الشريعة قيداً ، ومن وعبا جوداً ، وكان هذا هو الفارق الكبير بين ما يجري في الحياة الإسلامية واقعاً ، وما يكتبه الفقهاء في مؤلفاتهم تشريعاً ، أو يلقونه في حلقاتهم درساً ، أو يشرحون به بين الآخرين واعظين .

لقد تركنا ابن حزم نطل على حياته من خلال مؤلفاته كلها بعمامة ، وعرى نفسه في كتابين محددين بخاصة ، خط أحدهما وهو في ريعان الشباب ، يفيض تحدياً ويلتهب حماسة ، ويعترض بكل ما أوتي من قوة أحداثاً كباراً تجرف في طريقها الخلافة ، نظاماً وأشخاصاً ، وكان يراها شرعة قائمة ، يلوذ بها الخائف ، ويستظل فيها المظلوم ، ومعها تقوم الدولة ، وتطمئن الجماعة ، وتتطور الحياة ، فدافع عنها ، عن الشرعية الدستورية في لغة السياسة الحديثة ، بكل قدرته ، وبما هو فوق طاقته ، ثم رآها تنهار ، وينهار معها المجتمع والدولة وكل القيم الجميلة ، فأشعل الحرب على كل أمير خائن ، وكل فقيه مرتش ، وكل شاعر منحل ، ولم يلق السلاح إلا جدياً محمولا على الأكتاف ، إلى رحاب الله الواسعة ، وكان هذا الكتاب هو : طوق الحمامة .

أما الكتاب الثانى فقد خطه حين أدار ظهره لعالم الخديعة حوله ، وقد أثقل كاهله النضال على كل الجبهات ، ورأى القيم التى عاش لها وعليها تنهأى واحدة وراء أخرى ، فلم يستسلم لها ، وانسحب إلى قريته منت لشم ، من بادية لبلة ، وقنع بعلمه وكتبه وطلابه ، وكان بين ما خطه منها ، فى هذه الأيام ، كتابه : « الأخلاق والسيرة فى مداواة النفوس » ، وهو مجموعة رائعة من الاعترافات الذاتية ، خطها ابن حزم وقد حنكته التجربة ، وصقلته الأحداث ، وصهرته المعاناة ، وهدهد الزمن من جموحه . ولإنها لمنعة رائعة حقاً أن يقارن الإنسان بين تجارب وأفكار ابن حزم فى « طوق الحمامة » ، ولما يتجاوز الثمانية والعشرين من عمره ، وبين أفكاره شيئاً على أبواب السبعين ، ومنضع يدنا على الحقيقة بيضاء ناصعة : إن أفكار وآراء ابن حزم على امتداد نصف قرن من الزمان تقريباً ، رغم كل ألوان المعاناة ، لم تتغير شيئاً .

ليس من قصدى هنا الموازنة بين الكتابين ، ولا إنا بصدد دراسة الكتاب الثانى ، فإذ لك مكانته من فرصة قادمة إن شاء الله ؛ وإنما أحاول أن أعرض صورة لجانب من مزاج ابن حزم ، فى زهوة شبابه ، كما رسمه لنا بقائه ، فى كتابه « طوق الحمامة » .

• • •

لا تكاد تمضى خطوات مع ابن حزم فى طوق الحمامة حتى تجد نفسك أمام فيض من ذكرياته ، عن نفسه وعن أصدقائه ، وآخرين مجهولين ، وكلهم من العشاق ، زفرائهم حارة ، وأحاسيسهم صادقة ، تخطون المداد بالدمع أو الرقيق ، ويستخدمون فى التراسل الحمام والعيون والرسل ، ويعانون من الوشاة ، ويموتون من الحب . وهو إلى جانب ذلك معرض حافل بالحديث عن شيوخ ابن حزم ، والشخصيات العامة فى قرطبة ، وبالإشارات التاريخية ، والأحداث الهامة : والحفلات الخاصة ، وتخطيط العاصمة ومعمارها ، ومساكن آل حزم ومستواها ؛ وكلها تتحرك نابضة

بالحياة ، وتمضى مناسكة مثل عنقيد العنب ، وهو قبل ذلك كله صبرة  
ذاتية للمؤلف ، خطها بقلمه ، واعترافات مخلصه ألقى بها في جراءة وصدق  
غير معهودين في الفكر العربي على أيامه وما بعدها إلى أيامنا .

هل تصلح اعترافات ابن حزم وثيقة لتصوير ما كان عليه مزاجه ؟  
لا يمكن القول بداهة أن ابن حزم حدثنا عن كل شيء في حياته ، لأن هناك  
منطقة في حياة الإنسان تظل مرآ مكتوماً إلى الأبد ، لا تتجاوز طباط  
ضميره ، ويحملها معه إلى القبر ، نجد ذلك عند ابن حزم ، وعند غيره ، وكل  
ما هناك أنها تضيق عند البعض ضيقاً كبيراً ، فلا تمس إلا أشياء  
محدودة مفرقة في الخصوصية ، وتنسج عند آخرين حتى تشمل كل شيء  
في حياتهم ، ومن جانب آخر لم يكن قصيد ابن حزم بكتاب «طوق الحمامة»  
أن يكتب سيرة حياته ، وإنما عرض لجوانب منها تتصل بموضوع الكتاب .  
والواقع أن أياً من أشد خصوصه ، وفي أعنف المعارك التي خاضها ، لم يجرؤ  
على تكذيبه ، وواقع حاله ، مؤرخاً وفقهاً ، يدعم صدقه فيما يقول ،  
وتاريخ حياته شاهد على ما حدث به عن نفسه . ولم يكره ابن حزم في حياته  
شيئاً كما كره الكذب والكذابين ، وأدان هذه الخصلة اللديمة بأعنف  
ما يملك من وسائل التعبير .

يقول عن نفسه : « وما أحببت كذاباً قط ، وإنى لأسامح في إخاء  
كل ذي عيب وإن كان عظيماً ، وأكل أمره إلى خالقه عز وجل ، وآخذ  
ما ظهر من أخلاقه ، حاشى من أعلمه يكذب ، فهو عندي ماح لكل  
محاسنه ، ومعف على جميع خصاله ، ومذهب كل مافيه ، فما أرجو  
عنده خيراً أصلاً ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه ، وكل  
ذام فقد يمكن الاستئثار به ، والتوبة منه ، حاشى الكذب فلا سبيل إلى الرجعة  
عنه ، ولا إلى كتمانته حيث كان . وما رأيت قط ، ولا أخبرني من رأى ،  
كذاباً ترك الكذب ولم يعد إليه ، ولا بدأت بقطعية ذي معرفة إلا أن أطلع  
له على الكذب ، فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته ، والمتعرض  
لمشاركته . »

وهو يرتفع بالكذب إلى مرتبة الكفر ، بل إن شئت يرى الكفر شعبه من الكذب ، لأنه إخبار عن الله بغير ما هو عليه ، ويورد ، هل غير حادثه ، الكثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، الدالة على فضل الصدق وبشاعة الكذب ، ويأتى بشواهد تاريخية ، ويعدد أفراداً شهروا بالكذب على أيامه . ويرى الواشى والناقل والنمام شرح جميع الناس ، وإن النعمة لطبع يدل على نقيض الأصل ، ورداءة الفرع ، وفساد الطبع ، ونحوه النشأة ، ولا بد لصاحبه من الكذب . والنعمة فرع من فروع الكذب ، ونوع من أنواعه ، وكل نمام كذاب . وهو أصل كل فاحشة ، وجاب كل سوء ، ولا يفت ابن حزم بدوره عند الأفراد ، وإنما يتجاوزهم ، في نظرة متقدمة ، ليدرك دوره في تدمير حياة الأمم والجماعات : « وما رأيت أخرى من كذاب ، وما هلكت الدول ، ولا هلك الممالك ، ولا سفكت الدماء ظلماً ، ولا هتكت الأستار بغير النمام والكذب » .

ويفرق النمام بين الناصح والنمام ، وهما صفتان متقاربتان في الظاهر ، متعاونتان في الباطن ، أحدهما داء والأخرى دواء ، والثاقب القرحة لا يخفى عليه أمرهما . فليس ناقلاً من نيه غافلاً ، أو نصيح صديقاً ، أو حفظ مسلماً ، أو حكى عن فاسق ، أو حدث عن عدو ، ما لم يكن يكذب أو أو يعتمد الضغائن . « لكن الناقل من كان تنقله غير مرضى في الديانة ، وتوى به النشيت بين الأولياء ، والضريب بين الإخوان ، والتحريش والتوبيش والترقيش » .

وهو رجل مجدد ، يكره التقليد ، ويعاف أن يسير في طريق سار فيه الآخرون ، ومن هنا كانت صرخته في بداية الكتاب : « دعنى من أخبار الأعراب والمنقذين ، فسيبهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنضى مطية سواء ، ولا أتجلى بحلى مستعار » .

وكان إحساس ابن حزم بطبقته واضحاً ، إذ تحدث عن أبيه ذكر : « أيام وزارة أبى ، أو إلى أن توفى أبى الوزير رحمه الله » ، « وأيام

دولتنا وامتداد ظلنا . وعندما يعرض لواحد من أبناء الخلفاء بلحقها بقوله وهو صادق فيما يقول ، وكان لى صديقا ، وعندما يتحدث عن أبى عامر ، حفيد المنصور بن أبى عامر ، يقول : إن دارهم ملاصقة لدارنا ! ولأنه كان من أبناء الصفوة لم يهتم أبداً بالطبقة الدنيا فى قرطبة ، ولم يلق بالآلى حياة المستعربين أو المولدين ، أو الطبقات الشعبية باختصار ، ولم تنسرب إلى كتابه . طوق الحمامة ، لفظة رومانىة واحدة . المرة الوحيدة التى عرض فيها لواحد من غير طبقته كانت فى نهاية الكتاب ، فى الجامعة منه ، حين احتاج لمثل يضربه فى الصبر على المكاره ، وتحمل شظف العيش ، فذكر أن ميسورا البناء جارهم فى قرطبة ، يصبر عن الماء أسبوعين حمارة القبط ، ويكتفى بما فى غذائه من رطوبة . ومع ذلك فالبناء ، كبقية الحرفيين فى حاصمة الخلافة ، يقف على أكتاف الطبقة الدنيا ، وتحت أقدام الطبقة الوسطى ، يهرب من الأولى ، وتصدده الثانية ، فلا ينسب واقعاً فى أى منهما .

وكان ابن حزم حفيهاً بالصدافة ، يرى فيها السند عند الشدة ، ورواء الروح لحظة البهجة ، أصدقاؤه لداته ، فى عمره ومن طبقته ، أبناء كبار الموظفين والبيوتات العريقة ، ومرت على قلبه ألوان منهم : هناك من عرفهم ، أو عرفوه ، شهرة وتراسلا ، فلما التقيا تأكدت بينهم المودة واتصلت وتمادت ، ومن كان له على ود أكيد ، وخطاب كثير ، وما تراءباً ، ثم منح الله له لقاءه ، فما هى إلا أيام قليلة حتى ولعت المنافرة عظيمة ، والوحشة شديدة ومتصلة . ومنها ما بدأ منافرة ووحشة وانتهى صداقة وودا ، كالذى جرى بينه وبين أبى عامر ، حفيد المنصور بن أبى عامر ، وكانت الكراهية شديدة بينهما فى البدء ، ولم ير أحدهما الآخر ، وكان أصل ذلك تقبلاً يحمل إليه غنى ، وإلى حنة ، ويؤكد انحراف بين أبويننا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان ، ووجاهة الدنيا ، ثم وفق الله الاجتماع به فصار لى أود للناس ، وصرت له كذلك ، إلى أن حال بيننا الموت .

ولم يكن أصدقاؤه من معدن واحد ، في فترة قلقة سياسياً واجتماعياً ،  
تهبط بالمرء في لحظات من العرش إلى اللحد ، وترتفع به من عامة الناس إلى  
قمة المجد ، فمنهم من تغير مع الدنيا ، أقبلوا عليه حين كانت منه مقبلة ،  
وأعرضوا عنه حين أدارت له ظهرها ، لقد اتصل به محمد بن وليد ،  
وانقطع إليه حين كان أبوه وزيراً ، فلما اقتحم البربر قرطبة ، وتغيرت  
الأحوال ، خرج محمد بن وليد إلى بعض النواحي ، واتصل بصاحبها ،  
وعرض بجاهه ، وحدث له وجاهة ، وحالة حسنة ، وحل ابن حزم تلك  
الناحية في رحلته له ، فلم يوفه حمة ، وثقل عليه مكانه ، وأساء معاملته  
وصحبته ، وكلفه حاجة فلم يقم فيها ولا قعد ، واشتغل عنها بما ليس  
في مثله يشغل . ومن الوزراء من عرض بجاهه فأمسك ابن حزم ،  
فلما ذهبت أيامه ، وانقضت دولته ، عاد يبدى له من المودة والأخوة  
غير قليل .

وكان يرغب في أن يكون أصدقاؤه معه ، إلى جواره ، في أي  
المواقف يختار ، وعتب على أبي السري عمار بن زياد صديقه ، لأنه أكثر  
من عدله في نحو نوحه ، وأعان عليه بعض من لاه في ذلك للوجه ، وبعقب  
ابن حزم على ذلك الموقف : « وكنت أظن أنه سيكون معي ، مخطئاً أو مصيباً ،  
لو كيد صداقتي ، وصحيح أخوتي به » ، ولقد تمسك بالصدقة رغم كل  
الهازات التي تعرض لها ، والتي جعلت جانباً من الذين أحاطوا به ينفضون من  
حواله ، نجا بأنفسهم أو تقية أو بحثاً عن الجاه والمغانم ، وكان يأخذ من أصدقاؤه  
ما ظهر له من أخلاقهم ، فلا ينتمس لهم عيباً لا يراه ، ولا يؤاخذهم بتقصية  
لائعته ، ويحسن الرأي فيهم دائماً ، متمثلاً بقول عمر رضي الله : « ضع  
أمر أخيك على أحسنه ، حتى يأتيك على ما يغلبك عليه » . ويبقى على أسرارهم  
معه ، حتى ولو جاءت الظئعة ، وسقطت المثونة ، وأفشى صاحبه بما يعرف  
من أسرار عنه .

كان أبو بكر محمد بن إسحاق أظهر أصدقاء ابن حزم ، ويتردد في

صفحات الطوق كثيرا، و يروى عنه ابن حزم عدداً من الأحاديث والأقاصيص ،  
و يدعوه دائماً : « صاحبى » ، وكان أبوه فيما يبدو ، مثل والدا بن حزم ،  
من وزراء المنصور ، ولا نجد له فى كتب التراجم ، التى بين أيدينا ، غير  
سطين خصهما به الضبى فى كتابه « البغية » ، وإليه توجه ابن حزم برسائله :  
« فضائل أهل الأندلس » ، وفيها يتأديه : « أما بعد ، يا أخى أبا بكر ،  
سلام عليك سلام أخ مشوق طالبت بينك وبينه الأميال والفراسخ ، وكثرت  
الأيام والليالى ، ثم لقيك فى حال سفر ونقلة ، ووادك فى خلال جولة ورحلة ،  
فلم يقض من مجاورتك أرباً ، ولا بلغ فى محاورتك طلباً . . » وقد صاحب  
ابن حزم فى هجرته من قرطبة مضطهداً ملاحقاً ، حينما اقتحم البربر العاصمة  
ونهبوها ، ومعهما صديق ثالث لهما ، أبو عامر الذى أشرنا إليه من قبل ، وكان  
ثرياً وجيهاً ، شريفاً ونبيلاً ، تضرب به قرطبة المثل فى الملاحقة فيقال : « أجل  
من وجه أبى عامر » . ويقص علينا ابن حزم فى الطوق مشهداً إنسانياً مؤسفاً  
ومؤثراً : لقد فر الثلاثة بحياتهم وحررتهم من قرطبة ، ثم استقر بهم المقام  
فى مالقة ، وفى هذه المدينة آثر ابن أبى عامر أن يرحل إلى شرق الأندلس ،  
وتخلف أصحابه فيها يدبران أمرهما ، ولحظة الفراق وقفنا على شاطئ البحر  
الأبيض بلوحان له مودعين ، وفى أعماق كل منهما ، والحوادث الموج  
نعصف بالأندلس ، أنهما لن يريا ثانية ، فجعل أبو بكر يبكى لحظة وداعه  
وهم وقوف على ساحل البحر ، ويردد بيت أبى عطاء السندى متمثلاً :

ألا إن حيناً لم تجد يوم واسط عليك بباقي دمعها لحمود

وجعل ابن حزم بكثرة التفجع والأسى ، وعينه لا تساعد ، فأجاب  
أبا بكر بيت له ارتجله :

وإن أمراً لم يكن حسن اصطباره عليك وقد فارقه لجليد

وكان ابن حزم شحيح الدمع ، ويعلى ذلك بأنه أصيب بخفقان فى القلب ،  
فأدمن على السكندر ، فإذا عرضت له المصيبة الفادحة تفطر قلبه ، وفاض

بغصة أمر من العلقم ، تحول بينه وبين توفية الكلام حق مخارجه ، وتكاد تشوقه نفسه أحياناً ، ولكن عينه لا تستجيب له أبنة إلا في الندرة ، بالشيء اليسير من الدمع .

وابن حزم رقيق الإحساس ، سريع التأثر ، يهوى الشكل الجميل ، أو الصورة الحسنة فيما يقول ، ويعي جيداً ما يحدثه في الأرواح من هزة ، وما يثيره في النفوس من رجة ، لأن النفس الحسنة تواع بكل شيء حسن . ويرى في إثارة الجمال سلطاناً لا يقاوم . والقرآن الكريم يحدثنا عن اثنتان المصريات بالجمال الذي كان عليه يوسف ، وما أحدثه في أعماقهن من أثر . لقد راودته امرأة عزيز مصر ، التي هوى في بيتها عن نفسها ، وغاقت الأبواب وقالت : هيت لك ، قال : معاذ الله إنه ربي ، أحسن مثواي ، ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، وشاع خبرهما ، وقال نسوة في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً ، إنا لنراها في ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن ، أرسلت إليهن ، وأعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن متكئاً ، وقالت أخرجن عليهن ، فلما رأينه أكبرنه ، وقطعن أيديهن ، وقنن : محاش لله ، ما هذا بشراً إنا لهذا إلا ملك كريم .

ولقد عاش ابن حزم في بيئة عامرة بالصبايا الجميلات ، وأحب في سن مبكرة للغاية ، صبا قلبه ولما يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، وكان في حبه غربياً عصرياً للغاية ، يتميز عن الروح الشرقي والعربي تماماً ، فلا يؤمن بالحب مع النظرة الأولى ، ويعجب ممن يدهى أنه يحب من نظرة واحدة فقط ، ولا يكاد يصدق ، ويجعل مثل هذا الحب ضرباً من الشهوة ، لا ينفذ إلى حجاب القلب ، ولا يتمكن من صميم الفؤاد ، فالشهوة تسقط على المرء مع أول نظرة ، والحب يحتاج إلى زمن ومعاناة وفهم متبادل ، ويقول عن نفسه معترفاً : « ما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل » . فللشهوة تعدد باختلاف ما تقع عليه العين من أشكال الجمال ، والحب

متوحد دائماً ، فإذا رأيت من يحب اثنين في الوقت الواحد ، فاعلم أنها الشهوة ، تسمى على المحازحاً .

والفرقة بين الحب والشهوة نظرة عصرية للغاية ، وما زال في ذهني صور من أيامنا الأولى في إسبانيا ، عرب وشرقيون ، نطل على عالم جديد لم تكن لنا به صلة من قبل ، اللقاء فيه سهل ، والاختلاط متاح ، والحلوة ممكنة ، وإذا بالواحد منا يقول لأول فتاة جميلة يلقاها : إنني أحبك . وتنظر إليه في دهشة : كيف وما انقمينا إلا منذ ساعات ؟ تقصد تشهيني ؟ ، ذلك شيء مختلف . ولم تكن قد قرأنا ابن حزم بعد ، لأن أحداً لم يهدنا إليه في دراستنا ، لم يشر به أحد علينا ولو كصدر نقرأه أو نعود إليه في أبحاثنا ، ربما لأننا مع النخلف نراه كتاباً لا يصح أن يقرأ ، ولأن أحداً لم يعرفني به قبل أن أذهب إلى إسبانيا دارساً ، لم أكن أعرف أن ما قالته لي أول فتاة إسبانية عرفتها ، قاله ابن حزم قبلها بما يزيد عن تسع مائة عام .

وما من ضرورة تدعو إلى أن يهرب المحب بأشراقه ، أخوف أن يدم نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة ، يفر منها ويتفادى ، وليس هذا بصحيح ، فبحسب المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التي يأتينا باختياره ، ويحاسب عليها يوم القيامة ، وأما استئمان الحسن ، وتمكن الحب ، فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه ، إذ القلوب بيد مقلبيها ، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب ، وأن يعتد بالصحيح باليقين ، وأما المحبة فخلفة ، ولأنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة . ولم يجد ابن حزم حرجاً في أن يعترف بعدد من غرامياته ، على غير ما هو معهود في أيامه وما بعدها ، وحتى يومنا هذا . حدثنا عن حبه لنعم ، جاريته الشقراء ، أكثر من مرة ، مصرحاً باسمها تارة ، وإوفهما أخرى ، ومن خلال قصائده أحياناً وبدأ حياته العاطفية معها في سن مبكرة ، وكانت فيما يبدو لي أول من أحب ، وأصبحت الفتاة امرأة على يده ، فيما يقول عن نفسه : وكنت

أبا عذرها! ، وتكافأت المحبة معه ؛ وتركت في أعماقه ذكريات لا تنسى ،  
وزصد بأخرى زمناً طويلاً ، ولم ينته حبه إلى غاية ، وخشى مع الثالثة  
أن يقع في مهاوى الفتنة فأمسك عن التردد على بينهم ،

وأعطانا ، خيراً ، ومجرباً ، صورة دقيقة للسعادة التي تغمر أعطاف  
المحب الناجح ، وما في الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء ،  
وأما الوشاة ، وسلمنا من البين ، ورغبنا عن الهجر ، وبعدنا عن الملل ،  
وفقدنا العذل ، وتوافقنا في الأخلاق ، وتكافأنا في المحبة ، وأتاح الله  
لهما رزقاً داراً ، وعيشاً قاراً ، وزمناً هادياً ، وكان اجتماعهما على ما يرضى  
الرب من الحال ، وطالت صحبتهما ، وانصلت إلى وقت حلول الحمام  
للذى لا مرد له ، ولا بد منه ، ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت  
محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ؛ ورأيت  
تمكن المتغلبين على الرؤساء ؛ وتحكم الوزراء ، واتبساط مدبري الدول ،  
فما رأيت أشد تبجحاً ، ولا أعظم سروراً بما هو فيه ، من محب أبين  
أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بيماله إليه ، وصحت مودته له .

ويدعنا نفهم دون مواجهة ، وفي غير موارد ، أن حبه ليس عذرياً  
وكلمة عذري لا ترد على امتداد كتابه ولا مرة واحدة ، وليس فاجراً في  
الوقت نفسه ، ولقد اعترف بأنه بلغ مع نعم غايته ، وكان في غرامياته مهماً  
لا يتوقف عند حد ، يقول :

« ما رويت قط من ماء الوصل ، ولا زادني إلا ظمأً ، » ولقد بلغت  
من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرقى ، فما  
وجدتني إلا مستزبداً ، وحين يكون مع من يحب لا يحول بخاطره فن من  
فنون الوصل ، إلا رجاءه . « قصرأ عن مرادى ، وغير شاف وجدى ، ولا قاض  
أقل ليانة من لبائفى ، ووجدتني كلما ازدادت دنواً ازدادت ولوعاً ،  
وقد حث زناد الشوق نار الرجاء بين ضلوعى . » ويرى التوافق في ممارسة  
الحب بقويته ، « إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس وموئيدات نحوها » .

ويورد العفة إلى أسباب موضوعية ، إلى طبع يميل بالرجل أو المرأة إلى غير هذا الشأن ، واستحكمت معرفته بفضل سواء عليه ، فهو لا يجيب دواعي الغزل في كلمة ولا كلمتين ، ولا في يوم ولا في يومين : ولو طال على هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به الجادات طباعهم ، وأجابوا هاتف الفتنة ، ولكن الله عصمهم بانقطاع السبب المحرك. وإما بصيرة حضرت في ذلك الوقت ، وخاطر تجرد انقمعت به دواعي الشهوة .

ويقرر حاسماً وصرحاً : « وبالجملة فإني لأقول بالمرأة ، ولا أنسك نسكاً أعجمياً ، ومن أدى الفرائض المأمورها ، واجتنب المحارم المنهى عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس ، فقد وقع عليه اسم الإحسان » . ورأى ابن حزم أن يقطع السبيل على كل راغب في النيل منه ، أو متخذاً من اعترافاته سبيلاً إلى اتهامه ، فكان بيانه القاطع : « يعلم الله ، وكفى به علماً ، أني برئ الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقي الحجرة ، وإني أقسم بالله أجل الأقسام أني ما حللت مثزرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبني ربي بكبيرة الزنا ، مذ عقلت إلى يومي هذا » .

وكان ابن حزم يحترم أسرار الناس ، أو ما نسميه في عصرنا بالحياة الخاصة للآخرين ، فلما كلفه صاحبه أن يكتب له في الحب ، وأدرك أن ذلك يحتاج إلى أمثلة وشواهد يلتقطها مما رأى بعينه ، وأدرك بنفسه ، وحده به الثقات من أهل زمنه ، لم يترك نفسه على مسجيتها في رواية الأحداث ، لأنها تمس الجانب الشخصي البحت من حياة الناس ، وهو ملك لأصحابه وحدهم ، ليس من حق أحد أن يشاركهم فيه ، أو يطل على داخلهم منه ، ويربأ بالحياة الخاصة لرجال الدولة ، من الأمراء والخلفاء مما ينفردون به في قصورهم مع عيالهم ، أن تكون محالاً للقول . ولكنه ذكر من لا ضرر في تسميته ؛ ولا يلحقه والمسمى عيب في ذكره ، إما لأن الخبر ذاع واشتهر فطبه لا يفتى عنه شيئاً ، أو لأن الخبر منه راض بظهور خبره ، غير منكسر لنقله ، أما الآخرون فقد أكنى عنهم ، لأن في ذكرهم

عورة لا يستجيز كشفها : أو لأهلها تنس صديقاً ودوداً ، أو رجلاً  
جليلاً .

وهو يتندر معن الناس الخلقة ، ويرددها مثلاً ، وقد يذكر معها  
أسماءهم ، ولكنه لا يشغلي فيهم ، ولا يجدها وسيلة للنيل منهم ،  
والواوع في أعراضهم ، أو القاصر عيبه بالصالح والفتى ، ويورد قصص  
أولئك الذين انحرفت بهم عواطفهم ، أو يشقون صورة الجمال الكامل  
في وجوه العلماء ، فلا يرفع في وجوههم مروطه الفارع ، أو يلاحظهم بالنسب  
القارص ، ولا يزيد قوله عن : « عنة الله عن الجميع » .

ويقيم ابن حزم على الوفاء لمن عرف ، ويمد لأصحابه جبل الود وإن  
أساءوا إليه ، أو قابوا له ظهر الحن ، ويمن إلى كل عهد تقادم حتى ليغصه  
بالطعام ، ويشرقه بالماء ، ولا يمل شيئاً إذا عرفه ، ولا يسرع في أنسه مع  
أول لقاء ، ولا يميل إلى استبدال ما يألّف من الأخوان ، أو الأشياء من  
مركوب ومطعم ، وراثته المبارهم في بلاط مغيب ، وقد أخبر بانتهاج  
البربر لها ، مثال صادق لهذا الشعور ، إلى ما فيه من تصوير دقيق لمنازل  
آل حزم ، وما آلت إليه ، وما تعكس من حنين جارف وارتباط بالمكان .  
ويرى الوفاء فضيلة يزهو بها : « لقد منحني الله عز وجل من الوفاء لكل  
من عمت إلى بلقية واحدة ، ووهبني من المحافظة لمن ينضم مني ولو بمحادثته  
ساعة حظاً . ويقع فراق الأجرة من نفسه موقفاً أليماً ، ويعترف : « ما انتفعت  
بعيش ، ولا فارقني الإطراف منذ ذقت طعم فراق الأجرة ، وإنه لشجى  
يعتادني ، وواوع هم ما ينفك يطرقتني ، ولقد نفص تذكرى ما مضى كل  
عيش أستأنفه » . وإذا نعى إليه من يحب . وواجه الفراق الأبدى ، وكان  
نازحاً وحيداً ، فرب نفسه إلى المقابر بمشئ بينها ، ويتعزى بأبيات من الشعر  
يترنم بها :

وظل يعاني مما يفرضه عليه الوفاء ، مما يصطدم أحياناً بعزة نفسه ،  
واحترام ذاته وكرامته ، « وعنى أخبرك : أنى جبلت على طبيعتين لا يهتني

معهما عيش أبداً ، وإنى لأبرم بحياتى باجتماعهما ، وأود الثبوت من نفسى  
أحياناً ، لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لا يشوبه  
التلون ، قد امتوت فيه الحضرة والغيب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة  
التي لم تعزف بها نفسى عماد ربيته ، ولا تنطلع إلى عدم من صحبته . وعزة  
نفس لا تفر على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف ، مؤثرة  
للموت عليه ، فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها ، وإنى  
لأجفئ فأحتمل ، واستعمل الأناة الطويلة ، والتلوم الذى لا يكاد يطبقه أحد ،  
فإذا أفرط الأمر ، وحميت نفسى ، نصبرت .

وما شئ أثقل على نفس ابن حزم من الغدر ، « ولعمري ما سمحت  
نفسى قط في الفكرة في إضرار من بينى وبينه أقل ذمام ،  
وإن عظمت جريرته ، وكثرت إلى ذنوبه ، ولقد دهمنى من هذا  
غير قليل فما جريت على السوءى إلا بالحسنى » .

وابن حزم واسع الصدر في القضايا العلمية والاجتماعية ، عند  
الحوار ، يناقش ويدلى برأيه ، ويسمع وجهة نظر معارضه ، لا يضيق  
بها ، ولا يفقد هدوءه بإزاء محدثه ، يفاتش أبا عبد الله من أهل القبروان ،  
وكان طويل اللسان جداً ، مثقفاً للسؤال في كل فن ، أيام كان لاجئاً في  
المرية ، حول الحب ومعانيه ، وماذا يصنع محب كره المحبوب لقاءه ،  
وتجنب قربه . يرى ابن حزم : « أن تسعى في إدخال الروح على نفسك  
بلقائه وإن كره » . ويرى أبو عبد الله : « بل أوتر هواء على هواى » ،  
ومراده على مرادى ، وأصبر ولو كان في ذلك الحيف . ويمضى  
الحوار على النحو الذى أورده ابن حزم في الطوق ، عالم قرطبة يقف على  
أرض صابة من الواقع ، وأدب القبروان يتشبث بما هو نظرى ومن  
صنيع الخيال ، ويفقد صبره في مواجهة ابن حزم ، ويصبح به : « أنت  
رجل جدلى ، ولا جدل في الحب » .

وكان ابن حزم يفرق بين الصلات الشخصية ، والخلافات الفكرية

والعقائدية ، لقد تعرف خبـلال إقامته بالمرية على طبيب يهودى ، يدعى إسماعيل بن يونس ، وتعود أن يختص إلى دكانه ، ويصف اليهودى بأنه كان بصيراً بالفراسة محسناً لها . واست أشك فى أنه تعرف بها إلى يهود آخرين ، فقد كانت المرية فى تلك الفترة من التاريخ ، أى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، موطناً لحركة ثقافية وأدبية مزدهرة ، وموطناً لليهود كثيرين ، علماء وأغنياء ، وأرجح أنه تعرف فيها إلى صمويل ، أو إسماعيل ، بن النغرة ، قبل أن تؤاها مواهبه العالية لأن يصبح وزير باديس بن حبوس أمير غرناطة ، ويسيطر على مصائر للدولة دونه ، ثم يورثها ابنه يوسف من بعده . فيثير جمهرة المسلمين بحمقه وتحديه واستهتاره ، فتأتى عليه وهلى نفوذ اليهود ثورة عارمة ، لعب الشعر فيها دوراً رئيسياً (١) . وقد وقف ابن حزم موقفاً متشدداً من اليهود ، حين طما طغيانهم السيامى ، وتجاوزوا حد الأدب فاستطالوا على المسلمين ، واستباحوا مقدساتهم ، وناقش اليهودية كعقيدة وواعياً عنيفاً ، وأميل إلى أن بداية دراسته لليهودية بدأت فى هذه المرحلة من حياته .

وكان له فى المرأة رأى عرضنا له من قبل ، ويعرف ابن حزم للأستاذية جلالها وقدرها ، فلا يتحدث هن أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى ، إلا وأردف قائلاً : أستاذى :

وبرئ ابن حزم من عادة الشراب ، وكنت شائعة على أيامه ، ووجد كثيرون مندوحة لهم فى المذهب العراقى ، وأوجز ابن عبد ربه اتجاهم فى بيته الشهير :

ديننا ، فى السماع ، دين مدينى ، وفى شربنا الشراب عراقى  
وجاء رفضه له عرضاً حين تحدث عن مذهب الشعراء المجديدين فى ذم  
البكاء على الدمي ، والثناء على اللذات ، وأن الحسن بن هانى ، أبانواس ،

١ - أنظر : غرصة غوث ، مع شعراء الأندلس والمتنبي ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي ،  
صفحة ١١٧ زما بمدها ، القاهرة ١٩٧٤ .

أكثر في هذا الباب وافتخر به ، « وهو كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح  
في أشعاره ، نحكماً بلسانه ، واقتداراً على القول » . ثم يشهد ابن حزم  
قريحته بأبيات على مذهب أبي نواس فيقول :

نخل هذا وبادر الدهر وارحل      في رياض الربى مطى الغفار  
واحدها بالبديع من نغمات الـ      مود كيماً تحت بالمزمار  
إن خيراً من الوقوف على الدا      ر وقوف للبنان بالأوتار  
وبدا الترجمس البديع كصب      حائر الطرف مائلاً كالمدار  
لونه لون عاشق مستهام      وهو لاشك هائم بالبحار

ويعقب على هذه الأبيات بقوله : « ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس  
طبعاً لنا ، ومهصية الله بشرب الراح لنا خلقاً ، وكساد الهمة لنا صفة ...  
ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ » . والحق أن الطوق عرض  
لألوان من الحب مقبولة وشاذة ، حلالة ومحرمة ، ولكن حديث الشراب  
ومجالسه وألوانه لا ترد فيه أبداً .

## المرأة في قرطبة

من خلال طوق الحمامة

مع قلة الوثائق وغيبة الشواهد تختلف الآراء حول المرأة الأندلسية اختلافاً بيناً ، وفي دوائر المشرقين بخاصة ، لأن أبحاث الدارسين العرب في مجال الأندلسيات لما نزل محدودة ، وقليل جداً بينها من يقول شيئاً نافعاً ، أو يضيف إلى ما نعرف جديداً ، لأن الاهتمام بالأندلس ، تاريخه وحضارته وأدبه ، جاء متأخراً ، والقائمون عليها الآن ، وهم قلة ، أمامهم سنوات مضيئة من العمل ، لكني يزيحوا عن هذه المنطقة من تراثنا غبار الإهمال ، ويعبدوا أمام الأجيال القادمة طرائق البحث ، من نشر المخطوطات ، وتوفير المصادر ، ودراسة اللغة الإسبانية ، وكل تخصص في مجال الأندلسيات دون التمكن منها ، ثماره عقيمة ، وحظه من النجاح محدود .

حاول المستشرقون إذن أن يدرسوا وضع المرأة الأندلسية ، وبذلوا جهوداً طيبة ، وقد أختق بعضهم ، على ما سنعرف ، في جانب من آرائه ، قبلل أو كثير ، لأن عقدة التعالي على العرب ، أو البغض للإسلام ، كانت تحكم أبحاثهم . وضلل الطريق آخرون ، لأن دلالات النصوص البعيدة ، والتي تعتمد على تذوق اللغة ، وإدراك الفروق الدقيقة بين معاني الألفاظ المختلفة ، كانت تغفل منهم ، وهو شيء طبيعي ، فأدى بهم ذلك إلى أحكام خاطئة وجائرة أحياناً ، ولكنهم في كل الأحوال أسدوا إلى هذا التراث يداً ، يستحقون عليها أن نقول لهم شكراً ، ومن عمل وأخطأ ، خير ممن لا يعمل شيئاً على الإطلاق .

ليس في نيتي ، ولا بإمكانني أيضاً ، أن أتبع آراءهم جميعاً ، ولكنني سوف أحاول أن أعطي صورة لهذه الاتجاهات المختلفة ، في خطوطها العامة ، موجزة نعم ، ولكنها كافية لكي نعرف كيف يفكرون في هذا الجانب ، وأين نفخ منهم .

كان المستشرق الألماني ، البارون فون شك Von Schack أول من تحدث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في كتابه : « شعر العرب وفهم في إسبانيا وصقلية » Poésie und Kunst der Araber in Spanien und sicilien ، وصدرت الطبعة الأولى منه في برلين عام ١٨٦٥ م ، عن المرأة الأندلسية ، وجاء حديثه عنها كمقدمة للفصل الرابع من الكتاب ، وأوقفه على دراسة شعر الغزل في الأندلس ، وانتهى فيها إلى « أن وضع المرأة في إسبانيا كان أكثر رراً عما كان عليه في بقية الشعوب الإسلامية الأخرى ، فأسمحت بمجدها في كل ألوان الثقافة المعروفة على أيامها ، وليس بقليل عدد أولئك اللاتي بلغن شهرة واسعة لدورهن في مجال العلم ، أو مزاحمتين الرجال في قرص الشعر : وفي ظل هذه الحضارة الراقية بلغن في إسبانيا احتراماً لم تعرفه المرأة أبداً في المشرق الإسلامي : فعلى حين أن الحب هناك ، باستثناء حالات نادرة ، ينهض على الشهوة ، كان هنا ينطلق من تعاطف رومى عميق ، وعلاقة نبيلة بين المرأة والرجل ، وكثيراً ما كانت عبقرية المرأة وثقافتها أشد جاذبية للعاشقين من جمال جسمها وسحر مفاتها ، وعادة يكون الميل المشترك إلى الشعر أو الموسيقى الخيط الرفيع الذى يربط بين قلبين عاشقين » .

ثم جاء المستشرق الإسباني الجليل خوليان ريبيرا (١٨٨٧ - ١٩٢٧ م) فعرض لجانب من قضية المرأة ، في بحثه الذى ألقاه في المجمع الملكى الإشباني : عند اختياره عضواً فيه عام ١٩١٢ م ، وكان عن « ديوان ابن قزمان » : ولم تكن المرأة موضع دراسته بدءاً ، وإنما عرض لها عند حديثه عن اللغة التى كان يتكلمها سكان الأندلس ، وهو أول من اكتشف بين الباحثين المحدثين أن الأندلسيين كانوا يتكلمون لغتين عاميتين مختلفتين معاً ، العربية والرومانشية ، وإذا نحينا المبالغات التى شابت بحثه ، وكان فيه رائداً ، وتحكمه حماسة مخلصه وصادقة ، فإن النتائج التى انتهى إليها كانت فتحاً جديداً في عالم الأندلسيات .

تحدث ريبيرا عن دور المرأة البالغ الأهمية في أسبنة المسلمين القادمين من

المشرق أو من شمال إفريقية ، وفي إشاعة اللغة الرومانية والإبقاء عليها ،  
والحفاظ على الخصائص البيولوجية الإسبانية ، والتقاليد التي كان عليها الإسبان  
قبل الفتح الإسلامي بعمامة ، وفي مجال الحياة العاطفية والأمرية على نحو خاص ،  
لقد جاء العرب أو البربر جنوداً فاتحين ، أو أفراداً مهاجرين ، وتزوجوا  
في الأندلس من نساءها ، جوارى أو حرائر ، وفي كل الأحوال كن يتحدرون ،  
في الأعم الأغلب ، من أصول إسبانية ، ونشأ أولادهم هجئاً في بيت مختلط ،  
يعيشون طفولتهم على الأقل في مناخ إسباني . ويمضي ربيعاً بعيداً مع فكرته  
لينتهي بها إلى أن العرب القادمين إلى الأندلس فقدوا خصائصهم السلالية  
كجنس سامي ابتداء من الجيل الثالث ، واتخذ من الأمويين أمراء الأندلس  
وخلفائه مادة لتحليله ومثلاً .

ولا أحد يشك ، فيما يقول ، أن الأميرة الأموية التي استولت على الإمارة  
في إسبانيا انتسب إلى أعرق الأصول العربية ، وإذا حاول متخصص في علم  
الأنساب أن يقيم نسباً لهشام الثاني المؤيد فسيلتقى بقائمة طويلة من الأصحاء  
العربية . إلى أن يبلغ بها أكرم القبائل وأعرقها في الجزيرة العربية ، بل  
وسوف تتصل بنسب الرسول عليه السلام ، فهو هشام الثاني ، ابن الحكم  
الثاني المستنصر ، ابن عبد الرحمن الثالث الناصر ، ابن محمد ولم يتول الإمارة ؛  
ابن عبدالله ، ابن محمد الأول ، ابن عبد الرحمن الثاني ، ابن الحكم الأول ،  
ابن هشام الأول ، ابن عبد الرحمن الأول الداخل ، ابن معاوية بن هشام  
ابن عبد الملك بن مروان ، حتى نهاية السلسلة ، أي أننا إذا نظرنا إلى هشام  
الثاني المؤيد من خلال نسبه الأبوي فحسب ، وجدناه عربياً خالص النسب  
تماماً .

ولكن الطبيعة تسلك طريقاً آخر غير طريق الزهو الإنساني ، لأن أي  
وليد ليس نتاج أبيه فحسب ، وإنما لأمه نصيب منه أيضاً ، ونصيب أكبر  
بالتأكيد ، لأنها حملته في بطنها تسعة أشهر وأرضعته عشرة . ولو أعددنا سلسلة  
النسب من جانب الأم ، لخرجنا بالطبع آخر مختلف للغاية .

« نحن نعرف يقيناً أن كل الأمويين الذين تولوا الإمارة في الأندلس ينحدرون من أمهات عشيقات أو جوار ، أى من نساء لسن من أصل عربي ، وطبيعى ألا تولد الجوارى من السلالة الحاكمة ، وإنما بين السلالات المغلوبة ، من الشعوب التى فتحتها الإسلام : كان عبد الرحمن الأول الداخلى ، ابناً لجارية بربرية ، وهشام ابنه ولداً لجارية إسبانية ، أهدتها إلى أبيه ابنة يوسف الفهرى ، وعلى هذا النحو نلتقى بهم جميعاً ،

« وإذا أردنا أن نحدد للعنصر السلالى بطريقة رياضية ، وأخذنا في اعتبارنا جانب الأم ، أضفنا إليها ما يعادها من جانب الأب ، نجد أن نصف عبد الرحمن الداخلى كان بربرياً والنصف الآخر عربياً ، هذا إذا افترضنا نقاء سلالة السابقة تماماً ، وبلغت الأرقام يصبح ٥٠٪ منه عربياً ، و ٥٠٪ منه بربرياً ،

« وابنه هشام الأول ابن جارية غير عربية ، فيه ٥٠٪ من سلالة أمه ، و ٢٥٪ من بربرية أبيه و ٢٥٪ فحسب كل ما تبقى له من العروبة .

« وإذا مضينا مع أحفاده على هذا النحو ، فسنجد أن الحكم الأول ليس فيه من العروبة إلا ١٢,٥٪ ، وعبد الرحمن الثانى ٦,٢٥٪ ، ومحمد ٣,١٢٪ ، وأخوته المنذر وعبد الله ١,٥٦٪ ، ومحمد ولم يتول الإمارة ، ٠,٧٨٪ ، وعبد الرحمن الناصر ٠,٣٩٪ ، والحكم المستنصر ٠,١٩٪ ، فإذا وصلنا إلى هشام المؤيد تهيأت بنا النسبة إلى ٠,٠٩٪ ، أى أن نسبه يحفل بالأسماء العربية ، أما إذا درسنا الأمر رياضياً فليس فيه من السلالة للعربية ما يصل إلى ملليجرام واحد ! .

وقد تساءل خوليان ريبيرا عن السلالة التى ينتمى إليها الأمويون في ضوء نظريته هذه ، فدرس في أناة وثائق بيع الرقيق ، ووجد أن الغالبية العظمى بينهم من شمال إسبانيا ، من غاليسية ، أو جليقية في المصادر القديمة ، أو من مقاطعة ليون ، أو من أشدورياس ، أو من قطلونية ، وانتهى إلى أن هؤلاء الأمويين كانوا ، طبقاً لنظريته السابقة ، إسبانيين دماً ، ولم لا ؟ ألم يكن

عبد الرحمن الناصر أحمر الوجه ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ؟ !

وهي دراسة فيها الكثير من المنفعة ، ومن رياضة الذهن ، ولكنها تبسط الأمور بأكثر مما يجب ، ومما تحتل ، وتجهل من التفاصيل الاجتماعية المعقدة للشبائكة شيئاً ذهنياً مجرداً ، كما لو كانت لعبة شطرنج أو تمارين هندسية ، من الذي قال — مثلاً — إن الإبن يأتي إلى الدنيا حاملاً من خصائص أمه وأبيه نسبة متساوية ، ٥٠٪ لكل منهما ؟ . ليس هناك قاعدة علمية واحدة تحكم هذه الظاهرة ، فما أعلم ، والذي أعرفه أن الطفل يأخذ من أبيه ومن أمه بنسب متفاوتة ، أحياناً ، إلى حد كبير . لصالح الأب أو لصالح الأم ، وأحياناً تعود به هذه الخصائص ، من لون العينين ، وطول القامة ، وشكل الوجه ، وأشياء أخرى جسمية أو نفسية ، إلى أفراد سبقوا في نسبه الأموي أو الأيوبي ، دون أن يكون في أبيه أو أمه شيء مما فيه . ونحن نعرف أن المناخ الاجتماعي بجوانبه المختلفة ، والظروف الطبيعية في مظاهرها المتعددة ، تلعب دوراً هاماً في حقل هذه الخصائص وتطورها ، حتى البيولوجي منها .

نحن إذن مع غوليان ريبيرا في الدور الذي لعبته المرأة الإسبانية ، بوصفها هذا ، في مجال الحياة الأندلسية ، وكان واضحاً ومقدراً ، لكننا لانعابه في لعبة الأرقام التي اعتمد عليها ، وأدارها في مهارة ، وسداجة في الوقت نفسه ، لأن العلم والشواهد التاريخية ، والظواهر النفسية والاجتماعية ، تقف في الجانب المقابل منها .

أما سانشيث البرنس فيصدر في دراساته لتاريخ الأندلس ، وهي كثيرة وعميقة ومتنوعة ، عن روح قوى متشدد ، يضل معه أحياناً جادة للصواب ، ولست أريد أن أعرض لكل ما قال ، ودراساته تقوم على أن المسلمين جاءوا الأندلس خالواً من كل شيء ، وأن الذين كانوا يقيمون على بطحاء شبه الجزيرة الإيبيرية قبل مجيء المسلمين ، وراثة أرقى ثقافة وعادات وتقاليدها ، هم الذين أعطوها الصورة الوضيئة لخصائصها المزهرة والراقية ،

وبحسبي أن أشير إلى كتاب محدود الحجم بين دراساته ، نافع ومفيد ، وزحمه بمصادر لا حدها تتجاوز مادة الكتاب نفسها ، عن «إسلام إسبانيا والغرب (El Islam de Espanay el Occidente)» ، ونشره تحت صور مختلفة ، وآخر طبعة له فيها أعلم صدرت في مدريد عام ١٩٧٤ ، في السلسلة الثقافية الشهيرة : «مجموعة أوسترال» ، التي تصدرها دار «إسباسا كالي» ، وكان قبلها محظورا على الناشرين في إسبانيا ، أن يطبعوا أو ينشروا له شيئا ، لأنه جمهوري ، وكان رئيس حكومة الجمهوريين في المنفى .

تدور مادة الكتاب كلها عن إسبانيا ما قبل الإسلام ، وما أسهمت به إسبانيا الإسلامية في مجال الثقافة والمعمار والموسيقى في إنهاض أوروبا والعالم المسيحي في الغرب ، ولن أقف عند هذا كله ، لأنه خارج عن نطاق القضية التي أعرض لها هنا ، لأنها يهمني منه إشارته إلى قضية المرأة في الأندلس ، ويعرض لها قليلا ، وإشاراته إليها عابرة ، ولكنه يأتي بها في صورة قاطعة ، وهنا موضع الخطورة . فهو يرى أن الأندلسيين كانوا يتيحون للمرأة حرية فريدة في خروجها للشارع ، من الصعب ربطها بالعادات الإسلامية ، والدليل عليها ما أورده ابن حزم في كتابه «طوق الحمامة» ، وروايات تاريخية أخرى معروفة ، فهم يحترمونها ويضعونها موضع التقدير ، وكلاهما إرث إسباني خالص . وقد أشار هنري بريس إلى موقف المرأة المسلمة المتميز بالنسبة للمرأة الشرقية ، وبلغ الأمر بليفى بروفنسال أن صرح بأنهم كن في أيامهن تلك ، على نحو ما يعترف به لمن اليوم في المغرب الأقصى ، بين البيوت الإسلامية ذات الأصل الإسباني ، من حق مشاركة الرجل في كل تصرفاته ، وكما بلغ التأثير مصاحي شبه الجزيرة الإيبيرية أدرك المسلمين الإفريقيين ، وعلى العكس يزيد الأمور وضوحاً ما نعرفه عن دور المرأة في إسبانيا البدائية .

وكان المستشرق الفرنسي هنري بريس أكثر تعقلا من غيره ، فقد

تحدث عن المرأة والحب ، في فصل خاص من كتابه القيم : «الشعر الأندلسي حتى القرن الحادى عشر : جوانبه العامة ، وموضوعاته الرئيسية ، وقيمتها وثيقته» ، وحاول فيه أن يستنطق قصائد الشعراء وإشاراتهم ، وانتهى إلى أن الإسلام استطاع أن يسم المجتمع الأندلسي بطابعه في بعض مظاهره الخارجية دون أن يشككه بعمق ، واستطاعت المرأة رغم كل الضواغط الدينية أن تلعب دوراً رئيسياً ، أوضح مظاهره هذا القلق الذي تثيره فكر الرجل ، ولم تكن المرأة الأندلسية منزوية على نحو ما كانت نظم الإسلام تريدنا أن نراه في كل امرأة مسلمة. وثمة وقائع عديدة تؤكد ما نشعر به من خلال أحاسيس الشعراء القوية . فالرمادى يتجول في يوم جمعة ، بين رياض بنى مروان في قرطبة ، ويلتقى بفتاة شابة تأخذ بجامع قلبه فيحادثها ، ولا يدعها تمضى إلا بعد أن يحصل منها على موعد بلقاء في يوم الجمعة التالية . وكانت هذه الفتاة الشابة تسمى «خلوة» ، وكانت تضع خماراً على التأكيد ، ولكن كيف تنصور رجلاً يستطيع أن يتحدث طويلاً وعلانية إلى امرأة ، على قارعة الطريق ، دون أن يتعرض لنظرات شذوة ، لو لم يكن الجنس اللطيف يتمتع بحرية حقيقية ؟ ، ويستشهد بوقائع متعددة ، في قرطبة وغيرها ، وردت في طوق الحمامة ، أو نفح الطيب ، أو قلائد العقيان ، وفي مصادر أخرى ، دون أن يجزم برأى قاطع . ودعا إلى التفرقة بين ماهو غربي أصيل ، وماهو شرقي وافد ، ورد عدداً من مظاهر حرية المرأة إلى المناخ المسيحي الذي تحرك عليه الإسلام في أرض شبه الجزيرة الإيبيرية .

وموقفنا من مثل هذه الآراء أن إلقاء أحكام عامة ، في قضية اجتماعية كهذه بالغة التعقيد ، تحسن مجتمعاً متعدد السلالات والأديان والطبقات ، عرضة للاختلاف الجسمي ، فالمرأة اليوم في مصر وبلاد عربية أخرى تتمتع بحرية واسعة إلى حد كبير ، تذهب إلى الجامعات ، وإلى بلاد أجنبية لتتعلم ، أو لتاجر ، أو لسياحة ، وتلبس أحدث نماذج الأزياء ، دون نظر لغير متطلبات العصر ، وثمة فتيات أخريات قعيدات البيت ، يؤثرن الانزواء ، أو يراد لهن ، يغطين الرأس ،

ويطلب من الثياب ، ويرين مخاطبة الرجل إلماً ، فهل يعقل  
أن نرسل عن الأندلس حكماً عاماً ، استناداً إلى رواية وردت في كتاب ،  
أو بيت من الشعر جاء في قصيدة ؟

وإذا أخذنا العربية السعودية ، وأخالها من أشد البلاد العربية محافظة  
في قضية المرأة ، وبراها المستشرقون مثلاً بلغ لما هو أسوأ من المحافظة ، وتجاوزنا  
السطح إلى العمق ، الشكل الخارجى إلى واقع الحياة ، فسنجد من الخطأ  
إرسال حكم عام عليها ، لأن المرأة في البادية غيرها في الحاضرة ، وهى  
داخل الجزيرة غيرها فى الخارج . ولقد أتيج لى فى بعض رحلاتى إلى أوروبا  
أن التقي بفتيات سعوديات ، كن مثلاً عالياً فى الشخصية والثقافة والأناقة  
والجمال ، فى مستوى أرقى ما وصلت إليه المرأة فى عالمنا المتحضر .

إنما نجيء أخطاء المستشرقين من المقارنات الخاطئة ، ومن دراسات  
تقوم فى جلها على كتب الفقه ، وهى لا تقدم ما يحدث فى واقع الحياة ، وإنما  
تعكس فى الكثير من الحالات مطامع أصحابها وعقلياتهم وانحرافاتهم أيضاً ،  
ولورجعوا إلى واقع المرأة العربية ، فى حياتها اليومية ، خلال عصر النهضة  
الإسلامية ، قبل أن تزحف على الإسلام ظلمات الفكر الأوربى الوسيط ،  
لوجدوها تعمل إلى جانب الرجل ، وموضع الرعاية والتكريم منه ، وعلى  
مستواه من حماية القانون ، واذا فالقول برقى المرأة الأندلسية لأنها تنحدر  
من أصول غير عربية فيه مجافاة للواقع ، وعدوان على العقل .

والذين يلمحون لأسباب دعائية غير علمية إلى أن المسيحية كانت وراء  
هذا القدر من الحرية ، بقناصون عامدين أن إسبانيا لم تكن وحدها البلد  
المسيحى الذى اجتاحه الإسلام ، فمثلها كان الشام والعراق ومصر وشمال  
إفريقية ، فى جانبه الساحلى على الأقل ، والذين يتشبثون بأسباب الحضارة  
الرومانية ، ينسون أيضاً أنها كانت فى الشام والإسكندرية أوضح منها فى  
إسبانيا ، وهذا إذا سلمنا جدلاً ، وهو أمر غير مسلم ، أن مستوى المرأة

في الحضارة الرومانية كان أرقى منه في الحضارة العربية أو الإسلامية ، وهو أمر ليس عليه شاهد من أحداث التاريخ .

وإذا أخذنا ذلك مثلاً من مقاطعة بروفانس ، في جنوب فرنسا ، على أيام ابن حزم ، ومستصبح أرقى بلد أوربي في تلك الفترة ، وتأثير أندلسي ليس هنا مجال درسه ، فسنبجد مثلاً أن « الزواج يتم بين السيدين ، في ضوء مصالحهما الإقطاعية ، أكثر منه تحقيقاً لرغبة الشاب أو الفتاة ، ومع الزواج يملك الزوج جسد الفتاة كله ، ولم يكن في حاجة أبداً لأن يترضاها في شيء يملكه قانوناً ، وله حق تأديبها مادياً ، بضربها حين لا تقبل أو امره ، أو تشيره ، ثم تزعيجه ، شريطة أن يكون هذا باعتدال ، وألا يؤدي إلى موتها . وكانت التقاليد قاسية جداً على المرأة في حالة الخيانة ، فالمرأة المخونة تسجن في الدير طوال حياتها ، وإذا ضبطت مثابة ، فإن الزوج يأتي بأولادها ليشهدوا لحظة إعدامها . أما للزوج الخطيء فكان على التقيض ، يخرج سالماً من أوسع الأبواب ،

« كان العصر الأوربي الوسيط ، بتأثير المسيحية ، عدواً للدودا للمرأة ، ولم يعطف عليها رجاى الكنيسة أبداً ، ولا تأتي في كتاباتهم إلا مقرونة بوصف مسيء ، فهى : ذكرى مزعجة ، والطريق إلى النار ، وسلاح الشيطان ، وحارس جهنم المتقدم ، وشيخ إبليس ، وسهم الشيطان ، وغيرها من النعوت ، نجد ذلك عند سان يوحنا ، وسان أنطونين ، وحنا الدمسقى ، والقديس جيروم ، وغيرهم . وسار على طريقهم من بعدهم كل الدعاة ، ورجال الأخلاق ، وهكذا ظلت قلوب رجال الدين طوال العصور الوسطى مغلقة في وجه المرأة ، ومغلقة بالقسوة ، وكان الفرسان الحديديون ، العائدون من الشرق الأوسط ، بعد الحروب الصليبية ، أو من الأندلس بعد غاراتهم أو رحلاتهم أو مساعدتهم لرفاقهم في الدين هناك ، أول من اعترف بها إنساناً لطيفاً . لقد عاش هؤلاء يغفون بالعمالة ، لا يشغلون أنفسهم بغيرها ، حتى ولا ما اتصل منها بالدين نفسه ، وإذا لم تؤد الحروب الصليبية إلى

النتائج المنتظرة من الاستيلاء على الأرض المقدسة ، وامتلاك بيت المقدس ، فقد أدى الاصطدام بين الشرق والغرب إلى نتائج هائلة ، في المجالين الاقتصادي والاجتماعي على الأقل ، فترك الشرق ، وكان أغنى ثروة وأرقى حضارة ، تأثيراً واضحاً في حياة الصليبيين ، وصرعان ما نهذبت هذه الأعداد الكبيرة ، بقدر لا يتصور ، فدرجت على تذوق الترف ، وتفتح عقلها وخيالها على ألوان من الحياة الراقية كانت تفتقدها تماماً . وفي حروب دينية كهذه لم يعفوا عن حمل الثروات والغنائم ، وما أسرع ما غيروا عاداتهم عندما عادوا إلى أوطانهم . وعاصرت الحروب الصليبية نمو التجارة في البحر الأبيض المتوسط ، وفي الموانئ الإيطالية بخاصة ، وشهدت أيضاً ازدهار المعارض التي تحمل كل منتجات الشرق : السجاد والمرايا والتوابل والأقمشة الجميلة ، وتحمل اسم دمشق موطن صنعها .

وشهدت بداية العصر الوسيط احترام المرأة في أوروبا ، وارتفاع الكنيسة إلى مستوى الفرسان ، وشعراء التروبادور من هؤلاء هم الذين انتقلوا بها من مخلوق لا يلعب في الملاحم وفي الحياة دوراً أكثر من عبادة الله والسيد والوطن ، إلى شيء جميل يحترمونه ، ويتغنون به ، ويغنون له ، ويعتبرون النسامي به ، والتذلل له ، والدوب صباية في حبه ، خلقة كريمة ، وعادة مرعية ، وشرفاً لا يبلغه غير الفرسان .

\* \* \*

كيف وجد المسامون المرأة في شبه جزيرة إيبيريا غداة الفتح الإسلامي ؟ سؤال من الصعب الإجابة عليه ، لأننا تفتقد الوثائق التي تساعدنا على تحديد موقف المرأة ، والبناء الأسرى الذي كان سائداً في المجتمع الغربي بين القرنين الثامن ، وتم الفتح الإسلامي في بدايته ، والقرن الحادى عشر وعاش فيه ابن حزم جل حياته ، ومعها بدأت دول شمال الأندلس المسيحية تأخذ شكل مجتمع متميز ، رغم حاجتنا الشديدة إلى هذه المعرفة ، ذلك أن المرأة الأندلسية في جمهورتها الغفيرة هي أولاً وقبل كل شيء

إسبانية ، سواء أكانت حرة أم رقيقة ، زوجة أم عشيقة ، مولدة أم مستعربة . والفيل الذي وصلنا عنها ناقص ومضطرب ومتناقض :

والحضارات التي تركت في أوروبا تأثيراً واضحاً ، وهي : ما قبل الرومانية والرومانية والجرمانية والمسيحية كانت توجه المجتمع الغربي نحو التخصيب على المرأة ، وتضع عليها قيوداً لن تلتقي بها في الحياة الأندلسية فيما بعد ، وكلها تؤكد تميز الرجل ، فالفتاة تخضع لأبيها ، وإلى الأكثر قرباً عند غيابها ، ثم لزوجها فيما بعد ، وفضلاً عن ذلك كانت روما تعرف وأد البنات . ويبدو أن المرأة تمتعت بين القرط ، وهم الذين حكموا الأندلس لحظة الفتح الإسلامي ، بقدر أكبر من الاحترام ، فنعرف أن من الرشد لها في القرن السادس الميلادي كان مساوياً لسن الفتى ، وأنها أهل لأن تتولى الوصاية على أبنائها إذا كانت أرمل ، وأن تزوج ثانية إذا أرادت ، ويتوقف الزواج على موافقتها ، ويصبح المهر الذي يقدمه الزوج حقاً لها ، ومنذ القرن السابع نجدها في القانون القوطي تتساوى مع الرجل في الميراث . ومن المؤكد أن هذه الحقوق ظلت نظرية في جانب منها ، واقتصرت في جملتها على طبقات اجتماعية معينة وتجدر الإشارة إلى أن هذه الحقوق دون ما تمتع به المرأة العربية والمسلمة ، واقعاً ونظرياً بكثير . وينبغي ألا ننسى أن المنصر العربي على قلبه ، أعطى إسبانيا اللغة والعادات والنظم والدين ، ونماذج الحياة المشرقية ، ولون المجتمع الأندلسي بمثله ، وكلها عربية ، وفيما يرى أمير كوكاسترو : « التعريب اللغوي يحمل معه التشريق العقلي والعقلي ، وعلمنا أن نضع في الاعتبار دائماً أن تطبيق لغة سامية وانتشارها ، وإجلالها طجة مشنقة من اللاتينية ، لا بد أن يؤدي إلى عدد من النتائج من بينها تطوير العقلية » .

\* \* \*

نماذا تحدثنا نصوصاً « طوق الحمامة » عن المرأة ؟ . لقد عرض الباحثون الكتاب كثيراً بوصفه درامة في الحب وعن الحب ، لكن أحداً لم يقف

طويلاً لإزاءة يمكن أن يضيفه إلى معرفتنا بالحياة الاجتماعية في الأندلس خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، وسندرس هنا صورة المرأة فى قرطبة من خلال الطوق لالكى ندهم فكرة أوتناهض أخرى ، ولأننا لنصل إلى تصور قريب عما كان عليه حالها واقعاً فى الحياة على أيام ابن حزم :

وعندما يتحدث ابن حزم عن المرأة فى قرطبة فلأنما يفعل ذلك خبيراً بهن ، عالماً بأمورهن ، فهو فيما يحدث عن نفسه : « شاهدت النساء ، وعلمت من أسرارهن ما لا يعلمه غبرى ، لأنى ربيت فى حجوهرهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب ، وحين تغيب وجهى ، واهتم بالبحث عن أخبارهن ، وأنسن منه الكتمان فكشفن له عن أسرارهن ، وأطلعن على غوامض أمورهن ، وأشرف من أسبابهن على غير قليل ، فشب يعرف الكثير من دخائل القصور ، ومؤامرات النساء ، وحيل الجوارى ، وأكسبه ذلك شكاً فيهن ، وسوء ظن فى جهنهن . ولكنه لم يورد لنا كل ما عرف ، ولم يحدثنا بكل ماسمع ، فأبقى على عورات يستعاذ بالله منها فى طى الكتمان ،

وأول ما نلاحظ فى حديث ابن حزم أنه يقف عند نساء الطبقة العالية ، أى فتيات الأسر التى ينتمى إلى طبقتها ، وحتى الجوارى منهن يتصل حديثهن برجال هذه الطبقة ، ولم يعرض لنساء مشرقيات إلا نادراً ، فى مجال الموازنة ، أو بالذقة فى ثلاث حالات هى وجه الحصر : عرض لقصة جرت فى القاهرة ، حين أحب العزيز الفاطمى خليفة مصر ، جارية شغلته عن مولد ابنه المنصور ، والذى سيصبح فيما بعد خليفة مصر ، ودخل التاريخ تحت اسم الحاكم بأمر الله . وحكاية موجزة لقرطبي كان فى بغداد ، هام بعراقية ، وتزايد عليه أسرها ، وخشى الفتنة ، فمخرج إلى البصرة ومات بها عشقاً . والحكاية الأخيرة رواها أبو بكر محمد بن بلى الحجرى عن نفسه ، فقد التقى فى

بغداد بابنة وكيلة الخان الذى ينزل فيه ، فأحبها وتزوجها ، ولما كنها فارقت  
لسبب لا أرى ذكره مناسباً هنا (١) .

وأم يتعرض للمرأة فى الطبقة للوسطى أو الدنيا ، ولا نجد لديه ولا إشارة  
واحدة ، حتى ولو من بعيد ، عن المرأة المستعربة أو اليهودية ، وهو أمر  
طبيعى من رجل لا يكتب بحثاً ، وإنما يدفع بذكرياته ، وما رأى أو سمع ، من  
خلال دراسته عن الحب ، وما كان لأى من هاتين الطبقتين أن ترتفع إلى  
مجلس ابن حزم ، خارج نطاق الدرر ، ولم يجلس فيه أستاذاً إلا بعد سنوات  
من تأليفه « الطوق » ، أو يبرر أحداثها نصيباً ، من اهتمامه ، وبداهة كانت  
تحب وتعشق وتتحرك فى حياتها العاطفية داخل قيم ، قد تلتقى أو تختلف مع  
مثل الطبقة العليا ، ولما كانت متأثرة على التأكيد بوضعها الاقتصادى والطبقى  
الذى تعيش فيه .

يهدف كتاب « طوق الحمامة » إلى تحليل المشاعر العاطفية ، ومواقف  
العشاق ، ويأتى الحديث عن المرأة فيه بوصفها ط. فأفى هذه القضية ، وليدعم  
ابن حزم آرائه بأورد عدداً من الوقائع الغرامية حدثت فعلاً ، ولو أنه يصعب  
علينا فى أحوال كثيرة أن نحدد نوع المحبوب : أهو فتاة أم غلام ، أو نعرف  
ظروفه الاجتماعية ، وأحياناً ترد القصص فضفاضة ، يعسر علينا أن نستنتج  
منها شيئاً محدداً ودقيقاً ، ويعتمد ابن حزم ذلك ، حفاظاً على أسرار الناس ،  
واحتراماً لحياتهم الشخصية ، وكثيراً ما يكتفى عن الأسماء ، لأنها « إما حورة  
لا نستجيز كشفها ، وإما نحافظ فى ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً » ،  
واكتفى بأن يسمى من لا ضرر فى تسميته ، ولا يلحقه والمسمى عيب فى  
ذكره ، « إما لاشتهار لا يغنى عنه العلى وترك الثبين ، وإما لرضا المخبر  
عنه بظهور خبره ، وقلة إنكاره منه لنقله » .

ولفصص المتصلة بالحوارى أكثر من تلك التى يرد فيها ذكر الحرائر ،  
وكلمة «جارية» فى كتاب « الطوق » تستحق وقفة معتأبة . لقد وقف  
أورتيجا إى جاسيت فى مقدمته التى ترجمناها ، وأوردنا نصها فيما مضى من صفحات  
عند كلمة « الحب » ، وتعامل عما إذا كان فقه اللغة العربية قد توصل إلى تحديد  
دقيق لمفهوم اللفظ عند عرب الأندلس فى القرن الحادى عشر ؟ . وبدورى  
أوجه السؤال نفسه : ترى ما هو مفهومهم « ومفهومنا » لكلمة « جارية »  
عند ما ترد فى نصوص « طوق الحمامة » ؟ .

نجد المرأة القرطبية محبوبة خلال « طوق الحمامة » فى ثلاثين موقفاً ،  
وكلهن يتبعن إلى الطبقة العليا دون شك ، وفى خمسة وعشرين منها نجد  
أنفسنا . بإزاء حب المؤلف نفسه ، أوجب واحد من أصدقائه ، أو شخصية  
معروفة له ، لواحدة يصفها بأنها « جارية » ، وفى الحالات الخمس الباقية  
يشير إلى نساء حرائر صراحة ، من الطبقة نفسها ، على قدر كبير من الثقافة  
والرقى والصقل ، لا يقل عما كانت عليه الحوارى ، ويلعبن فى الحياة العاطفية  
والاجتماعية دوراً ملحوظاً ومتقدماً . وفيما يتصل بالأحداث العاطفية المتصلة  
بالحوارى نحن بإزاء لونين منهن : حالات ينص فيها ابن حزم صراحة على  
أنهن جوارى تجرى عليهن أحوال البيع والشراء ، أو يدعنا نفهم ذلك يقيناً ،  
وفى حالات أخرى صمت وتركنا فى حيرة ، ولو أن جو الأحداث يجعل  
من المؤكد أن « الجارية » فى مثل هذه الروايات فتاة حرة ، وأن اللفظ يعنى  
صفة لها ، إيماء إلى ما هى عليه من ثقافة وصبى وجمال ، وأحياناً تأتى فى  
سياق من المستحيل معه أن تكون أمة رقيقة . والكثرة الغالبة من المستشرقين  
أقامت دراساتها على أن لفظ « جارية » يعنى دائماً أنها رقيقة مشتراة ، والقلة  
تجاوزت اللون الأخير ، الذى عرضنا له ، دون أن تتوقف عنده أو تبني  
عليه حكماً .

إزاء هذا الواقع بدا لى من المفيد أن نحدد أولاً معنى كلمة « جارية » .  
إذا عدنا إلى المعاجم العربية ، وهى بداية طريقنا لتحديد المحتوى ، وجدنا

أنها تعنى فى القاموس المحيط للفيروزى : « فتية النساء » ، وفى ديوان  
الأدب للفارابى : « التى نهى ثديها » . وتوسع المصباح المنير للفيروزى ، وتميز  
من بين كل المعاجم بأنه يشير إلى الدلالات الفقهية للألفاظ ، فذكر أنها  
« الشابة الخفية » ، والجارية السفينة ، سميت بذلك لجريانها فى البحر ، ومنه  
قيل للأمة جارية ، على التشبيه ، لجريانها مستسخرة فى أشغال موالها ،  
ثم توسعوا حتى سموا كل أمة جارية ، وإن كانت عجوزاً لا تقدر على  
السعى ، تسمية بما كانت عليه . فأنت ترى أن كلمة جارية يراد بها لغة ،  
فى الأصل : « الفتاة السكاعب الشابة » ، وأضيف أنا ، أنها كانت تطلق  
فى قرطبة على الفتيات والشابات ، من العرائر أيضاً ، ممن يجمعن هذه  
الصفات ، وصفات أخرى ارتبطت بالجوارى فى تلك الأيام ، من التربية  
العالية ، والثقافة الواسعة . والعواطف الدافئة ، والتمكن من الموسيقى ،  
عرفاً وتذوقاً ، ومعرفة الغناء ، وحفظ الشعر ، وألوان من الجمال المحسى ،  
كبياض البشرة . وشقرة الشعر ، وزرقة العينين ، مما حدثنا عنه ابن حزم  
نفسه ، وسنعرض له فيما بعد .

إذن ليست كل جارية « رقيقة » فى كتاب الطوق ، وتجاهل هذه الحقيقة  
أدى إلى أخطاء فادحة فى تقييم وضع المرأة الأندلسية ودورها ، وغراميات  
ابن حزم الثلاثة ، التى تحدث عنها فى الطوق ، تدور حول جوار . فى  
إحداها يقول : « أحبيت فى صباى جارية ... » ، ثم يضيف : إنها  
نشأت فى دارهم ، وأسكننا سوف نجد فى منتصف الطريق من القصة ،  
أنها لم تنتقل معهم ، حين تركت أسرته منية المغيرة إلى مساكنهم القديمة فى  
بلاط مغيب ، لأسباب لم يفصح عنها ، واكتفى بقوله : « ولم تنتقل بانقالنا  
لأمور أوجبت ذلك » .

أما فى القصة الثانية فيقول : « كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم  
حباً بجارية لى ، كانت فيما خلا اسمها نعم ... » . وتلاحظ هنا أنه أضاف  
الجارية لنفسه ، وأعطانا اسمها ، وتركز تفهم فى لياقة أنه بلغ بحبه لها غايته ، فحرف

الحياة معها لأول مرة ، وأصبحت هي على يده امرأة ، وكانت المودة بينهما متكافئة ، وأن الموت اخترمها منه فتية ، كان حين مانت في سن العشرين ، وكانت هي دونه ، وأقام بعد وفاتها سبعة أشهر حزناً عليها ، لا يتجرد عن ثيابه (١) ، وأنه بكأها طويلاً ، على شحيح دمه ، وجمود عينه .

وأما القصة الثالثة : فجرت في بيت امرأة من معارفه مشهورة بالصلاح والتقوى ، ومعها « جارية من بعض قراباتها . . . » من اللاتي قد ضمها معه النشأة في الصبا ، ثم غاب عنها أعواماً ، تركها حين أعصرت ، وعاد فوجدها جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب ، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت في وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت ، وانبعثت في خديها أزاهر الجمال فتعت واعتمت ، وكانت من أهل بيت صباحة ، وظهرت على صورة تعجز الوصف ، وطبق وصف شبابها قرطبة ، وبات عند المرأة التي يعرفها ثلاث ليال متوالية ، ولم تحجب عنه الجارية ، على جاري العادة في التربية ، وكاد قلبه أن يصير ، ويثوب إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسى الغزل ، وامتنع بعد ذلك من دخول هذه الدار ، خوفاً على لبه أن يزدهيه الإحسان ، رغم أنها وجميع أهلها ممن لا تتعدى الأطماع إلين ، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل .

قابن حزم ، كما ترى ، يستخدم في مغامراته الثلاث لفظاً واحداً ، ومع ذلك فأتت لانتشك أنك في المغامرة الثانية أمام جارية أمة ، أحبا وتركزت في أعماقه ذكرى آسية ؛ ولكنها ذكرى موصول استمتع ، حزين على ماضع منه . على حين يتحدث في الثالثة عن فتاة حرة يقينا ، تنادى جارية دلالة ،

---

(١) التعبير لابن حزم ، ومعناه في لغة المعاطف ، الخاصة غير ما يفهم من ظاهره تماماً ، إنه يعني أن ابن حزم لم يمارس . الحب طوال هذه الشهور السبعة ، على نحو حلال طبعاً ، مع زوجة له ، أو جارية ملكتها يمينه ، وليس المراد منه ، كما يفهم من حرفيته ، أنه لم يغير ثيابه طوال هذه المدة . والتعبير مستخدم حتى الآن بين عدد كبير من القبائل العربية المقيمة في أعلى صعيد مصر ، وبعضها قدم من المغرب .

لأن الجارية لا تعجب ، وهي مريض الطمع ، وليست لها عائلة تنسب فيها ، وإنما لها مائة ينصرفون في شأنها ، وقتها هنا على التقيض من ذلك كله ، من بيت كريم ولها أهل ، وليست مضمعا لأحد ، فاختصر الطريق وأمسك بنفسه عن الزلل ، وامتنع من التردد على بيتهم . ويرجع بك الظن إلى الأولى رجحاناً لا يبلغ حد اليقين ، أن الجارية فيها حرة وليست من الإماء ، لأن ابن حزم أشبهها ، وتابعها في إصرار ، وصدته في لطف ، وبقي على الرغبة فيها عامين كاملين ، ولو كانت من الجوارى حقاً ، تباع وتشترى ، لاشرأها لنفسه ، أو لاشرأها له أبوه ، أو لأفصح عن رغبته هذه على الأقل ، واقتد عرض أكثر من مرة لبيع وشراء الجوارى العاشقات أو المعشوقات .

وقد تتبع استخدام اللفظ ، في وقتنا الحاضر ، في بعض مناطق من العالم العربي ، فوجدت القبائل العربية التي استقرت في أعلى الصعيد من جنوب مصر ، قادمة من المغرب في القرن الحادى عشر الميلادى وما تلاه ، والأندلسيين الذين استقروا في الجزائر أو المغرب أو تونس ، بعد طردهم من وطنهم عام ١٦١٣م ، ما زالوا يستخدمون الكلمة في حياتهم الأسرية ، يتنادى بها الرجل زوجه تدليلاً لها وتودداً إليها : يا جارية ! .

وتحدث ابن حزم أيضاً عن فتيات حرائر ، يذكرهن بأسمائهن حيز لا يسمى ذلك إليهن ، ولا بمس القاعدة التى اختطها لنفسه في أول الطوق ، وأشرنا إليها من قريب ، وكنهن ينتسبن في الطبقة العالية التى ينتمى إليها ، ونعرف من روايته أنهن لسن دون الجوارى ثقافة وتمكناً من المعارف العامة ، وإجادة للفنون الجميلة وإقبالاً عليها ، فهو يحدثنا عن ضنى العامرية ، كريمة المظفر عبد الملك بن أبى عامر ، التى ولت الحجاب بعد أبيه ، وكان يقرب منه هيبة ونفوذاً وإن قصرت أيامه . ونعرف أنها تعزف الموسيقى ، وتصنع الألحان لنغمها وتطلب من ابن حزم أن ينظم لها شعراً تلحنه ، وتتغنى فيه .

وعرض ابن حزم مرة واحدة لحالة فى أسرته ، وذكرها بالاسم ،

حين حدثنا عن الحب العنيف المتبادل بين أخيه أبي بكر ، وزواجه عاتكة بنت قند ، وكانت فيما ، يقول : لا مرمى وراءها في جمالها ، وكرم أخلاقها ، وكان أبوها قائد الثغر الأعلى على أيام المنصور ابن أبي عامر ، وقد شفها حبه ، وأضناها الوجد فيه ، وأحلمها شدة كلفها به ، وأكانا في حد الصبا وتمكن سلطانه ، لا يلهيها من الدنيا شيء ، ولا تسر من أموالها على عرضها ونكائرها بقليل ولا كثير ، إذا فاتها اتفاقه معها ، وسلامته لها . فلما توفي في الطاعون الذي اجتاحت قرطبة عام ٤٠١ هـ - ١٠١١ م ، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، لفها السقم والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام . ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وهي كذلك لم يكن لها غيره .

وتستطيع المرأة في المجتمع القرطبي إذا فاضت مشاعرها أن تعشق ، وأن تعبر عن عشقتها ، وأن تأخذ زمام المبادرة ، وأورد لنا ابن حزم مثاليين لهذا ، فتاتين حريتين ، وكليةما من طبقة على جاري عادته ، ذكر اسم الأولى ومن أحبته ، لأن غرامهما انتهى بالزواج ، وفارق الزوج والزوجة هذه هذه الدنيا في زمن متقارب ، قبل أن يحرر كتابه بسنوات ، فلم يجد في ذكر الأسماء حرجا ، وهي عاتكة بنت قند وأخوه أبو بكر ، على نحو ما ذكرنا من قريب . أما المثال الثاني فعن فتاة من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد ، وأطلق عليها لفظ « جارية » ، رغم أنها حرة أكيدا ، لأن صاحبها كانت فيما يبدو على قيد الحياة ، وهو يكتب « طوق الحمامة » ، فلم يرد أن يكشف حالها ، ولأن الشاب الذي عشقته كان أكثر من صديق ودود لابن حزم ، فهو يصفه بأنه : « من إخواني جداء » ، وكان الفتى من أبناء الكتاب ، وبلغ بها حبه مبلغ هيجان المرار الأسود ، وكادت تخفط ، واشتهر الأمر وشاع جداء ، حتى علمه الأبعاد ، إلى أن تدوركت بالعلاج .

وكان الذين يجمعون إلى المركز الاجتماعي المرموق ، صياحة الوجه ، ورجاحة العقل ، واكتمال الصورة ، وارتقاء السلوك ، يصبحون مهبط

الأطماع ، وقبلة الفتيات ، ومحدثنا ابن حزم أن أبا حامر ، ابن المظفر عبد الملك الحاجب الثاني للعامرين ، وحفيد المنصور بن أبي حامر ، كان جاراً لهم ، وبينه ملاحق لبيتهم ، حين كان آل حزم يسكنون منية المغيرة في الجانب الشرقي من قرطبة ، ويصفه بأنه « من أهل الأدب والحلق والذكاء والنبيل والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم ، والمنصب الفخم ، والجاء العريض » ، وحسن الوجه ، إذا صار إلى بينهم تحفظته عيون الفتيات ، وتزاحمن على رؤياه ، ومات كثيرات من محبته ، لأنهن علقن أو هامهن به ، وخانن ما أملنه فيه ، ويقدم لنا ابن حزم واحدة منهن ، جارية تسمى هفراء ، عرفها وعهدا لا تنستر بمحبته حيث جلست ، ولا تجف دموعها ، ويضيف أن أبا حامر أخبره بأنه « يمل اسمها فضلاً عن غير ذلك » .

ويقص حديث امرأة مربية النشأة ، عالية المنصب ، غايظة الحجاب ، رأت فتى من أبناء الكتاب عابراً قرب منزلها ، فعلقته وعلقها ، ونهادياً المراسلة زماناً على أرق من حد السيف ، ويتركنا ابن حزم عند هذا القدر من القصة لا يزيد شيئاً ، لأن بطليها معاصرين له ، والمعاصرة حجاب ، وبهتلر لنفسه : « لم أقصد في رسالتي هذه كشف الحيل وذكر المكائد » ، ويدعو الله لهما ، ولجميع المسلمين ، أن يسبل عليهم ستره .

كانت المرأة الأندلسية إذن تتمتع بقدر من الحرية لا بأس به ، إذا قيص الأمر بأحوال تلك الأيام ، وهي حرية تتحرك في نطاق تقاليد العصر نفسه ، ومن الخطأ أن نوازن بينها وبين واقع المرأة في العالم المتحضر على أيامنا . مثلاً لم يكن طابع الحياة الاجتماعية يسمح بالاختلاط في دائرة واسعة على النحو المهود بيننا ، ولكن الرجال والنساء كانوا يلتقون في ساحة الدرس ، وفي السمر العائلي ، وفي الحفلات الاجتماعية ، وأعجبوا ابن حزم حين رد حجب الفتيات عن الفتيان الأجانب عن الأمرة في البيوت ( ١٢م - ابن حزم )

إلى جارى العادة وحدها ، فهو يقول عن الغداة الجميلة التى التقى بها عند  
سيدة من معارفه بأنها : « لم تحجب عني على جارى العادة فى التريبة » ،  
والعادة تختلف من طبقة إلى أخرى ، وتنمايز بين جماعة وجماعة ، وتتفاوت  
من جبل إلى جبل ، وهو نفسه يحدثنا عن جارية اشتد وجدها بقى من  
أبناء الرؤساء ، « حفيف ومتصاون وبعيد عن المعاصى ، ولا هلم عنده ، وكثر  
غمها ، وطال أسنمها ، وضربت بحبه » ، وهو بغرارة الصبا لا يشمر ، ويمنعها  
الحياء من إبداء رأيها إليه ، « وكانا ألفين فى النشأة ، فلما تمادى الأمر  
شكت ذلك إلى امرأة صائبة الرأى ، كانت تثق بها لأنها قامت على تربيتها ،  
فنصحتها بأن تعرض له بالشعر ، ففعلت المرة بعد المرة وهو لا يابى بها ،  
إلى أن عيل صدرها ، وضاق صدرها ، ولم تمك نفسها فى قعدة كانت لها  
معه ، فى بعض الليالى منفردين ، فلما حان قيامها عنه ، بدرت إليه فقبلته  
فى فمه ، ثم ولت ولم تكلمه ، تنهذى فى مشيها ، فبهت وسقط فى يده ،  
وفت فى عضده ، وكان هذا بدء الحب بينهما دهرآ ، إلى أن جذبت جملتها  
بد التوى : »

وسيدات الطبقة التى منها ابن حزم وخبرها « مقصورات » ، « ومحجوبات »  
على حد تعبيره ، ولكن كلمة « مقصورة » أو « محجوبة » لا تعنى  
أنهن معزول عن الرجل ، وأن أسواراً عالية وصفيفة من المنفرة تقوم بينهما ،  
ولنما تشير إلى مركزهن الاجتماعى من الثراء والرفاهية ، فهن لا يفارقن  
البيوت عاملات أو ساعيات فى طلب الرزق ، ولهن من الخدم والأعوان  
ما يغنيهن عن الخروج ، فهن يقضين حياتهن فى البيوت - أى بيوت -  
يجلسن جماعات ، تأنين الأخبار ، وينادلن آخر الإشاعات ، ويحببن على  
الوصف « أقاربهن من الرجال » ، وحب الفداء فى هذا أثبت من حب  
الرجال ، ويقص علينا ابن حزم « خير صديق له من مروات الرجال » ،  
دهى بمحبة جارية مقصورة ، وهام بها ، « وقطعه حبه عن كثير من مصالحه ،  
إلى أن كانت هى التى تعدله على ما ظهر منه ، ومما يقوده إليه هواه . فكيف

تأتى لهذه « المقصورة » أن تعذله له لو لم تكن تلقاه. وتحدث إليه ؟

ويدرك ابن حزم واعياً دور الفراغ والتبطل ، والترف مع القدرة ، والسلامة والصحة ، في حياة المرأة ، وكيف يصبح الزواج معها مظلماً وغاية وجهية ، وإليها يرد دوران فكرها حول الجنس ، وإلحاحها عليه ، وما أعلم عاة تمكن هذا الطبع من الذماء ، إلا أنهم متفرغات البال من كل شيء ، إلا من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لاشغل لمن غيره ، ولا يختن لسواه . والرجال مقتسمون في كسب المال ، وصحبة السلطان ، وطالب العلم ، وحيطة العيال ، ومكابدة الأسفار ، والصيد وضروب الصناعات ، ومباشرة الحروب ، وملاقة الفن ، وتحمل المخاوف ، وعمارة الأرض ، وهكذا كله متخيف للفراغ ، صارفت عن طريق البطل « وهى لغة هصرية ، رغم ألف عام مضت عليها ، نحسب لابن حزم ، وتلتقى مع أحدث نظريات علم النفس الحديث .

وقدم لنا ابن حزم عرضاً ، وفي إلماحات خاطفة ، ألواناً من المهن التى أسهمت فيها المرأة أو اختصت بها ، من غير طبقته بالطبع ! ، فهى تعمل مربية ومدرسة لأبناء الطبقة العليا ، وتربى هونفسه على يدها ، تعلم معها القرآن ، وأجاد الخط ، وتذوق الشعر ، ومنهن كانت الطيبة والحجامة ، والسراقة والدلالة ، والمأشطة والنائحة ، والمغنية والكاهنة ، والمعلمة والمستخفة ، والصناع فى المغزل والنسيج ، وما أشبه ذلك . ومن نافلة الحديث القول بأن المرأة فى الطبقة العليا كانت تحسن الموسيقى ، وتعزف ألوانها المختلفة ، وتجيد الغناء فى ألحان تصنعها أو تصنع لها ومن بينهن الثريات اللاتى تتميز أملاكهن عن أملاك أزواجهن ، ويدرنها لحسابهن ، أملاك هريضة وواسعة ومن الحوارى من كانت للبهجة والمعاشرة ، فهى مثقفة قارئة ، تغنى وتجيد الموسيقى ، وتقرض الشعر ، وتنشده لغيرها إن لم تحسن نظمه ، ومنهن التى ليست على شيء من ذلك ، أو حظها منه قليل ، فهن للخدمة وما شق من أعمال البيت .

وكانت المرأة تراسل مع من تحب ، وتناقى رسائله أيضاً ، وقد  
لنا ابن حزم ألواناً من هذا التراسل ، صوره وطرائقه وحيله وكيفية  
يجرى ، فالرسالة تسمى في « لطف الأشكال » وجنسه أملح الأجنام ،  
وهي لا تعنى أن اللقاء بين الاثنين عسير دوماً ، فقد تكتب لهذا السبب ،  
أو لأنها أبلغ تعبيراً في بعض الأحيان ، لحصر في الإنسان ، أوجاء أو هيبة ،  
وبعض أهل المحبة ممن كان يدرى ما يقول ، ويحسن الوصف ، ويعبر عما  
في ضميره بلسانه عبارة جيدة ، ويجيد النظر ويدقق في الحقائق ، لا يدع المراسلة  
وهو ممكن الوصول ، قريب الدار ، أرى المزار ، ويحكى أنها من وجوه القلة ،  
ويحمل الرسائل عادة النساء من ذوات المهن الثلاث أشرت إليهن من قريب ،  
وكان دخولهن إلى البيوت سهلاً وميسوراً ، إلى جانب من لا يخشى خطره ،  
ولا يلفت النظر إليه ، لأنه خامل لا يؤبه به ، ولا يهتمدى للتحفظ منه ،  
من الصبيان وأصحاب الهيئة الرثة ، أو البذاذة في الطلعة ، ومن لا يلحق  
الشك به لنسك يظهره ، أو سن عالية قد بلغها ، وبدواً دور النساء العجائز  
بين هؤلاء كان أكثر شيوعاً ، ينفذون إلى الحجب المصونة ، ويحرقن الأستار  
والكتيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، ويعرف ابن حزم أمثلة  
واقعة لكل هذا ، ولكنه لا يذكر أسماء أصحابها ، ولا يزيد الأمر توضيحاً حتى  
لا يئنه عليها ، ويكتفى بأن يؤكد على « ذوات العكاكيز والنسايح ، والثوبين  
الأحمرين » ، ويشير إلى أن الفتيات الشابات كن يتلقين التحذير منهن ،  
ويحدث أحياناً أن تستخدم المرأة أو الرجل حاملاً لرسالة ذا قرابة من المرسل  
إليه ، لا يضمن معها عليه بهذا العون . وكان المقتدرون يستخدمون الحمام  
للزاجل أحياناً .

وكان العشاق يتبادلون الهدايا ، حل قدر متساو بين المرأة والرجل ،  
نعرف ذلك من ألوان الهدايا التي ذكرها ابن حزم ، ويبدو أن الأمر كان  
شائعاً ، فقد جاء به عالم قرطبة الكبير مؤكداً في أسلوب القصر :

« وما رأيت قط متعاشقين إلا وهما ينهadian خصل الشعر بمبخرة بالعنبر ،  
عرشوشة بماء الورد ، وقد جمعت في أصلها بالمصطكى ، وبالشمع الأبيض  
المصفى ، ولفت في تطاريف الوشى والخز ، وما أشبه ذلك ، لتكون  
تذكرة عند البين . وأما نهادى المساويك بعد مضغها ، والمصطكى إثر  
استعمالها ، فكثير بين كل متحابين حظر عليها اللقاء . »

ونعرف أن الزواج كان يتم في سن مبكرة للغاية ، فقد تزوج أبو بكر ،  
أخو ابن حزم ، في الرابعة عشرة من عمره تقريباً ، على ما نفهم من قصة له  
في الطوق ، ونفترض أن زوجته كانت في مثل هذه السن تقريباً ، إن لم تكن  
أصغر قليلاً ، فقد توفي في الطاعون الذي اجتاح قرطبة في يولية من عام ١٠١١م ،  
في الثانية والعشرين من عمره ، بعد زواج استمر ثمانية أعوام . والعجائز كن  
يلعن دوراً في تهمة الظروف بين الخطيبين ، فالمرأة إذا أسنت وصاحت ،  
واقطع عندها الرجاء ، انصرفت إلى العبادة ، ونسكت بعمل الخير ، فهي  
قذلل العوائق ، وتحمل الرسائل ، وتحفظ السر ، وأحب الأهمال إياها ،  
أو أراجها لقبول سعيها في تزويج يتيمة ، أو إعاره ثيابها وحليها لعروس مقلة ،  
ويؤثر أبناء الطبقة العليا أن يتزوجوا من فتيات ينسبن في طبقتهم نفقها ،  
على جانب ما ينسرون ، وتدخل الأم إذا حاد ابنها عن هذا النهج ، ويقص  
عليها ابن حزم أن يحيى بن محمد بن عبدة ، وهو من بيت قرطبي عريق ،  
أراد أن يتزوج من جارية كانت في بيتهم ، فباعها أمه على غير إرادته ،  
وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريات ، ففقد عقله ، وأصيب بالجنون ،

ونعرف من « الطرق » أن رجال الطبقة العالية يفضلون الشقراوات ، وكن  
للعنصر الغالب بين نساء الأندلس فيما يبدو ، وكانت لهم صاحبة ابن حزم التي  
عرضنا لها من قبل شتراء ، ولم يكن يرضى بغير الشعر الذهبي بدبلاً حتى ولو  
كان على الشمس ، أو على صورة الحسن نفسه ، ومجد ذلك في أصل تركيبه ،  
ولا نواتيه نفسه على سواه ، ولا يحب غيره ألبتة ، وجاء في هذا على مذهب  
أبيه كما يقول . وكان أراء الأندلس وخلفائه مجبولين على تفضيل الشقراوات ،

لا يختلف في ذلك منهم مختلف ، وكانوا أنفسهم شقراً نزاعاً إلى أمهاتهم ، وترك ذلك الاتجاه بصماته واضحة في شعر الغزل الأندلسي بعمامة ، وعند أبي عبد الملك مروان المعروف بالطليق بعمامة ، وكان أشعر أهل الأندلس على زمانه ، وجاء شعوره الغزلي كله في شقراوات (١) .

وكانت عادة التسرى واتخاذ الجوارى إلى جانب الزوجة شائعة ، لأن ابن حزم حين أراد أن يثني على الحياة الزوجية لأخيه قال إنه لم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وبالمثل يمكن القول ، وهو رد فعل طبيعي ، أن الرجل حين لا يتقنع بزوجه ، ولا يخلع لحياة أسرته ، أن تمد الزوجة رغبتها إلى غيره ، ويذكر ابن حزم أيضاً ، في مقام الثناء على زوجة أخيه ، أنها لم يكن لها غيره . ولكن الجارية تستطيع أن تصد سبدها عن الاستمتاع بها ، وبخاصة إذا كانت تبيت على حب قديم ، ويحدثنا ابن حزم عن جارية رائعة جميلة كانت في دار ابن الركيعة ، محمد بن أحمد بن وهب ، سبق لها مولى ، وجاءته المنية ، وبيعت في تركته ، فأبت أن ترضى بالرجال بعده ، وما جامعها رجل إلى أن لقيت الله ، وكانت تحسن الغناء فأنكرت علمها به ، ورضيت بالخدمة ، والخروج عن جملة المتخلطات للنسل واللذة والحال الحسن ، وفاء منها لمن ذهب ووارثه الأرض ، والتأمت عليه الصفائح ، ولقد رامها سيدها المذكور أن يضمها إلى فراشه مع سائر جواريه ، وبخروجها مما هي فيه ، فأبت . فضربها غير مرة ، وأوقع بها الأدب ، فصيرت على ذلك كله ، وأقامت على امتناعها .

وكانت المرأة صاحبة الرأي في زواجها ، ويحدثنا الطوق ، عن جارية جميلة كانت لسعيد بن منذر بن سعيد ، صاحب الصلاة في جامع قرطبة ، على أيام الحكم المستنصر ، أحبها وتعلق بها وعرض عليها أن يعتقها ويتزوجها ، فطلبت منه سائخة أن يتخفف من لحيته ، وكانت طويلة كثرة ، لأنها تستبشع

(١) أنظر دراسة كاملة عنه في : غرسة غوث : مع شعراء الأندلس والمتنبي ، ترجمة للدكتور الطاهر أحمد سكي ، ص ٨٢ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤ م .

ضمخاتها ، فأعمل فيها الجاهل ، على حد تعبير ابن حزم ، حتى لطفت ، ثم دعا بجماعة أشبههم على عتقها ، وحين خطبها لنفسه لم ترض به ، وكان في جملة من حضر أخوه حكيم بن منذر ، فأسر إلى واحد في المجلس أن يعرض عليها رغبته في خطبتها لنفسه ، فرضيت به ، وتزوجته في ذلك المجلس بعينه ، وكرهت قرطبة هذا الموقف من الحكم ، على نسكه وورعه واجتهاده ، ولكن الجارية أنفدت رأيها ، وما كانت تستطيع لو لم يكن لها ذلك حقاً مقررأ .

وقد حرص الحادون من الكبار والقادة على أن يقيموا دون حياتهم الخاصة أسواراً عالية ، وأستاراً صفاقاً ، يناون بها عن أحاديث السمر ، ويجلون أشخاصهم أن تصبح موضع القال ، ولقد تغزل شاعر من قرطبة في السيدة صبح أم هشام المويذ ، وكانت في فترة من حياتها على صلة بالمنصور بن أبي عامر ، ودفع بالشعر على لسان جارية تغنى في مجلسه ، فلإن غنت به ، حتى أمر بقتلها . وكان البيت المالك بنأى بفتياته أن يصبحن حديثاً يدور على ألسنة الشعراء تغزلاً وإعجاباً ، وحين تغزل أحمد بن مغيث ، وينسب في أسرة قرطبية عربية ، بإحدى بنات الخلفاء ، ولم يفصح لنا ابن حزم عن اسمها ، كجاري عاداته في مثل هذه المواقف ، قتل وأبعدت أمرته عن المناصب العامة ، وكان ذلك سبباً لملاكمهم وانقراض بينهم .

ويقدم لنا ابن حزم صورة دقيقة ومفصلة للمرأة حين ترغب ، ولها حين تكره ، ولقد رأيت امرأة كانت مودتها في غير ذات الله عز وجل ، فعهدها أصفى من الماء ، والطف من الهواء ، وأثبت من الجبال ، وأقوى من الحديد ، وأشد امتزاجاً من اللون في الملون ، وأنفذ استحكاماً من الأعراض في الأجسام ، وأضوأ من الشمس ، وأصح من العيان ، وأثقب من النجم ، وأصدق من كدر القطا ، وأعجب من الدهر ، وأحسن من اللبر ، وأجمل من وجه أبي عامر ، وألذ من العافية ، وأحلى من المنى ، وأدنى من النفس ، وأقرب من النسب ، وأرخص من النقش في الحجر .

وَنَمْلُ أَلْبَيْتِ أَنْ رَأَيْتَ تِلْكَ الْمُرْدَةَ قَدْ اسْتَحَالَتْ عِلْدَاوَةً أَقْطَعَ مِنَ الْمَوْتِ ،  
وَأَنْقَذَ مِنَ السَّهْمِ ، وَأَمَرَ مِنَ السَّقَمِ ، وَأَوْحَشَ مِنَ زَوَالِ النِّعَمِ ، وَأَقْبَحَ مِنَ  
حُلُولِ النِّقَمِ ، وَأَمْضَى مِنَ عَقَمِ الرِّيحِ ، وَأَضْرَعَ مِنَ الْحَمَقِ ، وَأَدْهَى مِنَ غَلْبَةِ  
الْعَدُوِّ ، وَأَشَدَّ مِنَ الْأَسْرِ ، وَأَقْسَى مِنَ الصَّخْرِ ، وَأَبْغَضَ مِنَ كَشْفِ الْأَسْتَارِ  
وَأَنَّى مِنَ الْحُوزَاءِ ، وَأَصْعَبَ مِنَ مَعَانَاةِ السَّمَاءِ ، وَأَكْبَرَ مِنَ رُؤْيَةِ  
الْمَصَابِ ، وَأَشْنَعَ مِنْ خَرَقِ الْعَادَاتِ ، وَأَفْظَعَ مِنْ فِجَاءِ الْبَلَاءِ ، وَأَبْشَعَ  
مِنَ السَّمِ الزَّهَافِ ، وَمَا لَا يَتَوَلَّدُ مِثْلُهُ لَعَنَ الذُّحُولَ وَالْفِرَاتِ ، وَقَتَلَ الْآبَاءَ  
وَسَبَى الْأُمَهَاتِ ۝

وتبقى نظرة ابن حزم إلى المرأة . هل أستطيع القول أنها نظرة الكثرة  
الغالبة من طبقته وفي جيله ؟ . همت أن أرجح ذلك ، لولا أن ابن حزم  
حرر كتابه ولما يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره ، وهي سن تغلب فيها  
الحماسة والاندفاع والانفعال ، فيجئ حصاها الفكرى مقسما بالقوة والتوهج ،  
ولكنه أقرب إلى الذاتية المنفعلة منه إلى الموضوعية المتأمله ، ولعله فيما عاش  
من أعوام امتدت به حتى قاربت السبعين ، طامن من حديثه ، وأعاد النظر في  
أفكاره ، ولو أنها في جوهرها ظلت صحيحة وسليمة دون ما شك . وقد  
أنصفها في مواطن كثيرة ، فبرى أن الرجال والنساء سواء في قمع الشهوات  
والميل إليها : « وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب ، وطال ذلك ،  
ولم يكن ثم مانع ، إلا وقع في شرك الشيطان ، واستهوته المعاصي ، واستغزه  
الحرص ، وتغوله الطمع : وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته ،  
حما مقضيا ، وحكما نافذا » . « وشئ أصفه لك تراه حيانا ، وهو أنى ما رأيت  
قط امرأة في مكان تحس أن رجلا يراها ، أو يسمع حسها ، إلا وأحدثت  
حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأنت بكلام زائد كانت عنه في غيبة ،  
مخالفة لكلامها وحركتها قبل ذلك ، ورأيت أنهم لخارج لفظها ، وهبة  
تقلها ، لا تحا فيها ، ظاهراً عليها ، لا يخفاء به . والرجال كذلك إذا أحسوا  
بالنساء ۝

«ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً ، وأعوذ بالله أن أظن غير هذا ، وإن رأيت للناس يغلطون في معنى هذه الكلمة ، أعني الصلاح ، غلطاً بعمداً . والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الدرائع أمسكت ، والفاسدة هي التي إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصورة البديعة الصنعة ، ويتصدى للمشاهد المؤذية ، ويحب الحلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار للكائمة في الرماد ، لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك ، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء ،»

ويرى أن المعاناة اليومية إذا جارت ، والخدمة إذا تجاوزت الحد ، والغذاء إذا قل ، تذهب بجمال المرأة وتأتي على نضارتها ، «ولما النساء رياحين متى لم تعاهد نقصت ، وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت . ولذلك قال من قال : إن حسن الرجال أصدق صدقاً وأثبت أصلاً ، وأحق جودة ، لصبره على مالقى بعضه وجوه للنساء لتغيرت أشد التغير ، مثل المهجر والسموم والرياح ، واختلاف الهواء وعدم الكن . ولست أرى الأمر كذلك ، فالحق أن الرجل والمرأة في هذا سواء أيضاً .»

ولم يكن ابن حزم يرى في سماع الغناء ، ولو من امرأة ، أو الموسيقى ، شيئاً يكره ، أو يخالف قواعد الشريعة ، مادامت المتعة تخرج من الفن وحده ، دون أن تحرك المرأة كأنهى في أحراق الرجل للذات الشهوة ، ويقول عن نفسه : «وإنى أذكر أنى دعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار صوته ، وتألف القلوب أخلاقه ، للحديث والحالسة دون منكر ولا مكروه ، فسارعت إليه ، وكان هذا سحراً . لقد استجاب ابن حزم للدعوة ، ولكنه أمسك عن الذهاب ، بعد أن صلى الصبح ، وأخذ زيه ، لأن فكراً طرقة ، فسنحت له أبيات من الشعر ، فبقى معها حتى أكلها ، ثم كتبها ودفعها إلى صديق كان معه .»

ولم يكن ابن حزم يحسن الظن بالمرأة كثيراً ، وهي نقيضة طبيعية لما مر تحت عينه من تجارب وأحداث ، حين كان صبياً ، أو في سن فتية ، فلم يستطع لها تعليلًا علميًا ، ولا ردها إلى أسبابها المنطقية ، ولا نسي شيئاً مما رآه بينهن ، فأدى ذلك إلى غيرة شديدة طبع عليها ، وسوء ظن في جهنم فطر عليه ، وقد أشرف من أسبابهن على غير قليل :

ونلاحظ في نهاية المطاف أن ابن حزم على امتداد كتابه أمسك عن أية إشارة تتصل بحياته الأسرية ، ولم يعرض لأية أحداث تتصل بعائلته ، فلا نعرف شيئاً ، ولو عارضاً ، عن زوجه أو أمه ، خارج اعترافاته الذاتية عن غرامياته ، ولم ينته في أي منها إلى زواج ، وعدا حديثه عن أخيه أبي بكر وزوجه عاتكة. ولا نجد بين صفحات الكتاب صدى لولادة بنت المستكفي ، وعاصرت ابن حزم ، وكانت حديث قرطبة ومتدبانها ، لأن ولادة أخذت طريقها إلى الشهرة والتحرر بعد وفاة والدها الخليفة المستكفي عام ١٠٢٥ م ، وهي على أبواب السادسة عشرة من عمرها ، طرية الإرادة ، هفلا من التجربة تشق طريقها إلى المحبة خائفة وجللة ، وسط أحداث صاخبة ، وفي عاصمة قلقة ، تبيت على فتنة وتصبح في بركان . ومع خطاها الأولى لم يكن ابن حزم في قرطبة ، كان خارجها ملاحقاً ومضطهداً ومنفياً ، وقبل هذا التاريخ لسنوات ثلاث تقريباً كان في شاطبة يحرق رسائله ، ولم يكن ساعها في حياة ولادة ما يرفعها إلى مرتبة أن تصبح واحدة من بطلات الطوق ، وأن تدخله تاريخاً يروى ، وحدثاً يسجل ، وعرفها ابن حزم على التأكيد طفلة ، كما عرف أبوها ، وكان قد ألقى به في « المطبق » أقسى سجون قرطبة ، مع ابن عمه (١) أبي المغيرة واحتفظ له ابن حزم بكراهية عميقة واحتقار شديد ، ولا يعرض الكتاب لغير نساء الطبقة العليا من قريب أو بعيد ويحكي حديثه عن المرأة أصلاً فيما يتصل بموقفها محبوبة أو هاشقة ، وهو الموضوع الذي أدار عليه رسائله ، ويحكي غيره قليلاً وعرضاً ، للتأكيد أو التدليل أو التوضيح ،

(١) أنظر صفحة ٦٦ من هذا الكتاب .

## مؤلفات فى الحب

### سبقت طرق الحمامة

شغلت قضية الحب العرب علماء مع بداية الازدهار الثقافى ، فى مطلع القرن التاسع الميلادى ، حين وضع كل شئ على بساط البحث ، وتعرضت كل الآراء لسهام النقد ، ونظر الباحثون فى كل المسلمات ، وشغل العصر بألوان من الفكر والجدل ، والإيمان والإنكار ، على نحو لا تتسع له الحياة إلا حين ترقى ، وبحسبك أن حياتنا الإسلامية الآن ، بعد ألف عام كاملة من الزمان ، لا تتسع لمثل هذه الألوان من الدرس ومن الخلاف .

يذكر المسعودى فى الجزء الثانى من كتابه « مروج الذهب » : « تنازع الناس فى ابتداء وقوع الهوى وكيفيته ، وهل ذلك من نفع وسماع واختيار واضطرار ، وما عاد وقوعه بعد أن لم يكن ، وزواله بعد كونه ، وهل ذلك فعل النفس الناطقة أو الجسم وطباعه (١) » .

وتضم طبعة باريس منه ، فيما يذكر المستشرق جوستاف فون جرنباوم ، حديثاً مفصلاً عن مجلس فى قصر يحيى بن خالد البرمكى ، ضم اثنى عشر مسلماً وموبداً واحداً ، قدم كل واحد منهم رأيه فى طبيعة العشق ، فى جمل محكمة ، تتفق جوهرها ، وإن اختلفت شكلاً وتركيباً ، وجملة ما رأوا : أن الحب ثمرة المشاكلة بين المحب والمحبوب ، ولا يكون إلا بازدواج النفسين ، وامتزاج الشكلين ، وهو دليل على تمازج الروحين . ومن اعتدال الصورة ، وتكافؤ فى الطريقة ، وملاءمة فى الهمة ، ويتخلل فى القلب كما تتخلل قطرات المطربين ذرات الرمل . وهو سحر ، أخفى وأحر من الحمر ، والمحب جواد مشرق الطبيعة ، فائق الشماثل ، وينبعث من تجانس الأرواح نور ساطع تهتز لإشراقه طبائع الحياة ، فيصير من ذلك الملح نور خالص ،

لاصق بالنفس ، متصل بجوهرتها ، يسمى حشفاً ، والعشق نار تتأجج في القلب ، يعقد اللسان ، وبه يصبح المحب عبداً مملوكاً ، ولا ينجح فيه علاج ، والإفراط فيه يحطم الجسد ، ويعانى المحب من القوعة والأرق ، و صومه البلوى ، وإفطاره الشكوى ، وهو أشرف سبب للفناء ،

وهؤلاء الرجال كما سماهم المسعودى (١) :

• على بن الميثم ، ولم أثر له على ترجمة فيما بين يدي من المصادر

• أبو مالك الحضرمي ، وليست له أية ترجمة فيما رجعت إليه من

المصادر .

• محمد بن المهدي العلاف ، أبو الهليل ، ولد حوالي سنة ١٣٥ هـ -

٧٥٢ م ، وتوفي ٢٢٦ أو ٢٣٥ هـ - ٨٤٠ أو ٨٥٠ م ، وكان مولى لقبيلة

عبد القيس ، وتلميذ عمرو بن عبيد ، وهو مولى كذلك ، وعرف بالصلاح

والتقوى ، واشتهر بالزهد والورع ، واعتق رأى واصل بن عطاء في

الاعتزال ، وألف كتباً كثيرة لم تصلنا . وبعد أبو الهليل من كبار المعتزلة ،

وهو المؤسس الحقيقي للتأليف في علم الكلام .

• هشام بن الحكم الكوفي ، المتوفى نحو عام ١٩٠ هـ - ٨٠٥ م ،

متكلم مناظر ، كان شيخ الإمامية في وقته ، ولد بالكوفة ، ونشأ في

واسط ، وسكن بغداد ، وانقطع إلى يحيى بن خالد البرمكي ، فكان القيم

بمجالس كلامه ونظره ، وصنف كتباً منها : الإمامة ، والقدر ، والشيخ

والغلام ، والرد على المعتزلة في طلحة والزبير ، والرد على الزنادقة ، وغيرها .

وكان حاضر الجواب ، سئل عن معاوية : أشهد بدار ؟ فقال : نعم ، من ذاك

الجانب ! ، ولما حدثت نكبة البرامكة استتر ، وتوفي على إثرها بالكوفة ،

ويقال عاش إلى خلافة المأمون .

• إبراهيم بن سيار النظام ، أبو إسحاق ، كان من أعظم تلاميذ محمد بن

المذليل العلاف ، ترك البصرة موطن نشأته إلى بغداد بعد مدة ، وتوفي بها في  
 حنفوان شبابه ، بين سنتي ٢٢٠ و ٢٣٠ هـ - ٨٣٥ و ٨٤٥ م ، ووقف حياته  
 على مقاومة الدهورية والذهسانية ، أو بمعنى آخر ضد الفلسفة الهلينية ، والتي  
 ألزمت على الرغم من هذا في بناء مذهبه الديني تأثيراً حاسماً ، ودافع عن  
 القول « بخلق القرآن » ، وحارب قول الخنافية « بالرأى والقياس » ، وكان  
 إلى جانب ذلك بارعاً في اللغة والجدل وقول الشعر ، وكان الجاحظ من أظهر  
 طلابه ومريديه ، وقد تعارفا في البصرة في مجلس أبي المذليل العلاف ، رغم  
 أن التلميذ كان يكبر أستاذه بعشرين عاماً ، إلا أن الأستاذ كان يتمتع بميزة  
 عالية في علم الكلام ، وبمكانة اجتماعية رفيعة .

• علي بن منصور ، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من المصادر ،  
 المعتمر بن سليمان بن طرخان ، أبو محمد ، ولد سنة ١٠٠ هـ - ٧١٨ م  
 وتوفي عام ١٨٧ هـ - ٨٠٣ م ، كان وأبوه من العباد للتساك ، ومن حفظه  
 الحديث في البصرة ، انتقل إليها من اليمن ، وكان ثقة ، حدث عنه كثيرون  
 منهم أحمد بن حنبل ، وله كتاب في المغازي .

• بشر بن المعتمر ، أبو مهمل ، المتوفى عام ٢١٠ هـ - ٨٢٥ م ، ينحدر  
 من الكوفة ، ولكنه استوطن بغداد ، ونظم تعاليم المعتزلة في شعر لشيع بن  
 النامس ، وكان من أنصار الإمام علي رضي الله عنه ، على التقيض من  
 معتزلة الكوفة ، فوضعه هارون الرشيد في السجن ، غير أنه عاد فاكسب  
 نفوذاً قوياً في عهد المأمون وانتهت إليه رئاسة المعتزلة في بغداد ، وكان إلى  
 جانب ذلك شاعراً ، وله قصيدتان تعليميتان أوردهما الجاحظ في كتابه الحيوان  
 وشرحهما ، وألف هارون الرشيد « صحيفة » في البلاغة أوردها الجاحظ  
 في كتابه « البيان والتبيين » .

• ثمامة بن أشروس النعمري ، مولى بني نمير ، كان زعيم القدرية في  
 زمان المأمون والمعتصم والواثق ، وهو الذي دعا المأمون إلى الاعتزال ،  
 وتروى عنه قصص تشهر إلى استخفافه بالدين ، من ذلك أنه رأى النامس

يوم جمعة يتعادون إلى المسجد الجامع لحوزتهم من فوت الصلاة ، فقال لرفيق له : أنظر إلى هؤلاء الحمير والبقر ! ، ثم قال : ما صنع ذلك العربي بالناس ، وقتل ثمانية في زمن الوائق ، وقيل توفي عام ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م .

- السكال ، من الإمامية ، ولعله محرف عن « السكاك » ، وهو الذي جادل جعفر بن حرب ، وتوفي عام ٢٣٦ هـ - ٨٥٠ م ، وصاحب هشام بن الحكم ، ولم أجد في كتب التراجم ما يلقى على شخصية المزيدي من الضوء .
- الصباح بن الوليد ، من المرجئة ، ولم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من المصادر .

• إبراهيم بن مالك ، فقيه بصرى ، جدل لا يعرف له مذهب ، ويظن جريالوم أنه : إبراهيم بن مالك بن بهوذ البزاز ، المتوفى عام ٢٦٤ هـ - ٨٧٧ م ، ولم أجد في كتب الترجمات التي بين يدي ما يدعم هذا الكلام ، أو يثبته ، أو يضيف إليه جديدا ، يلقى على شخصية الرجل مزيداً من الضوء ، والشخصية الأخيرة هي الموبد ، أى قاضى الجوس ، واكتفى المسعودى بوظيفته دون أن يقدم لنا اسمه ، أو من يكون .

فأنت ترى أننا أمام حشد من رجال الفكر ، يمثلون مختلف جوانبه ، فيهم المسلم والمجوسى ، والمتكلم والفيلسوف ، والأديب والفقهاء ، ويكاد اجتماع هؤلاء في مجلس واحد أن يكون ضرباً من المستحيل ، ولكنه دون شك يقدم لنا تصوراً دقيقاً وموجزاً لما كانت عليه أفكار العلماء ، في البيئات الثقافية المختلفة . عن الحب ومشاكله ، ونجد صداها واضحاً عند بعض الشعراء المعاصرين لهم ، وبخاصة عند العباس بن الأحنف ، وفي مؤلفات الدارمين من تلاميذهم ، ومن جاءوا بعدهم .

• • •

كان الجاحظ ( ٧٦٧ - ٨٦٨ م ) ، فيما أعلم ، أول مؤلف عربى كتب في الحب الإنسانى ، وقد عاصر بعض من ذكرنا في الفترة السابقة ، وتعلمه

على البعض الآخر ، وجاء حديثه عنه مختلفاً عن الجميع ، مستمداً من منهجه في الكتابة ، فهو يجمع بين القساية والمسامرة ، والإفادة والتعليم . ولقد عرض له في موضعين ، أولهما في كتابه « الحيوان » ، حيث أفاض القول عن الجانب العملي منه ، ما يحسن ويسعد ويجميل ، وما يكون في صالح طرف دون الآخر ، فيؤدى إلى الملل والنفور والتعاسة . ووازن بين ألوان ممارسته عند الشعوب المختلفة ، وبين المخالقات غير الإنسانية ، وخلال ذلك كله يلقى بتجاربه وملاحظاته ، وهي مفيدة ومتقدمة ، وتقع من العلم الحديث موقع الرضى ، ويتحدث عنها صريحاً ، لا يتحرج ولا يوارى ولا يكفى . وكان « الحيوان » مما كتب في أواخر حياته ، فجاء حافلاً بالمعارف الصادقة في هذا الباب .

وأما الكتاب الثانى فرسالة صغيرة « فى العشق والنساء » ، وهى فيها يبدو مقتطفات من كتاب لم يكن الجاحظ راضياً عنه كلى الرضى ، أو لعله رأى فيه ما يثير مشاعر المحافظين ، « وكان يحرص دوماً على أن تكون حياته الخاصة ملكاً له ، لا يجاهر بمعضية ، ولا يباهى بخطيئة ، يؤثر السر ، ويتعد عن مواطن الإثارة ، ولا يرى فى مداراة العامة عيباً ، ويتخذ من مرضاتها مذهباً ، ما دام ذلك لا يحمله على غير . يرغب فيه من الأفكار والعادات » (١) ويقول فى خاتمة الرسالة ، معتذراً عن الإطناب فيها : « فمنع من ذلك فرط الكجوة ، وإفراط العلة ، وضعف المنة ، وانحلال القوة ، فلما وافق هذا الكتاب منا هذه الحال ، وألقى قلوبنا على هذه الأشغال ، اجتنبنا أن نقصد من جميع ذلك إلى فرق ما بين الرجل والمرأة ، فلما اعتزنا على ما ابتدأناه ، وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثُر عددها ، وتبعد غايتها فرأينا - والله الموفق - أن تقتصر منه على ما لا يبلغ بالمستمع إلى السأمة ، وبالمألوف إلى مجاوزة القدر » .

---

(١) الدكتور الطاهر أحمد مكى ، دراسة فى مصادر الأدب ، ص ١١٢ ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٦ ، وقد نُفذت والطبعة الرابعة قيد الصدور .

واختتم الجاحظ رسالته ، بما ابتدأ به ابن حزم وغيره كتبهم ، معتدراً عما فيها ، « وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن تحمل أصحابها على الجدل الصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر ، وعلى المعاني الصعبة ، التي تستكد النفوس ، وتستفرغ المجهود ، والصبر غاية ، وللاحتمال نهاية ، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الخزل . » على أن الكتاب إذا كثر هزله مخفف ، كما أنه إذا كثر جدته ثقل ، ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارئ ، وينفي النعاس عن المستمع . ولم يصلنا الكتاب الأصلي فيما أعلم ، ولم أجد بين من درسوا الجاحظ من وقف عند المشكلة وأبدى فيها رأياً ، ويبدو وقوع الجاحظ في الرسالة مختلفاً ، غامضاً ومضطرباً ، ونلتقي به في السطور الأولى كمن يكمل حديثاً ليس بين أيدينا بدايته ، ويرد على قوم لا تعرف دعاوهم ، ونحن معه بين مترادفات لا تنتهي إلى شيء واضح ومحدد ، وتدور الرسالة إجمالاً حول محورين :

- المرأة ، ويتحدث عن مكانتها ، ويرأها أرفع حالاً من الرجل في أمور منها : « أنها التي تخطب وتراد وتعشق وتطلب ، وهي التي تغدى وتحمي ، مما يستدل به على تعظيم شأن النساء أن الرجل يستحلف بالله الذي لا شيء أعظم منه ، وبالمشي إلى بيت الله ، وبصدقة ماله ، وعق رقيقه ، فيسهل عليه ولا يأنف منه ، فإن استحلف بطلاق امرأته تربد وجهه ، وطار الغضب في دماغه ، ويمنع ويعصى ، ويغضب ويأبى ، وإن كان المحلف سلطاناً مهيباً ، وإن لم يكن يحبها ولا يستكثر منها ، وكانت قبيحة المنظر ، دقيقة الحسب ، خفيفة المصداق ، قليلة النشب ، وليمن ذلك إلا لما قد عظم الله تعالى من شأن الزوجات في صدور الأزواج : « ولنا نقول ، ولا يقول أحد ممن يعقل ، إن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ، ولكننا رأينا ناساً يزرون عليهن أشد الزرابة ، ويحتقرونهن أشد الاحتقار ، ويخسونهن أكثر حقوقهن ، وإن من العجيز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال ، »

ويقدم صورة مفصلة للمرأة المفضلة على أيامه عند عامة الناس ، من البصراء بجواهر النساء ، وجهابذة الأمر ، فهم يقدمون المجدولة ، والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينه والمشوقة ، ولا بد من جودة القد ، وحسن الخط ، واعتدال المنكبين ، واستواء الظهر ، ولا بد من أن تكون كاسية العظام ، بين الممتلئة والقضيفة . وإنما يريدون بقولهم مجدولة : جودة للعصب ، وقلة الاسترخاء ، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول . ولذلك قالوا : خمصانة وسيفانة ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها قضيب خيزران . والتثنى في مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك من الضخمة والسمينة ، وذات الفضول والزوائد . على أن النحافة في المجدولة أعم ، وهي بهذا المعنى أعرف . . . وقد وصفوا المجدولة بالكلام المنشور فقالوا : أعلاها قضيب . وأسفلها كتيب .

• والمحور الثاني الحب ، ودوره في حياة الناس ، وما يمليه من موافق أو يفرضه من سلوك ، وثمة رجلان لا يعيشان عشق الأعراب : أحدهما الفقير المدقع ، فإن قلبه مشغول عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه . والملك للضخم الشأن ، لأن في الرياسة الكبرى ، وفي جواز الأمر والنهي ، وفي ملك رقاب الأمم ، ما يشغل شطرقوى العقل عن التوغل في الحب ، والاحتراق في العشق .

ويقسم الحب إلى مراتب ثلاث : الحب والهوى والعشق ، فالحب أصل الهوى ، ومن الهوى يتفرع العشق ، والعشق ما يهيم له الإنسان على وجهه أو يموت كدأ على فراشه . ويعرض لبعض ما يعترى العشاق والمحبين من الغضب والنفور والسلو والحنين ، ومن الرغبة والعجز والحاجة إلى إشباع الغريزة ، وسيطرة المرأة على الرجل ، واستحواذها على جانب من فكره ، على الرغم من المشاغل التي تزحم حياته ، وتستغرق فكره ، والسعادة التي تعقب نوال العاشق معشوقه ، وهي سعادة ، فيما يرى الجاحظ ، لا تعد لها سعادة . ثم يقارن بين لذة الظفر بالعدو ، ونيل العاشق ، فيرى ( ١٨م - ابن حزم )

الثانية أقوى أثراً ، وأبلغ متعة : « فتأملنا شأن الدنيا فوجدنا أكبر نعيمها ،  
وأكمل لذاتها ، ظفر المحب بحبيبه ، والعاشق بظليبه » .

والرسالة قصيرة ، لا تتعدى عشر صفحات في طبعة حسن السندوني  
لمجموعة « رسائل الجاحظ » ( القاهرة ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م ) ، ويغلب  
على الشكل الذى جاءت فيه الطابع الإنشائي ، والملاحظات العجلة ، لا يقف  
معها الجاحظ عند أية فكرة مستغرقة أو معللاً ، ولا يلتقط لها مما حوله  
شاهداً ، على جارى عادته ، إلا في حالة واحدة :

وقد دخلت كتب الجاحظ الأندلس في زمن مبكر ، في حياة الجاحظ-  
نفسه ، فنحن نعرف أن فرج بن سلام لقي الجاحظ ، وتوثقت الصلة  
بينهما ، وجمعتهما صداقة وطيدة ، وجاء بكتبه إلى الأندلس ، ومن بينها  
« البيان والتبيين » ، أكيداً ، لكن لا يمكن الجزم بأن رسالته « في العشق  
والنساء » كانت بينها ، لأن الجاحظ فيما يبدو لم يكن راضياً عنها ، ولا حفيظاً  
بها ، وأبعد منه أن نقول أن ابن حزم عرفها ، أو أفاد منها ، لأن  
المنهج عند كليهما مختلف ، والنظرة متباينة ، ولا نلمح لها في « طوق  
الجمامة » أثراً .

وفي الفترة نفسها هاش أبو يوسف يعقوب ، الشهير بالكندى ( ٨٠٣ -  
٨٧٣ م ) ، وتميز بين فلاسفة عصره في الشرق بأنه من سلالة عربية أصيلة ،  
ومن ثم أطلق عليه لقب فيلسوف العرب ، وهو أول ، وآخر ، تلخيص  
لأرسطو عربي الأرومة في خلافة المشرق ، وكان انتقائياً في فلسفته ، فحاول  
على طريقة الأفلاطونية الحديثة أن يوفق بين آراء أفلاطون وأرسطو ،  
ويرى أن رياضيات فيثاغورس الجديدة أساس كل العلوم . وقد جمع إلى  
الفلسفة معرفة واسعة بالانجوم والكيمياء والنظريات البصرية ، والموسيقى ،  
وينسب إليه عدد لا يقل عن ٢٦٥ مؤلفاً ، من بينها رسالة في « العشق » ،  
ولكنها ضاعت ، شأن معظم مؤلفاته الأخرى ، وقد شاعت كتبه في الشرق  
والغرب ، وقرأ روجر بيكون كتابه في البصريات في ترجمته اللاتينية ،

وباشرت تأثيراً واضحاً عليه، ولقد حفظت لنا الترجمات اللاتينية، ومن بينها ما قام به جيرار الكريموني، نسبة إلى كريموناف في إيطاليا، عدداً من مؤلفات الكندي أكثر مما هو موجود في أصولها العربية. ورغم ذلك لا يمكن الجزم بأن مؤلفاته دخلت الأندلس صريحة ظاهرة بوجه مسفر، وربما دخلت إليه كغيرها صريحة العلوم التطبيقية من فلك ورياضة وطب، أو تسربت إليه مستترة في ثنايا الاعتزال، ولم يصلنا شيء من رسالته في «العشق»، ولعلها استقرت مترجمة إلى اللاتينية في خزانة كتب مغمورة، في جانب من أوربا، تنتظر اليد التي تزيح عنها الغبار. وأنصوّر أنها دراسة فلسفية تتناول الأمر من جنبه النظري، المنصل بالأرواح والآلهة، وليس في «الطوق»، ولا في حياة ابن حزم، ما يرجح أنه رأى الرسالة أو أفاد منها.

• • •

ثم نلتقي بعد الكندي بأبي بكر محمد بن داود الظاهري (٨٦٨-٩١٠م)، في كتابه «الزهرة»، ومن المؤكد أن كتباً أخرى، غير ما ذكرنا، سبقته، ضاعت ولم تصلنا، لأنه يذكر في مقدمة كتابه: «وقد رأيت ممن ينسب نفسه إلى الأدب، ويتحقق بتأليف الكتب، قصد في مثل هذا الكتاب إلى مقصد يعده عنده من الصواب، ابتداءً بذكر من عشق من المتقدمين حتى ارتقى إلى ذكر بعض الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وذكر أنهم كانوا من أتباع الهوى على حال لا يجوز أن يضاف مثلها إليهم». وهي إشارة لا يمكن أن تنصرف واقفاً إلى رسالة الجاحظ، لأنها على غير ما يصف أبو بكر، ولا تصوراً إلى رسالة الكندي، لأن هذه فلسفية وتلك أدبية تاريخية.

يصف أصحاب التراجم أبا بكر بأنه كان عالماً أديباً، شاعراً ظريفاً، من أذكى زمانه، لين الجانب مصقول المواهب، وكان رفاق صباه يتنادونه «عصفور الشوك» لنحافته وصفوته، وخلف والده في راسة المذهب الظاهري ولما يباغ من العمر ستة عشر عاماً، وتولى التدريس، وألف في

الفقه الظاهري وفي الأصول . وكانت بغداد على أيامه مزدهرة للثقافة ،  
تندافع فيها الحركات الفكرية بكل ألوانها ، ترجمة وتأليفاً وحواراً ،  
تظلمها حماية الدولة ، وتغذيها حرية واسعة بلا حدود ، أشبه بما كانت عليه  
أثينا أيام سقراط ، أو الاسكندرية في عهد البطالسة ، أو فلورنسة تحت حكم  
آل مديتشى ، بل إن بغداد وجدت في شخص الخلاج الصوفي الشهير  
سقراطها أيضاً ، ولعب ابن داود دوراً في محاكمته ، ولكنه توفي قبل أن  
أن يشهد لإعدامه في عام ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م .

كان ابن داود حاد العاطفة منذ صغره ، ويقول عن نفسه : « ما انفككت  
عن هوى منذ أن دخلت الكتاب » ، وعرف بالتقوى في الوقت نفسه ، وقاسى  
من إلحاح الرغبة ومقتضيات العفة ، ومن ثم وجد متنفسه في البحث عن  
مثل أعلى في الحب وفي الحياة ، تستطيع رغباته المكبوتة أن تعبر عن نفسها  
من خلاله ، فبدأ يؤلف كتاب الزهرة منذ حداثة ، ولما بزل تلمبدا يتردد  
على الكتاب ، وأطلع أباه على أكثره ، وإذا هرقتا أن الأب توفي عام ٨٨٣ م ،  
أحرقتا أن ابن داود كتب الجانب الأكبر من كتابه ولما يتجاوز الستة عشر  
عاماً من عمره ، ولو أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن الكتاب أخذ شكله النهائي  
في هذه السن ، وربما كان اختيار الأشعار يعود إلى هذه الفترة ، أما المقدمات  
والأفكار وترتيب الأبواب فجاء في مرحلة تالية . وقد شهر صباه بالميل  
إلى محمد بن جامع الصيدلاني ، وعمل كتاب « الزهرة » بسببه ، فيما يروى  
الخطيب البغدادي ، وإليه توجه بالحديث في المقدمة دون أن يشير إلى اسمه ،  
أو يوصي إلى صفات تحدده .

مهدي أبو بكر لكتابته بمقدمة مسجوعة ، ثم عرض لمنهجته ، فلذكر أنه  
استودعه مئة باب ، ضمن كل باب مئة بيت ، ذكر في الخمسين باباً الأولى  
منها جهات الهوى ، وأحكامه وتصاريفه وأحواله ، وجعل الأبواب المنسوبة  
إلى الغزل أمثالا ، ورتبها على ترتيب وقوعها حالا فحالا ، فقدم وصف  
الهوى وأسبابه ، وبسط ذكر الأحوال العارضة فيه بعد استحكامه ، ومن

الهجر والفراق وما أوجبه غلبات التشوق والإشفاق ، ثم ختمها بذكر الوفاء بعد الوفاة ، بعد أن أتى على ذكر الوفاء في الحياة ، ووضع لكل باب عنواناً مسجوعاً ، مثلاً محكمة ، يومئ إلى محتواه ، مثل : « من كثرت لحظاته دامت حمراته ، العقل عند الهوى أسر والشوق عليهما أمير ، من تداوى بدائه لم يصل إلى شفائه ، ليس بلييب من لم يصف مابه لطبيب ، إذا صح الظفر وقعت الغير .... » وعلى هذا النحو يمضي في بقية الأبواب .

أما الخمسون باباً الأخرى فأغنيين من الشعر ، اقتصر فيها على قليل من كثير ، وقنع من كل فن باليسير ، وأشار إلى منهجه فيها عند نهاية القسم الأول ، وجاءت أبوابه على النحو التالي : « ما قيل في تعظيم الله ، ما مدح به النبي وما استشهد به ، وأشد بين بدبه ، ما قاله شعراء الإسلام في أهل بيت النبي ، مرأى الملوك والسادات وأهل الفضل والرياسة ، نوح الأهل والأخوان على ما فقلوه من الشجعان ، ذكر النوح على من مات من الأبناء والقربات ، ذكر من جزع فاحتاج إلى تعزية أوليائه ومن رزق الصبر فاستغنى بحسن عزائه ، ذكر التزهيد فيما يقضى والترغب فيما يبقى ، ذكر أشعار الظرفاء من الملوك والخفاء ... » ويمضي المؤلف في عناوين أبواب النصف الثاني على هذا النحو . وهذا القسم ليست له أية صلة بموضوع العشق ، وإنما هي مختارات شعرية تتناول قضايا عامة ، مما يدور حولها الشعر العربي عادة ، وتعرض لها كتب السمر والمختارات ، يعلق عليها برأي مقتضب له ، أو يتمثل عن غيره ، ومن بين الشعراء الذين تتردد أسماءهم كثيراً : عمرو القيس وأمية بن أبي الصلت ، والناطقة الذبياني ، والقطامي ، والحطيئة ، وأبو تمام ، والبحرئ ، وبشار بن برد ، وجميل بن معمر ، والحسن بن الضحاك ، وخر الرمة ، ومجنون بني عامر . ولم يهمل الآحاد غدير المشهورين من الرجال والنساء ، المعاصرين له أو الذين بلغته الرواية عنهم ، على غير السائد في عصره ، وبين المؤلفين على أيامه .

لقد وصف المستشرق الفرنسي ماسنيون في كتابه « محنة الحلاج »

كتاب الزهرة « بأنه كتاب رائع عن الحياة للعاطفية في تلك الأيام ، ومعرض غنى بآراء المفكرين والأدباء في بغداد ، وما كان يدور بأذهانهم عن موضوع الحب » ، ويمكن أن نقول : « إنه أول مجموعة من الشعر ، تدور حول الحب الأفلاطوني ، قيلت في اللغة العربية في بغداد خلال النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي » .

وصل كتاب الزهرة إلى قرطبة ، كأشياء كثيرة من المشرق ، في زمن مبكر ، مبشراً بالحب العذري بين الأندلسيين ، وبعد ثلاثة أرباع القرن من تأليفه ، أثناء خلافة الحكم الثاني ٩٦١-٩٧٦ ، ألف ابن فرج الجبائي ، ويجب أن يكون قد مات في السجن عام ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م ، كتاب الحدائق ، مختارات من شعر الأندلسيين ، نحا فيه منحى ابن داود في كتابه الزهرة ، وحاول أن يبزه ، فجعل « الحدائق » في مائتي باب ، يضم كل باب مائتي بيت من الشعر ، ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر ، ولم يورد فيه غير أندلسي شيئاً ، ويبدو أنه لم يقف بتقليده عند الشكل ، وإنما تجاوزه إلى المحتوى ، فقد حفظ لنا الذين نقلوا عنه قصيدة له تغبض علوبة وتنضح عذرية :

وطاعة الوصال عفت عنها	وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت في الليل سافرة فباتت	دياجي الليل سافرة للقناع
وما من لحظة إلا وفيها	إلى فتن القلوب لها دواعي
فعلكت النهى جمحات شوق	لأجرى في العفاف على طبايعي
وبت بها مبيت السقب يظما	فيمتعه الكعام من الرضاع
كذاك الروض ما فيه لمثلي	مدوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات	فألتخذ للرياض من المراعي

ولم يصلنا كتاب « الحدائق » لسوء الحظ ، فلا نعرف عنه إلا القليل جداً الذي نقله عنه ممن جاءوا بعده ، وضاهت معه ثروة هائلة من الشعر الأندلسي تباع أربعة عشر ألف بيت ، في هذه الفترة المبكرة من الحياة الأدبية في الأندلس ، فلم يكن قد مضى على فتحه غير قرنين ونصف من الزمان .

أخذ كتاب الزهرة شعراً واتجاهاً جانب الحب العذري ، وهو موقف ،  
فما يرى غرسية غوث في مقدمته لترجمة الطوق إلى الإسبانية ، يمثل ثورة  
حقيقية ، لانعرف بالدقة حجم صداها في واقع الحياة ، لكن دورها في  
شعر الغزل الأندلسي ، على الأقل ، كان واضحاً وملحوساً . لقد كان  
الشعر قبله قصائد تدور حول الأغراض التقليدية المعروفة ، أو مقطعات  
كثيرة ذات نغم فظ وشبق ، مثل ما نجد في شعر الغزال ، شاعر إسباني  
كبير من القرن التاسع الميلادي . وقد وجد هذا التجديد الدائري شعر الغزل  
أنصاراً متحمسين خلال فترة الحجابة العامرية ، وتبنته أخيراً أقلية من  
الشباب ، بوجهها ابن شهيد وابن حزم ، وجعلته بين دعائم منهجها  
الجمالي ، ووجدت في الأخير خير من يدافع عنها ، وربما واحداً من قلائل  
حاول احتوائها في حياته ، وأعطاهما الطابع الأدبي النهائي بكتابه « طوق  
الحمامة » ، ممزوجة باللفظ ولون فريد من العفة ، ويمكن أن تدعوها  
إفلاطونية ، كما يقال عادة وفي تعبير شائع .

لقد عرف ابن حزم كتاب الزهرة لابن داود مباشرة ، وهي حقيقة  
لما ندرس كما يجب ، ذلك أن الأديب القرطبي عرف الفكر الظاهري في  
زمن مبكر ، أسبق بكثير مما يظن عادة ، وقد ارتبطت نظرية الحب  
للبيدادي المصقول ، إلى حد ما ، بوجود المذهب الظاهري ، غير أنه من  
الضروري أن نصيف ، إنه على الرغم من وجود إشارة نصية بسيطة ،  
ومن التوافق في الاتجاهات العاطفية ، فإن « الطوق » لا يكاد يدين « الزهرة » ،  
بشيء ، أو إن شئت يدين لها بشيء محدود للغاية . لقد تغربت النظرية  
وتأسست ، وفقدت تكلفها الواضح ، وتمثلتها الخنث ، وما كان يقال في  
بغداد نثراً رقيقاً ، أو شعراً ملتقطاً ، أخذ ابن حزم بقوله في شاطبة ،  
دافئاً وإنسانياً ، عن نفسه وعن أصدقائه في قرطبة ، وأنت العاطفة  
واللهفة ، وهما خاصيتان إسبانيتان ، على أسوار القلعة التي تحول دون

تدفق النبع ، فارتووا من أعماقه ، ولكنهم مزجوه بدمائهم . إن الزمن لم يذهب عبثاً ! .

إجمالاً أنا مع غرسية غومت فيها ذهب إليه ، لأن التقاء ابن حزم ، كما سنرى ، مع ابن داود في أكثر من فكرة لا يقلل من أصالته ، لأنه تناول الأمر على نحو مختلف تماماً ، وإن اتفقا في رأس الموضوع وعنوانه .

أول ما نلاحظه من اتفاق بينهما أن كليهما استجاب في تأليف كتابه لعاطفة دافعة ، ميل ودود عند ابن داود لشخص لم يصرح به ، وذكر المؤرخون اسمه ، « شكاً إليه عدم وجود نديم بأنس به في الخلوات ، ويجد عنده الغراء عن الغائبات ، يورد له الأخبار ويكتم عليه الأسرار ، فلما رأى ما به من غلبة الاشتياق ، ومن ميل إلى تعرف أحوال العشاق ، عزم على أن يوجه إليه نديماً يشاهده أحوال المتقدمين ، ويحضره أخبار الغائبين ، ينشط بنشاطه ويعمل بملاله ، إن أدناه دنا ، وإن أقصاه نأى » . وصداقة متينة عند ابن حزم ربطته بشخص من المرية لم يصرح باسمه ، ولم يحفظه لنا التاريخ ، لقيه فيها أيام أن هبطها لأجنباً ، مهبط الجناح وحيداً ، إلا من رفقة مواسية ، وما لبث أن لحق به ، بابن حزم حين ترك المرية إلى شاطبة ، كتب إليه أولاً ، ثم شخص إليه ثانية : « فلن كتابك وردني من مدينة المرية إلى مسكني بمحضرة شاطبة ، فذكر من حسن حالك ما يسرني ، وحمدت الله عز وجل عليه ، واستدتمته لك ، واستزدته فيك ، ثم ألبث أن اطاع على شخصك ، وقصدتني بنفسك ، على بعد الشقة ، وتناوى الديار ، وشحط المزار ، وطول المسافة ، وغرول الطريق ، وفي دون هذا ما سلى المشتاق ، ونسى الذاكر ؛ إلا من تمسك بحبل الوفاء مثلك ، ورعى سالف الأذمة ، ووکید المردات ، وحق الشاة ، ومحبة الصبا ، وكانت مودته لله تعالى » . « وكلفتني — أعزك الله — أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لا تزيداً ولا مفتناً ؛ لكن مووداً

لما يحضرنى على وجهه ، وبحسب وقوه ، حيث انتهى حنفى وسعة باعى  
فما أذكره ، فبدت إلى مرطوبك ، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته .

وكلاهما دافع عن نفسه فى مواجهة اتهام بعض معاصريه له ، أن  
الكتابة فى العشق أمر لا يليق بأولى الفضل ، يرفع ابن داود فى وجهه ،  
معارضيه رآيه : « ونحن لو شئنا أن نذكر من كتاب الله جل وعز ،  
ومن أخبار المتقدمين من أنبيائه ، وأيضاً نخبر من أوليائه ، ما يسهل  
سبيل المورى على من أنكرها ، ويتربها من فهم من لم ير أثرها ،  
من حيث لا يستوجب به من عاقل أنكار ، ولا يلحق بأحد من  
الأئمة فيه عار ، لرجونا بإذن الله أن لا نقصر عن ذلك . غير  
أن هذا الأمر ليس من أمور الديانات التى لا تثبت إلا بالاحتجاجات ، وإنما  
هو شىء يختص به قوم بركة طبعهم ، وتآلف أرواحهم ، فن كان مثلهم  
فهو يعذرهم ، ومن خرج عن حدهم هان قوله . ويرد ابن حزم على  
ناقديه : « وأنا أعلم أنه سينكر على بعض المتعصبين على تأليفى لمثل هذا ،  
ويقول : إنه خالف طريقته ، وتجانى عن وجهته ، وما أحل لأحد أن  
يظن فى غير ما قصدته . »

وفى يتعلق بذكر أسماء العشاق ، يتحرك ابن داود فى نطاق دينى  
خالص ، فيرفض ما يلهج به الناس على أيامه من عشق الأبياء ،  
وأنهم كانوا من أتباع الهوى ، على حال لا يجوز أن يضاف مثله إليهم ،  
لأن « إذاعة تلك الأخبار على العامة ونشرها بين الناس خطأ ،  
فإن العامة قد تفهمها على غير وجهها ، وتستند إليها فى التفريط والعصيان  
أو تضعها موضع الإنكار ، ولبيبون عليهم السلام ، والصالحون من أئمة  
أهل الإسلام ، يحل مقدارهم عن أن تذكر لعموم أخبارهم ، فيضعوها فى غير  
موضعها إن قبلوها ، أو يكذبوا حاكبيها إن أنكروها . ولم يكن فى حاجة  
لأن يوضح موقفه من غير هؤلاء ، لأنه لم يعرض لأحد من معاصريه ،  
إلا ما كان قصصاً شائعاً ، يتناشده السمار . ويصدر ابن حزم فى هذا

الجانب من منطلق رفيع ومتحضر ، يأخذ الشواهد مما رأى وسمع وحدث له ، ولكنه يلزم نفسه الكتابة عن الأسماء ، « فهي إما عورة لا نستجيز كشفها ، وإنما نحافظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلاً جليلاً . وبحسبي أن أسمى من لا ضرر في تسميته ، ولا يلحقنا والمسمى عيب في ذكره ، إما لاشتهار لا يغني عنه الطي وترك التبيين ، وإما لرضا المخبر عنه بظهور خبره ، وفلة إنكار منه لنقله » . ويرفض أن يقحم نفسه في الحياة الخاصة لأمراء عصره ، « وإنما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم ، فلا ينبغي الإخبار به عنهم » ، لأن « حقوقهم على المسلمين واجبة ، وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين » .

وقد يتفق العنوان عند الإثنين ويختلف المحتوى ، فكلا الإثنين ، ابن داود وابن حزم ، خص الرقيب بباب خاص ، ولكن شتان بين معالجة الإثنين ، الأول غرق في مختارات من الشعر بعد خمسة سطور ، على حين عرض ابن حزم لأمر الرقيب في جوانبه المخطئة ، وقدم عليه شواهد من عصره ، ومختارات من شعره ، ولو أن حديثه أيضاً كان قصيراً نسبياً .

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن « الرسول » ، وهو السفير عند ابن حزم ، قدم ابن داود لهذا الباب بكتابة عن جميل ، يفلب عليها طابع القصة المخترعة ، دون أن يزهد شيئاً ، بينما تحدث ابن حزم عن دور السفير وهيئته وصفاته ، وما يجب أن يتحقق فيه من شرائط ليؤدي مهمته على أكمل الوجوه ، وعدد من كانوا يقومون بهذه المهمة حرفة أو تطوعاً ، وكان فيه ، كالعادة ، موقفاً يقف على أرض الواقع ، ونلاحظ أن ابن حزم فرق بين الرسول ، وأسماء السفير ، وهو من يقوم بالمهمة بنفسه شخصياً ، وبين المراسلة وتم غن طريق تبادل الرسائل ، مما ينبغي أن القراءة والكتابة كانت شائعة في الأندلس بين الرجال والنساء ، وعند كل الطبقات ، ويبدو أنها لم تكن في بغداد على هذا المستوى ، لأن ابن داود لم يعرض لهذا الضرب منها ، لا في باب « الرسول » ولا في باب آخر مستقل بها .

وكلاهما أوقف على الوشاية باباً مستقلاً . وكمره ابن داود على ثلاثة أقسام : سعاية المتحابين إلى غيرهما ، وسعاية المحب إلى محبوبه ، وسعاية المحبوب لمحبه ، وهى قسمة تلمح فيها جانب المنطق الشكلى ، لأنها الصور العقلية للقضية ، دون أن يعنى ذلك أن لها الطابع نفسه فى واقع الحياة . وجعل التأثير بالوشاية على ضربين ، لأنه يختلف تبعاً لأحوال العشاق : « فالعشاق المتبحرون لا يقبلون قول الوشاة بل لا يسمعون ، لأن الثقة منهم بأحبائهم ماحية لقول من وشى بهم . » « وأما أهل الوله المتوطنون فيقبلون ما لا يسمعون فضلاً عما يسمعون . » وعرض ابن حزم للوشاية فى حديث مستفيض ، قسمها من حيث الغاية على ضربين : « واش يريد القطع بين المتحابين أذية ، وثان يسعى للقطع بينهما لينفرد بالمحبيب ويستأثر به ، وألحق بهما ثالثاً يسمى بهما جميعاً : ويعرض لوسائل الوشاي وألوانها تفصيلاً ، فى حديث طويل يتناول فيه الكذب والغيبة ودورهما فى إفساد المجتمع بعامه ، ويفرق بين الغيبة والنصح تفريقاً جميلاً ، ويحمل عليهما بشدة ، ويستشهد على ما يقول بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأشعار له ، وأمثلة لما يعرف مما حدث فى مجتمعه . فالبون شاسع بينهما . هذا الباب أيضاً ، ولا يدين أديب قرطبة ولا يسطر واحد مما كتب لأفكار فقيه العراق .

ويلتقيان فى موضوع الهجر ، واختار له ابن داود عنواناً مسجوعاً على عادته : « بعد القلوب على قرب المزار أشد من بعد الديار من الديار » ، واختار له ابن حزم عنواناً موجزاً ، كلمة واحدة : « الهجر » . وتناولهما للموضوع مختلف جداً ، فابن داود يجعل أضرب الهجر فى قسمة عقلية أربعة : هجر ملال ، وهجر دلال ، وهجر مكافأة على الذنوب ، وهجر يوجه البغض المتمكن فى القلوب : « على حين يلتقط ابن حزم مادته من حياة العشاق نفسها ، فيجعله : هجر يوجه تحفظ من رقيب حاضر ، وهجر يوجه التذلل ، وهجر يوجه العتاب ، وهجر الملل ، وهجر القلى ، وهجر الجفاء . وقد التقى ابن حزم مع ابن داود فى أقسامه وزاد عليها ،

ولكنهما اختلفا فيها هو أهم ، ألقى ابن داود بأقسامه الأربعة ثم مضى إلى ما استعذب من شعر غيره ، جرباً على عادته والزاماً بمنهجه ، أحياناً وراء أخرى ، دون تعليق منه . وفصل ابن حزم القول في كل قسم من هذه الأقسام ، عوارضه ونتائجه ووقعه في القلب ، وضرب الشواهد من حياته نفسه ، ومن أحداث صحبه ، ووشاه بأبيات من شعره منشداً أو منثراً .

واستشهد ابن حزم بالقرآن والحديث كثيراً : لأنه عرض للكذب والفجور والفساد والنجاسة ، وأدانها بشدة ، وأوقف باباً على « قبح المعصية » ، وآخر على « فضل التعفف » ، ومادة كليهما دينية ، تنهض على أساس من القرآن والسنة ، على حين لا تظهر في كتاب ابن داود ولا آية قرآنية واحدة ، والحديث الوحيد الذي أورده : « الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ، نلتقى به في « طوق الحمامة » أيضاً ، وهو حديث نبوي متواتر يجرى على الألسنة دواماً ، ولا يحتاج ابن حزم لأن ينقله من كتاب « الزهرة » ، أو يحفظه عن طريقه .

وعلى النقيض من ذلك ، تجدد الفلسفة اليونانية صدى أكبر في كتاب ابن داود ، فقد كانت بغداد على أيامه موطناً لترجمة الفكر الإغريقي إلى اللغة العربية ، وتمتعت بغداد في عصره بحرية فكرية أوسع بكثير مما تمتعت به قرطبة على أيام ابن حزم ، فكانت مسرحاً لآراء متطرفة وعنيفة في شتى المجالات ، دينية وفلسفية وسياسية ، ووجدت الفلسفة من الدولة رعاية وتشجيعاً ، على حين سيطر المذهب المالكي على عاصمة الخلافة في الأندلس ، وأقام دون الأفكار الأخرى صعباً بلاغة ، ولم تصبح الفلسفة أمراً محبباً ومرغوباً فيه ومتداولاً بين عامة المفكرين ، إلا في فترات محدودة ، وعلى نحو متواضع . ومن ثم تتردد في كتاب الزهرة أسماء عدد من فلاسفة اليونان ، ينقل لنا عن بطليموس رأيه في الصداقة والعداوة ، وعن جالينوس « أن المحبة قد تقع بين العقلاء من باب تشاكهما في العقل ، ولا تقع بين الأحمق من باب تشاكهما في اللحم » ، لأن العقل

يجرى على ترتيب فيجوز أن يتفق فيه على طريق واحد ، والحق لا يجرى على ترتيب فلا يجوز أن يقع به اتفاق بين اثنين » . ويحكى عن أفلاطون قوله : « ما أدري ما الهوى ، غير أنى أعلم أنه جنون إلهى ، لا محمود ولا محمود » . وأخذ على نحو جاد التفسير البالغ السخرية الذى وضعه أفلاطون على لسان أرسطوفان لتفسير ظاهرة الحب ، ولكن دون أن ينسبه إلى أفلاطون : « وزعم بعض المتفلسفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدورة الشكل على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضاً فجعل في كل جسد نصفاً ، وكل جسد لقي الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه ، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتتفاوت أحوال الناس في ذلك على حسب رقة طبائعهم » . ونسب إلى بعض المتطبيين : دون أن يفصح من هم ، رأياً في « أن العشق طمع يتولد في القلب ، وتجتمع إليه مواد من الحرص ، فكلما قوى ازداد صاحبه في الاهتمام والانداج وشدة القلق ، وكثرة الشهوة ٠٠٠ » ، وأرجع أيضاً أنه ينقل هنا عن طبيب يونانى .

وكان ابن حزم أيضاً على وعى بالفلسفة اليونانية ، واستخدمها على نحو أقل من ابن داود ، وصحح له ما نقل عنها ، حين أخذ رأى أفلاطون في تفسير ظاهرة الحب ، فهو يرى « أنه اتصال بين أجزاء النفس المقسومة في هذه الخلقة في أصل عنصرها الرفيع ، لاعلى ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة : الأرواح أكر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوى ومجاورتها في هيئة تركيبها » . وأورد حكاية نسبها إلى أفلاطون حين سجنه بعض الماوك ظلاماً ، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى أظهر براءته ، ثم يمضى مع الحكاية إلى نهايتها ، يدعم بها رأيه في تفسير ظاهرة الحب ، ولم يهتد أحد إلى مصدر هذه الفقرة التى أوردها لنا ابن حزم . ثم نقل قول أبقراط الطبيب : « ما أحبنى أحد إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه » ، وهذه الفقرة أيضاً لا تردفها بين أيدينا من التراث اليونانى . ويستشهد بأفليمون صاحب الفراسة ، في أن العين باب إلى القلب ،

ومنا فذ نحو النفس ، ويجيء عنده بطليموس في بيت من الشعر ، مؤداه :  
لو عاش بطليموس لشهد بمهارته في رصد جرى الكنسن . وكان ابن حزم  
في كل هذه الحالات أصيلاً في ثقافته ، ولم ينقل عن ابن داود ، ولا أفاد  
شيئاً ، وارتضى أن يصحح له ما خالفه فيه .

ويمكن القول إجمالاً ، أنه ابن داود وابن حزم يتفقان في عدد من رموز  
القضايا المتعلقة بالحب ، ولكن النبع الذي يصدران عنه مختلف جداً ،  
فابن داود متأثر بالصور المنطقية لكل قضية ، وبما قرأ أودر س حوله ،  
يأتي بها في أول الباب موجزة ، ثم يلحقها بما يناسبها من أشعار في حدود  
المئة بيت ، كما اختط لنفسه منذ البدء ، وغلب الشعر على كتاب «الزهرة»  
وقلت الأخبار فيه ، وحتى ما ورد به من حكايات فإنما هي قصص لمشاهير  
العشاق ، أخذت طابعاً شعبياً ، وخضعت لقواعد الأسطورة ، وكل جماعة  
تلونها بما هو أقرب إلى ذوقها ، فانت معها لا تدرى أين تبدأ الحقيقة وأين  
ينتهي الخيال ، مثل مجنون ليلي ، وأخبار جميل بئينة ، وكثير عزة ، وعروة  
وعفراء ، وغيرهما . أما ابن حزم فيصدر عادة عن تجربته الذاتية ، أو تجارب  
معاصريه التي شهد لها أو عرفها ، وربما تجد في «الطوق» صدى قراءات  
بعيدة ، في ثقافات مختلفة ، ولكنها خافتة ، وتأتي ممترجة بترية الأندلس ،  
ومن خلال عادات أهله وحياتهم وتقاليدهم . فكتاب ابن داود مجموعة  
رائعة من شعر الغزل ، لا تنتمي إلى عصره ، وإنما تعود إلى شعراء عاشوا  
قبله بقرن أو قرنين من الزمان ، صنفها على أبواب ارتضاها ، دون أن  
تعكس في شيء نبض المجتمع حيث يعيش الحب واقعاً ، أما كتاب «طوق  
الحمامة» فلقطات واقعية لحركة مؤلفه ، والذين حوله ، في مجالات العاطفة ،  
حبة ودافئة ، وتنضح إنسانية في كل جوانبها .

• • •

وهناك آخرون عاصروا ابن داود ، وبالتالي سبقوا ابن حزم ، وعرضوا  
لموضوع الحب أيضاً ، وهم : أديب ، وشاعر ، وجماعة . أما الأديب

فهو : محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء ، أبو الطيب ( ٨٦٠ - ٩٣٦ م )  
في كتابه « الموشى » ، وشهر باسم : « الظرف والظرفاء » ، وإن أقف عنده  
هنا ، لأن المستشرق الإسباني غرسية غومث عرض له في دراسة ترجمتها ،  
وضمنتها هذا الكتاب ، وجاءت فيه تحت عنوان : « كتاب سبق طوق  
الحمامة » ، وآخر جاء بعده ، وفيها الغناء ، أو إن شئت ليس عندي  
مضمينه إليها الآن .

وأما الثاني فهو الشاعر العباسي الشهير : أبو العباس بن المعتز  
( ٨٦٠ - ٩٠٨ م ) ، وولد في بيت ملك ، وتلقا أنجاد الخلافة ، وربى  
في بيئة النعيم وموطن الجلالة ، فلشأ نبيل النفس ، دقيق الحس ، قوى  
الشعور بالجمال ، ولو عا بالآدب والموسيقى ، شغله الأدب والطرب واللعب  
عن دسائس القصر ، ومطامع الحكم ، فلما ولي المقتدر ابن هـ ٢٩٥ هـ -  
٩٠٨ م ، وترك تدبير الحكم وأمور السياسة لأمه ومن حولها من النساء  
والخصيان ، التفت الحائقون حول ابن المعتز فخنعوا المقتدر وبابيعوه ، فاتبوا  
الخلافة غير يوم وليلة ، لأن أعوان المقتدر لم يستسلموا ، وحاربوا خصومهم  
وقهروهم ، وأعادوا المقتدر إلى عرشه ، واختفى ابن المعتز في دار ابن  
الخصيص التاجر الجوهري ، ولكن أعوان المقتدر صرعان ما اهتدوا إليه  
واعتقلوه ، ودفعه المقتدر إلى مؤنس الخازن فخنقه وسلمه إلى أهله  
ملقوفاً في كساء .

كان ابن المعتز شاعراً رقيق اللفظ ، سهل العبارة ، بليغ الاستعارة ،  
رائع التشبيه ، بريئاً من كذب المدح وذم الهجاء ، ويعكس في شعره  
ما كان يعم به من ترف العيش ، ورفاهية النشأة ، وتتمجلى فيه معارفه  
الواسعة من فلك وتنجيم وفلسفة ، وقد أمعن في اتباع مذاهب القدماء في  
الشعر ، ولكنه تأثر بخطى أ تواس إلى حد بعيد ، وبرع في وصف  
الطبيعية ، ومطاردة الصيد ، ومراسلة الإخوان ، وإلى جانب الشعر له  
مؤلفات أخرى هي : البديع ، والجوارح والصيد ، وأشعار الملوك ،

وطبقات الشعراء ، والزهر والرياض ، وكتباً أخرى ضائعة . ويذكر الأستاذ هلال ناجي ، تقلاً عن الدكتور صلاح المنجد ، أن له كتاباً « في العشق » ، توجد مخطوطته في مكتبة طشقند في الاتحاد السوفيتي ، ولأعرف مصدراً آخر من الدارسين أو فهارس المؤلفين أو المكتبات أشار إليها ، وأجهل محتواها تماماً ، وأتصور أن فيها ما يفيد البحث ، وبضيف إلى سلسلة الكتب التي تدرس الحب جديداً ، وتلقى أضواء كاشفة على طبقته ، وعلى ما بين أيدينا من مصادر أخرى .

وفي غيبة النص لا يمكن القطع ، أو حتى الترجيح ، بأن ابن حزم قد قرأ الرسالة وتأثر بها ، ولكننا نعرف على وجه اليقين أن ابن المعتز كان معروفاً في الأندلس ، ومعروفاً لابن حزم بخاصة ، عرض له في رسالته « فضائل أهل الأندلس » ، حين وازن بينه وبين الشاعر الطليق : « أبو عبد الملك » هذا في بني أمية ، كابن المعتز في بني العباس ، ملاحه شعر وحسن تشبيه . وكان في تراث ابن المعتز ، وفي حياته ، الكثير مما يعجب به ابن حزم ويحرص عليه ، وأقف بالاحتمال عند هذا القدر ، إلى أن يتاح لي أن أقف على رسالة ابن المعتز « في العشق » أو أقرأ عنها ما يعين على اليقين .

وأما الجماعة فلاخوان الصفا ، وهي مدرسة فلسفية ازدهرت في البصرة قريباً من نهاية القرن العاشر ، حوالي عام ٩٧٠ م ، وتميل إلى الفيشاغورية ، وكان لهم فرع في بغداد ، ولم يكونوا جماعة فلسفية فحسب ، وإنما لهم ميول سياسية ودينية ، ذات ميول شيعية متطرفة ، ربما كانت إسماعيلية ، وتشكلت من عدد من كبار العلماء والفلاسفة هالهم ضعف الخلافة ، وفساد الأخلاق ، وفقر الشعب ، فحاولوا تجديد السياسة والأخلاق عن طريق الانفتاح الثقافي ، لأن الحقيقة تنضج وتزدهر في لقاءها وصراعها مع الأفكار الأخرى ، فإذا ما عزلت ، أو انعزلت ، تطرق إليها الوهن والعفن والفساد . وكانوا يتناولون في حرية كاملة كل القضايا الجوهرية ، أو يرمون إلى إسقاط الحكم القائم على أبياتهم عن طريق تربية الشعب عقلياً وديناً ، وفي هذا

ما يفسر الغموض للذي أحاط بالأعضاء ونشاطهم :

كتب إخوان الصفا مجموعة من الرسائل مرتبة على غرار الموضوعات ، وبعض المقالات ملئيل بأسماء غير معروفة ، وتبلغ عدتها اثنتين وخمسين رسالة ، تعالج الرياضيات والفلك والجغرافيا والموسيقى والأخلاق والفلسفة ، وتضم كل المعنومات والمعارف التي يتطلب عصرهم من الرجل المثقف أن يلم بها . وقد خصصوا الرسالة السابعة والثلاثين ، وهي السادسة بين مجموعة للرسائل الخاصة بالعلوم الطبيعية وعلم النفس ، وفيها عرضوا للعشق ، وعجبة النفوس ، والمرض الإلهي . وأوردوا طرفاً مما قالت الحكماء والفلاسفة في ماهية العشق وكمية أنواعه ، وكيفيته نشوئه ومبدئه وعمله المرجبة له ، والأسباب الداعية إليه ، والغرض الأقصى منه ، ووقفوا عند الحكماء الذين ذموا للعشق وذكروا مساوئ أملاء وقبح أسبابه . ومازعموا من رزية فيه ، وعند الحكماء الذين قالوا إن العشق فضيلة نفسية فمدحوه ، وذكروا محاسن أهله ، وزينوا أسبابه ، وعند أولئك الذين لم يفتقروا عند أسرارهم وعمله وأسبابه ، وحقائقها ودقة معانيها ، فزعموا أنه مرض نفسي ، أو جنون إلهي ، أو همة نفس فارغة . أو فعل المتبطلين لا شاغل لهم ، ولا همة عندهم . وقدردت الرسالة على هؤلاء جميعاً :

« ولعمري إن العشق يترك النفس فارغة من جميع الهم ولاهم المشوق ، وكثرة الذكر له ، والفكرة في أمره . وهيجان الفؤاد ، والولع به وأسبابه ، ولكن ذلك من فعل الباطلين القراع ، كما زعم من لا خبرة له بالأمور الحقيقية ، والأسرار اللطيفة ، ولا يعرف من الأمور إلا بالتجمل للحواس وظاهر للمشاعر . وأما الذي يدرك منها بصفاء القلب ، وبودرة التمييز ، وكثرة الفكر ، وشدة البحث ، ودقة النظر ، فهم بمنزلة : وذلك أن الذين زعموا أن للعشق هو مرض نفسي ، أو قالوا إنه جنون إلهي ، وإنما قالوا ذلك من أجل أنهم رأوا ما يعرض للعشاق من سهر الليل ، ونحول الجسم ، وغوور العيون ، وتواتر النبض ، والأنفاس الصعداء ، مثل ما يعرض للمرضى ، فظنوا أنه مرض نفسي . »

« وأما الدين زعموا أنه جنون إلهي فلأنما قالوه من أجل أنهم لم يجدوا لهم  
دواء يعالجونه ، ولا شربة يسقونها إياهم ، فيبرؤون مما هم فيه من المحنة  
والبلوى ، إلا الدعاء لله بالصلاة والصدقة والقرابين في الهياكل وورق الكهنة ،  
ما شاكل ذلك ، كما حكى العاشق بقرائه ، وهو عروة بن حزام  
قتيل الحب :

بدلت لعراف الإمامة حكمه      وعراف نجد ، إن هما شفياني  
فما تركا من مدلوة يعرفانها      ولا رقية إلا بها رقياني  
فقالا : شفاك الله والله مالنا      بما ضحنت منك الضلوع بدان

وكان أخوان الصفا ، فيما يبدو ، يميلون في تفسير ظاهرة العشق  
إلى أنه هوى غالب في النفس ، نحو طبع مشاكل في الحسد ، أو نحو  
صورة مماثلة في الجنس ، وربما كان هذا التفسير دليلاً تؤكد شدة  
الشوق إلى الاتحاد ، وامتزاج الروح بالروح ، كما قال ابن الرومي :

أعانقها والنفس بعد مشوقة      إليها ، وهل بعد العناق تداني  
وألتم فاعاكي نزول صبايبي      فيزداد ما ألقى من الهيمان  
كان فؤادي ليس يشفى غليله      سوى أن يرى الروحين يمتزجان

وأفاضت الرسالة في تأكيد هذا الوجه ، وتعرفت أسبابه منذ يبدأ  
نظرة عجلة ، أو التفاتة سريعة ، إلى أن يصبح ثنائياً ، وتحدثت عن  
الاشتياق والهيام ، وأن كل محب لشيء من الأشياء مشتاق إليه ،  
هائم به ، وأنه متى وصل إليه ، وتال من بهواه منه ، وبلغ حاجته  
من الاستمتاع به ، والتلذذ بقربه ، فإنه لا بد يوماً من أن يفارقه  
أو يمله أو يتغير عليه ، وتذهب تلك الخلاوة ، وتتلشى تلك البشاشة ،  
ويحمد لهيب الاشتياق ، إلا المحبين لله تعالى من المؤمنين ومن عباده  
الصالحين : وهنا تعرض الرسالة للعشق الصوفي ، والغاية من وجود  
العشق في جيلة النفوس ومحبتها الأجساد ، استحصانها لها ، وتفسره بأنه تنبيه  
لنفوس من نوم الغفلة ، ورقدة الجهالة ، ورياضة لها ، وتعريج بها ،

ونزعة من الأمور الجسمانية المحسوسة إلى الكمور النفسية المعقولة ،

وتتلل الرسالة على مذهب ابنه من خلال نموذج تكشف فيه عن المذنبين والتذكر ، وتنجس لنا ظاهرة نفسية واضحة طالما تحدث عنها الشعراء ، ووقدرا حياها مذهولين ، وشغلت حياء واضحة من الأدب العربي ، فتشير إلى معرفة من عشق يوما من أيام عمره الشخص من الأشخاص ، ثم تسلي عنه أو فقده أو تغير عليه ، ثم إنه وجده من بعد ، وقد تغير عما كان عليه وعنده من الحسن والجمال ، وتلك الزينة والمحاسن التي رآها على ظاهر جسمه ، فإنه متى رجع عند ذلك ، فنظر إلى تلك الرسوم والصور التي هي باقية في نفسه منذ العهد القديم ، وجدها محالها تلك ولم تتغير ، ولم تبدل ، ورآها برمتها ، فتشاهد النفس في ذاتها حينئذ من تلك المحاسن والصور والرسوم والأصباغ ما كانت من قبل تراها على غير تغير ، وتجد في جوهرها ما كانت قبل ذلك تطلبه خارجاً عنها ، فعند ذلك تبين له وعلم أن المعشوق والمحبوب بالحقيقة إنما هو تلك الرسوم والصور التي كان يراها على ذلك الشخص ، وهو اليوم يراها منقوشة في نفسه ، مرسومة في جوهره ، مصورة في ذاته ، باقية لم تتغير ،

والرسالة على الرغم من صغرها تثير جوانب كثيرة من المسائل المتعلقة بالعشق ، ونظرة الثامن إليه ، وقد حاولت تقديم الدراسة النفسية العميقة لتعليل للظاهرة من خلال الثقافة التي كان العصر يزخر بها ، وقد حددت معالم كل اتجاه من الاتجاهات وفق الصورة التي تراها ، وفي محاولة للرد على هذه الاتجاهات حددت النظرة العملية ، وأكد إخوان الصفا على الجانب الاجتماعي للحب ، واهتموا إليه من خلال استيعاب ظواهره ، نفسية واجتماعية ودينية وفلسفية وحسية ، وحاولوا تفسيره وربطه بالفكر الإسلامي ، من خلال نهجهم وحده ، دون أن يعرضوا لرأي الآخرين فيه ، من خلال كتاباتهم ومؤلفاتهم .

ومن المهم أن نشير إلى أنهم وقفوا بدراساتهم عند نزعة الحب ، والأسم

النظرية التي تقوم عليها هذه النزعة ، ولم يعرضوا للجانب الأدبي منها ، ومع ذلك كان لهم دورهم الواضح في توجيه الأذهان نحو الحب العذري ، ربما من حيث لا يشعرون ، فنحن نعرف أن أبا حيان التوحيدي (ت ٤١٤-١٠٢٣ م) وكان تلميذاً للجماعة ، وإن لم يكن عضواً نشطاً فيها ، يعزو التدهور في أيامه ، ومالئق الناس من غلبة الشهوات المادية على نفوسهم ، إلى انصرافهم عن مذهب الهدى والعشق ، أو ما ندعوه الآن بالحب العذري .

دخلت رسائل أخوان الصفا في الأندلس ، على يد العالم للرياضي مسلمة الخربطى ، أبو القاسم ، المتوفى عام ٣٩٧ هـ - ١٠٠٧ م ، إثر عودته من رحلة دراسية قام بها في المشرق ، ولهذا يذكر في بعض المخطوطات على أنه مصنفها ، والحق أنه اختصرها ، وتوجد مخطوطة مختصرة في مكتبة الإسكوريال : وكان مسلمة معاصراً لابن حزم ، وأورد عنه خبراً عاطفياً برواية أبي دلف الوراق ، ولعمته بالفيلسوف المعروف ، وما أشك في أن ابن حزم قرأ رسائل أخوان الصفا التي حماتها مسلمة ، وأرجح أنها كانت وراء اختياره « طوق الحمامة » عنواناً لتكابه : ذلك أن إخوان الصفا ، فيما يرى الباحثون ، أخذوا اسمهم من باب « الحمامة المطوقة » في كليله ودمنة ، حيث يطالب ديشليم الملك من بيدبا للفيلسوف أن يحذره ، إن رأى ، « عن إخوان الصفاء كيف يتبدأ تواصلهم ، ويستمتع بعضهم ببعض » ، فليس بعيداً أن يكون ابن حزم استلهم عنوانه من هذا الباب أيضاً ، متأثراً بكليته ودمنة مباشرة ، أو عن طريق « إخوان الصفا » ، والباب يدور حول ما يصنعه الود في إنقاذ من التقوا على الحب في لحظات الحرج والضيق : وكذلك يمكن القول أن فلسفتهم أعانت ابن حزم في تكوين نظريته الفلسفية عن ظاهرة الحب وتفسيرها ، دون أن تتجاوزها إلى تأثيراته في الحياة ، وجوانبه وظواهره ، وفي أمثاله وشواهد ، فقد جاءت هذه في كتاب « طوق ذاتية مصفاة » ، وأندلسية خالصة .

ويأتي ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧ م) بعده هؤلاء ، وقد جاء بعده ابن داود وقبل ابن حزم ، وهو أشهر شخصية في عالم الطب العربي ، بعد الرازي ، ويسميه العرب الشيخ الرئيس ، وفيه تجمعت عدة علوم عربية ، فكان طبيباً وفيلسوفاً ولغوياً وشاعراً ، وتبلغ ببساطة مؤلفاته ٩٩ كتاباً ، بينها عدد من الرسائل أو الكتب الصغيرة ، وكان رائداً عظيماً بلغ الغاية ، ولم يكن مقدمه اللاتينيون بعده بقرنين من الزمان على أنه الفيلسوف « المدرسية » إلا موجزاً لما انتهى إليه في فلسفته « ما وراء الطبيعة » ، وكتاباه : « الشفاء » و « القانون » يمثلان الآن ذروة الفكر في العصر الوسيط ، ويشكلان فيما يقول المستشرق الفرنسي جاك م. ريسلر محاولة من أعظم المحاولات الموسوعية في تاريخ الحضارات . وبهمننا من بين كل مؤلفاته هنا رسالته « في العشق » ، وهي أقل كنهه شيوعاً واعتناء من المدارس في العالم العربي ، على حين أنها تجد في الغرب عناية أكبر ، وقد ذهب الأب إسكندر ديزومي أخيراً ، وهو يبحث عن الأصول العربية للحب العنيف في الغرب بعامة ، وعند شعراء القروبادور بخاصة ، إلى أن هذه الأصول يجب البحث عنها في الفلسفة العربية ، وبالذات عند ابن سينا في رسالته : « في العشق » ، فقد « أعطى للحب البشري ، أي لعشق القوى الحيوانية ، دوراً إيجابياً ، يسهم به في توجيه النفس نحو الحب الإلهي والاتحاد مع الله » . أي أن ابن سينا تغلب على الهوة التي تفصل نشاط النفس الحيوانية عن نشاط النفس الناطقة في الإنسان ، وبذلك استطاع أن يصل بين طرفي الحب الطبيعي والروحي ، وبذلك « أعطى للنفس دوراً من المشاركة مع النفس الناطقة العاقلة فجعل حب الجمال الظاهري ، أي الحب الجنمي ، دوناً في الاقتراب من الإله ، فإذا انضمت النفس الحيوانية إلى الناطقة اكتسبت من اتحادها هذا تلك القوة السامية مبرراً وشرفاً » . ومن ثم تعتمد السرجة الحقيقية في الحب الإنساني على مدى ما نسين به الإنسان للاتحاد بالخير المطلق . يقول ابن سينا : « ومهما أحب الصورة الملمحة باعتبار عقله ، فليأثر منهجته » ، عند

ذلك وسيلة إلى الرفعة والتناهي في الحرية ، لو لو هو بما هو أقرب في التأثير من المؤثر الأول والمعشوق المحض ، وأشبه بالأمور العالية الشريفة .

« وواضح من هذا أن تفكير ابن سينا لا يتناول من الخصائص الأربع للحب العفيف ، تناولاً مباشراً ، إلا القول بأنه قوة تسمو بالنفس ، مع أننا لو تتبعنا فكرة « الحب من أجل الحب » وإعلاء شأن المحبوبة ، لوجدناهما متوفرين في الأدب العربي ، لا في الفلسفة العربية ، منذ قرنين أو أكثر قبل ابن سينا . أما القول بأن الحب رغبة لا يرجى لها أن تتحقق ، فإنه موجود ضمناً في الشعر وإن لم يصنعه الشعراء فكرة أو يجعلوا منه مبدأ . وهو أيضاً ينطوي في الفكرة التي ترى أن « الرغبة » قوة دافعة لتطهير النفس وصعودها نحو الإله ، تلك الفكرة التي تمثل محور فلسفة الأخلاق في الأفلاطونية الحديثة ، فإذا تحدث ابن سينا عن الحب الأرضي ونسب إليه أثراً خلقياً ، ولا أقول تهذيبياً ، فلنا لانبعد عن الصواب إذا رأينا في اتجاهه هذا توسيعاً في فكرة اشتياق النفس للاتحاد بالله ، وهذا الشوق ، في رأى أفلوطين ، كامن في النفس منذ الأزل ، ويمثل حاجتها إلى أن تصعد من خلال التكيف الروحاني في مراتب الوجود ، وتنتأى عن موضعها الغامض في هذه الحياة إلى التأمل المستمر في الواحد أو في الوجود ذاته (١) .

وواضح من هذا أن تفكير ابن سينا لا يتناول من الخصائص الأربع للحب العفيف تناولاً مباشراً ، إلا القول بأنه قوة تسمو بالنفس ، وليس في رسالته : « في العشق » ما يوحى بأنه يقيم أساساً فلسفياً للحب العندري ، وليس فيها شاهد واحد على أنه كان يوجه نظره إلى الأدب ، بل إن الإحكام الدقيق في عرض آرائه ينبئ بأنه كان يطبق مبدأه العام في النفس وأجزائها على مشكلة أو ظاهرة بعينها ، ويحاول أن يجد لها مكانها الصحيح في نظامه الفلسفي ، وهو في كل الرسالة يعالج مبادئ عالجهما على نحو أكمل في

١ - جوستاف فون جرنباوم ، دراسات في الأدب العربي ، ص ٨٣ وما بعدها ، ترجمة إحسان عباس وآخرين .

مؤلفات أخرى . والحق أن الحب في ذاته لا يمثل نقطة انطلاق في تفكيره ،  
وحين يعرض له لا يتناول صورة نزعة الحب في الأدب ، ولكن دراسته  
تقدم من بعض الوجوه الأسس النظرية التي تقوم عليها هذه النزعة الإنسانية .  
كان ابن سينا معاصراً لابن حزم ، وأسبق منه بسنوات ، وأقطع بأن  
العالم القرطبي لم يكن عرف رسالة ابن سينا « في العشق » حين حرر كتابه  
« طوق الحمامة » ، حتى لو افترضنا أن ابن سينا حرر رسالته في بدء  
حياته ، وهو افتراض مشكوك فيه إلى حد كبير .

\* \* \*

تلك هي الكتب التي عرضت لموضوع الحب قبل ابن حزم ، لا يعرض  
الأديب القرطبي لأى منها في كتابه ، غير إشارة جاءت في مقام التصحيح  
لابن داود ، وبقيتها ربما كانت قد قرأ وتمثل ، ومن المحتمل أنها تركت  
شيئاً في أعماقه ، ولكنه في كل الحالات كان سيد قضيته وموضوعه ، لا يستلهم  
شيئاً غير فكره الخالص ، وأحاسيسه الذاتية ، وتجاربه الشخصية . وقبل  
أن نتابع دور الطوق في كتب الحب ، سابقاً ومؤثراً في هذه المرة ، أدع  
الفرصة للمستشرق الإسباني إميليو غرسيه غومث ليحدثنا بدوره عن  
كتابين ، سبق أولهما ابن حزم وجاء الثاني بعده .

## كتاب سبق طوق الحمامة

وكتاب جاء بعده

المستشرق الإسباني : إميليو غرسيه غومث

من مجلة الأندلس ، المجلد ١٦ ، سنة ١٩٥١ ، ص ٣٠٩ - ٣٢٠

- ١ -

### كتاب الموشى للوشاء (١)

يحدث أحياناً في مجال الأدب العربي أن المؤلفات الأشد انزواءً ، هي التي تأخذ طريقها إلى النشر قبل غيرها ، وتفسير هذا التناقض الظاهري والطريف أن الاستعراب علم حديث النشأة نسبياً ، وأن حجم الكتب المخطوطة غير المنشورة مازال يتجاوز الحصر ، ومن ثم اتجه اهتمام المختصين إلى المخطوطات ، وابتعدوا عن الكتب المطبوعة ، إلا في حالات نادرة تعود إلى أهميتها أو طابعها العملي ، لأن هذه ، على النقيض من تلك ، لاتقدم الصورة المثيرة لأمر كن مجهولاً . ولاشئ غير هذا يفسر لنا الظلام النسبي الذي يلف كتاب « الموشى » ، لأبي الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء ، وعاش تقريباً بين ٨٦٠ و ٩٣٦ م ، على الرغم من أنه طبع في ليدن بهولندا ، في مطبعة بريل عام ١٨٨٦ م ، بتحقيق رودولف ل. برونوف R. E. Brünnow ، وعن هذه الطبعة طبع مرتان في المشرق ، إحداهما في القاهرة عام ١٣٢٤ هـ ، في مطبعة التقدم ، بعنوان : كتاب الظرف والظرفاء ، (٢) ، والملاحظات

---

(١) القسم الأول من هذا المقال ترجم إلى الفرنسية بعنوان : المصادر الشرقية لكتاب طوق الحمامة لابن حزم القرطبي : كتاب الموشى للوشاء ، وقرأه في الجلسة التي عقدت في يوم ١٧ سبتمبر ١٩٥١ ، في المؤتمر الدولي للمستشرقين الثاني والعشرين ، وقد اجتمع في اسطنبول ، خلال الأيام من ١٥ إلى ٢٢ سبتمبر ١٩٥١ .

(٢) أنظر : مقدمة برونوف - وبروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ١٢٤ ، والملحق ج ١ ص ١٢٤ ، وإحالاته على : ابن النديم ، وابن الأنباري ، وياقوت ، والسيوطي ، وفلوجل ، وفوستنفلد .

التالية تنور حول الموازنة بين هذا الكتاب وكتاب آخر استفاد منه ، وكان هذا ، على العكس من الأول ، قد نال شهرة مستفيضة ، بلغت قدراً لا يناقش ، وهو كتاب وطوق الحمامة ، لابن حزم القرطبي (٩٩٤-١٠٦٣م) ، ويعتبر حجر الزاوية في موضوع تأثير الأدب العربي في الأدب الأوربي ، وكتاب قمة في الأدب الأندلسي ، وقد درس وصحح مراراً ، وطبع نصه أربع مرات (٥) ، وترجم حتى الآن إلى اللغات : الإنجليزية والروسية والألمانية والإيطالية والفرنسية (١).

وفي مقدمة ترجمة سادسة للطوق ، إسبانية في هذه المرة . وقد أنهيتها وتظهر هذا العام (٢) ، حاولت أن أضع كتاب ابن حزم الشهير في مكانه بين بقية الكتب المماثلة ، وهو يمثل فيما أرى ، إلى جانب كتابات أبي عامر ابن شهيد (٩٩٢-١٠٣٥م) ، خير ما أبدعت المدرسة الأدبية التي يمثلانها ، وننسب إلى عالم الخلافة الأموية في قرطبة ، ذلك أن التوهج الأدبي بجىء على للدوام متأخراً بالنسبة إلى التوهج السياسي ، توهج سرعان ما انطفأ لانتثار عقد الخلافة سريعاً ، وعلى غير توقع . وإذا بدا لنا أن نحدد في إنجاز عجل ملامح هذه المدرسة أمكن أن نقول إنها :

- أرمستقرافية الحياة ، تطابق الاتجاهات الفكرية الجديدة للنظام القائم ،
- عربية الولاء ، أى أنها لا تلقى بالا إلى حياة المستعربين أو ثقافتهم ،
- أو حتى مجرد الاهتمام بالحياة الشعبية .

- قومية الانبجاء ، على الرغم من ولائها العربي ، وتمكنها من الأدب

---

(١) توجد ترجمة وافية لابن حزم ، بقدر ما سمحت لي المراجع التي بين يدي ، يمكن الرجوع إليها في الملحق الثاني للترجمة الإسبانية التي سوف أشير إليها في الفقرة التالية .

(٢) طوق الحمامة في الألف والألاف ، لابن حزم القرطبي ، ترجمة إميليو غوسميت ، من النص العربي ، مدريد ، جمعية الأبحاث والنشر ١٩٥١ .

• بلغت طبعات النص في ألفية العربية حتى كتابة هذا السطور إحدى عشرة طبعة فيما أعلم ، أدفها وأرقمها النبعة التي صدرت عن دار المعارف ، انتشاره ١٩٥٥ . ( المترجم )

العربي المشرقي ، مجارة لموقف الأسرة الأموية في إسبانيا في مواجهتهم للعباسيين ، أى أنها تحاول أن تتجاف النماذج المشرقية وأن تنافسها .

• عصريّة الطموح ، تهتم بالإنسان ، وقل ما تغنى بالكتب ، ربما بسبب تسرب الروح الغربي إليها ، أى أنها تنهض على مزاج الكاتب أكثر مما تقوم على ثقافته الواسعة ، أو تمكنه من قواعد اللغة ، وتحاول أن تهرب من الرذيلة المشرقية ، في الاعتماد الدائم على المؤلفات السابقة :

وهذه الملامح الأربعة يمكن أن تلغى بها كلها ، فيما اعتقد ، عبر صفحات طوق الحمامة ، والملمحان الأخيران على الأقل تجدهما واضحين وموجزين في تلك الحملة الشهيرة التي جاءت في آخر المقدمة : « دعى من أخبار الأعراب والمتقدمين ، فسبيلهم غير سبيلنا : وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبي أن أنقض مطية سواي ، ولا أنحلى بحلى مستعار . والواقع أن ابن حزم قص علينا في كتابه الشهير ، كما نعرف ، تجاربه الذاتية ، وتجارب أصدقائه ، وشخصيات أخرى سبقته ، وكلهم في كثيرهم الغالبة أندلسيون . وفيما خلا الأحاديث النبوية ، والنصوص الدينية ، وبعض الأمثال ، وقليل من الإشارات العارضة ، لم يذكر في مصادره غير كتاب واحد : كتاب الزهرة لابن داود الأصفهاني ( ٨٦٨ - ٩١٠ م ) (١) ، وجاء به في الحقيقة في مجال تصحيح ما فهم المؤلف المشرق من فقرة التقطها من حديث أفلاطون عن الحب والجمال في محاوره « المأدبة » Le Banquet ،

(١) نشرة النصف الأول من هذا الكتاب الشهير ، واسترعى اهتمام ماسينيون بقوة في كتابه : محنة العلاج ( ١٩٢٢ ) ، لويس فيكل ، بمساعدة إبراهيم طوقان ، عام ١٩٣٢ ضمن السلسلة التي تنشرها جامعة شيكاغو ، وعن مخطوطات النصف الثاني ، ولما يزل مخطوطاً ، أنظر : مجلد الأندلس - المجلد ٤ ، عام ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، ص ١٤٧ - ١٥٤ .

• نشرت وزارة الإعلام العراقية النصف الثاني من الكتاب ، في سلسلة « كتب التراث » بتحقيق إبراهيم السامرائي وفوري حمودي القيسي ، بغداد عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م (المترجم) .

ويمكن الظن بدءاً أن كتاب الزهرة مصدر مباشر لطرق الحمامة ، فهو أى كتاب الزهرة ، يدور حول الحب أيضاً ، أو كان معروفاً جيداً في ، إسبانيا ، بل وهناك من قلده في زمن الحكم الثاني (١) ، ومؤلفه ظاهري ، ابن مؤسس هذا المذهب ، وقد انحاز إليه ابن حزم نهائياً . ولكن الواقع أن ما هو مشترك بين السكتابين قليل جداً . فالكتاب المشرق مختارات من شعر الغزل خاصة ، لا تمت إلى مؤلف الكتاب بصلة ، حتى حين أن الكتاب الأندلسي دراسة نفسية ، ذات حواش فلسفية ، والكتاب الأول طافح بالصناعة الممتازة ، والتحديات الختنة ، ويتميز الثاني بأنه طبيعي وإنساني ، مباشر ودافئ .

هل يمكن القول إذن أن « طرق الحمامة » عمل أصيل بكامله ؟ لا ، على التأكيد . ليس ثمة عمل أدبي يفتقد السوابق والواحق ، ولو كان مجرد الدبال الذي تولد منه . وفيما عدا ذلك يؤكد لنا ابن حزم أنه ترك جانباً « أخبار الأعراب والمتقدمين » ، وكان يعرف جيداً الكثير من الأخبار التي تروى عنهم . والجو الذي تنسجم عبر صفحات « الفطوق » لم يظهر في الأندلس عفوياً على يد جيل معين ، وإنما نعرف أنه جاء من المشرق الإسلامي ، من البيئة التي عاشت فيها ، أدبياً على الأقل ، أسطورة الحب العذري ، ثم تحددت أدبياً أيضاً . وفضيلة ابن حزم التي لا جدال فيها ، تقوم بالدقة على أنه أسبق أو غرب هذا الجو ، عراه من أردبته البدوية ، أو البغدادية ، وحتى من اسمه ، فكلمة « عذري » لا تظهر ولا مرة واحدة على امتداد كل صفحات الكتاب ، لكي يكسوه من جديد ثياباً قرطبية ، ومن الطبيعي أن تتخلف في تربته وفي أساسه المراد التي يصرت لابن حزم أن يطبقها ، مراد من الصعب جداً تحديدها ، لأن المرادف ، فيما نقول ، لم ينسخها بالمعنى الحرفي للكلمة ، وإنما تمثلها وطورها عفوياً ، أعطى لها روحاً جديداً ، وشكلاً مغايراً ، وحياة مختلفة .

(١) أنظر مقال الياس تيريس ، مجلة الأندلس ، المجلد ١١ ، عام ١٩٤٦ ، ص ١٢١-١٥٧ .

تتبع أثر هذه المصادر الخفية مخاطرة إذن ، لسكل ما قلت ، ولأن الدراسة الواعية للصلات بين الأدب الأندلسي والأدب العربي في المشرق لما تنزل مقلعة ، ومن ثم كان جرأة مني أن أعرض مؤقثاً ، وفي شكل مقال ، وكمحاولة لجس النبض ، لواحد من هذه المصادر ، وهو كتاب «الموشى» للوشاء ، ولقد صرحت في البدء بأن الكتاب غير معروف تقريباً ، ودرج للدارسون على اعتباره آلياً ، وعلى نحو تقليدى ، مجرد قائمة بالأخلاق الفاضلة ، وقوانين السلوك ، ليتصرف المجتمع العربي في أزهى عصوره على هديها . هكذا اعتبره مثلاً آدم ميتز في كتابه نهضة الإسلام ، ويقول عنه بروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية : «دليل الحياة الأنيقة في عالم بغداد للعظيم» . وعيناً يمكن مثلاً أن نجد له أثراً بين مصادر دراسة الحب في الأدب العربي الكلاسيكى ، وحررها علماء من الطبقة الأولى ، مثل جولدتسيهر (١) أوريتز (٢) . والحق أن كتاب الوشاء حتى ولو كان مرشداً عظيم الفائدة إلى الأخلاق الفاضلة ، فإنه أصلاً كتاب عن الحب في الجانب الرئيسى منه ، وهو على التأكيد الجانب الأكبر انشاعاً ، وهو شئ منطنى جداً ، لأن الحب في حد ذاته ، وفي مظاهره المصقولة ، قناعة أنيقة تخضع لقواعد دقيقة مسلم بها . وكان الوشاء متخصصاً في الموضوع ، فهو لا يحل نفسية الحب العذرى في دقة فحسب ، وإنما يضيف إليه النصوص والقصائد الأكثر روعة ، والأجمل توجيهاً . وعرض لحب القيان ، وشق طريقه محظوظاً ، ثم انتهى بالسيطرة على كل الأوساط البغدادية ، بل ويصرح

---

1 - Goldziher I : Vorlesungen Über dan Islam, P. 192 y  
ZDMG, 69 ( 1915 ) ' pp. 192 - 207 .

2 - Ritter H : Philologica VII ( Arabische Und persische  
Schiften Über di profane Und die mystische Liebe )  
en Der Islam 'Xxl' 1933 ' PP. 84 - 100 .

في كتابه « الموشى » أنه خص هذين الموضوعين ، كل واحد منهما بكتاب مستقل ، ولعلهما فقد أسوء الحظ ، لأنى لا أراهما واردين في قائمة مؤلفاته ، وهما : كتاب المقتضى (١) ، وكتاب القيان (٢) . ورغم أننا نجهل هذين الكتابين فإن مادة الموشى ربما كانت أفضل ما نملك بين أيدينا عن الحب بين العرب ، وهو أكثر فائدة من كتاب الزهرة لابن داود ، وأشد قريباً ، كما سنرى ، في روحه إلى ابن حزم في طرق الحمامة .

وفي حدود ما نشرت ، في قراءة مستأنية وليسكن ليست مستوعبة ، سأدعنى وأجمع الفقرات التى فى الموشى أو فى طرق الحمامة (٣) ، والتى أعتقد أن بينها بعض الشيء . ويجب أن أضيف إلى ذلك نثنى بصاد مقال ، نتأجج مؤقته تماماً ، لأن الشبه يمكن أن يجى من مؤلف آخر اختار الاتجاه نفسه ولما يعرف ، وأن هذه المشابهات لها ، فيما أرى ، بعض القيمة المقذمة إذا أخذت في جديتها فحسب ، أى أنها تدعم بعضها بعضاً ، وتحليلها منفصلة يجعلها تبدو ، وهى كذلك حقاً . غير ذات معنى وقابلة الإقناع . فندحن فتحرك ، وأعيد القول ، على تربة ظنية . وبذلك أن أتبع ما ورد فى الموشى أو فى الطوق متسلسلاً . رأيت لسهولة العرض أن أجمع على نحو غير طبعى قليلاً ، وكما مجرد توجيه فحسب ، الفقرات التى وازنت بينها ، طبقاً لما تخضع له من تشابه .

(١) في صفحة ٥٤ من طبعة ليدن : « ونحن مفردون لأهل الشن كتاباً نذكر فيه أحياناً الملتزمين ، ومنح المقتضى ، وأشعار المتفرجين ، مع جملة من صفات الهوى ، فى كتاب المقتضى . إن شاء الله تعالى » .

(٢) في صفحة ١١٣ من صبعة القاهرة : « وقد أفردنا كتاب القيان لذكر عظم القيان ، فأغنى ما فى ذلك الكتاب عن تكرير هذا الباب . فأعرفه ، إن شاء الله » .  
أشير في بعض الإحالات ، كما فى هذه ، إلى الطبعة المشرقية . لأن طبعة ليدن ليست بين يدي وأنا أحرر هذه الصفحات .

(٣) فيما يتصل بالموشى استخدمت ، لإغنى حالات فائرة كالإحالة السابقة ، طبعة بيروت التى نشرت بها ، فى سنة ١٩١٤ ، وفيما يتصل بطول الخدمة استخدمت طبعة بيروت ، ليدن - بيروت . وتحليل المشابهات الأقدم من ١ إلى ٢٠ .

• تسهلاً قدرى . العربى استخدمت طبعة دار المعارف بمكة . طرق الحمامة ، القاهرة ١٩٧٥ ، بدلا من طبعة بيروت .

- في الاقتباس ، أو الأسلوب ، أو اللغة .
  - في التعليق على عدد محدود من الوقائع .
  - في الملاحظات النفسية .
  - في الأفكار أو في المواقف الشاعرية .
  - في التقسيم وهناوين الأبواب .
- وأؤكد على أننا بصدد تشابه ينجىء من الذاكرة القوية التي شهر بها العرب ، ومستمدة من رواسب القراءة ، أكثر مما يعتمد على النسخ أو الاقتباس .
- وأستبعد الفرض الذى يخرج عن نطاق الموازنة ، ويجب أن يضاف إذا أكدته المشابهات الأخرى ، وهو أن الموشى يمكن أن يكون واحداً من الكتب التى قرأ فيها ابن حزم وأخبار الأعراب والمتقدمين ، ، ولتى أدار لهاظهره كتابه .

#### ١- التشابه فى الاقتباس أو الأسلوب أو اللغة

- ثلاثة على الأقل الاقتباسات المشتركة المهمة التى وجدناها :
- ١ - الحديث النبوى : « الأرواح جنود مجندة ، ما نعارف منها إئتلف ، وما تناكر منها اختلف » ، ويشير إليه الموشى صفحة ٢٥ ، ويوجد فى الطوق صفحة ٢٣ .
- ٢ - الحديث النبوى الثانى : « حبك الشيء يعنى ويصم » ، جاء به الموشى فى صفحة ٦١ ، وذكره الطوق صفحة ٢٩ ، دون أن يشير إلى أنه حديث نبوى .
- ٣ - والحديث النبوى الثالث ، فيما يظن : « من عشق فعمف فمات فهو شهيد » ، ويظهر فى الموشى ص ٧٥ ، ويختلف قليلا عما عليه فى الطوق صفحة ١٥٢ ، وجاء به ابن حزم دون أن يشير إلى أنه حديث واكتفى بقوله : « وقد جاء فى الآثار : » .

• أذكر القارئ بأن الكاتب يستخدم عادة طبعة ليدن من الموشى ، إلا فى حالات قليلة أشار إليها ، أما صفحات الطوق فتشير إلى طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٥ م . ( المترجم ) .

• وإليك الآن حالتين يتشابه فيهما الأسلوب :

٤ - يقول مؤلف الموشى ، مع بداية الجزء الثانى ، أنه سوف يتضمن شيئاً من الهزل أكثر مما فى الجزء الأول : « ولابد من خلطها بشيء من الهزل ، إذ فى ذلك ترويح لقلوب ذوى العقل ، . وبينما مؤلف الطوق فى مقدمته ، ليعبر تناوله موضوعات قد لا تبدو «حادة» ، مشيراً إلى آراء مؤلفين آخرين ، ويبيدوها : « أجمعوا النفوس بشيء من الباطل ليكون أعون لها على الحق » ، أو « أربحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد » .

• - فى صفحة ٧٧ من الموشى يتحدث المؤلف عن مال بعض المحبين الكاذبين ، فيقول : « فاستحسن الناس الملل والاستبدال ، والغدر والانتقال ، وأنا أبرأ إلى الله أن يكون هذا من شعر ظريف ، أو من فعل حصيف ، ويورد ابن حزم فى صفحة ١٤٩ ، بعد أن بين أن : « للشعراء فن من الشعر يندمون فيه اليأس على الدمن ، ويشنون على المنايا على اللذات » ، حالة أنى نواس ، وأنه « كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح فى أشعاره » ، ويقلد الشاعر المشرق فى أبيات له ، ثم يعقب عليها بقوله : « ومعاذ الله أن يكون نسيان ما دروس لنا طعماً » .

• وأخيراً يتوافقان فى حالتين لغويتين :

٦ - يقول الموشى فى صفحة ٥٤ : « وأما امن عشق من الشعراء فما يحصرهم عدد ، ولا يحصيهم أحد » ، وفى الطوق ، صفحة ١٩ : « وأما كبار رجالهم ، ودعائم دولتهم ، فأكثر من أن يحصوا » .

٧ - ويقول الموشى فى طبعته المشرقية ، صفحة ٤٩ ، إن الحب « أمير مطاع » ، وقائد متبع . « وبلد كذا الطوق ، صفحة ٨٣ : « لعلمت أن الهوى سلطان مطاع » .

٣ - التشابه فى التعليق على عدد محدود من الوقائع

٨ - الضرب الأول من الحب : بين ضرور الحب التى ذكرها ابن حزم ، صفحة ٢٣ : « محبة المتحابين فى الله عز وجل » ، وهو عنوان

باب من أبواب كتاب الموشى : « باب صفة المتحابين في الله عز وجل » :  
 ٩ - ذكر الطوق من علامات الحب وشواهد الظاهرة عند المحب ،  
 صفحة ٢٨ : « شرب فضلة ما أبقي المحبوب في الإناء » . وفي الموشى ،  
 صفحة ٩٣ ، نجد الجارية التي أرادت أن تعشق فتى غنيا : « شربت من  
 فضلة كأسه » .

١٠ - في الفصل الثالث من الطوق وأوقفه المؤلف على قصة أبي السرى  
 عمار بن زياد ، الذي أحب جارية رأها في النوم ، نجد ابن حزم يعذله قائلا :  
 « ولوعشقت صورة من صور الحمام لكنت عندى أعذر » . ونجد في الموشى ،  
 صفحة ٥٦ : « وبلغنا أن منهم من عشق صورة في حمام ، وخيالاً في منام ،  
 وكفا في حائط ، ومثالا في قوب ، والعشق ألوان وأنواع وضروب وفتون  
 وأمره عجيب » .

١١ - ويتخذ الطوق عن المراسلة ، صفحة ٥٦ ، فيقول : « وأما  
 سقى الجبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك » . ويورد الموشى ، صفحة  
 ١٥٤ ، قصيدة فيها : « مزج المداد بدمعه » ، وبعد ذلك بقليل ، في  
 أبيات شعر أخرى : « هذا كتابي بدمع عيني » .

١٢ - ويقول الطوق ، عند الحديث عن الهدايا التي يتبادلها العاشقان ،  
 صفحة ١٣٠ : « وما رأيت قط متعاشقين إلا وهما يتهاديان خصل الشعر ... »  
 وأما تهادى المساويك بعد مضغها فكثير » . ونقرأ في الموشى ، صفحة ٩٣ :  
 « وتبعث إليه بخاتمها وخصلة من شعرها ... وقطعة من مسواكها » ، وفي  
 صفحة ١٤٠ : « وقد تهادى أيضاً أهل الظرف بالمساويك » .

### ٣ - التشابه في الملاحظات النفسية

١٣ - في الباب الخاص بمناهية الحب من طوق الحمامة ، ص ١٤ ،  
 نجد هذه الملاحظة : « والحب - أعزك الله - داء عياء ، وفيه منه الدواء  
 على قدر المعاملة ، ومقام مستلذ وحلة مشبهة ، لا يود تسليمها البرء ، ولا يتمنى

عليها الإفاقة ، وفي الموشى ، صفحة ٨١ من الطبعة المشرقية : « الحب مع ما فيه من المرارة والنكد ... مستعذب عند أربابه ، مستحسن عند أصحابه »

١٤ - وربما كان الباب الخاص بعلامات الحب في الطوق ، من أظهار الأبواب أصالة ، وأغناها بالملاحظات النفسية ، في صفحة ٢٧ وما بعدها ، وتنتهى في الموشى بمسألة الملاحظات أيضا ، استخدم لها المصطلح نفسه : علامات . ففى صفحة ٤٨ : « وأعلم أن أول علامات الهوى على ذى الأدب نحول الجسم ، وطول السقم ، واصفرار اللون ، وقلة النوم ، وخشوع النظر ، وإدمان الفكر ، ومرعة الدموع ، وإظهار الخشوع ، وكثرة الأنين ، وإعلان الحنين ، وانسكاب العبرات ، وتتابع الزفرات . وعن تأثير الحب في العاشق يقول طوق الحمامة ، صفحة ١٨ وما بعدها : « فكم بخيل جاد ، وقطوب تطلق ، وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تطرب » . وفي الموشى ص ٤٩ من الطبعة المشرقية : « وقد يشجع الجبان ، ويسمى البخيل ، ويطلق لسان البلى ، ويقوى حزم العاجز » .

١٥ - وفكرة أن للحب سلطاناً لا يقاوم ، وتنتهى بها ، في الطوق ، صفحة ٤٧ ، ونصها : « إن للحب حكماً على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ، وامراً لا يخالف ، وحداً لا يعصى .. » توجد أيضاً في الموشى ، صفحة ٤٩ من الطبعة المشرقية : « وأبدل له العزيز ، وينحضع له المتجبر ، ويبرز له كل محتجب ، وينقاد له كل ممتنع » . ومن جانب آخر يعرض الطوق للفكرة مرة أخرى فيما بعد ، على نحو أشد تفصيلاً ، في باب الطاعة ، صفحة ٦٨ وما بعدها . والملاحظة التى ترد في نفس الفصل الخاص بعلامات الحب ، صفحة ٥٠ ، وتعرض للمحب المزيف ، ممن « يتحلى بشيم قوم ليس منهم ، ويدعى غريزة لا تقبله » ، نجد لها سابقة في كتاب الموشى ، صفحة ٤٨ : « ولن يغبي ادعاء أنه قارن العشق والهوى ، لأن علامات الهوى ثائرة ، وآيات الادعاء ظاهرة »

١٦ - وتأكيد طوق الحمامة ، صفحة ٦٠ ، في باب طلى السر ، أن

الحب لا يمكن إخفاؤه ، ونهى عبارته : « وبأبي السر الدقيق ، ونار الكلف المتأجج في الضلوع إلا ظهوراً في الحركات والعين » ، توجد في الموشى أيضاً ، في صفحة ٤٨ : « ولن يخفى المحب وإن تسفر ، ولا ينكم هواه وإن تصبر » .

١٧ - وفي مقابل باب المساعد من الأخوان ، في طوق الحمامة ، صفحة ٧٧ وما بعدها ، يستخدم الموشى ، صفحة ١٧ ، الصديق المساعد : يقول ابن حزم مشيراً إلى المساعد من الأخوان : « فإن ظفرت به يدك فشددها عليه شد الضنين ، وأمسك بهما إمسك البخيل ، وصننه بطارقك وتليدك.. » ، ويذكر الموشى ، في الصفحة التي أشرنا إليها ، مشيراً إلى الغرض نفسه ، بيتاً من الشعر تعود سفيان الثوري أن يردده :

فإذا وجدت أخوا الأمانة والتقى فيه البدين قرير العين فاشدد

١٨ - في طوق الحمامة ، في باب الواشى ، صفحة ٨٣ وما بعدها ، يدين ابن حزم في عنف بالغ الوشاة والكذابين ، وفي الموشى ، صفحة ٣٣ ، باب كامل بعنوان : « باب ماجاء من فضل الصديق للدوى الأداب ، وما كره من الكذب للدوى الألباب » .

١٩ - وتشهير ابن حزم بخيانة المرأة وغدرها عنيف ومعروف ، أنظر مثلاً صفحة ١٠٩ وما بعدها من طوق الحمامة ، و صفحة ١٦٥ . وفي هذه الأخيرة يقول : « ولولا أن أكون منبهاً على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنهن في الشر ، ومكرهن فيه ، عجائب تلهم الألباب » . وعرض الموشى للفكرة أكثر من مرة ، فهو يقول في صفحة ٧٩ : « إن للغدر في النساء طبع... » ، وفي صفحة ٨٨ و ١٢٠ : « مع أن مكرهن أخفى من الخيال ، وأعظم من راسيات الجبال ، تنفذ حيلهن على الرجال ، ويتمكن كيدهن من الأبطال » .

٢٠ - وتحمل الغدر ، وعدم الثورة عليه ، ومواجهته بمثله ، هو فيما يرى ابن حزم دئامة وخسة ، يقول في صفحة ١٤٨ من الطوق : « ومنها

( أى من الأسباب الموجبة للسلو ) القدر ، وهو الذى لا يحتمله أحد ، ولا يقضى عليه كريم ، ولا يلام السالى عنه . . . بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه . . . فما يصبر عليه إلا دنياه المروءة ، خضع من النفس : نذل الهمة - ساقطة الأنفة . . . وتجنو الفكرة نفسها فى الموشى ، صفحة ١١٨ : « ثم أن أجهل الجهالة ، وأضل الضلالة ، صبر الفنى الأديب ، على غدر الحبيب ، فإن الصبر على الخيانة والغدر ، يضع من المروءة والقادر .

٢١ - - وأصرف النظر عن بعض فقرات أزيلت جاءت فى الموشى ، دون أن يكون لها شبيه محدد من فقرات أخرى فى الطوف ، ولكنها تسير على خطى هذا الكتاب ، وانظر لها مثلاً ، الموشى صفحة ١١٢ : « اعلم أن صبر المحب على هجر الحبيب ، تجرعه العصم والتعذيب ، ومعاينة الرقيق والنحيب ، وتمتله القلب بفرق الرجيب ، من لمعجز الظاهر ، والموت المتأخر ، والمبادرة بالانصراف . بعد تغير الآلاف ، من الحزم المكين ، وللرأى الرصين . . .

٤ - - التشابه فى الأفكار أو فى المواقف الشعرية

٢٢ - يتحدث الموشى ، صفحة ٧٨ : عن استحالة أن يحب الإنسان حباً حقيقياً شخصين فى الوقت نفسه : « وهل يجتمع وحدان فى موضع » ، وقبلاً بعد ، فى صفحة ٩٩ : « يورد قصيدة من بحر السريع ، لأديب مجهول ، يعرض للموضوع نفسه ، ومنها هذا البيت :

سادك منه حسن - حسن - أم ليس يرضى الله دينين

وتحب فى الطوق ، صفحة ٤٦ ، قصيدة لمؤلفه ، من بحر الخفيف ، منها هذان البيتان :

لرس فى القلب موضع لحبيب - ن ولا أحدث الأمور بشأن

وكذا الدين واحد مستقيم - وكفرت من عنده دينان

٢٣ - فيما يتصل بموضوع المراسلة ( أنظر رقم ١١ ) ، يورد الموشى فى الصفحة ١٥٩ . هذا البيت من بحر الكامل لشاعر مجهول :

مازلت أبكى مذقرأت كتابها حتى محوت سطورها بدموعى

وفى صفحة ٥٧ من الطوق ، نجد هذا الشطر من بيت شعر لابن حزم ،  
وجاء فى بحر الطويل ، والتشابه اللغوى بينهما واضح :

• فما زال ماء العين يمحوسطوره •

٢٤ - فى الموشى ، صفحة ٣٧ ، نجد هذا البيت من الشعر ، فى بحر  
الرمل ، لشاعر مجهول ، ويعرض لكتمان السر :

أمت السر بكتمان ولا يدون منك إذا استودعت سرى

ويورد ابن حزم فى صفحة ٦٢ من كتاب الطوق ، قطعة من قصيدة له ،  
جاءت فى بحر البسيط ، ومنها هذا الشطر :

أمينه وحياة السر ميته

٢٥ - ويحى الموشى فى صفحة ٥٣ بقصيدة من بحر الوافر ، للشاعر  
العباسى على بن الجهم (ت ٨٦٣ م) ، مهداة إلى الخليفة المتوكل ، ومقط  
صريع حب جاريته قبيحة ، وإليك من أبياتها الثمانية هذه الأبيات الثلاثة :

تنكر حال علنى الطبيب فقال : أرى بجسمك ما يريب

جست العرق منك فدل عندى على داء له شأن عجيب

.....

فحرك رأسه ودنا منى وقال : الحب ليس له طبيب

لأوفى أرى فإن هذه القصيدة هى المصدر المباشر الذى ألهم ابن حزم  
قصيدته التى من بحر الوافر أيضاً ، وجاءت فى ستة عشر بيتاً ، ونلتقى بها  
فى الطوق ، الصفحة ١٣٧ ، ومنها أشرطة الأبيات هذه :

• يقول لى الطبيب بغير علم •

• فقال : أرى نحولاً زاد جداً •

• فأطرق باهتاً لما رآه •

٢٦ - وفى الموشى ، الصفحة ٦٧ ، نجد هذا البيت من بحر البسيط

لشاعر مجهول :

الحب أوله عذب مذاقه لكن آخره الشغيف والكدر  
وبيت آخر من بحر البسيط للشاعر ابن أبي رعد :  
الحب أوله عذب وآخره / مثل الحزازة بين القلب والكبد  
وفي الصفحة ١٨٢ من طوق الحمامة نجد قصيدة طويلة لابن حزم ،  
من بحر الطويل ، ومنها هذا البيت :

رأيت الهوى سهل المبادئ لذيذها وعقابه مر الطعم ضنك المسالك

#### ٥ - تشابهات في التقسيم وعناوين الأبواب

هنا علينا أن نتحدث حقاً عن اختلافات أكثر مما نعرض لألوان من  
المشابهات . وفيما يتصل بمنهج الكتاب وتقسيمه إلى أبواب ، ليس ثمة شك  
في أن الطرق قطعاً أفضل نهجاً وتنظيماً وترتيباً من كتاب الموشى أو كتاب  
الزهره . فابن حزم وهو فيلسوف وعلم اهتم ، بروح غربي ، بمناقشة حتى  
خطة الكتاب تفصيلاً ، الصفحتان ١٧ و ١٨ ، ويمكن أن نقول الشيء  
نفسه فيما يتصل بعناوين الأبواب ، وثمة شيء من تشابه بين عناوين الموشى  
وطوق الحمامة . فحيث يقول الموشى ، في الصفحة ٦٤ : « باب من مات  
من شدة الفتنة ، وتضعفت أعضاؤه من شدة الوجد » ، يوجز  
طوق الحمامة الفكرة في : « باب الموت » . وحيث يقول الموشى ، في  
الصفحة ٣٧ : « باب الحث على كتمان السر » ، في حفظ ما حنت عليه  
ضلوع الصدر » يخصصه الطريق في : « باب طي السر » . وعناوين كتاب  
الزهره مسجوعة وجادة وشاعرية ، وعناوين الطوق بلا سجع وعارية  
وموجية ، وذات وقع غربي .

ويتصل بهذا الغرض ، ولو أنني سأخرج عن الموضوع قليلاً ، أن ألقى  
بملاحظة أراها مفيدة وجديدة ، ذلك أن أحد الأبواب الأخيرة في كتاب  
الموشى ، الصفحة ١٦٤ ، يدور حول العبارات التي ينتشها العشاق على  
خرايتهم ، وعنوانه : « وما ينتشه أهلى الهوى على خرايتهم » ، وفي النقرة  
الأولى منه نلتفتي بعشرة نقوش ، إليك أوائلها :

[من كثرت لحظاته ، دامت حسراته .

من تداوى بدائه ، لم يصل إلى شفاؤه ؛

من قدم هواه ، دام أساه .

ونلاحظ أن ثمانية نقوش منها ، دون تغيير أو مع تحوير طفيف ، عناوين أبواب في كتاب الزهرة لابن داود ، وهي واقعة تثير الاهتمام ، لأن ابن داود والوشاء كانا متعاصرين ، فهل كان كتاب الزهرة مصدر هذه العبارات التي نقشها العشاق على خواتيمهم ، أم أن كتابات العشاق هي التي ألهمت ابن داود عناوين أبواب كتابه ؟

دراسة أصول كتاب أدبي قمة ، وهو طوق الحمامة في حالتنا هذه ، مفيد دائماً وضروري ، ولست أدري ما إذا كانت الملاحظات التي سبقت مقبولة أم لا ، وما إذا كانت تسهم تاريخياً في تفسير إمكانيات الإبداع في كتاب ابن حزم القرطبي الشهير . وأعني ، في حالة الالتفات إليها ، أن غايته لا تتوقف عند هذه فحسب ، فمنذ زمن وأنا أدافع وأدعو ، معطياً المثل متواضعاً ؛ إلى أنه من غير الممكن أن ندرس الأدب الأندلسي علمياً دون أن نحدد ما به من عناصر مشرقية ، وما هو تجديد أو اقتباس إسباني ، وهو أمر صعب للغاية من الوجهة التقنية في حالات كثيرة . وحالة ابن حزم ، وابن شهيد أيضاً ، مثل متميز وواضح لمعرفة الصلة وردود الفعل المتباينة للتبارين ، والاصطدام بين المفكرين ، المشرق والغربي . ولو لم تمت القيادة الأدبية ، والتي يمثلها المؤلفان الكبيران ، تحت أنقاض الخلافة ، تاركة الطريق واسماً وعريضاً لعصر من التشريق والبغدة ، كما انتهى إليه حال دول الطوائف ، لكان من المؤكد أن أدب الأندلس وثقافته ما كان ليصبح بالشكل الذي وصلنا عليه الآن ، مجرد مقاطعة نائية من أدب العرب وثقافتهم ، بل كان سيرتفع شامخاً ، في مملكة متألفة ومستقرة على نحو ما كانت عليه خلافة قرطبة .

## كتاب منية الحبين وبغية العاشقين للشيخ يوسف بن مرعي الحنبلي

أن نقفون تأثيرات وطوق الحمامة في الأدب التالي شيء مفيد ، لالكي نعرف القدر الذي بلغه من الشهرة كتاب ابن حزم فحسب ، وإنما أيضاً لكي نغذي الأمل ونُدعمه في العثوريوماً على خطوطه الجديدة له ، لأن إمكانيات العثور عليها تزداد منطوقاً مع اكتشاف أن دائرة انتشاره كانت أوسع مما برهنا عليه . وحتى الآن ، ماعدا الخطأ أو الإغفال . درس الباحثون تأثير الطوق ، أو اكتشفوا إشارات إليه ، في المؤلفات التالية :

• في الأدب الأندلسي : في كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب ، طبعة الرباط عام ١٩٣٤ ، الصفحات ١٢٤ - ١٢٦ (١) ، وثلاث قصائد في كتاب نفح الطيب للمقرئ ، المجاهد الثاني ، الصفحة ٤٠٦ ، من الطبعة الأوربية .

• في الأدب الإسباني : تأثيرات موضع نقاش في كتاب « الحب المحمود » لكاين هيتا ، وهو من القرن الرابع عشر (٢) . وفي كتاب الراهب للكرمي جوزيف دي خصوص مارية Joseph de Jesus Maria ، وعنوانه

١ - أنظر : ليفي برونسال ، مجلة الأندلس ، المجلد ١٥ ، الصفحات ٣٣٩ - ٣٤٠ و ٣٦٣ - ٣٦٤ .

• في الجزء ٣ ، الصفحة ٥٩٩ ، من طبعة إحسان عباس . ( المترجم )

٢ - أنظر : أميركو كاسترو ، إسبانيا في تاريخها ، ص ٣٧١ - ٤٦٩ ، بونس أيرس . ١٩٤٨ .

• ترجمت هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية : وسوف تنشر ترجمة قريباً . وفيما يحصل بتأثير « طوق الحمامة » في كتاب « الحب المحمود » ، أنظر لفصل الخاص بتأثير الطوق في الأدب الإسباني ، من هذا الكتاب ( المترجم ) .

مزاياء فضيلة العفة Excelencias de la virtude de la castidad ونشر  
في القلعة عام ١٦٠١ م (١) .

• في الأدب العربي المشرقى : فى « روضة المحبين » لابن قيم الجوزية (٢)  
وفى « ديران الصداقة » لابن أبى حجلة (٢) ، ومع شىء من الشك فى كتاب  
« تزيين الأسواق » للأطناكى (٤) ،

وإلى هذه التأثيرات يمكن أن نضيف الآن تأثيراً واضحاً فى كتاب  
آخر هو : « منية المحبين وبغية العاشقين » للشيخ السورى يوسف بن يحيى بن  
مرعى الطور كرمى الحنبلى ، ولم يرد فى قائمة ريتزلى حررها عن  
كتب الحب (٥) .

وطبقاً لكتاب « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » للمجيب ،  
الجزء الرابع ، الصفحة ٥٠٨ ، نعرف أنه رحل إلى مصر للدراسة عام ١٠٤٤ هـ  
- ١٦٣٤ م ، وعاد منها سنة ١٠٤٩ هـ - ١٦٣٩ م ، وكان مفتياً فى  
نابلس ، وعلى مذهب ابن تيمية ، وتوفى يوم الإثنين ١٠ من صفر عام  
١٠٧٨ هـ - ١ من أغسطس ١٦٦٧ م (٦) .

١ - أنظر : كسترو ، المرجع السابق ، ص ٤٠٣ ، وأنظر أيضاً : خايمة أوليفر  
أمين ، مجلة المجمع الملكى الإبانى ، المجلد ٢٠ ، ص ٣٨٩ ، ٤٢١ هـ عام ١٩٥٠ .

٢ - أنظر : بروكلمان ، مجلة إسلاميكنا ، المجلد ٥ ، ص ٤٦٢ - ٤٧٤ .

٣ - أنظر : غرسية غوث ، مجلة الأندلس ، المجلد ٦ ، ص ٦٥٠ - ٦٧٢ .

٤ - أنظر المرجع السابق .

٥ - أنظر فيما سبق صفحة ٣٠٠ من هذا الكتاب المامش رقم ٢

٦ - فى فهرس مكتبة بلدية الإسكندرية ، ولا أعرف ما إذا كان بداية المخطوطة نفسها ،  
ومع ذلك يقال أنه توفى عام ١٠٣٣ هـ ، ١٦٢٣ م ، وذكر هذا التاريخ بروكلمان فى كتابه  
تاريخ الأدب العربى ، ج ٢ ص ٣٦٩ ، والملحق ج ٢ ص ٤٩٦ ، ويدعوه بروكلمان : مرعى  
بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد الكرمى ، زين الدين المقدسى الحنبلى ، ولد فى طول  
الكرم ، قريباً من نابلس . ومخطوطة الإسكندرية تظهر عند بروكلمان فى الملحق فقط ، ج ١  
ص ١٢٩٢ ، فى الفقرة الخاصة بالمطبوعات .

وقد أمكننى أن أعود إلى مخطوطتين من « المنية » ، إحداهما كاملة فى مكتبة بلدية الإسكندرية ، تحت رقم : ن - ٤٥٦٤ - ج ، وجاءت فى ٣٥ ورقة ، بلا ترقيم ، وكتبت فى خط شرقى جيد ، وهى لى سأحيل عليها دائماً . والأخرى فى دار الكتب المصرية ، وجاءت فى ٥١ ورقة ، ومسطرتها ١٥ × ٢٠ ، وكتبت فى خط مغربى ، ونحمل رقم ٦٢٥٢ أدب ، ولسبت إلى مجهول ، فكان عنوانها : « الحب والمحبة » ، مؤلفه مجهول ، ولو أنه يمكن التوصل إلى معرفة المؤلف فى الحال .

نحن بصدد كتاب محدود الصفحات ، وبعد مقدمة قصيرة مسجوعة يقسم المؤلف كتابه فى عشرة أبواب هى :

- ١ - فى إثبات حقيقة المحبة وشرفها .
- ٢ - فى كلام الخائضين فى حقيقة المحبة .
- ٣ - فى حقيقة العشق وأسبابه ومراتبه ، وفى الفرق بينه وبين الخلعة والمحبة ، وفى أسمائه . وبين المؤلفين الذين يذكرهم فى هذا الباب تظهر أسماء : أفلاطون ، ( ولكن ليست نظريته فى الأملاك المقسومة ) ، وابن سينا وأرسطو وأبقراط والمتنبى والأصمغنى وابن تيمية والقاضى عياض وابن قيم الجوزية .

٤ - فى كلام الخائضين بمدح العشق وذمه . وفيه يذكر كتاباً آخر له عن الحب بعنوان : « تسكين الأشواق بأخبار العشاق » .

٥ - فى ذم الهوى وفى ذكر القلب ومدح العقل .

٦ - فى علامات المحب والعاشق ومذا بصير لهما عند غلبة من السكر وغيره وماذا يترتب عليهما .

٧ - فى حقيقة الشوق وهل هو يزول بالوصال أو يزيد ، وهل يصح كتمان المحبة ، وهل يتصير عند تمام المحبة هجر ، وهل لمعرض الحبيب عن عداوة .

٨ - فى إرشاد العاشق السقيم ، إلى الطريق المستقيم ، ويان عقوبة من جتجج للعمل السليم .

٩- في الحذر من الرد وأصحاب العثار، وما قيل فيهم من الأشعار :

١٠- في فضل الشعر ، وفي ذكر شيء من أشعار المحبين. وهو مختارات من شعر الغزل ، ليست مهمة إلى حد كبير ، ويضمونها المؤلف أشعار آله ، ويختتمها بموشحة .

والإشارة الوحيدة التي يذكر فيها ابن حزم باسمه توجد في الباب الرابع ، الورقة ٩ ب ، في الوسط منها : « وقال ابن حزم : وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين خلق كثير ، وعبيد الله أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره وعد لأئمة ظالماً » ، وعشق عمر بن عبد العزيز جارية زوجته فاطمة مشهورة<sup>٢٠</sup> . وهذه الفقرة تلتقي في جانب مع ما ذكره ابن حزم في كتابه « طرق الحمامة » ، الصفحة ٦ من طبعة بتروف : ( أو الصفحة ٢٠ من طبعة دار المعارف ) \* .

وأما في الباب السادس<sup>٢١</sup> من « المنية » ، وهو الخاص بعلامات الحب ، فقد اتكأ الشيخ مرعى طويلاً على كتاب ابن حزم ، ودون أن يشير إليه . وإليك جانباً من نص المؤلف الشرقي ، وفيه صرفت النظر عن الأشعار التي تتخلله ، وهي غير ذات أهمية ، إلى جانب فقرة غير واضحة ، وقد ألححت إلى الانفاقات الأكثر وضوحاً ، وجئت بها في حرف مختلف ، وحلفت عليها :

« فللمحب والعاشق علامات يعرف بها المحبون ، وحالات يتميز بها العاشقون (١) »

فمن العلامات ( الورقة ١٢ ب ) اضطراب أعضاء الحب العاشق عند نظر

• تختلف عبارة ابن حزم في الطوق عما في كتاب المنية شيئاً فيما يتصل بعبيد الله ، ولم يشر الطوق من قريب أو بعيد إلى قصة عمر بن عبد العزيز ، فلعلها إضافة من صاحب المنية ، أو لعله رجع إلى نسخة من الطوق غير التي بين أيدينا ، نسخة كاملة غير مختصرة ، وهو ما أرجحه ( المترجم ) .

١ - في طرق الحمامة ، الصفحة ٢٧ ، من طبعة دار المعارف : « ولحب علامات يقفوها الفطن ، ويهتدى إليها الذكي » .

محبوبه ومشوقه (١) : ورميه بطرفه نحو الأرض ، وتغيره تغير احمرار واصفرار ، وذلك من مهابة له ، وحياته منه ، وعظمته في صدره . . . [بيتان من الشعر] . . . ولذلك قال بعضهم : من علاماته اصفرار وجه المحب عند رؤية حبيبته ، واحمرار وجه المحبوب عند مقابلة محبة : [بيتان من الشعر] . . . ومنها أن يضطرب المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه (٢) . . . [بيتان من الشعر] . . . ومنها أن يستدعى سماع اسم محبوبه ويستأند الحديث في أخباره (٣) وأشعاره ، ويحب أهل محبوبه وقرابته (٤) وغاماته وجيرانه ومن ساكنه . . . [بيتان من الشعر وتنصبل للموضوع] . . . (الورقة ١٢) : ومنها الإنصات لحديثه ، واستغراب ما يأتي به ولو كان حين المحال ، وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار . . . واتباعه كيف سلك (٥) ، والإصرار بالسير نحو المكان الذي يكون فيه ، والتعمد للعود بقربه ، والدنو منه ، والتباطى على القيام من عنده (٦) [بيت من الشعر] . . . ومنها بذل نفسه والتكريم بها دون من

١ = في طوق الحمامة ، الصفحة ٢٧ : « ومنها بتدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة . . . »

(٢) في الطوق ، في الصفحة نفسها : « ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه ، أو عند سماع اسمه فجأة . »

(٣) في الطوق ، الصفحة ٢٩ : « ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يحب ، ويستأند الكلام في أخباره . »

(٤) في الطوق ، الصفحة ٣٢ : « ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته . . . »

(٥) في الطوق ، الصفحة ٢٧ : « والإنصات لحديثه إذا حدث ، واستغراب كل ما يأتي به ولو أنه حين المحال . . . وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعه كيف سلك . »

(٦) في الطوق ، في الصفحة نفسها . « ومنها الإصرار بالسير نحو المكان الذي يكون

يحببه وسواه . . (١) . . (الورقة ١٣) . . ومنها الانبساط الزائد الكثير ،  
والتضايق في المكان الواسع ، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما ، والتعمد  
للمس اليد عند المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب ما  
أبقى المحبوب في الإناء (٢) . . . .

في ضوء هذه الاستفادة ، أو إن شئت الدقة في ضوء هذا النقل ،  
نستطيع أن نتوصل إلى النتائج التالية :

• أن طوق الحمامة كان معروفاً ، وجرت عليه أعين القراءة والكتاب  
في سورية ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي (٣) . ومن ثم  
لا يجب أن نفقد الأمل في أنه يمكن العثور يوماً على مخطوطة جديدة له  
في المشرق .

• لقد أتاحت لي الفرصة أن ألحظ في مقدمة ترجمتي الإسبانية  
للطوق (٤) أن « باب علامات الحب » أتيح له من بين أبواب كل الكتاب ،

== فيه ، والتعمد لقموة بقربه ، والدفن منه . . . والتباطؤ في المشي عند القيام عنه . . . .  
(١) في الطرق ، الصفحة ٢٨ : « ومنها أن يحرد المرء بيل كل ما يقدر عليه مما كان  
يتمتع به قبل ذلك » .

(٢) في الطوق ، في الصفحة نفسها : « ومن علاماته . . الانبساط الكثير الزائد ،  
والتضايق في المكان الواسع ، والمجاذبة على الشيء يأخذه أحدهما . . والتعمد لمس اليد عند  
المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشرب فضله ما أبقى المحبوب في الإناء . . . .  
• في هذا الاتفاق إشارة جديدة على أن إضافة برشييه ، الصفحة ٣٤ من طبعته ، لتصبح  
المعبرة « الانبساط الكثير الزائد في المكان الضيق » ، نزوة خالصة ، مثل عدد من التصويبات  
الأخرى التي حاولها .

(٣) كل بقية المؤلفين الذين أشرنا إليهم : ابن الخطيب ، وابن قيم الجوزية ، وابن  
أبي حجلة ، من القرن الرابع عشر الميلادي ، وداود الأنطاكي من القرن السادس عشر .  
المقري وحده توفي عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣١ م ، وهو مع ذلك سابق للشيخ مرعي .

(٤) أنظر الصفحة ٢٩٧ الممش ١ من هذا الكتاب .

أكبر حظ من الذبوع والانتشار ، في الشرق والغرب على السواء ، فهل  
باترى كان هذا الفصل يجرى بين يدي القراء وحيداً ، ومنفصلاً عن بقية  
الكتاب ، أم أنه ضم ، مع فصول غيره ، إلى كتاب آخر لانعرفه ، وكان  
هذا الكتاب المصدر المباشر لمن استخدموه في المشرق ، وحتى في الغرب ؟  
في هذه الحالة علينا أن نصرف النظر عن النتيجة الأولى .

\* \* \*

#### ● ملاحظة أخيرة :

لم تعرض لى في مؤتمر المستشرقين ، ولكنى أبادر إلى رأى يمكن أن  
يقال عن القسم الأول من هذه الدراسة ، من الذين يرون أن التشابه صدفة  
فيما يتصل بالأمكار العامة في الحب ، وفي العبارات والغمم ، سهل جداً ،  
لأننا ، في رأى من يدافعون عن هذه الفكرة ، بصدد مشاعر ومجالات مشتركة  
بين كل عصر ومكان ، ولست من أنصار هذا الرأى . فالحب ليس شيئاً  
مشتركاً بين مختلف العصور والثقافات ، فضلاً عما فيه من جانب تشريعى  
وآخر بمس وظائف الأعضاء ، ويقول أورتيجا إلى جاسيت : « الظن  
بأن ظاهرة شديدة الإنسانية مثل أن نحب وجدت دائماً ، ودائماً في  
صورة واحدة ، هو مثل أن نعتقد خطأ أن الأفراد يملكون مثل المعادن  
والنبات والحيوان طبيعة واحدة وثابتة ، ونجهل أن كل ما فيه تاريخي ،  
كل شيء . حتى ما ينتمي منه إلى الطبيعة فعلاً ، كما هو الحال في حاجاته  
للغريزية . . . الحب شكل واختراع ونظام إنساني ، وليس ابن عم المضم  
ولازيادة الكلور في المعدة » . واحتفظ لنفسى بتطبيق أفكار أورتيجا إلى  
جاسيت ، في مستقبل غير بعيد . على تطور الأدب العاطفى عند العرب .  
فقط أبادر هنا إلى القول بأنه يمكننا في القريب أن نؤرخ في عالم العرب  
المشاركة متى اقتحم الحب العذرى مجال الحب الطبيعي الجاهلى ، ومتى  
حل مكانه ، ومتى انتصر الحب الذى تمثله قصائد عمر بن أبي ربيعة

ورفاقه ، ومتى ساد حب الجوارى ، ومتى برزت ظاهرة حب الغلمان  
فى الأدب العربى ، ومن كل هذه الغراميات الأخيرة ، ذات التقليد  
المشرقى ، توجد عناصر فى طوق الحمامة لابن حزم . ومن جانب آخر ،  
بين الروحانيات العاطفية النبيلة للأديب القرطبي والفحش الجامى لشاعر  
كبير من القرن التاسع الميلادى ، مثل الغزال ، تتوسط هوة عميقة ،  
لا يمكن أن نفسرها برود فعل هفوية فحسب ، دون أى لون من تأثير  
التقاليد المشرقية التى سبقته مباشرة .

## آخرون كتبوا في الحب

بعد ابن حزم

كان ابن حزم نسيج وحده في كتابه «الطوق» ، على نحو ما رأينا ، لم ينقل عن أحد ، ولم يتأثر في منهجه بقراءة ، وترك أثره فيمن جاءوا بعده ، دون أن يبلغ أحد منهم مبلغه ، وأول هؤلاء فيما أعرف أبو محمد جعفر بن أحمد السراج ، المتوفى سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٧ م ، وإذا عرفنا أنه جاء إلى الحياة عام ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م ، تبين لنا أنه عاصر ابن حزم لسنوات طويلة تقارب الأربعين عاماً ، وكان عالم قرطبة ملء السمع والبصر ، ولكن تحديد الزمن الذي تباينت فيه مؤلفاته المشرق عسير ، ولما يدر من ، ويمكن القول لإجمالاً أن دنيا المشرق في القرن الحادى عشر كانت مهيأة ، إن لم تقل مثبوقة ، إلى أن نقرأ كتاباً من طراز طرق الحمامة ، دون أن نجزم بأن عبني السراج وقعت عليه ، وليس في كتابه ما يرجح ظناً ، على نحو ما منعرف بعد قليل .

يعرف السراج بالقارىء البغدادى . لأنه ولد في بغداد ، وعلى صاحبها لقى الله ، وكان رجلاً كثير التجارب ، رحل إلى مكة والشام ومصر ، ويقول عنه جلال الدين السيوطى : « كان على الطبقة في الحديث والقراءة والنحو واللغة والأدب » . ومن هنا كانت أغلب تأليفه تقوم على الرواية والنقل ، والجمع والنظم ، وكتابه « مصارع العشاق » خير مثال لهذا ، فهو حشد من الروايات والأخبار والأشعار ، مسندة أو مرصلة ، يوردها دون أى تحليل أو نقد أو موازنة . كأنما يستهدف الرواية وحدها ، وكأنما غايته التسلية والإمتاع وكفى .

ويختلف عن ابن حزم في أنه فقيه سياسى ، ومحدث سلفى ، يجرى على مذهب العامة في أيامه ، وليس له اطلاع على الفلسفة ، ولا مشاركة في الثقافات الأجنبية المترجمة ، وعانى في حياته وثقافته ، لا يتميز بموقف بارز في أى مجال ،

وربما لهذا السبب لا تنقف عنده كتب التراجم طويلا ، فهو محدث كثرات  
المحدثين الذين تضيق بهم بغداد ، ونحوى كما لا ف منهم على امتداد العالم  
للعرى ، وأقرب الظن أنه كان رقيق العاطفة ، يصبو للجمال ، ويتذوق الشعر ،  
ويقول الأبيات منه على استحياء ، يلفه الوقار ، وتكبح نزغاته التقاليد ،  
ويحرص دائما على الأخلاق السائدة ، وأراه وجد في الحديث عن العشاق غيره  
تسلية ، والحياة مع أخبارهم سلوى ، ولعله أراد أن يكتب تاريخه ، وأن ينشئ  
عن مكنون صدره ، حين سطر سيرتهم في : « مصارع العشاق » .

بدأ السراج كتابه بلا مقدمة تبين منهجه ، وانتهى به دون خاتمة توجز  
غايته ، وكسره على اثنين وعشرين جزءا ، زحمتها بكل ما عرف من قصص  
العشاق ، حتى ما كان نادرا أو خرافة لا تصدق ، ولا تنجى أخباره مرتبة ،  
وقد يعرض للموضوع ثم يعود إليه ، وقد يجي بجانب منه في جزء ، وجانب  
ثان في جزء آخر ، ومحورها أخبار العشاق المذربين ، وفاضت على أيامه ،  
وأصبحت تمثل في بغداد تيارا ملحوظا ، في عالم الأدب على الأقل . ويأتى  
بأخباره مستندة ، وهو في ذلك يجرى على عادة سارية ، لأن إسناده الخبر عنده  
ليس دليل الصحة دائما ، وإهماله ليس قرين الضعف . وأورد لنا عبر هذه  
القصص طائفة من الشعر لعدد كبير من الشعراء على أيامه أو قبلها ،  
مثل جرير ، وعمر بن أبي ربيعة ، وبيشاور بن برد ، وأبي العتاهية ، وأبي نواس ،  
وأبي تمام ، والبحتري ، وغيرهم . ولشعراء آخرين مجهولين من الأهراب  
وسواهم ، لا نعرف أسماءهم ، ولم تكن كتب الأدب برواية شعرهم ،  
وكان متداولاً في مجالس السمر البغدادية على أيامه ، ويأتى بها لأنها تكمل  
القصة التي يوردها ، أو توشى الموضوع الذي يتحدث عنه ، أو لأن ذاكرته  
فاضت بها . وعرض على نحو أقل للحب الإلهى ، وأورد عدداً من قصص  
للسوفية ، وأشعارهم في حب الله ، أو الجنة ، أو الخور العين ، أو في مدح  
صاحب الكعبة .

وحاول في الجانب الأكبر من قصصه أن يؤكد خلود العاشقين ، وأن

يبرز ملامح النسالة منهم ، والذين يخافون الله ، وأن يربط بين العشق والتقى والعفة ، وتركنا نفهم أن الدين يسهم بقدر في توجيه الحب وجهة عفيفة ، فعشاقه يؤكّدون من خلال تعاملهم على الوازع الديني ، وأنه يحول بينهم وبين ارتكاب المعاصي ، أو يحماهم على إخفاء عواطفهم ، فصاروا أمثلة للتضحية والوفاء . وهو في كل الحالات رجل إخباري ، لا يحلل ولا يدرم ، لا ياتمس العلل ، ولا يدفع لك بالنتائج ، ومع ذلك فتحليل القصص الذي أورده يهّدي إلى تفسير أدق لظاهرة الحب العذري في بغداد . ومن المفيد أن نشير إلى أن السراج ، وقد طوى كتابه على الكثير من شعار العذريين وصرع الحب الإلهي ، لم يجد حرجاً في أن يتحدث عن عشاق الغلمان ، وأورد شيئاً من شعرهم الماجن ، وهي ظاهرة ترتبط بتقدم الحضارة ، وكانت بغداد في قمة الحضارة على أيامه ، ولعلها لم تكن ترى في الحديث عن مثل هذه الظاهرة الشاذة شيئاً يعاب .

ومهما يكن فكتاب السراج قصص الفصل عن الواقع ، وعن الأسماء التي ارتبطت به ، زاد فيه الرواة وأعادوا تلويثه : أو ابتدعوه أصلاً ، ونثروا بين سطوره أسماء معروفة : ليكون أقرب إلى الواقع ، وأنفذ إلى قلوب السامعين ، وهو يعكس دون شك ذوق الذين أقبأوا على هذه القصص ، يسمرون بها أو يؤرخون لها ، دون أن تصبح وثيقة لحياة أبطالها ، أو لواقع المجتمع الذي انتموا إليه ، ومؤلف الكتاب فقيه خائف ، يتوجس شراً من وراء رواية أية حكاية ، فيوردها مسندة ، كأنما يريد أن ينفذ يديه من مسئوليتها ، ويوصد الباب دون شاعره : فلا يعرف أحد على نحو يقيني ما تنطوي عليه ، وكأها ملامح يقف ابن حزم في الجانب المقابل لها تماماً .

• • •

بعد ثمانين سنوات من وفاة السراج يحيى ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن ، القرشي البغدادي ، ولد في بغداد عام ٥٨٠ هـ = ١١١٤ م ، وفيها توفي عام ٥٩٧ هـ = ١٢٠١ م ، والجوزي نسبة إلى « فرضة الجوز » ( ٢١ م ابن حزم )

من خواص عاصمة الرشيد . وأمضى طفولة نعمة ، مات أبوه ولما يتجاوز الثالثة من عمره ، وأهملته أمه ، فرحته عمه له ، ثم احتضنه بحاله حين ظهرت مواهبه ، وتفرد بين قرنائه ، واتجه صغيراً إلى الوعظ ، فبرع فيه ، أعانت عليه مشاعر رقيقة ، وحزان متدفق ، ورغبة في الإصلاح ، وعزم على مقاومة الفساد الذي عم وطم ، بالكلمة القارعة ، والنقصة الموحية ، والمثل القدوة . ولكن مواهبه لم تقف به عند الوعظ ، فشارك في كل مناحي العلم على أيامه ، كتب في علوم القرآن والحديث ، والأدب واللغة ، والوعظ . والفقه ، والتاريخ والسير ، وتعرف له المكتبة العربية قرابة ستين كتاباً بين مخطوط ومطبوع ، على حين يرتفع أصحاب التراجم القدامى بمؤلفاته إلى ثلاث مئة ، وبهنا من بينها جميعاً كتابه : « ذم الهوى » .

وقبل أن تعرض للكتاب نفسه أرى من المفيد أن ننفذ عند صورة دقيقة لمؤلفه ، أوردها ابن العماد الحنبلي ، نقلاً عن الموفق عبد المطيب ، ففيها ما يكشف اتجاهه ، وبلقى ضرواً على مؤلفه ، يقول : « كان ابن الجوزي لطيف الصوت ، حلو الشائل ، رقيق النغمة ، موزون الحركات ، لذيذ المفاكهة ، لا يضيع من زمانه شيئاً ، يكتب في اليوم أربع كراريس ، ويرتفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلداً إلى ستين ، وله في كل علم مشاركة ... وكان يراعى حفظ صحته ، وتلطيف مزاجه ، وما يفيد عقله قوة ، وذنه حدة ، يعتاض عن المفاكهة بالمفاكهة ، لباسه الأبيض الناعم المطيب ... » وله مجون لطيف ، ومداعبات حلوة ، ولا ينفك عن جارية حسناء ، وذكر غير واحد أنه شرب حب البلاد فسقطت لحيته ، فكانت قصيرة جداً ، وكان يخضبها بالسواد إلى أن مات .

ورغم أن ابن الجوزي احتاط لنفسه ، فجعل عنوان كتابه : « ذم الهوى » ، مما يرفع الحرج عنه للهولة الأولى ، احتاج كعادة الذين كتبوا في الحب قبله ، أن يشير إلى أنه يؤلف كتابه استجابة لرغبة أهديت له : « شكاً إلى بعض من أثرت شكواه لإثارة همتي في جمع هذا الكتاب ، من بلاد

بتلى به ، وهوى هوى فيه ، وسألى المبالغة فى وصف دواء دائه ، فأهديت له نصيحة وديد لأودائه ، وقد أتيت بها على أبلغ ترتيب . وبعد مقدمة قصيرة جداً لانتجاوز هذه للسطور ، عقب بما يشبه أن يكون اعتذاراً عما يمس وقاره من مضمون الكتاب : « وأعلم أنى قد نزلت لأجلك فى هذا الكتاب عن بفاع الوقار ، إلى حضيض الترخص فيما أورد ، اجتذاباً لسلامتك ، واجتلاباً لعافيتك ، وقد مددت فيه النفس بعض المد : لأن مثلك مفتقر إن ما يلهيه من الأعمار ، هن الفكر فيما هو بصده من الأخطار ، فبيكن هذا الكتاب سميرك ، واستعمال ما أمرك به فيه شغلك ، والله ولى صلاحك ، فإنه لاعاصم إلا من رحم » .

ثم أتى على الأبواب التى تضمها الكتاب ، وتبلغ الخمسين ، وتحت كل باب فصول عديدة ، تتناول الجوانب المختلفة للقضية التى يعالجها . نحن مع « ذم الهوى » ، إذن أمام كتاب ضخم . لعله أضخم كتاب ألفت فى هذا المجال ، ولا غرو أن يكون كذلك ، فصاحبه واعظ ، معرفه وفيرة وهبارة مواتية ، ورغبته فى الإفاضة بيّنة ، وإدراكه لنفسية القارئ دقيقة ، وكانت دراسته جماع هذا كله ، جاء الجانب الأكبر منها فى التحذير والتذكير ، من التنبيه إلى فضل العقل ، وذم الهوى والشهوات والحض على مجاهدة النفس ومحاسبتها وتوبيخها ، ومدح الصبر والحث عليه : وحراسة القلب من التعرض للشواغل والفتن ، وما يصدأ به ، وما يجلو صدأه ، أو يفرغه من محبة الرب .

وخص النظر بأبواب عديدة ، تدور حول الأثر بغض البصر ، وذم فصول النظر ، والتحذير من شره ، والتهنى عن النظر إلى المردان ومجالسهم ، وإثم النظر وعقوبته ، ومن عاقب نفسه عليه ، ومن طلب العمى خوف الفتنة ، وفواب من غض بصره عن الحرام ، ومعالجة الهم والفكر المتولد عن النظر ، والتحذير من فتنة النساء ، والتخويف من الفتن ومكاييد الشيطان ، والتحذير من المعاصى وقبحها ، وفى ذم الزنا ، وعرض للعواطف المنحرفة ،

وحذر من ذلك كله ، وذكر بعقوبته ، وحث على التوبة لمن تردى في مهاويها . وخرج من ذلك إلى نهاية منطقية فيها الحماية لمن أراد العافية ، فحبب في الزواج ، وقرع من خيب امرأة على زوجها ، وبذلك انتهى الجانب الوعظي من الكتاب .

ومن الباب الخامس والثلاثين حتى نهاية الكتاب وقفه على العشق ، حقيقته وأسبابه وذمه ، وثواب العفة فيه ، وما يجرى على العاشق من المرض والضي والجنون ، والحيل والمخاطرة والهلكة لأجل لقاء المحبوب ، ومن ضربت به الأمثال من العشاق ، ومن حمله العشق على أن يزني بمحارمه ، ومن كفر بسببه ، ومن دفع به العشق إلى أن يقتل نفسه أو معشوقه ، ومن قتله العشق ، وأدوية الشفاء ، وأخبار مشاهير العشاق ، وأنهى الكتاب بباب وقفه على الوصايا والزواجر والمواعظ .

كان اعتماد ابن الجوزي في الجانب الخاص بالنهي والتحذير ، والإرشاد والتذكير ، قائماً على النقل عن الزهاد والعباد والمحدثين ، والفقهاء والمتصوفة والمفسرين ، والأدباء والعلماء وعلية القوم ، والبدو وعامة الشعب . وقد يذهب بعيداً فينقل عن السيد المسيح ، ويستشهد بأحوال الرهبان ، أو يضرب المثل بأنبياء بنى إسرائيل . وأفاد في الأبواب الخاصة بالعشق من التراث اليوناني المترجم ، فهو ينقل عن أفلاطون ، وبودجانس ، وأرمسطوطاليس ، وفيثاغورس ، وجالينوس ، ويسميه « الأوائل » ، ويعقب على آرائهم بالإسلاميين . إنه مفتوح العقل والقلب ، يلتقط أية مادة يسقط عليها عقله ، ما دامت تخدم الهدف الذي يسعى إليه . وبوشى قصصه بين حين وآخر بأبيات من الشعر تمتد أحياناً حتى تصبح قصيدة طويلة ، وأخباره مستندة دائماً ، وعبارته واضحة أبداً .

وحددت مهمته واعظاً نهجه في الرواية ، فهو يهتم بالتأثير في المقام الأول ، لا يعنيه المصدر كثيراً ، ولا صدق ما يرويه ، يحوّر القصة ويطورها ، وقد بوشىها بحديث ولو موضوع ، لكي يبلغ التأثير غايته .

وَجَرى قلمه بأبعد مما جرى به قلم أى واحد من الذين سبقوه ، يورد قصة الأم التى عشقت ابنها واحتملت عليه ، والأخ الذى أحب أخته واتخذها عشيقته ، ويمضى بالقصتين فى خبر مثير وأسلوب سهل جذاب ، يغرى بالقراءة ، ويمدك باهتمام القارئ حتى النهاية .

والكتاب صورة لما كان يجرى فى المجتمع العربى بعامه ، وفى بغداد على نحو خاص ، فى عصر المؤلف وما قبله ، وإذا صفينا مادته من طابع القصة ، وإرادة التأثير ، التقينا بالحياة كما هى ، وإذا البون شاسع بين ما يحدث فعلاً ، وما يتعمناه ابن الجوزى واعظاً ، وقد أسرف فى أمثله ، وأراها لا تحقق ما أراد منها ، فيها أشاع نادراً ، وأذاع مجهولاً ، وجعل من مقتطات الأبرار مندوحة لعامة الناس .

وأدار المؤلف ظهره للأندلس ، والغرب الإسلامى ، وحتى مصر لا ترد إلا نادراً ، وكان فى ذلك خلصاً مع نفسه ، فهو لم يبرح بغداد فيما يبدو ، والنظ مادته من روايات معاصريه الذين لقيهم ، وشهادة بنت أحمد من بينهم على نحو ظاهر ، والخبر الأندلسى الوحيد الذى اهتم به ، وأورده تفصيلاً ، قصة أحمد بن كليب مع أسلم بن عبد العزيز .

وأكد أجزم أن ابن الجوزى لم يقرأ طوق الحمامة ، أو حتى سمع به ، فهو لا يأتى على ذكر ابن حزم أبداً ، ولا يلتقى معه رأى أو منهج أو فكرة ، ومسافة الخلف بينهما واسعة ، مادة ومنهجاً ، ابن حزم أصيل وذاتى ومبدع ، وابن الجوزى قارئ ومختار وصانع ، والأول واقعى ومقرر وذاتى ، والثانى واعظ وقصاص وناقل . والقرطبى يقدم مادة لا نكد نجدها عند غيره ، والبغدادى يقدم حشداً هائلاً من الروايات ، ويمكن أن نلتقى بالجنب الأكبر منها مبعثراً فى مؤلفات أخرى ، ولكن ذلك لا يقل من شأنه ، فهو شيق بحكاياته وأسلوبه ، وأنت تجرى بين سطوره ، وكأنك تقرأ كتاباً معاصراً ، لا تقع منه على جملة قلقة ، أو تعبير غامض ، أو كلمة صعبة تقف عندها ، أو تحتاج فى فهمها أن

## نعود إلى المعاجم :

\* \* \*

وبعد قرن تقريباً يحى ابن قيم الجوزية ، ومن توافق الصدف أن البعد الزمنى بين وفاة السراج ومولد ابن الجوزى ، يعادل تقريباً المسافة بين وفاة ابن الجوزى ومولد ابن قيم الجوزية ، سنوات تتجاوز النسمين وتقل عن المائة ، وثمة فارق جوهري بينهم ، فالسراج وابن الجوزى بغداديان ، وابن قيم الجوزية دمشقى ، جاء إلى عاصمة بنى أمية عام ٥٦٩١ = ١٢٩٢م ، وبها توفى عام ٥٧٥١ = ١٣٥٠م ، وعبر حياته الطويلة تنقل ما بين سورية ومصر ومكة . وكان تلميذاً لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٢٦٣ - ١٣٢٨م) ، لا يخرج عن شىء من أقواله ، وينتصر له فى جميع ما يصدر عنه ، وهو الذى هذب كتبه ، ونشر علمه ، وسجن معه فى قلعة دمشق ، وأهين وهذب بسببه ، وطيف به على جمل مضروباً بالعصى ، وأطلق سراحه بعد موته . وكان ابن تيمية إماماً جليلاً ، لا يخضع فى مذهبه إلا للقرآن والسنة والإجماع ، رغم أنه من أتباع الإمام أحمد بن حنبل ، وقد رفع عقبرته ضد البدع عبادة الأولياء والحج إلى قبورهم ، والنذر لهم ، وسار الوهابيون على ومبادئه فيما بعد .

وكان ابن قيم الجوزية حسن الخلق ، محبوباً عند الناس ، ذا عبادة وتمجد وطول صلاة ، تفنن فى كافة علوم الإسلام من تفسير وحديث وأصول ، متمكناً من النحو وعلم الكلام والتصوف ، أغرى بحب الكتب فجمع منها عدداً عظيماً ، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً ، وألف تصانيف كثيرة تقارب السبعين ، أروجها : « زاد المعاد فى هدى خير العباد » ، وبهمنها من بينها كتابه : « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » ، وأراد به فيما يقول : « عوناً على الدين والدنيا » ، فتارة يضحك قارئه ، وتارة يبكيه ، وطوراً يبعده عن أسباب اللذة الفانية ، وطوراً يرغبه فيها .

تناول ابن القيم الجوزية الحب من كل جوانبه ، حب الله والإخوان

والأموال والنساء والألحان ؛ وفي المحبة والمحبة وجدت الأرض والسموات ،  
وعليها فطرت المخلوقات ، ولها تحركت الأفلاك الدائرات ، وبها وصلت  
الحركات إلى غاياتها ، واتصلت بداياتها بنهاياتها ، وبها ظفرت النفوس  
بمطالبها ، وحصلت على نيل مآربها ، وتخلصت من معاطبها . ويرد الحب  
إلى أسباب ثلاثة : ما قام بالمحبيب من الصفات التي تدعو إلى محبته ، وما  
قام بالمحب من الشعور بهذه الصفات : الموافقة التي بين المحب والمحبوب ، وما  
ومتى قويت هذه الدواعي وكملت ، قويت المحبة واستحكمت ، والعكس  
صحيح أيضاً .

وهو رجل دين ملتزم ، وباحث جاد في دروسه وفي حياته ، يعرض  
للجنس والحب فلا يرى له طريقاً غير حكم الشريعة ، لا يرجع إلى عادة  
جارية في أيامه ، ولا إلى تفسير مستعار ، لا يتساهل ولا يترخص ، وإن  
فصل الخطاب هو أن الاتصال الجنسي الحرام يفسد الحب ، ولا بد أن تنتهي  
المحبة بينهما إلى المعاداة والتباغض ، أما الاتصال المباح فإنه يزيد الحب إذا  
صادف مراد المحبوب ، فإنه إذا ذاق لذته وطعمه أوجب له ذلك رغبة أخرى  
لم تكن حاصلة قبل الذوق .

ويعرض للنظر على غير ما نظر فيه ابن الجوزي قبله ، يورد آراء الذين  
يروونه مباحاً ، لأن رؤية الجمال البديع تنطق ألسنة الناظرين بقولهم : سبحان  
الله رب العالمين ، وتبارك الله أحسن الخالقين ، والله تعالى لم يخلق هذه المحاسن  
عبثاً ، وإنما أظهرها ليستدل الناظر إليها على قدرته ووحدانيته وبديع صنعه .  
ولقد خطب رجل امرأة فاستشار النبي فقال : هل نظرت إليها ؟ فقال :  
لا . قال : اذهب فانظر إليها . وه أمر النبي للخاطب بأن ينظر إلى المخطوبة  
إنما هو نظر للحاجة ، وهو من النظر المأذون فيه لمصلحة راجحة ، وهو  
دخول الزوج على بصيرة ، فالنظر المباح أنواع هذا أحدها ، بخلاف النظر  
إلى الصورة المحرمة ، بل إن التلاصق لا يذهب التقى إذا كان في عشق مباح ،  
بل هو أمر مستحب ، كعشق الزوجة والجارية . ويورد مناظرة طريفة بين

القلب والعين ، فالعين رائدة ، والقلب باعث وطالب ، وهذه لها لذة الرؤية ، وهذا له لذة الظفر ، ولهذا كانا في الهوى شريكين ، فلما وقعا في العناء ، واشتركا في البلاء ، أقبل كل منهما ياوم صاحبه ،

ويورد في حقيقة العشق آراء الأعلام والفلاسفة ، والمفكرين العرب ، وأهمهم رأى ثمامة بن أشرس ، وهو موجود في كل الكتب السابقة التي تعرضت للحب ، ويعرض لإرادة الحب : هل هو اختياري تابع لهوى للنفس وإرادتها ، أو اضطرارى لا يدخل تحت قدرة العبد ، فهو بمنزلة محبة الظمان للماء البارد ، والجائع للطعام ، ويورد آراء أكل من الفريقين ، ويفصل بينهما ، منتبها إلى رأى وسط ، فالحب في أوله ، من نظر وتفكير وتعرض ، أمر اختياري ، ولكن ما يترتب عن هذا الاختيار اضطرارى ، ويضرب لذلك مثلا بالخمور والسكر ، فشرب الخمر أمر إرادى ، ولكن السكر الذى يتولد عنها اضطرارى ، ومنى وقع السبب اختيارا ، لم يكن فاعله معذورا فيما تولد عنه . فإذا حصل العشق بسبب غير محذور ، كمن يهشق زوجته أو جاريتها ، ثم فارقه وبقى عشقه غير مفارق له ، لا يلام صاحبه عليه ، ولا يقف بالجبرية عند هذا الحد ، فن وقع نظره فجأة على جميلة ، ثم صرف بصره ، ولكن العشق تمكن منه ، لم يكن مختاراً ،

ويتناول قضية الحب من جانبها الفقهى ، وأمله فيما يرى ما انتهى بالزواج والعزوبة ليست من الإسلام فى شيء ، فإذا تزوج المحبان فإن للمعاشرة فوائد وآداباً وقواعد منها : وإكمال اللذة ، وكمال الإحسان إلى الحبيبة ، وحصول الأجر ، وثواب الصدقة ، وفرح النفس ، وذهاب أفكارها الرديئة عنها ، وخفة الروح ، وذهاب كثافتها وغلظها ، وخفة الجسم ، واعتدال المزاج ، وجلب الصحة ، ودفع المواد الرديئة ، فإن صادف ذلك وجهها حسناً ، وخلقاً دمثاً ، وعشيقاً وافرأ ، ورغبة تامة ، فتلك اللذة التى لا يعادها شيء ، ولا سيما إذا وافقت كما لها ، فإنها لا تكمل حتى يأخذ كل جزء من البدن بقسط من اللذة ، فتلذذ العين بالنظر إلى المحبوب ، والأذن بسماع

كلامه ، والأنف بشم رائحته ، والفم بتقبيله ، واليد بلمسه ، وتعتكف كل جارحة على ما تطيبه لذتها ، وتقابله من المحبوب ، فإن فقد من ذلك شيء لم تزل النفس متطلعة إليه ، فلا تسكن كل السكون ، ولذلك تسمى المرأة سكناً لسكون النفس إليها ، قال الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها » .

ويدرك واعياً أن الرغبة تشتد مع الصحة الكاملة ، والغذاء الجيد ، وتهبط أو تتلاشى مع المرض والجوع والحاجة ، فالصوم ، مثلاً ، يكسر حدة الشوق ويضيق على النفس مجارى الشهوة . ويختم كتابه بخمسين وصفاً لمن وقع في الهوى وأراد أن يبرأ منه ، وهي نصائح مسجوعة ، ووعظ إنشائي ، قراعتها تسلى ، ولكنها لا تشفى عاشقاً ، ولا تأخذ بيد مريض .

ينفرد ابن قيم الجوزية بين رفاقه بأنه قرأ كتاب « طوق الحمامة » دون شك ، وعلى ذلك شواهد من حياة الرجل ، ومن طبيعة العصر ، ومن كتابه نفسه . فنحن نعرف أنه كان جماعة للكتب حنفاً بها ، وخاف وراءه مكتبة غنية ، وكانت الصلة بين دمشق والأندلس أقوى بكثير في هذه الفترة من الزمن مما كانت عليه بين الأندلس وبغداد بعد أن سقطت الخلافة ، واجتاح هولاءكو عاصمة بني العباس ، وأتى على معالمها تدميراً ، وأرسل بها إلى دائرة الظل لزم طويل ، على حين صعد نجم القاهرة سريعاً ، وأصبحت قبلة العالمين العربي والإسلامي ، بعد أيام صلاح الدين المجددة ، وبعد أن حطم الجيش المصري بقيادة الظاهر بيبرس جيش التتار في موقعة « عين جالوت » ، عام ١٢٦٠ م ، وحرر سورية ، وعاد بها من جديد إقليماً من دولة كبرى عاصمتها القاهرة ، وتشمل مصر والشام والجزيرة العربية . وكانت مصر محط الأندلسيين في طريقهم إلى الحج ، أو رحالة إلى الشرق ، أو تجاراً يعماون في التصدير والاستيراد ، أو طلاباً يبحثون عن العلم ، أو أساتذة يحاولون أن يجدوا لهم في حلق الأزهر مكاناً ، زهواً يما وصلوا إليه وبلغوه في وطنهم ، أو هاربين من الملاحقة يطلبون الأمن

والمأوى . ومن القاهرة ينطلقون إلى الحجاز للحج ، وإلى القدس تبركاً ،  
وإلى دمشق طلباً لصناعاتها الدقيقة ، وكانت تشتهر بها على نحو عالمي ، طوال  
العصر الوسيط .

أما تأثير « الطوق » في كتاب « روضة المحبين » ، فيتجلى من خلال  
مناقشة ابن قيم الجوزية لآراء ابن حزم وفيما نقل عنه ، فهو يرفض رأى  
عالم قرطبة في أن سبب الحب « اتصال بين أجزاء النفوس المتسومة في هذه الخليقة  
في أصل عنصرها الرفيع » ، لأنه مبني على القول بتقدم خلق النفوس على  
الأبدان وهو فاسد . وعلى خطى ابن حزم يؤمن بوحداية الحب ، ولكنه  
لا يقف مثله بالفكرة عند جانبها العاطفي وحده ، وإنما يكسوها ثوباً دينياً ،  
فيذكر الآية : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ،  
ويذكر آراء المفسرين في أن المقصود عجز الإنسان عن العدل بينهن في  
الحب والشهوة ، وإن كان يستطيع أن يفعل ذلك فيما هو مادي من اللبس  
والمسكن والثففة . وينثر أبيات ابن حزم في استحالة تعدد المحبوب ،  
ويصنع منها مثلاً موجزاً : « ليس في القلب حبان ، ولا في السماء ريان » .

أما الباب الخاص بعلامات الحب ، فكان فيه عالة على ابن حزم تماماً ،  
ينقل عنه دون أن يشير إليه ، ويستشهد به ذاكره في أكثر من موضع ،  
والفرق بينهما أن ابن حزم موجز ، يحاول أن يعطي صورة لنفسه ولمن حوله ،  
دون أن يرتدى ثياب الواعظ أو مسوح الراهب ، ولا يحاول أن يبحث  
عن أمثاله خارج حياته وحياة صحبه ، ولا يقتنص الشواهد مما قرأ في كتب  
الآخرين ، على حين أن ابن قيم الجوزية يورد على ما يقول ، أو ينقل إن  
شئت ؛ الشواهد كثيرة ومتعددة ، وهو يورخ أو يحلل ، ولكن عينه على  
ما تقتضيه الشريعة لإجازة أو تحريماً ، وقد كما أفكاره أثواباً مشرقية ،  
وصاغها في صورة دينية ، ليبلغ بها غايته ، وكان واثقاً من نفسه فلم يكن  
في حاجة ليعتذر عن حديثه في الحب ، أو ليبرر إقدامه على التأليف فيه .

وكان ابن أبي حجلة النلمساني ، أحمد بن يحيى ، أبو العباس ، معاصراً لابن قيم الجوزية ، حنبلياً مثلاً في اتجاهه الفقهي ، وهو يمثل وحدة الثقافة الإسلامية في عصرها الزاهر خير تمثيل ، فقد ولد في المغرب عام ٨٧٢٥ هـ = ١٣٢٥ م ، وأمضى شطراً من حياته في دمشق ، ثم جاء القاهرة واستقر بها ، وولى مشيخة الصوفية بصهرريج منجك ، إلى أن توفي عام ٨٧٧٦ هـ = ١٣٦٦ م ، وله أكثر من ثمانين مصنفاً في الحديث والفقه والنحو والأدب ، وله شعر ونثر ، ويهمننا من بين كل مؤلفاته كتابه : « ديوان الصباية » .

بدأ ابن أبي حجلة كتابه بمقدمة مسجوعة ، أبان فيها غايته بأنه يحوى أخبار من قتاهم الهوى ، وتركهم كهشيم محظّر ، ويزهو بأن جماعة من معاصريه غلبوا من تقدم بالتأليف في هذا الباب ، ويقارن بين كتابه وبين ما ألفه الشهاب محمود ، ويرى أن ذاك بالنسبة إلى هذا مشكور ، ويشير إلى « طوق الحمامة » في السطور الأولى من مقدمته لإشارة غامضة ، لم أتبين ما يريد منها تماماً ، ربما لأن النص الذى بين أيدينا مطبوع تجارياً ، يجيء على هامش كتاب « تزيين الأسواق » للأنطاكي ، فهو ملئ بالتحريف والأخطاء .

سلك ابن أبي حجلة في تأليف كتابه طريق « الاختصار والاقتصار ، على النوادر القصار » ، واحتذى فيه شكلاً منهج ابن حزم ، فرتبه على مقدمة وثلاثين باباً وخاتمة . أوقف المقدمة على ذكر حد العشق واشتقاقه ، وما قيل في اسمه ورسمه ، وأسبابه وعلاماته ومراتبه ، وأسمائه ومدحه وذمه ، واختلاف الناس فيه : أهو اختياري أم اضطراري ، وخص الخاتمة بمن « مات من حبه ، وقدم على ربه ، من غنى وفقير ، وكبير وصغير » ، ودرس في كل باب من أبوابه جانباً من جوانب الحب ، فبدأ بذكر الحسن والجمال ، والمحبين والظرفاء من الملوك والخلفاء : ومن عشق على السماع ، ومن أحب من أول نظرة ، وتغير ألوان المحبين ، والغيرة ، وإنشاء السر ، ومغالطة الحبيب ، والرسول والرسائل ، وطيف الخيال ، والرقيب والنيام

والواشي ، والتعائب بين الأحبة ، ومساعدة العاشق ، والشفاء من الجوى ،  
وتعنت المعشوق ، والدعاء على المحبوب ، والخضوع ، والوعد ، والرضى  
من المحبوب ، واختلاط الأشباح ، ونحول المحب ، وما يكابده المحبون ،  
وطيب ذكر الحبيب ، ووصف ما يحمل في المحبوب شكلا ، وأخبار  
المطربين من الرجال وذوات الجمال ، ومن ابتلى بحب النساء والغلمان ،  
ومن اتصف بالعفاف . ويأتى بعنوانين الأبواب مسجوعة في تكلف ظاهر ،  
وتحت كل باب فصول تختلف طولا وعدداً من باب إلى آخر :

عاش ابن أبى حجلة في عصر بدأت فيه الثقافة العربية تأخذ شكلا  
موسوعيا ، يقوم على الجمع والحفظ والترتيب ، وكان المغاربة أكثر ميلا ،  
وأسبق أخذاً ، في هذا الاتجاه ، ويتجلى هذا واضحا في «ديوان الصبابة» ،  
فقد زحمة صاحبه بأسماء الفلاسفة والشعراء والكتاب ، وهو لا يقنع من  
الأسماء الأجنبية بل ذكرها ، وإنما يضيف إليها تعريفاً موجزاً ، لا تجده عند  
من سبقوه ، ممن كتبوا في هذا المجال ، فأرسطو فلكى وتلميذ أفلاطون ،  
وأفلاطون أخذ الحكمة عن فيثاغورس ، وبطليموس فلكى وعلى معرفة واسعة  
بالجغرافية ، وإلى جوار هؤلاء تنقئ بأسماء ابن سينا ، والجنيد ، ومن الشعراء  
أبو تمام ، وبشار ، وأبو نواس ، وامروء القيس ، والبهاء زهير ، وابن نباتة  
المصرى ، وآخرون كثيرون .

وينقل عن سبقوه في الكتابة عن الحب ، كالحرائطى ، وابن حزم ،  
والسراج ، وابن الجوزى ، وابن قيم الجوزية ، وعن أبى عمرو ومحمد بن  
أحمد النوفلى ، في كتابه «تحفة الظراف» ، وشمس الدين بن الأكتافى في  
كتابه : «غنية اللبيب عند غيبة الطبيب» ، وتفرد من بين هؤلاء جميعاً بأنه  
ضمن كتابه أمشة أندلسية عديدة ، جاء بها من مصادر مختلفة ، أشار إليها  
حيناً ، وأهمها حيناً آخر ، وهو أمر طبيعى من مغربى يعيش في المشرق ،  
ويشده الحنين دوماً إلى مسقط رأسه ، وذكريات أمسه ، وكان الأندلس  
جزءاً من عالم المغرب أحاسيساً وذكريات . فقد أورد في الباب الأول بيتين

الحكم بن هشام دون أن ينسبهما إليه ، مكتفياً بقوله : إنها « لبعض ملوك  
الأندلس » وهما :

ظل من فرط حبه مملوكا      ولقد كان قبل ذاك مليكا  
تركته جاذر القصر صبا      مستهما على الصعيد تريكا

ثم عاد في الباب الثاني ، وهو الخاص بذكر « المحبين الظرفاء » من الملوك  
والخلفاء » ، فذكرها ثانية ، وأضاف إليهما يبيين آخرين ، ونسبها إلى الحكم  
ابن هشام صراحة (١) ، وأتى بأبيات الرشيد في جواريه ، وهي مشهورة ،  
ووصلت الأندلس في زمن مبكر ، وراجت فيه كثيراً ، وأتبعها بأبيات  
الخليفة الأندلسي سليمان المستعين ، من قصيدته التي قالها يعارض فيها أبيات  
الرشيد ، وكان الأندلسيون يزهدون بقصيدة أميرهم ، ويرون بحق أنها أرق  
من أبيات الرشيد ، وقد أتينا عليهما من قبل (٢) . وينقل بعدها رواية للشيخ  
أثير الدين أبي حيان نصها : « كان السلطان أبو عبد الله محمد بن السلطان  
الغالب بالله ، أحد ملوك الأندلس ، جميلاً حسن السيامة ، متظاهراً بالدين ،  
رأيته مراراً بغرناطة ، وأنشدني شعراً ، وحضرت عنده لإنشاد الشعراء ،  
ومن شعره :

أياربة الخدر التي أذهبت نسكي      على كل حال أنت لا بد لي منك  
فلما بذل وهو أليق بالهوى      ولما بعز وهو أليق بالملك »

وهو كما ترى شعر سخيف ، وكل مبررات روايته وذكره أن قائله  
أمير . ويورد الأبيات التالية ، من قصيدة رقيقة وشهيرة لابن بقي ، نقلها  
عن ابن الأبار في كتابه « تحفة القادِم » ، وهي ليست موجودة في « المقتضب »  
منه الذي اختاره أبو اسحاق إبراهيم بن محمد البلقيني :

(١) المقطوعة من خمسة أبيات في « الحلة السيرة » لابن الأبار ، ج ١ ص ٤٩ ، طبعة

القاهرة ١٩٦٣م

(٢) أنظر صفحة ١٢٢ من هذا الكتاب .

حتى إذا مالت به مسة الكرى زحزحته شيئاً وكان معانتي  
أبعدته عن أضلع تشاقه كي لا ينام على وساد خافق

ويعلق عليها ابن الأبار : « نسب بعض أهل عصرنا ابن بقى (١) إلى  
الجفاء في قوله : « أبعده عن أضلع تشاقه » ، ولو قال : أبعده عنه  
أضلع تشاقه ، لكان أحسن . ويعقب عليه برأى ابن الأثير في هذه  
الآبيات ، نقلاً عن كتابه « المثل السائر » : « أبيات ابن بقى من الحسن  
والملاحاة بالمكان الأقصى ، ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت  
ترقص رقصاً . ولم يقف عند هؤلاء وحدهم ، فاستشهد بأبيات من شعر  
ابن عبد ربه ، وابن زيدون ، وابن شرف ، وابن رشيق ، وابن الزقاق ،  
وابن خفاجة ، وابن سهل الإشبيلي ، وغيرهم .

وقد اتكأ ابن أبي حجلة على ابن حزم في أكثر من مكان ، وكان غرسية  
غوث فطناً كعادته حين لحظه أن « باب علامات الحب » في « طوق الحمامة »  
كان أكثر أبواب الكتاب ذبوعاً وتأثيراً فيمن جاءوا بعده ، ونجد ذلك  
واضحاً في مقدمة « ديوان الصبابة » ، في الفصل الخاص بأسباب الحب  
وعلاماته ، فهو يذكر : « ومنها أنه يستدعى سمع اسم محبوبه ، ويستلذ  
الكلام في أخباره ، ويحب أهل محبوبه » ، « والإنصات لحديثه إذا حدث ،  
واستغراب كل ما يأتي به ، ولو أنه عين المحال ، وتصديقه وإن كذب ،  
وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعه كيف سلك »  
« والإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه ،  
والدنو منه ، وإطراح الأشغال الشاغلة عنه ، والزهد فيها ، والرغبة عنها ،  
والاستمانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقتها ، والتباطؤ في المشي عند  
القيام عنه » . وهي فقرات نقلها كلها عن « الطوق » نصاً دون أن  
يشير إليه .

(١) وردت كلمة ابن بقى في ديوان الصبابة المنشور في المرات الثلاث (ابن تقي) ،

ويذكر ابن أبي حجلة في الباب الثالث من كتابه ، وهو « في ذكر من عشق على السماع » ، ووقع من النزوع إلى الحبيب في النزاع » ، قصة أبقرات حين وصف له رجل من أهل النقصر أنه يحبه ، فقال : ما أحبني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه ، وقد نقلاها نصاً عن ابن حزم ، وقد أوردها في « الطوق » في باب « الكلام في ماهية الحب » . وينقل في الباب التاسع والعشرين ، وهو « في ذكر من ابتلى من أهل الزمان بحب النساء والغلمان » ، قصة أوردها ابن حزم في « الطوق » في « باب فضل التعفف » ، وينسبها إليه في هذه المرة ، ويلقبه بالأموي ، ونص عبارته : « قال الحافظ أبو محمد الأموي ، أن امرأة يثق بها حديثه أن فتى علقها وعلقته ، وشاع أمرها ، فاجتمعا يوماً خاليتين ، فقال لها : هلمى نحق ما يقال فينا . فقالت : لا والله ، لا كان هذا أبداً ، وأنا أقرأ : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

وأورد ابن أبي حجلة في الباب الثاني ، « في ذكر المحبين الظرفاء » ، من الملوكة والخلفاء » ، أبياتاً لابن حزم ، دون أن ينسبها إليه ، وقد جاءت في « الطوق » عند الحديث على وحدانية الحب ، في « باب من لا يحب إلا مع المطاولة » (١) ولم يورد « ديوان الصبابة » البيت الأول ، وتقدم بالبيت الأخير بيتاً ، وتأخر بالذي سبقه ، وأعانتنا على تصحيح كلمة فيه ، جاءت قلقه في طبعتنا الأولى « للطوق » ، وصححناه في الطبعة الثانية منه ، كانت في تلك « ذو شك » ، فأصبحت في هذه « ذو شرك » ، وهي أقرب إلى الصواب . وفي الباب الثالث ، وهو « في ذكر من عشق على السماع » ، يورد ثلاثة أبيات من الشعر ، من بحر الهزج ، وينسبها لشاعر يدعى المدني ، هل حين ينسبها ابن حزم في « الطوق » في « باب من أحب بالوصف » لنفسه ، والبيت الأول منها :

(١) طوق الحمامة ، ص ٤٦ ، الطبعة الثانية ، تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكي ، دار المعادف بالقاهرة ، ١٩٧٧ .

ويامن لامننى فى حب من لم يره طرفى (١)

وفى الفصل نفسه يورد ابن أبى حجلة أربعة أبيات من الشعر ، غير منسوبة لأحد ، ومطلعها :

يا ليت شعرى من كانت وكيف مرت  
أطلعة الشمس كانت أم هى القمر

وقد نسب ابن حزم الأبيات لنفسه ، وجاء بها فى « الطوق » فى « باب من أحب فى النوم (٢) » ، وأعانتنا رواية « ديوان الصبابة » على تصويب كلمة غامضة وغير واضحة فى البيت الثانى ، وهى « أظنة » فأصبحت « أظنها » ، وكلمة « نخيل » فى البيت الثالث فأصبحت « نخير » ، وبذلك استقام معنى الأبيات . وقد نسب ابن أبى حجلة فقرة فى الفصل الرابع ، من مقدمة كتابه إلى ابن حزم وهى : « قال رجل لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين ، إني رأيت امرأة فعشقتها ، فقال عمر : ذلك مما لا يملك ! » ، ولم يذكر المصدر الذى نقاها عنه ، ولا توجد فى نسخة « الطوق » التى بين أيدينا ، وهى به أشبه .

وقد نلتقى بالعنوان واحداً ، أو متقارباً ، عند الإثنين ، ولكنهما يختلفان فى تناوله ، فباب « الإداعة » عند ابن حزم ، هو باب « فى إفشاء السر والكتمان عند عدم الإمكان » عند ابن أبى حجلة ، و « فى الرسل والرسائل » ، والتلطف فى الوسائل » عنده ، نلتقى به عند ابن حزم فى بابى « المراسلة » و « السفير » . وهو يفرد باباً خاصاً لكل من « الرقيب » و « الواشى » ، ولكن ابن أبى حجلة يجمعها فى باب واحد : « الرقيب التمام » ، والواشى الكثير الكلام » . وابن حزم ، فى كل هذه الأبواب ، يتخذ مادته من الواقع ، ويوشىها بشئ من شعره ، أما ابن أبى حجلة ، فاكتمى فيها بأمثال عديدة من الشعر ، لشعراء مختلفين ، وقليل من حكايات مشرقية

(١) طوق الحمامة ، ص ٣٨ ، وفى ديوان الصبابة : أيامن ....

(٢) طوق الحمامة ، ص ٣٧

ينقلها عن الخرائطي ، دون أن يأتي بجديد أو ينقل عن ابن حزم شيئا .

والحق أنهما في ماعدا ما أشرنا إليه من توافقات ، نقل فيها الأدب المغربي عن عالم قرطبة العظيم ، يختلفان دافعا ومناخا وغاية . لقد جاء ابن حزم في وهج الخلاف ، وكتب « الطوق » في عنفوان شبابه فكان صورة للتمرد والأصالة ، وعدم المبالاة بما حوله ، وألف ابن أبي حجلة كتابه وشمس الحضارة الإسلامية تسرع نحو الغروب ، فجاء مزيجا مما حوله ، رواية وجما ، وخرافة وأساطير ، وفحشا وقلة حياء .

ولقد عالج ابن الحزم الحب عاطفة لاتقنن ، أسسك بجوانب غير قليلة من ظواهره ، وحاول أن يجد لها تفسيرا ، ودخل به ابن حجلة في متاهات الفقه ، فيبحث مثلا : هل التداوى بالجماع يبيحه الشرع ، ويذهب إلى أن ذلك غير جائز إذا كان المحبوب ممن لا يجوز نكاحه ، وأما التداوى بالضم والقبلة ، فإن تحقق الشفاء به ، كان نظير التداوى بالخمر عند من يبيحه ، بل لعل ذلك أسهل من هذا ، لأن شربه من الكبائر وهذه من الصغائر .

ويعرض الحق الزوجة على زوجها حين ترغب ، ويأتي بآراء الذين لا يرون لها هذا الحق ، لأنه للزوج وحده ، إن شاء استوفاه ، وإن شاء تركه ، ويراه أضعف الأقوال ، لأن القرآن والسنة والعرف والقياس يرفضه ، ويرده قول الله : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » . وقال آخرون بل هو حق واجب ، وحددوا له مواعيد ، وضربوا آجالا ، وكان ابن قيم الجوزية يرجح هذا الرأي فيما يشير .

وأمر ف ابن أبي حجلة في وصف المرأة حسيا ، راعفت على ذلك فصولا تتناول كل أجزاء جسمها ، وما قال الشعراء فيها وتغزلوا به ، وهي أشياء برئ منها كتاب ابن حزم . والظاهرة التي استرعت انتباهي ، ووقفت عندها طويلا ، أن ابن حزم عرض لظاهرة حب الغلمان ، وجاء لها بشواهد واقعية تتناثر عبر صفحات الكتاب كله ، دون أن يخصها

بباب ، أو يحللها ، أو يدلي فيها برأى ، إلا ما جاء في الباب قبل الأخير ، وأوقفه على « قبح المعصية » وتحدث فيه عن حرمة الزنا واللواط بعامته . ولم يعرض لظاهرة حب المرأة للمرأة لا تلحيقها ولا تصريحاً ، ولا تمثيلاً ولا حتى تقبيحها ، تجاهها تماماً . على حين خص ابن أبي حنيفة ظاهرة التغزل في الغلمان بباب كامل : « ذكر من ابتلى من أهل هذا الزمان بحب النساء والغلمان » ولم يقف بالأمر عند هذا الحد ، فتجاوزه إلى الحديث عن حب المرأة للمرأة ، وأفاض فيه ، وأسرف لونا وقولا فيما أتى به من شواهد وأمثلة وأشعار .

لا أظن سكوت ابن حزم عن هذه الظاهرة يعني أن قرطبة قد خلت منها ، فليس ذلك من طبيعة الحياة في القديم أو الحديث ، ولا أظنه تجاوزها تعففاً فقد تحدث عن الحب يقع من الرجل على الغلام ، فهل يقع في الظن أن الناسخ رفع من الكتاب ما اتصل بهذا الأمر ؟ ربما . لأنه فرض قائم حتى نجد للأمر تفسيراً آخر ، ولا يقلل من هذا الاحتمال أنه أبقى على ما اتصل لونه بالغلمان ، فالرجل فيما يتصل بالمرأة أناني بطبعه ، ولدينا على هذا شواهد كثيرة ، حذف فيها الناسخون أو الطابعون ما اتصل بحب المرأة للمرأة ، وأبقوا كل ما اتصل منها بالرجل مهما كانت معيبة .

بقى أن أشير إلى أن الأندلسيين احتفوا بديوان الصبابة على نحو لانهي حتى مع كتاب ابن حزم ، فقد وصل الأندلس عام ٧٦٧ هـ = ١٣٦٦ م فيما أرجح ، أي قبل وفاة مؤلفه بعشرة أعوام كاملة ، ورفع إلى السلطان أبي عبد الله بن أبي الحجاج يوسف ، فأعجب به ، وأشار أصحابه على لسان الدين بن الخطيب أن يعارضه ففعل ، وجعل الموضوع أشرف ، فيما يقول : وهو محبة الله تعالى ، ألّفه في أخريات أيامه ، مكرهاً لا بطل ، وأعطاها عنوان : « روضة التعريف بالحب الشريف » ، وجاء من بين أفضل ماسطر وزير غرناطة الكبير ، ومن سخريات القدر ، أن هذا السفر الجليل كان وثيقة الإتهام التي أدانته بها محكمة التفتيش ، ودفع حياته ثمناً

تأليفه في الظاهر وضحية الأعياب السيادية وقذارتها في واقع الحال .

\* \* \*

وبعد أربعين عاماً من وفاة ابن أبي حجلة ، يجئ إلى الحياة البقاعي ، إبراهيم بن عمر بن محسن ، وأصله من البقاع في سورية ، وسكن دمشق ، وولد عام ٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ م ، وتوفي بها عام ٨٨٥ هـ = ١٤٨٠ م ، وكانت له رحلة إلى القاهرة وبيت المقدس ومكة ، وهو مؤلف وأديب وشاعر ، وألف كتاباً عن الحب أسماه « أسواق الأشواق » ، لما يزل مختلطاً . ولم يتح له الإطلاع عليه . ولكن الأنطاكي يقول عنه إنه اختصار لكتاب « مصارع العشاق » للسراج البغدادي ، وعرضنا له من قبل ، ويصف مختصر البقاعي : « بأنه طال غير طائل ، وجميع ما لا حاجة لهذه الصناعة لآليه من المسائل ، كذكر الأسانيد والتكرار الذي هو شأن الأحاديث النبوية ، لتوثيق الأحكام الدينية ، وكالإخلال بمحاسن الأخبار ، ولطائف الأشعار ، التي هي بهذا الفن أعلى من الجوى ، بأهل الهوى ، وعدم الترتيب المستلزم لاحتلال التهذيب ، وكالإعراض عن ذكر غالب أسباب وقوع بعض العشاق في شرك الحب » .

\* \* \*

وعلى نفس المسافة من مجيء البقاعي بعد ابن أبي حجلة ، يجيء داود الأنطاكي من البقاعي تقريباً . وهو داود بن عمر المعروف بالأفك ، ولد في أنطاكية في تاريخ نجهله ، وحفظ القرآن ، وقرأ المنطق والرياضيات ، وشيئاً من الطبيعيات ، وتعلم اليونانية وأحكامها ، وكان عالماً بالطب والأدب ، وضريراً ، وإليه انتهت رياضة الطب في زمنه ، وهاجر إلى الديار المصرية ، « ومثل فيها بين يدي الأمثال ، وخدم من سما فيها من أرباب الفضائل » واستقر بالقاهرة زمناً ، ونال شهادة عريضة ، ثم رحل إلى مكة ، وأقام بها سنة ، توفي في آخرها عام ١٠٠٨ هـ = ١٦٠٠ م .

ألف الأنطاكي كتاباً في الحب ، وأعطاه عنواناً : « تزيين الأسواق » ، بتفصيل أسواق العشاق ، وجاء اختصاراً لكتاب البقاعي ، إلى جانب

كتب أخرى كثيرة أفاد منها، وأشار إلى بعضها في مقدمته . ونشر كتابه في القاهرة عام ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م ، وبجاشيته «ديوان الصبابة» لابن أبي حجلة وعرضنا له من قبل . وليس من السهل علينا أن نحكم ، وكتاب البقاعي ليس بين أيدينا ، إذا أخذ البقاعي عن المراج ، وماذا ترك ، وما الذي تجاوزه الأنطاكي من كتاب البقاعي وما الذي عرص عليه ، ولكن من يقرأ كتاب «تزيين الأسواق» ، يجد نفسه أمام الظاهرة التي تتميز بها كتب «المبصرين» ، حين يتدفقون إملاء ، فتتدافع المادة في أفواههم ، ونحى كيف ما اتفق .

وحكايات الأنطاكي وأمثاله وأشعاره شرقية في جملتها ، ومصادره كذلك ، وأشك كثيراً أنه رأى «طوق الحمامة» ، فهو لا يشير إليه كتاباً أو مؤلفاً ولا مرة واحدة ، ولا ينتهي مع صاحبه في منهج أو اتجاه ، إذا استثنينا أمثلة ثلاثة توافق فيها الإثنان . الأول ، وينسبه الأنطاكي إلى «وحكى عن بعضهم» ، وهو : «حكى ، حكى لي امرأة عن شخص هوها وهويته ، أن قال لها يوماً : هل لك أن نحقق ما قيل فينا ، فقالت : معاذ الله أن أفعل ذلك ، وأنا أقرأ : «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين» والثاني : حكاية الأندلسي الذي باع الجارية في أرض البربر ثم استردها والثالث : حب ابن كليب الكاتب ، الشهير بابن قزمان ، لإسلام ابن عبد العزيز ، ولا أرى الأنطاكي فيها جميعاً قد نقل عن «الطوق» . فالحكاية الأولى أرجح أنه نقلها عن «ديوان الصبابة» ، وجاءت فيه . وذكره الأنطاكي بين مصادره ، وأما الثانية فيغلب على ظني أن ابن حزم والأنطاكي كليهما نقلتا عن أصل ثالث ، وأما الأخيرة فيذكر الأنطاكي نفسه مصدرها الذي نقلها عنه ، وهو كتاب «الإحاطة بأخبار غرناطة» للسان الدين بن الخطيب .

ولأنها لظاهرة تسرعى النظر أن يكون «طوق الحمامة» بين يدي ابن أبي حجلة ، أو قرأه على الأقل ، وهو يحور «ديوان الصبابة» ، ثم لا نلتقي

به بين مصادر الأنطاكى ، وكان حريصاً على أن يجمع بين يديه كل ما كتب  
عن الحب قبل أن يحرر كتابه ، ونقل عنها جميعاً ، وأشار إليها في أحاديث  
كثيرة ، وعلى الرغم من أننا نلتقى به بين الكتب التى نقل عنها المقرئ  
الشمسانى صاحب « تنقيح الطيب » ، ومن نسخة تخالف نسخة « الطوق » التى  
بين أيدينا ، وجاء إلى القاهرة بعد سنوات قليلة من وفاة الأنطاكى ، وأرجح  
أنه استخدم نسخة وجدها فى القاهرة . لأنه يشير كثيراً إلى أنه خلف مكتبته  
وراءه فى فاس . ويخيل لى أن المغاربة ، وتشمل الأندلسيين ، كانوا أكثر حرصاً  
على تسجيل تراثهم ، والحرص عليه ، والاحتفاظ به ، على حين كان المشاركة  
كعادة ، لا يرون فيما خطه هؤلاء جديداً يستأهل أن يتمفوا عنده ، وأن  
ينميدوا منه .

\* \* \*

وحول العام الذى توفى فيه الأنطاكى ، قباه أو بعده بتليل ، يجىء لى  
الحياة يوسف بن مرعى الحنبلى ، وسوف يؤلف كتاب : « منية الحبيب » ،  
وبغية العاشقين (١) ، وقد درسه غرسية غومث ، وتبع تأثير الطوق فيه ،  
وترجمنا هذه الدراسة من قل .

## تأثير طوق الحمامة

### في الأدب الإسباني

#### شرايخ الأدب الإسباني في فجر حياته ثلاثة :

\* ملحمة السيد : قصيدة شعرية طويلة ، تدور أحداثها -و- ولد أندلسي مغامر ، نصف عربي ونصف أسباني ، نصف مسلم ونصف مسيحي ، عاش في القرن الحادي عشر ، وتوفي في مدينة ألمرية عام ١٠٩٩ م . وأصبحت بطولته ومغامراته غذاء المشاعر عند عامة الناس ، على نحو ما أصبح عندنا عنتر بن شداد ، وأبو زيد اللّاحل ، وسيف بن ذي يزن والظاهر بيبرس ، وآخرون (١) .

\* الحب المحمود Libro de Buen Amor : لكاها مدينة هيتا (١٢٩٥ - ١٣٥٣ م) ، ومن الصعب أن نضعه تحت جنس أدبي معين . فهو قصيدة طويلة ، تضم قرابة ألفي بيت من الشعر ، وتدور في جوهرها حول فن الحب ، وقد أزهى هذا اللون من الشعر في أوروبا ، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، حين أدار الشعراء ظهورهم لشعر القديسين وقصائد الوعظ ، واتخذوا من الإنسان وحياته وحي إلهامهم . وأبدعوا شعراً رقيقاً يدور حول الحب والخمر ، ويتخذ من الجامعات والمتنديات الثقافية مهبطاً يلوذ به ويختفى ، بتأثير من الأدب العربي ، وكان راقياً ومرغوباً ومطلوباً سماعه ، ومعرفة مجديزه به .

\* لائليستينا La Celestina : عنوان يمكن أن نترجمه بجوارح (و بالقوادة) ، وهي مسرحية مأسوية كتبها فرناندو دي روكاس (ت ١٥٤١ م) ، شأنها شأن « طوق الحمامة » ، و« الحب المحمود » تتخذ من الحياة العاطفية منطلقاً للتعبير عن عدد من مشكلات العصر الذي كتبت فيه .

أما ملحمة السيد فبعدة موضوعاً وشكلاً عن « طوق الحمامة » .

لأنها إبداع جماعى ، صنعها شاعر . أوشعراء ، جوالون ومادتها الحرب والنزان . والشجاعة والأبطال . ويأتى فيها الحب مختلفا ، فهى تعرض للمرأة زوجة وفية مطيعة ، وللإبنة عروسا مصبونة مطلوبة . وتقطعة اللقاء الوحيدة بينهما أن ابن حزم والسيد التنبيطور تعاصرا أهواما . الأول شيخنا اعتزل الحياة فى قريته منت اشم : من مقاطعة ولبة جنوب غربى الأندلس أثر بعد نضال ثقاتى عنيف ومرير أن يقنع بطلابه ومريديه ، إلى أن توفى عام ١٠٦٤ م . وولد الثانى فى بيدار ، شمال مدينة برغش ، عام ١٠٤٥ م ، وحين كان ابن حزم يودع الحياة إلى رحاب الله ، كان السيد فتى يافعا حرس الملك القشتالى ، يتهيأ لأن يكون واحداً من فرسانه ، وليشارك معه فى الحرب للمرة الأولى ، حين وقف ملك قشتالة إلى جانب حليفه المقتدر ابن هود ملك سرقسطة : ضد راميرو الأول ملك أرجون ، فى معركة تمت فى ربيع عام ١٠٦٣ م (٢).

ويختلف الأمر فيما يتصل بالكتابين الآخرين ، فكلاهما تأثر «بالطوق» نقل عنه ، أو سار على هديه ، أو احتذاه أسلوبا ، وبدأ بالأول منهما ، وتدع الثانى الفرصة قابلة .

كان المفكر الإسباني العظيم أميركو كاسترو أول من أشار فى كتابه : « أسبانيا بين المساجين واليهود والمسيحيين » أو كما أسماه فى طبعته الثانية : « حقيقة أسبانيا التاريخية » ، إلى أن « طوق الحمامة » كان حاضرا فى الأدب المسيحى على امتداد القرن الرابع عشر . ويصف إميليو غرسية غومث عميد المستشرقين الإسبان فى وقتنا هذا كتاب مواطنه أميركو كاسترو - ويقف من آرائه فى الجانب المقابل - بأنه مثير ومدهش ودسم ، « أول غزو يقوم به متخصص فى الدراسات الرومانية على حقول الثقافة العربية ، وجاء رداً على عدد من الرحلات التى قام بها المستشرقون فى مجال الدراسات الرومانية » (٣).

وقد عاش «طوق الحمامة» على نحوين مختلفين فى الأندلس ، الإسلامى والمسيحى على السواء ، حوصر رسمياً وامتد شعبياً ، أمار رسمياً فلأن الصراع الفكرى بين

ابن حزم ومناهضى مذهبه الظاهري ، وفلسفته التشريعية ، وفكره المستنير جعل كتبه غير محبة ، ظاهراً على الأقل ، إلى القارئ على أمور الثقافة في قرطبة الإسلامية ، وأخير فلائه كتاب صريح ، يتحدث عن الحب في لغة علمية ، ويدرسه أمراً واقعاً ، يحل ويوجه في دقة الطبيب ، أدون أن يرتدى ثياب الواعظ الرديء ، وما من خير يرجي في أن نلاحظ قضايا العاطفة سبباً ولعناً ، دون أن نغوص وراء أسبابها . وأما شعبياً فقد وجد طريقه إلى جمهرة القراء ، فكافة في الدولة ، وتشغياً من الفقهاء ، واستمتاعاً بما بين دفتيه من علم وأدب .

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الكتاب في الجانب المسيحي ، وقد عاش ابن حزم فترة التوازن الحربي بين الجانبين ، وشالت كفته بعد موته مائة وعشرين عاماً لصالح المسيحيين ، حين سقطت مدينة طليطلة عام ١٠٨٥ م في يد ألفونسو السادس ، ولكن عزوف المسيحيين الرسميين عنه يعود إلى أسباب أخرى . لقد ناقش ابن حزم في كتابه : « الفصل في المال والأهواء والنحل » المسيحيين في عصره ، مناقشة علمية هادئة ومستنيرة ومعتمة ، فأكسبه هذا بغض رجال الدين المسيحيين على أيامه ، والحوار بينهم ، والكلمة إليهم ، ولم يكن لهم من سعة الثقافة ورحابة الأفق ما كان له ، فيفهمون قوله ، ويعرفون قدره ، ويدركون أن الأفكار تناقش ، والعلماء يجادلون . أما بين الجماهير ، وفي جانب كبير منها ، وبخاصة بين المستعربين الذين يقيمون في الدولة الإسلامية ، أو المسلمين الذين تخلفوا في المدن الإسلامية التي سقطت بيد المسيحيين ، وأولئك المسيحيين الذين كانوا يقيمون على الحدود ، فقد قرأوه في العربية ، أو تناقلوا نصوصه شفاهاً « أو عرفوه كيفما اتفق » ، لأننا نلتقي بنصوص قشتالية (٤) ترجمة حرفية منه ، ولأن الحب بالأسلوب الذي عرضه ابن حزم ، كان مجهولاً عند اليونان والرومان ، وظهوره في العصر الوسيط صدى لكتب من طراز كتاب ابن حزم ويقول كاسترو في صراحة : « على أولئك الذين لا يريدون أن يخطئوا تاريخياً ،

عندما يصعدون أحكاماً على الأدب الإيبيري (الإسباني والبرتغالي) ، أن يعرفوا ما كان يحدث في الجانب العربي من الأندلس . ولو أن واحداً من الأوروبيين ، فيما يرى ، كتب صفحات كالتى كتبها ابن حزم ، لوضع على رأس قائمة عابرة الأدب الأوربي (ه) .

بدءاً ، ما كتاب « الحب المحمود » ؟

إنه قصيدة طويلة ، جاءت في أثنى بيت ، وتنظم عناصر عديدة غير متجانسة ، ويمكن أن نردها إلى المحاور التالية :

مقدمة نثرية ، سبقتها صلاة شاعرة في أبيات راقصة ، عرض فيها المؤلف غاية من الكتاب ، وأنه وقف بأزاء لوئين من الحب : الحب المحمود كما تنظمه الشرائع ، والحب المحزون الذى يحتاج العالم . « وأنفت هذا الكتاب الجديد ، وأردت فيه بعض الطرق والحيل والحدع التى يستخدمها أبطال الحب الديوى المحزون فيخطئون . وقد قرأتها ، أو سمعتها ، من رجال ونساء عتلاء ، إذا أردت أن تنجو فسر على منوالهم ، ويمكنك أن تقول مع داود صاحب المزامير : اخترت طريق الحق ! .

« والخطيئة شئ إنسانى ، وإذا كان بعضهم - ولا أنصحهم - يركنون إلى الحب المحزون ، فسوف يجدون له طرقاً هنا ، لأن كتابى هذا للجميع ، رجالاً ونساء ، موافقين وكارهين : من أراد الطيب ، واختار النجاة ، وعمل صالحاً تقرباً إلى الله . ومن أراد الحب الديوى المحزون ، وصلك إليه الطريق الذى أراد ، ويمكن أن يقول : أما أنا فعلى الرب توكلت ، أتبع وأفرح برحمتك ، لأننى نظرت إلى مذاتى ، وعرفت الشدائد فى نفسى » .

وقصص غرامى بظاه مؤلف الكتاب نفسه ، يحىء فى شكل ترجمة ذاتية له ، يعرضها علينا خلال سلسلة من المغامرات العاطفية ، يحكيها فى ظرف ملحوظ . وتنتهى بالفشل عادة . والتاريخ العاطفى لرجل يدعى دون مليون ، وسيدة تدعى دونيا أندرينا ، وثلاثة تعاون العاشقين ، وهى السفيرة هند

ابن حزم ، والقوادعة عند كاهن هيتا ، ويستخدم لها أحيانا اللفظ في صورته العربية alcabuete وأبيات مطولة في نقد الحب ، اقتبسها من مسرحية لاتينية مجهولة المؤلف ، كتبت في القرن الثاني عشر الميلادي ، وتحكى قصة فتاة استسلمت لإغراء ، وانتهى أمرها بالزواج ، ومعركة رمزية ساخرة بين دون كرنال ، ودونيا كوارسما ، ومع كل واحد منهما جيشه .

ثم استطرادات ذات طابع تربوي أو اجتماعي وساخرة ، ليست دائما على صلة وثيقة بالأصل . أنه يصور لنا الصراع الحاد بين الإحساس الديني وبين عواطف الإنسان العادي في العصر الوسيط ، ويضعهما وجهًا لوجه ، فنحس بالآلام ، ونتمثل أزمة العادات في عصره . وهو رجل دين ، ولكنه يصطدم بالتقاليد القبضية ، ولا يتردد في أن يحمل على رجال الدين ، وأن يسخر من العلاقات الغرامية بين الرهبان والراهبات ، ومن ثم فهو يقدم لنا الجانب الواقعي ، من الحياة اليومية في الكنائس والأديرة ، وما وصلنا من وثائق العصور الوسطى يؤيده في روايته ، فنحن نعرف أن « المجمع الديني » الذي عقد في مدينة بلد الوليد ، في الأندلس المسيحية ، عام ١٣٢٢ م ناقش بالنص قضية « عشيقات رجال الدين » ، وأعطاهم مهلة شهرين لكي يفارقوهن ، ولكن المحاولة فشلت ، كما نتبين ذلك من المجمع الديني الذي عقد في مدينة سلمنقة عام ١٣٣٥ م ، وفشل أيضا في محاولته ، واحتاج الأمر لعقد مجمع جديد في مدينة القلعة عام ١٣٤٢ م . ونلاحظ أن كاهن هيتا يعطى أهمية قليلة للعلاقات الغرامية التي كانت قائمة بين القسوس والراهبات ، حين يصف مغامرات بطله ، أو أن شئت نفسه ، معهن ، وسوف ينتهي به المطاف أخيرا إلى التوبة ، فيذهب إلى دير يحاول أن يتطهر مما ارتكب من ذنوب في سابق أيامه .

ويسخر من الغنى ، ومن الصراع المستمر بين رجال الدين وعامة الناس في سباقهم من أجل الاستيلاء على أموال الذين يحتضرون ، ولا ينجو من سخريته القارصة العجايز المتصايبات ، ولا الثروات المتهتكات . وخلال

ذلك كله ، ينثر العديد من الأساطير والحكايات والأمثال والمحاورات ،  
ويأتى بتصانيد غنائية ، فى أوزان مختلفة ، ذات طابع دينى وموجهة إلى  
مریم العذراء ، أو علمانى لكى يتغنى فيها العميان والطلاب ، وأناسيد يترنم  
فيها العاشقون لجمال الريفيات .

وهذه العناصر المتعددة ليست جزراً منعزلة ، وإنما يجمع بينها خيط  
فكرى تمشه رواية غرامية ؛ ذات سيرة ذاتية ، فيها خيال محلق ؛ وتقنية  
محكمة ، وتستلهم أشياء واقعية ؛ وهذا الخيط يحافظ على وحدة العمل الأدبى  
وتتجمع حوله الأفكار الأخرى للكتاب .

\* \* \*

منذ البدء كان الوصول إلى حقيقة مؤلف كتاب « الحب المحمود »  
مشكلة ؛ وفكرة ملحة فى الوقت نفسه ؛ وحتى وقت قريب جداً كان  
شخصية غامضة ومبهمة ، تطل على الدارس من وراء ضباب معتم ؛  
أو تناقض محير ؛ حتى أن محقق نص الكتاب ، الناقد الأسباني خوليو  
ثيخادور يقول فى مقدمته للكتاب بخرف الواحد : « خارج ما أورده  
المؤلف عن نفسه ؛ فى كتابه ؛ لا يمكن القول أننا نعرف عنه كلمة واحدة » .  
ولكن المشكلة قد حلت الآن أو هى فى طريقها إلى الحل ، وفى ضوء الوثائق  
الجديدة من الضرورى أن يعاد النظر فى تحليل مادة الكتاب ؛ على نحو أدق  
وأكثر موضوعية ، وكتابة حياة المؤلف وتاريخه . تقدم نشر الفاتيكان جانباً  
محدوداً من وثائقه السرية ، وفيها مابقى ضوءاً كافياً على شخصية المؤلف ؛  
إن جانب وثائق أخرى عشر عليها فى « المعهد الإسباني » ، فى وارسو  
عاصمة بولندا ، وفى كنائس أسبانية أخرى ، ولدراسة هذه الوثائق ،  
وتحقيق شخصية مؤلف كتاب « الحب المحمود » انعقد « المؤتمر العالمى  
لدراسة كاهن هيتا عام ١٩٧٣ » .

اسمه الحقيقى خوان روبث ، ودخل التاريخ الأدبى من خلال لقبه « كاهن  
هيتا » ، وهى الوظيفة الدينية التى كان يتولاها فى قرية هيتا ، من مقاطعة

وادي الحجارة ، شرقى مدريد وعلى مقربة منها . وطبقا لوثيقة دينية وجدت في الفاتيكان ، وأشار إليها لأول مرة في صيف ١٩٧٤ الدكتور أميليو ستيث الأستاذ في جامعة برشلونة ، في جريدة أ. ب. ث ، فإن خوان روبث ولد في الجانب الإسلامى من الأندلس ، وربما في قلعة يحصب (٥) ، ويطلق عليها الآن اسم « القعة المكية » ، وهى مدينة صغيرة في مقاطعة جيان ، ابنا غير شرعى ، لرجل ثرى من بالنشيا، يدعى أرياس جونثالث، ومثل هذه الصلات كانت عملا عاديا في تلك الأيام ؛ ونجد صدى ذلك واضحا في الأشعار الشعبية البشتالية ، على حين تصمت المصادر والوثائق الرسمية ، لا مجال للطعن في صحة هذا الخبر ، لأن الوثيقة المتصلة به ، كانت طلبا مقدما إلى البابا فى روما ليغفو عنه ، ويتجاوز عن هذه الصلة غير الشرعية ، ليتمكن تعيين خوان روبث كاهنا لمدينة « سجرينثا » ، ومن الوثيقة نعرف أنه جاء إلى الحياة آخر عام ١٢٩٥ م ، أو أول العام الذى تلاه .

وتقول الوثائق أن جده رعمه ، وهدداً كبيراً من أفراد أسرته ، قتلوا في الصراع الذى كان دثرا بين المسلمين والمسيحيين على امتداد القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، وأن أباه غير الشرعى كان أسيرا ، وعاش في الجانب الإسلامى ٢٥ عاما ، وأن سيده المسلم قدم له جارية مسيحية كانت عنده ، لتصبح زوجة له ، على أن يصبح المذكور من أولادها أحرارا ، والبنات جواري للسيد ، وأنجب أرياس من زوجته الرقيقة ستة أولاد ذكور ، ومن ثم اعتق السيد الزوجين وأبناءهم ، وهى رواية فوق الشك أيضاً ، لأننا نعرف أسماء وأعمار ثلاثة من الأخوة أصبحوا رجال دين ، وتقدموا إلى البابا أيضاً يطالبون لإذنا خاصاً بتولى مهامهم لصغر سنهم ، وعفوا عن عدم شرعية مولدهم .

وقد أطلق صراح الوالد عام ١٣٠٥ م ، وتزوج ثانية فيما يبدو ، وكان له من زوجته الجديدة ، والشرعية من الوجهة المسيحية ، ثلاثة أولاد ، ونعرف أنه توفى عام ١٣١٢ م .

إذن فقد ولد خوان رويث ، كاهن هيتا ومؤلف « الحب المحمود » من أم كانت جارية لسيد مسالم ، يقيم في مقاطعة جيان ، ولأب عاش أسيرا خمسة وعشرين عاما بين قوم يتكلمون العربية ، وإذا كان لمقاطعة أن تعرف كتاب « طوق الحمامة » وأن يسير فيها ذكره ، بعد قرطبة نفسها ، فهي كورة جيان ، مقاطعة الحياة اللاهية ، والرواقص المشهورات ، والقرية من عاصمة الخلافة .

لم يكن خوان رويث مجهولا على أيامه ، ولا قليل الأهمية ، فقد قرى مناصب عديدة ، ذات أهمية اجتماعية كبيرة ، وأصبح في رعاية مارية مولينا ملكة قشتالة ، وقد عين كاهنا لمدينة سيجونثا « عام ١٣١٢ م ، وله من العمر ستة وعشرون عاما .

وفي عام ١٣١٨ م عين رئيسا للشمامسة في « مدينة دل كامبو » ، وبعدها بعام عينه البابا يوحنا الثاني والعشرون كاهنا لمدينة « بالنتيا » وقد بذلت الملكة مسعى كبيرا لدى البابا ليعينه مطرانا ، وهو « الثلاثين من عمره ، دون حاجة إلى عفو جديد عن مولده غير الشرعي ، وفي هذه المناسبة أشار البابا إلى الدماء التي بذلتها أسرته في الحروب ضد المسلمين . وفي عام ١٣٢٢ تلتقى به في مدينة « برغش » ، وحول هذه الأعوام سمح له البابا أن يدرس ، ربما في جامعة « مونبلييه » ، وهي الجامعة التي كان يتردد عليها رجال الدين القادمون من ممالك شمال الأندلس المسيحية . وبعد فترة صمت امتدت حتى عام ١٣٤٣ م ، تلتقى به ثانية ، في وثيقة مقدمة من مطران طليطة ، يطلب له فيها وظيفة دينية في « قلهرة » . وفي ما بين عامي ١٣٤٣ و ١٣٥٣ م ، تلتقى بفترة فراغ كبيرة في حياته ، ويرجح المؤرخون أنه أمضاها في السجن ، أو النفي ، بسبب كتابه « الحب المحمود » ، وفي هذا العام تلتقى به إلى جوار الكاردينال « خيل دي البرتس » ، ورحل معه إلى إيطاليا ، وإلى أفينيون في جنوب فرنسا :

كشاعر يأتي خوان رويث في القمة ، لا بين عباقرة عصره فحسب ، وإنما على كل شعراء أسبانيا في العصر الوسيط ، دون استثناء أو عدوان على أحد . فهو خير من تحدث عن المرأة والحب في أيامه ، ودون مبالغة يمكن أن نضعه إلى جانب أوفيد ، ودانتى ، وبترارك ، وشكسبير ، وهابن ، وفرلين ، وعمر بن أبي ربيعة ، والعباس بن الأحنف . وابن زيدون . وهو — فيما يرى امرئكو كاسترو — يقدم لنا مجتمعاً متأثراً بالتقاليد الإسلامية إلى حد كبير .

ربما هناك من تنضح مشاعره الذاتية بخنان أكبر ، وكثيروان يتنوقون عليه في مصادر الإلهام ، أو في المنهوم الشعري للحياة ، ولكنه يتنوق على الجميع في شيتين أساسيين : كتب تاريخ عصره ساخرآ ، وتميز في أمر آخر لم يبلغه الشعراء بعده إلا بقرون : وضوح شخصيته .

لقد ضمن كتابه كل ما عرفه عن العالم والحياة ، وليس إقليلاً ، فهو كمصدر تاريخي يساوى كثيراً ، ولولا كتابه « الحب المحمود » — والشئ نفسه يقال عن طوق الحمامة — لجهلنا الكثير من تاريخ العصور الوسطى . إن كتب التاريخ تحدثنا كيف قاتل آباؤنا ، وكتب التشريع تخطط لما أرادوه مثلاً ، أما هو — أو هما — فيحدثنا كيف كان يعيش أهل عصره واقعاً ، في بيوتهم وفي الأسواق ، في أحزانهم ومسراتهم ، ماذا كانوا يأكلون على موائدهم ، وكيف كانوا يلبسون ويعشقون .

كان خوان رويث مثقفاً في اللاتينية والعربية ، وفي القانون والتوراة ، وقرأ واعياً كتاب « كوند لوكارنو » ، مجموعة من الحكايات العربية ، ترجمت إلى القشتالية في زمن مبكر ، وحازت شهرة كاسحة ، لقد استوعب الحكايات وتمثلها ، وأفاد منها ، واقتبس بعضها .

وهو شاعر ساخر بكل ما تتسع له الكلمة ، لم ينبج من سخريته شخص ولا موقف ، يهج سامعيه بتصوير الحياة اليومية الطريفة ، يلاحظها بدقة ، وينقلها في أمانة ، ونظرتة إلى الواقع نافذة ، كل شئ عنده يتحدث إلى

العين ، ويترجم إلى مشاعر ، وقادر دائماً على أن يجعنا نرى المشاهد التي نقرأها ، فهو صاحب واقعية شجاعة ، يجن أمامها أكثر الناس جرأة ، على فمه كل ما في قلبه . وقبله يسع العلم كله . إنه أشجع كتاب العصر الوسيط في أسبانيا ، وأشدهم حرراً ..

وقد حار النقاد المحدثون فيه إنساناً . وكتابه يمد كل ظرف بما يريد من شواهد : لأنه يتلاعب بالألفاظ والمواقف ، فالأديب الفرنسي « بوميجر » ( ١٨١٦-١٩٠١ ) ، يراه في كتابه : « الأدب القشتالي القديم » ( ج ٢ ص ٨٣ ) ، مفكراً حراً ، عدواً للكنيسة . ، ويشاركه هذا الرأي العالم الموسوعي الأسباني مينيندث أي بلابو فيراه : رجل دين فاجر وسكير ، طواف ليل ، رفيق حانات . والحق أن كاهن هيتا كان رجل دين ليس على شيء من الدين ، فهو يكره زملاءه على أيامه ، سمع درجاتهم أو انحطت ، من القلب ، وكان في حياته أقرب ما يكون إلى شاعر من أشبيلية على أيام بني عباد ، أو من بغداد على أيام أبي نواس . وكتابه أول نص أدبي أسباني من العصر الوسيط يناهض الكنيسة ونفوذه وينضح أخلاق أهلها .

كان خوان رويث شاعري المزاج ، قلق الروح ، يعيش حياة فوضوية ، ويؤثر أن يتحرك وسط أجواء شعبية ، رفقة تراقصات يهوديات . وزامرين إسلاميين ، ورجال دين من عشاق السهر ، ورغم مهنته أمضى من حياته في الحانات أكثر مما أمضى في الكنيسة ، وتحدث عن الحب والشعر والكأس ، أكثر مما صلى بالناس القديس ، أو ألقى عليهم من العظات . وجاء بين عصرين ديبين دون أن ينتمي إلى أي منهما ، ونزاج أدبين يتقاسمان شبه الجزيرة ، العربي والأسباني ، دون أن يكون خائفاً لأحدهما . وإذا كانت « ماحمة السيد » ابناً شرعياً للديلاحم العربية التي سادت الأندلس . فقد جاء « الحب المحمود » ابناً شرعياً لمكتاب « طوق الحسمه » .

• • •

اختلف النقاد في موقفهم من أصول « الحب المحمود » . حاول الفرنسيون

أن يستولوا عليه دون أن يتركوا غيرهم نصيباً منه ، فرأى بومجر في كتابه الذى أشرنا إليه من قبل ، أن خوان رويث « تلميذ الأدب الفرنسى ، ولم يكن شاعراً أصبانياً فى شىء ، إلا فى لغته ، التى يتناثر بينهما طوفان من الكلمات الأجنبية . ولم يشر إلى شىء من التأثير العربى ، رغم أن الكلمات الأجنبية التى يشر إليها جعلها عربى .

وتوزعت الأسباب اتجاهات شتى : بعضهم بحث عن أصول « الحب المحمود » فى أى مكان ، إلا فى المكان الذى يجب أن يبحث فيه ، فتحدث عن أصوله اللاتينية والفرنسية ، وسكت عن العربية ، أو مر بها تحت اسم الشرقية على استحياء ، أو تجاوز الصمت إلى الإنكار ، كأن القول بتأثر إنسان بالحضارة الأرقى فى وطنه شىء يعاب عليه ، ويقال من أهميته ، أو كأن هناك فى عالم الأدب ما يوجد من عدم ، أو يبدأ من فراغ ، وبعضهم أحس بالأثر العربى عبر صفحات الكتاب فأشار إليه إجمالاً دون أن يقف عند تفصيلاته . لأنه لم يكن يعرف العربية على نحو يتيح له أن يقدم على ما يقول برهاناً ، ومن هؤلاء أميركو كاسترو ، وأشرنا إليه أكثر من مرة .

أما المستشرقون الأسبان ، والمتقنون الموضوعيون منهم بخاصة ، فقد وقفوا عند التأثير العربى على نحو أو آخر ، فعرض له « أنخل جوناثلث بالنشيا » فى كتابه « تاريخ الأدب الأسبانى » ، وألمح إلى أنه « يتجلى عند خوان رويث على صورة لا يرقى إليها الشك ، ونرى ذلك بوضوح فى مواضيع شتى من كتابه الحب المحمود » ، وضرب لذلك عدداً من الأمثلة . ويشاركه هذا رأى منيندت أى بلايو ، وزاد القول بأن خوان رويث كان يعرف من العربية ما يصاح للاستعمال الدارج ، لاما يمكنه من دراسة الفنون الأدبية .

ودرست الكاتبة الأرجنتينية « مارية روزة ليدا » التأثير العربى فى « الحب المحمود » من جانب آخر . رأت الكتاب يشبه أن يكون ترجمة ذاتية لحياة مؤلفه العاطفية ، ومثل هذه التراجم نادرة جداً فى أدب العصور الوسطى الأوروبية ، سواء فى الأدب اللاتينى أو الآداب الرومانسية التى

انفصلت عنه ، أو الآداب الجرمانية ، ولا نجد له مثيلاً حتى القرن الثالث عشر ، حين كتب الشاعر الألماني أولريش فون ليشتنشين ( ١٢٠٠-١٢٧٦ م ) كتابه : « فضائل المرأة » ، وكتب أديب إيطاليا الكبير دانتي ( ١٢٦٥-١٢٧٦ م ) كتابه : « الحياة المحددة » ( ٦ ) : أما في أدب القرن الرابع عشر القشتالي ، فكان « الحب المحمود » استثناءً .

أمام هذا النمى حاولت لبدأ أن تبعث من جديد ، وعلى نحو أكثر تفصيلاً فكرة منسية دعا إليها من قبل المستشرق الألباني « فرانيسكو فرنانديث اى جونثالث » ( ١٨٣٣ - ١٩١٧ م ) ، وأصر فيها على أن هناك صلة بين الكتاب وفن المقامة العربية .

لقد ازدهر فن المقامة بين عرب الأندلس ، وخير شروح مقامات الحريري قام بها أندلسيون ، وهضى نفر من أدبائه يكتبون على منوالها ، رسائل وخطباً ومواعظ ورحلات وهاوياً ، ومنذ القرن الثاني عشر أخذت المقامة فى شكلها العربى طريقها إلى يهود قطلونية ، وأدباء بروفانس ، وجنوبى فرنسا ، وأصبح واضحاً أنه أخذ طريقه إلى قشتالة أيضاً ، بعد أن عثر أخيراً على قصيدة قشتالية ، كتبها « دون سم توب ديه كاريون » بعنوان : « محاوره بين القلم والجلام » ، وجادت كلمة القلم من عنوانها فى صورتها العربية el Calamo وإلى فن المقامة ينتمى أيضاً « كتاب الطرب » ، وألفه يوسف بن مثير بن صيرة ، يهودى من برشلونة ، فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وفيه تلتقى شخصية البطل والراوى والمؤلف فى واحد ، ويصبح محوراً لعمل تلتقى فيه بالحكمة والمثل والخرافة والأسطورة ، ويختط الحوار التربوى بالشعر الغنائى والسجع : ولم تضع لبدأ يدها على نقط اللقاء بين المقامة وكتاب « الحب المحمود » تفصيلاً ، ربما لأنها لم تكن تعرف العربية . إلا أنها أوضحت أن الشبه فى البناء الفنى بين « كتاب الطرب » ، وجاء فى شكل مقامة ، وبين كتاب « الحب المحمود » لا يدع مجالاً للشك أو التردد . وأخيراً فإن نشر قصيدة « الحوار بين القلم والجلام » ، وهو ليهودى من قشتالة . ومعاصر لصاحب « الحب المحمود » ،

وجاءت في شكل مقامة ، يفتح الباب واسعا أمام البحث الأدبي في قابل الأيام ،  
لسكى يتتبع تأثير المقامة العربية في عدد من الأجناس الأدبية الأسبانية بخاصة ،  
والأوربية بعامة . ولكن ليدا ، وهى تقارن بين « الحب المحمود » وفن المقامة  
العربية ، كانت تهدف إلى حل مشكلة البناء الأدبي في كتاب كاهن هيتا ، وفي  
كل كتاب أوربي ألف على منواله في العصر الوسيط ، ومن ثم وقفت بجهد هاعد  
الشكل ، دون أن تتجاوزته إلى محتوى الكتاب ومادته .

\* \* \*

كان إميليو غرسية غومث ، أول من عرض ، فيما أعلم ، للمشابهات بين  
محتوى « الطوق » ومحتوى « الحب المحمود » ، ورأى « أن كتاب كاهن هيتا  
لا يمكن أن يفهم دون افتراضات عربية كثيرة » ، من بينها إذا أردت أن مؤلفه  
من المدجنين (٧) ، وأنه يلتقى في نقاط كثيرة ومثيرة مع كتاب ابن حزم ، ولو  
أن من السذاجة بمكان القول بأن هذا أخذ من ذلك .

وقد قام غرسية غومث بعدد من الموازنات بين نصوص متشابهة في  
الكتابين ، ولكنه توقف إزاء غياب الوثائق التى تبرهن على الصلة المباشرة ،  
وكان حصيفا فطنا — كعادته — حين قرر أن « إنكار التشابه عمل غير علمي ،  
والقول به يجعل موقفى رديئا — أى موقف غرسية غومث — يوم توجد وثائق  
تبرهن عليه ، وهو أمر محتمل تماما ، كما حدث في الحوار الذى دار حول المصادر  
الإسلامية للكوميديا الإلهية لدانتى ، والتأكيد بالتبعية المباشرة مجازفة ؛ وأعتقد ،  
مثل كاسترو ، أنه توجد عناصر عربية كثيرة ، ولكنى أرى أنه بعد كثيرا  
أن يكون « طوق الحمامة » من بينها ، كمصدر أصيل وبطريقة مباشرة ، لأن  
كتاب ابن حزم كان يتحرك في نطاق محدود : إنه كتاب خاصة ، وصعب  
للافاية ، وتمضله عن « الحب المحمود » هوة عميقة من الاختلافات الفكرية » :

كتب غرسية غومث هذا الكلام في مقدمته للترجمة الأسبانية التى قام بها  
لطوق الحمامة ، عندما صدرت للمرة الأولى عام ١٩٥٢ ، ومن ذلك الحين  
حدث فيما يتصل بكاهن هيتا أشياء كثيرة ، أبرزها الوثائق الدينية السرية في

الفريكان وعدد من الكنائس الأسبانية ، وأشرنا لها من قبل ، ومنها يتبين أن مؤلف كتاب « الحب المحمود » ولد لجارية كانت في حوزة سيد عربي في قاعة يحصب من مقاطعة جيان . وأن أباه غير الشرعى ظل أسيراً لسيده المسلم خمسة وعشرين عاماً ، وهي فترة كافية لتجعله متمكناً في اللغة العربية ، وكانت لغة الثقافة ، وكان تعليم الجوارى فيها ، بنين وبنات ، أمراً شائعاً .

وقلعة يحصب حيث ولد خوان رويث ونشأ ، وعاش أبوه من قبل أعواماً ضوياً . كانت موطن ثقافة ، ومهبط شعراء ، فبينها عاش بنو سعيد المورخون والأدباء ، ولهم نسبت القاعة أيضاً ، وتميز من بينهم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد ، وكان غزلاً في الشعر وفي الواقع ، ولغة حبة ذائعة مع حفصة الركونية الشاعرة ، لانتقل عنها وشهرة عما كان بين ولادة وابن زيدون ، وكان يناقسه في حبها أمير غرناطة من قبل الموحدين ، عثمان ابن عبد المؤمن ، ودفع أبو جعفر حياته ثمناً لهذا الحب . وتميز بنو سعيد بالعلم والثقافة ، وأنهم يتوفرون على مكتبة عامرة ، وشهر من بينهم أبو عمران موسى بن محمد ( ت ٦٤٠ هـ - ١٢٤٢ م ) بأنه جماعة للكتب ، يطلبها أنى وجدها ، ويبذل فيها كل غال ومردخص . ويصفه ابنه أبو الحسن على بأنه « عاش سبعة وستين سنة ، ولم أره يتخلى يوماً عن مطالعة كتاب ، أو كتب ما يخلونه ، حتى في الأعياد » ( ٨ ) . وليس مهماً بعد ذلك أن تكون الأحداث قد عصفت بأبناء سعيد فهاجروا ، أو معظمهم ، إلى المشرق أو إلى مدن أخرى في الأندلس ، لأن الجو الثقافي الذي أزهريهم ، ومن حولهم ، تأصل في هذه المدينة الصغيرة النائية ، في منتصف الطريق بين قرطبة وغرناطة :

أكان ممكناً أن يحرص بنو سعيد على اقتناء الكتب ، وأن يكون لهم منها الكثير ، وبينها عدد من مؤلفات ابن حزم ، يتقارون عنها في مؤلفاتهم ثم لا يكون من بينها الطوق ؟ الأقرب إلى طبيعة العصر والناس ، وموقع المدينة ، ومكانة ابن حزم ، أن يكون كتاب « الطوق » معروفاً ومتداولاً . وأن تقع عليه عينا والد خوان رويث ، ولعله تحدث به ، وقص ما عرف من حكاياته . ولعله توفر لنفسه على نسخة منه ، في عصر كانت فيه

معرفة العربية والتي مر على كتبها موطن اعتزاز ، ومدعاة فخر ، في قشتالة نفسها ، حيث بذل ألفونسو العاشر ، أو العالم ، ملكها (١٢٥٢ - ١٢٨٤ م) جهداً مضاعفاً لترجمة التراث العربي إلى القشتالية ، فترجم إليها القرآن والإنجيل وكتباً أخرى كثيرة ، علمية وأدبية ، فدفع بالثقافة العربية إلى العقول القشتالية المتفتحة وغذى النثر القشتالي بالأساليب والأساطير والأمثال العربية .

ثمة نقاط يلتقي فيها ابن حزم وخوان رويث ، وأخرى يفتان عندها على القبيض . كلاهما رجل دين ، وكتب أولهما « الطوق » مغنياً ، أونافياً نفسه ، وكتب الثاني « الحب المحمود » بين جذران السجون ، وكلاهما كان ثائراً على الجأمة من أفكار عصره ، وعالماً بموضوع واحد ، والزما منه موقناً متقارباً ، وأكداً على سلامة عقيدتهما : وكما كان الطوق صورة فريدة ، في جوانب منه ، للحياة العاطفية في قرطبة القرن العاشر الميلادي وما بعده ، كان الحب المحمود صورة لها في قشتالة على امتداد القرن الرابع عشر .

ويتقابلان في الكثير أيضاً . كان ابن حزم يمثل حضارة في اللقمة توهجها ، أنهكها الترف وحياة اللذادة ، وتنهياً للانحدار ، وعاش خوان رويث في مجتمع جاس ، ينفض عن بصره وعقله وقلبه غبار القرون الوسطى ، بكل ما تحمله من تخلف وظلام وجهالة . وكان ابن حزم موسوعي الثقافة ، رفيع الفكر ، حاد الذكاء . وكاهن هيناً إذا قيس برفاقه في قشتالة يجيء في المقدمة ولكنه حين يقف إلى جوار ابن حزم يبدو متواضعاً في كل شيء ، معرفة وثقافة وفكراً ، وآثر ابن حزم أن يكون جاداً وعنيفاً ومستقيماً السلوك ، واختار خوان رويث أن يكون ساخراً ومهادناً ومستهتراً . ويذكر ابن حزم فيما يقدم من أحداث مجتمعه ، غالباً ، الاسم والمكان والحادثة ، وآثر قرينه القشتالي أن يتخفى وراء الرمز ، وأن يقف عند ما هو عام . وابن حزم من الخاصة ، أبوة وزير وتولى هو الوزارة ، وينتمى في أسرة لها في مجتمعه مكانة وجاء خوان رويث ابناً لعلاقة غير شرعية ، لم تراخ فيها القوانين التي يجري عليها أهل ديارته ، وكان عليه أن يطلب العفو عنها من البابا في كل وظيفة

يتولاهما . وأخيراً فكتاب ابن حزم ذو موضوع إو احد ، وقلما يتجاوزها إلى أمر لا يتصل به ، وكتبه نثراً : ووشاه بالكثير من شعره ، وكاهن هيتا اتخذ من حياته العاطفية إطاراً لكتابه : وحمله كل ما عرف وأراد ، وإذا استثنينا المقدمة ، وهى قصيرة ، فقد جاء به شعراً كله :

أول ما نضع يدنا عليه من تأثيرات عربية فى كتاب « الحب المحمود » قدر هائل من الألفاظ العربية ، يستخدمها الشاعر فى مهارة ، ويرسمها بأحرف لاتينية فى دقة غير معهودة على أيامه ، ولا تقتصر على الأسماء والحروف كما عند الآخرين ، وإنما تتجاوزها إلى الأفعال وأسماء الناعلين مثل : ياء النداء Ya وشيكة Xaquima وفى الأسبانية الحديثة Jaquima ، ومرفوض Marfuz ، وموئثها : مرفوضة Marfusa ، وجملة كلمة مثل : قايى عربى Calbi garabi ، وفعل الأمر مثل : اسكت ascut ! وامش amxi .

وأخذ عدد من قصائده شكل موشحات كاملة ، فى صورتها الفنية الدقيقة ، فهى ذات مطع وأغصان وقتل ، وجاءت فى اثنى عشر دوراً ، وإذا كان من الوشاحين العرب من وجد علوبة فى أن يوشى موشحاته بخرجة أعجمية ، فى شكل لفظ أعجمى أو من عامية أهل الأندلس ، فقد تجاوز كاهن هيتا هذه اللغة بكثير ، وجعل خاتمة كل دور فى موشحته لفظاً عربياً ، على نحو ما نرى (٩) :

كاهن هيتا يرسل سبعة إلى فتاة عربية

كسى أنسى شجنى وحزنى وآلامى ،  
رجوت عجزوتى أن تسعى فى زواجى ،  
فتحدثت إلى فتاة عربية لم تجربها سمعاً ،  
هى تصرفت بعقل وأنا غنيت طويلاً ،

ياسمى قالت القوادة العربية :

يا صديقتى ، يا صابقتى ، طال الزمن ولم أراك ،  
لم أنت هكذا ؟ ما أصعب أن القاك ،

حُب جديد يحبك ، فردت العربية : لست أدري Les nedri :

ابنتي ، واحد من القلعة alcala يسلم عليك ،

يرسل لك هذا الثوب açodra (١٠) مع هذه البراءة alvalà

الله معك ومن ذلك عندنا كثير ،

خاضيه ، ابنتي ، أيتها السيدة ، قالت العربية : لا والله Le gualà :

ابنتي الله يعطيك السلام والصحة ،

لا تستهينى بها ، لأننى لم أستطع أن أحضر لك أكثر ،

أحضرت لك هدية جميلة وردك يكون على الود ala wud (١١)

لن أمضى وحدى : قالت العربية : أسكت ascut !

وعندما رأت العجوز أنها لا تستطيع شيئاً

قالت : طالما قلت لك ، حتى هذا نفسه تفقدينه ،

لأنك لم تقولى شيئاً ، أنى أود الرجيل من هنا

مزت العربية رأسها وقالت : أمش ، أمش Amxi, amixi !

\* \* \*

وإذا وقفنا عند المشابهات فى النصوص ، وضعنا يدنا ، فى قراءة عابرة

« للحب المحمود » ، على بعض منها ، يكاد أن يكون ترجمة لما فى الطوق :

يقول ابن حزم يلتمس لنفسه مندوحة فى تأليف الكتاب : « ... كان

القاضى حمام بن أحمد ، حدثنى عن يحيى بن مالك ، عن عائد بإسناد يرفعه

إلى أبى الدرداء أنه قال : أجموا النفوس بشيء من الباطل ليكون عوناً لها

على الحق . ومن بعض أقوال الصالحين من السلف المرضى : « من لم يحسن

يتفتى ، لم يحسن يتقرى » . وفى بعض الأثر : « أريحوا النفوس فإنها تصدأ

كما يصدأ الحديد » (١٢) .

وعن الموقف نفسه يقول خوان رويث :

« كامات عالم وقالها كتون (١٣) :

الرجل بما فى قلبه ،

[نخلط أمها جأ وفكراً باسماء ،  
لأن الأحران الكثيرة تلد خطايا كبيرة] (١٤) :

ويقول ابن حزم مشيراً إلى تأثير الحب في النفس : « ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ، كأنه هو الموهوب له ، والمسعى في حظه ، كل ذلك ليبدى محاسنه ويرغب في نفسه . فكم بخيل جاد ، وقطوب تطاق ، وجبان تشجع ، وغليظ الطبع تطرب ، وجاهل تأدب ، وتفل تزين ، وفقير تجمل : وذى سن تفتى ، وناسك تفتك ، ومصون تبذل » (١٥) .

وفي هذا المعنى يقول صاحب الحب الخمود :

ويخلق الحب من الحشن لطيفا ،  
ويهب القول الجميل لمن كانت كلماته صماء ،  
وبه يعود الجبان شجاعاً ،  
ويصبح الكسلان نشطاً وجاداً ،

ويحفظ الفتى بشابه طويلاً ،  
 ويعود بالشيخ ، في كثير ، فتى شها ،  
ويجعل من الأسود أبيض جميلاً ، مثل السمك ،  
ومن لا يساوى جوزة يعطه الحب شهرة عظيمة (١٦) .

ويتشابه موقف ابن حزم وخوان رويث من الرسول الذي يبعث به الحب إلى محبوبه فلا يكون وفياً ، بخون مهمته ، ويغدر بصاحبه ، ويصطفى الغنيمة لنفسه .

يقول ابن حزم في باب « الغدر » : « ومن قبيح الغدر أن يكون للمحب سفير إلى محبوبه ، يستريح إليه بأسراره ، فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ، ويستأثر به من دونه ، وفيه أقول :

أقمت سفيراً قاصداً في مطالبي وثقت به جهلاً فضرب بيننا

وحل عرى ودى وأثبت وده . وأبعد عني كل ما كان ممكنا  
فصرت شهيدا بعد ما كنت مشهدا . وأصبحت ضيفا بعد ما كان ضيفنا» (١٧)

ويقص كاهن هيتا ما حدث له مع رسوله فرناندو غرسية ، وكيف  
أرسله إلى فتاة تدعى «كروث» ، تعمل خبازة ، فاختص بها نفسه : x

عيناي لن تريا النور ،

لأنى قتدت كروث .

\* \* \*

كروث الخبازة الحبيبة ،

اتخذتها عشيقة ،

حسنت الطريق إليها عريضا فوجدته ضيقا ،

مثل ما يفعل الأندلسيون .

\* \* \*

فكرت أن تكون لى ،

قلت لفرناندو غرسية ،

احمل لها رضاي ورغبتى

وكن عني محاميا لطيفا ولبقا ،

\* \* \*

قال لى : إنها أعجبتني وكانت على هواه ،

وأنه جعل من كروث خاصة به وعشيقة ،

لقد تركنى اجتر النخالة ،

وأكل الخبز الأكثر حلاوة .

\* \* \*

قدم لها عملا بنصيحتي

حنطة طيبة مضى عليها عام ،

وأهداها أرنباً .

الحائض ، الزائف ، مرفوض

\* \* \*

أخزى الله رسولا

عجلا ، بالغ الطيش :

ولارعى الله صياد الأرانب ،

يخص نفسه بالصيد من وراء سيده (١٨) .

وربما كان الفصل الخاص بالسفير أوضح تأثيرا في كتاب « الحب المحمود » ، وفي كتب إسبانية أخرى سوف نعرض لها في مرة تالية ، من أى باب آخر ، وقد اختار ابن حزم هذا اللفظ الأنيق المذهب لكلمة « القوادة » ، وكانت شائعة بين العامة في الأندلس ، مسلمين أو مسيحيين ، يتحدثون العربية أو الرومانشية ، لقد دخلت هذه في صورة alcahuete ، والسفير أو القوادة أو الرسول ، يطبق على المرأة ، والرجل قيلا ، الذى يتارب بين الرؤوس والقلوب في الحلال أو الحرام ، وكانت هذه المهنة شائعة في الأندلس ، ولم تكن محتقرة أو شراً خالصا على النحو الذى عليه اليوم ، فلم تكن القوادة إذ ذاك تسمى بين الذين ياتقون على أجر ، فهؤلاء يوسن المعروفة ، وأما تتردد بين من تلتقى عرا لهم على حب ، ينتهى بهم إلى الزواج أو لا ينتهى ، لأنها تقرم بالوساطة بين المحبين ، رسولا يحمل الهدايا والأفكار ، في مجتمع لم يكن قد عرف البريد المنظم ، أو الهاتف الموصل ، أنها أشبه ما تكون « بالخطابة » في المجتمع العربى المعاصر ، قبل أن ينتشر التعليم وبعم الاختلاط . وقد خص ابن حزم « السفير » بباب قصير ، أو وصلنا قصيرا ، عرض فيه لمهنته وصفاته واغراضه وحيله ، ولن نأتى بنص ما قال هنا ، وإنما نخيل إليه القارىء في كتاب « طوق الحمامة » نفسه (١٩) .

هذا الباب واضح التأثير في كتاب « الحب المحمود » ، وأزعم أن « طوق الحمامة » كن بين يدي خوان رويث ، أو في ذاكرته على الأقل ، وهو بحرر كتابه . ولكن كاهن هيتا ، وهو رجل دين ، وأمضى حياته نائباً

للأسقف في أكثر من مدينة أندلسية ، في منطقة التعاور ، على الحدود بين المسلمين والمسيحيين ، دفع لهذه المهنة بامم جديد استمدته من الحياة المحيطة به وهو Tortaconventos ، اسم كان يطلق في البدء على أولئك المترددين على الأديرة ، يحامون لها الهدايا ظاهرا ، أو يلتمسون عندها المغفرة تمويها ، أما واقعا فلكي يرى الرجل صاحبه ، وتلقى المرأة حبيبها ، وكان يطلق أيضا على خادمت الأديرة ، وكن يسفرن بين الرهبان والراهبات ، وكل طائفة تقيم في دير منفصل ، يترددن بالرسائل ، ويحملن الهدايا ، ويحددن المواعيد ويوفقن بين المتنافرين ، وأصبحت الكلمة تعني في الأسبانية ما يعنى لفظ « القوادة » في العربية ، ولو أن كلمة alcahuete وهي عربية الأصل كما أشرنا ، ظلت أكثر استخداما ودوراناً على الألسنة ، وذكرنا في الأدب ، ربما لأن الأولى تشير إلى معنى كانت الكنيسة تحول دون تنبيه الأذهان إليه ، وكما أن ابن خزم حدد صفات السفير الناجع ، وأخطائه ومناعبه ، كذلك صنع نحوان رويث :

لتكن سفيرتك إليها من قرابتك :

وأن تكون وفية لك ، وليست خادماً لها :

وأن تعرف ذلك مبدتها ، حتى لا تكذب الأخرى :

ومن يتزوج رديئاً محال ألا يندم طويلاً :

\* \* \*

حاول ما استطعت أن تكون سفيرتك

لبقة ، فطنة ، ذات دربة وخبرة :

تعرف كيف تصبر وتصوغ الأكاذيب اللطيفة :

\* \* \*

إذا لم تكن لك قريبة كهذه فعليك بالعجائز :

من اللائي يترددن على الكنائس ويعرفن الأزقة ،

يحفظن كثيراً من الحكايات والنصائح وفيهن رقة ،

معهن كتاب السحر لموسى ، وورد بفتن الأسماع :

\* \* \*

يا لحن من عجائز مملحات ثرثرات ،  
تلقاهن فى كل مكان : فى الميادين وفى الخارات .  
يتوجهن إلى الله بالحساب . ويصلين دائماً مستعدات ،  
أى ، كم من خبائث يعرفن ، أولئك العجائز الصايعات ! :

\* \* \*

أرسل عجائز فى السحر بالأعشاب ماهرات ،  
يتمضين من بيت إلى بيت ويزعن أنهن قابلات :  
بالمساحيق والكحول والدهونات ،  
ترمى الفتاة بنظرة فتعمى الفكر منها والمدركات :

\* \* \*

وفتمش عن سفيرة بين أولئك السودانيات الوادعات :  
من العاملات فى بيوت الرهبان والقسس والراهبات .  
لأنهن مشاءات جيدات وبالأخذية جديرات :  
فهولاء القوادات يقمن بالكثير والرخيص من المقايضات .

\* \* \*

حيث يضى أولئك النسوة تكون الهجة ،  
فتيات قليلات يستطعن الإفلات منهن ،  
ولكى لا يكذبن عليك تعلم كيف تلاحظنهن ،  
فلهن جاذبية ، ويعرفن جيداً كيف يعميهن :

\* \* \*

وبين أولئك العجائز جميعاً ، فإن هذه أفضلهن !  
ارجوها ألا تكذبك ، وأظهر لها حبك خالصاً ،  
أن السمسار الماهر قادر على بيع الحيوان العاطب :

وملابس كثيرة رديئة قد تخفى لحافاً جيداً (٢٠) :

\* \* \*

ثم ماذا؟ .. لقد وصلنا كتاب « الطوق » في مخطوطة وحيدة عبث بها يد الناسخ ، فحذف منه كل ما كان على غير هواه ، ولم يتردد في أن يصرح بذلك آخر الكتاب ، ولا أحد يدرى ماذا حذف ، وإلى أين جرى به هواه . وجاءنا كتاب « الحب المحمود » في مخطوطات ثلاث ، لم يكتب منها شيء بخط المؤلف ولا في حياته ، وأقربها إلينا أكثرها شعرا ، أى أن الكتاب أيضاً لم يصلنا كما أراد له مؤلفه ، ولا أحد يدرى ما الذى سقط منه ، وما الذى غير فيه من ألفاظ وجمل ، ومع ذلك ففيه مما أخذ عن ابن حزم صفحات لو مضينا بها إلى النهاية لطالت ، وحسبنا ما أوردنا منها شاهداً ودليلاً .

\* \* \*

والكتاب الآخر الذى نلمح فيه « تأثير الطوق » مباشرة ، أو عن طريق « الحب المحمود » ، هو مسرحية « لا ثلستينا La Celestina » وهو اسم البطلة ، ويطلب لى أن أترجمها بالمهنة التى تجسدت فيها والتى تدور حولها المسرحية وهى « القوادة » . وقد نشر فى مدينة برغش بعد سبعة أعوام من سقوط دولة الإسلام فى الأندلس ، بعنوان : المأساة اللاهية لكاليستو ومليبيا Tragicomedia de Calisto y Melibea ، وأثارت الجدل حاداً فى عصرها ، بين راض وساخط ، ومؤيد ومعارض ، ثم أعيد نشرها فى إشبيلية ، مدينة طروب ورحة وثرية ، عام ١٥٠١م وفى المدينة نفسها أعيدت طباعتها فى العام النالى ، وهو نجاح لا مثيل له بمقاييس النشر فى تلك الأيام ، وما أسرع ما تغير الاسم ليصبح كلمة واحدة : لا ثلستينا (٢١) ،

وهى مسرحية رائعة ، فنتت أجيالا من القراء ، وتفتن الآن ، ومستظل كذلك ، ربما لأجيال عديدة تأتى من بعد ، واعتبرت كشافاً أدبياً رائعاً ، وحملة أدبية موفقة إلى عالم المجهول ، وأصبحت محور الدرس

والتعليق في الجامعات والمعاهد ، وكتب حولها الكثير ، وذاعت في كل العالم الثقات ، واعتبرت إحدى النقط الأدبية الخالدة التي يزورها الأدب الإسباني في مجال الأدب العالمي .

أما مؤلفها فرناندو دي روخاس Fernando de Rojas (ت ١٥٤١) فلا نعرف عنه إلا شيئاً قليلاً . وهذا الشيء القليل غامض ومضطرب وملئ بالألغاز ، رغم أن إبداعه العلمي يضعه إلى جانب القمم الأدبية في العصر الوسيط : ماحمة السيد . والحب المحمود : ودون كينخوته . ولكن المجد سقط على الكتاب وتجاوز الكاتب : فمعلوماتنا عن شخصه محدودة ، والوثائق المتصلة به نادرة ، وتاريخ وفاته أكيد ، وبعض الإشارات الخاصة بحياته وأسريته تلتقي بها متناثرة ومضطربة في بعض وثائق العصور الوسطى . وهذه الإشارات رغم قصرها ترسم إطاراً تقريبياً للعالم الذي كانت تتحرك من خلاله شخصية المؤلف ، دون أن تقدم لنا معلومات دقيقة ومفيدة عن شخصيته نفسها . وكل ما نعلم عنه أكيداً أنه ولد في قرية بويلا ، من مقاطعة طايطة ، في تاريخ نجهاه ، وأنه تركها ليصبح عمدة طابيرة ، مدينة أكبر حجماً ، في المقاطعة نفسها .

بقي علينا أن نتصور حياته من خلال الكتاب ، بدل أن نفسر إنتاجه في ضوء حياته ، وحيات المؤلف مفيدة في تفسير إبداعه وإلقاء الضوء عليه . كما أن عماله الأدبي ضوء كشف لما استتر من حياته ، أو انطوى في خبايا صدره ، كلاهما يفسروا ويفسر . يأخذ ويعطى ، أما هنا فنحن بإزاء جانب واحد فحسب ، أن نبني حياة فرناندو دي روخاس .

ينتمي دي روخاس إلى قطاع عريض من اجتماع الإسباني ، شغل القرن الخامس عشر الميلادي وما بعده ، ويعرف بالمسيحيين الجدد وهم أولئك الذين أرغموا على اعتناق الكاثوليكية من اليهود . فاستجابوا لذلك رهبة أو نفاقاً ، بعضهم نسي معها أصوله تماماً ، واحتفظ الآخر بكل ميوله اليهودية في أعماقه ، احتفظ بها لنفسه وأورشها خلفه من

بعده ، وإن ظل في ظاهره كاثوليكيًا بالطبع ، ومنهم من أصبح نحت هذا الرداء من رجال الدين الكبار ، وبلغ مرتبة متقدمة بين أحابار الكنيسة ، فأصبح مطراناً أو أسقف أو قديساً ، أو حتى من رجالات اللاهوت واللامعين . وكان هؤلاء المسيحيون الجدد يعتبرون في إسبانيا العصر الوسيط مواطنين من الدرجة الثالثة ، يعيشون حياة قلقه ، في جو خائف من الأرهاب والبؤس والتعاسة ، مواطنين بلا حرمان من أى لون ، وبلغ الذعر بينهم أن بعضهم كان يخاف البعض الآخر ، وكل فرد يشك في كل الآخرين ، ومن الممكن أن يقف الواحد منهم أمام محكمة التفتيش ، بكل ما تمثله من رعب وقسوة ، وأن يتعرض لألوان من التعذيب لأحد لها مجرد لفظ يتفوه به ، يخرج من فمه عفواً دون قصد ، وكلمة عابرة يقولها في بيته بين أفراد أسرته ، على مائدة الطعام ، يمكن أن تنتهى به إلى أعماق السجون المظلمة تحت الأرض :

من بين وثائق محاكم التفتيش التى نشرت عام ١٩٠٢ ما يتصل بمحاكمة أحد أقرباء دى روخاس ، لأنه قال عرضاً ، يشير إلى الآخرة : « أنا هنا بخير ، ولست أعرف ما هناك » . وقرية له ، كانت وحدها ، وتفوهت بألفاظ شبيهة ، وخشيت أن يكون أحد الحيران قد سمعها ، ولم تره ، فيبلغ عنها ، فأُسِّرت إلى المحكمة بنفسها ، لتبرهن على حسن نيتها ، وقد تمت اعترافها كاملاً : « أنا إيزابيل لوبث ، زوجة فرانسيسكو لوبث ، قلت دون أن أندبر ما قلت ، أو أعتقد : لا أستطيع أن أقول رأيي في الآخرة ، لأننى لا أرى شيئاً مما يجرى هناك ، كمثل جار تعود الناس أن يتفوهوا به » . وعندما بلغ دى روخاس الثانية عشرة من عمره اعتقل والده وسجن وقدم لمحكمة التفتيش ، ولنفادى العذاب اعترف بكل التهم الموجهة إليه فحكمت المحكمة بإعدامه حرقاً في حفل عام وفي العام الذى حرر فيه كتابه كانت هناك قائمة طويلة من أقاربه ، ومئات آخرين من أصدقائهم أو معارفهم أو جيرانهم ، تأخذ طريقها إلى محاكم التفتيش في مدينة

طليطلة ، وآرامهم يتناولون على النار أحياء ، ويواجهون العذاب ألوانا .  
 وشاهد ما هو أقسى : رأى يهود طليطلة جميعاً . وقد خرجوا إلى  
 حفل عام ، سنة ١٤٨٤ م يعلنون توبتهم ، ويعلنون دينهم القديم ،  
 وفي عام ١٥٠١ م أتم دى روخاس تحرير مسرحيته « الفوادة » ،  
 وله من العمر ٢٥ عاماً ، ومنذ ذلك الوقت ، وحتى وفاته في ٣ أبريل  
 من عام ١٥٤١ ، لا نعرف عنه شيئاً ، إلا عرضاً في وثيقة محاكمة  
 حمراء ، وقد رفض قاضي محكمة التفتيش أن يسمح له بأن يختار  
 محميه ، وعينت له المحكمة محامياً آخر ليس موضع شك منها ، وتضم  
 الوثيقة قائمة بالكتب التي وجدت في مكتبته وتعطينا صورة له بأنه كان  
 رجوازيًا مرموقاً ، يهتم بتسمية ثروته ، دون أن يعطى الجانب الثقافي أية عناية  
 جددة . وفي هذا الجو كتب دى روخاس مسرحيته ، فجاءت تعبيراً عنه ،  
 أو محاولة للتعبير . ملهاً وإيجاباً ، ومن خلالها قدم لنا رأيه ملفوفاً في ما  
 حوله . وعمما يعمهل في أعماقه من مشاعر وأحاسيس .

يحتوي المسرحية بسيط وعادى . ككل الأعمال الأدبية الكبرى التي  
 أبدعها الذكاء الإنساني ، وإذا أسقطنا المناظر والمواقف والحديث المباشر  
 عن الأبطال ، فهي تدور حول شاب فارس يدعى كاليستو ، دخل حديقة بيت  
 صديقة بآزله ، فرأى هناك ملبيا ، فتاة في سن المراهقة ، فوقع أسير هواها  
 في . الحال وحين أبدى لها حبه صدمته في عنف ، فعاد إلى بيته حزينا تعيسا  
 صريع الخيبة والحسرة ، وتحدث بما جرى له إلى خادمه ، فأشار عليه هذا  
 بأن يدعو امرأة عجوزا تساعد في محنته . « خبيرة بأمور النساء » بائعة  
 عطور ، أستاذة في فن التزيين . قواعد . وسابرة إلى حلما « تدعى  
 ثاسيتينا .

وجاءت ثاسيتينا سريعا وقبلت التقييم بالمهمة ، واستطاعت أن تدخل  
 بيت ملبيا ، تحت ستار أنها تباع خيوط غزل ، واستطاعت أن تتحدث

إلى الفتاة ، وأن تغلب على مقاومتها العنيدة ، أخذت تعزف لها على فضائل العاشق ، شاب من أسرة نبيلة ، ذكي ومهذب ومرموق ، واستطاعت بحيلها ودهائها أن تقنع الفتاة بمقابلة الفتى /مرا ، بعيدا عن أبويها العجوزين ، وتلت ثلستينا مكافأة طبية على صنيعها ، وطالب خادما كاليستو جانبا منها بوصفهما وسيطين ، ورفضت العجوز أن تعطيهما شيئا مما أخذت فقنلاهما ، فاقصصت العدالة منهما ، وذبحا في ميدان عام .

وذهب كاليستو ليلا لموعد مع حبيبته ، لقيها في حديقة البيت ، وهما في لحظة صفاء عاطفي سيم كاليستو ضجيجا في الشارع ، وصياحا من خدمه الذين تركهم يرقبونه ، فأمرع لنجدتهم ، فسقط به السلم الموصل إلى الحديقة فأتت له ، وعندما رأت الفتاة ما حدث لحبيبها لاذت بأعلى برج البيت ، وسجنت نفسها فيه ، وأمرت لوالديها بأنها فقدت شرفها ، ثم ألقت بنفسها من فوق البرج ، فسقطت ميتة ، وفوق جثتها وقف الأب والأم ، يتدبان حظهما ، ويبيكان شيخوختهما وحيدتين ، وقدا لنا من خلال الحوار الذي دار بينهما ، صورة قائمة ومتشائمة للحياة الإنسانية بأثامها وأخطائها ومآسها .

تقوم المسرحية على ثلاث شخصيات رئيسية : كاليستو العاشق ، ويعنى اسمه في اللغة الإغريقية فتى رائع الجمال ، مرح بالطبيعة ، تبيل بالوراثة ضعيف أمام العواطف ، قوى في غيرها : ومليبيا حبيبته ، ويعنى اسمها ذات الصوت العذب ، وتركت لنا المسرحية وصفا مفصلا لها ، فهي : ذات عيني خضراوين واسعتين ، وحواجب رفيعة ومرتفعة ، وأهداب طويلة ، وأنف أقي ، وفم صغير ، تزينه أسنان بيضاء رقيقة ، وشفاه ممثلة ، شقراء تضرب إلى الحمرة ، ووجه عريض ، وكف صغيرة ، وأصابع طويلة ، ملونة الأظافر ، شقراء وسط ألماس ، وبشرة بضة حلوة . عذراء الروح ساذجة ، استجابت لإغراء القوادة مندفعة ، وعلى وجهها تتدافع مشاعر الخوف والرغبة . وقد أصبح الاسمان : كاليستو ومليبيا ،

توأمان في الأدب الإسباني ، على نحو ما عليه روميو وجوليت عند الإنجليز والشخصية الثالثة ، وحملت الرواية اسمها لأهميتها ، ثلستينا ، وقامت بدور الوسيط ، عجوز شريرة ، ذكية وذات حيلة ، وعلى معرفة واسعة بالحياة والناس . وقدرة ساحرة في العزف على أوتار القلوب ، مشعوذة تؤمن بالخرافات ، وماهرة في تحريك أدمق المشاعر المنطوية في أبعد أغوار النفس ، واستخدامها لصالحها ، طماعه جشعة ، وهي نقيصة سوف تودى بها أخيرا .

حار النقد في تصنيف العمل الذي قام به دي روخاس ، اعتبره بعضهم رواية لاتناع حجمه ، وكتابته نثرا ، وصعوبة عرضه مسرحيا دون تصرف ، ورأى آخرون أن غلبة الحوار عليه ، وتقسيمه إلى مواقف ودعوة المؤلف إلى قراءتها على مجموعة من السامعين ، ومراعاة الملاحح والنغم في الإشارات والأصوات والحركات ، بما يناسب كل شخصية ، يؤول إلى أن المؤلف أراد بها شيئا آخر غير الرواية .

أ وإذا تجاوزنا الشكل إلى المحتوى فإن قراءة فاحصة للرواية ، أو المسرحية إذا شئت ، تظهر لنا واقع كاتب قلق الضمير دينيا ، وأن العناصر المسيحية فيها ضئيلة للغاية ، في عصر كانت المسيحية كل شيء في واقع أهلها ، أو هي الحياة نفسها ، والقليل من هذه العناصر مفتعل وسطحى على نحو واضح في أغلب الأحوال . ويدعنا المشئون نفهم من خلال مواقفهم ، أو عبر كلماتهم ، أنهم لا يؤمنون بالحياة الآخرة ، وتحكم الجميع فلسفة أبيقورية واضحة . ثلستينا تنصح : « تمتع بشبابك ، وبالأيوم الجميل ، والليلة الحلوة ، والأكلة الشهية . والشراب المعتق ، لا تدع ذلك ما استطعت إليه سبيلا . انفق واخسر ، ولا تبك الثروة الضائعة ، أنك لن تحمل معك من هذا العالم شيئا » وتقول أليسيا ، والدة مليليا : « نستمتع ما دام لدينا ما نأكله اليوم ، غدا لا يعنيننا ، لن نعيش أبدا ، وقليلون هم الذين يبلغون مرحلة الشيخوخة ، والذين يبلغونها لم يحدث أن أحدا منهم مات من الجوع » .

ويشكو كاليستو لخادمه نار الجوى يحتاج داخله ، وحرارة الشوق  
يغص بها قلبه فيقول له الخادم فى بساطة : ولكن هذا يتعارض مع تعاليم  
المسيحية ! . فيهبز كاليستو كصفه بين مستغرب ومنكر ، فينزعج الخادم  
منه : ألسن مسيحياً ؟ . فبره عليه : أنا ؟ ... أنا عاشق مليبيا ،  
لها ولدت ، وفيها أموت ، وأعبدها مدى الحياة ! .

إنها باختصار رواية تسخر فى قسوة من الرأى العام على أيامها ، ومن  
القيم اللى كان يقدها وتستعبده ، ووضعت حدا فاصلا بين عصرين أدبيين ،  
وتستمد أهميتها من الواقعية الرائعة اللى صيغت فيها ، ورسمت شخصياتها  
فى دقة ، ويرى العلامة الإسبانى مننديث أى بلايو : أنه لو لم يوجد  
ثرفانتيس ، مؤلف دون كيخوته ، لاحتلت المقام الأول فى أدب  
الإبداع الإسبانى : وفيها تلتقى البسمة والدمعة ، والبهجة واللذعة ،  
والموت والحزن ، شباب وجماليات ، ونبلاء وأغنياء ، ومن خلا بالهم  
من أى شىء ، ومخاوقات غادرة ، ومجرمون ، وشياطين . وإلى جانب  
الأفكار الفلسفية تقدم لنا صورا من التقاليد والحياة الاجتماعية الإسبانية فى عصر  
النهضة ، رسمت فى حناية لا يعلى عليها ، وفى صدق لا يبلغ مداه . وهى غنية  
بالأمثال والجميل السائرة ، تأتى على لسان الخدم وغمار الناس ، وقد أثرت  
فى المسرح النثرى فى القرن السادس عشر الميلادى ، ومعها بدأ فن الحوار  
فى أوروبا ، وتركت بصماتها واضحة فى قصص الشطار ، وفى الأعمال الأدبية  
اللى تبحث بين الطبقات الدنيا عن مسرح لها . وكأى عمل أدبى إسبانى كتب  
فى تلك الأيام تضم الكثير من الألفاظ ذات الأصل العربى .

• • •

ونأتى إلى ما يعنيننا من العرض السابق . فيم يلتقى ابن حزم ودى روخاس  
وفيم يفترقان ؟

منذ البدء ينبغى أن نشير إلى أن مظاهر الاختلاف بين شخصيهما أشد  
وأقوى من جوانب الاتفاق : كان ابن حزم فقيهاً ملتزماً ومتشدداً ، شاعراً

ومورخاً وفيلسوفاً، وعالملاً بالأصول، وشارك في كل النشاطات الفكرية على أيامه، وكان ينتسب في بيت لم تكن له عراقة بعيدة فهو من الطبقة العالية الجديدة، التي شهدتها آخر القرن العاشر، من أبناء الوزراء وكبار الموظفين، وأهلهم مواهبهم وخبراتهم أن يتقدموا إلى مواطن الصدارة في وطنهم، سياسياً واجتماعياً، وأن يلعبوا دوراً هاماً في تقرير مصائره. وكان دي روخاس كاثوليكياً ينحدر من أصول يهودية قريبة، ملاحق ومضطهد، مغمور لا نعرف له تاريخاً، ولم يشارك في الحياة الثقافية على أيامه بغير هذه الرواية، ولا توحى معالجته لها بأنه كان في قرارة نفسه منسجماً مع العقيدة التي يرفع شعارها ظاهراً، ويعلمها تقية وخوفاً.

وعرف ابن حزم ما ترجم من الفلسفة اليونانية على أيامه، وأفاد منه، وقرأ الكتب المفزلة، وعرف عقائد أهلها، وناقشهم بعنف، ولكن لا نعرف أنه ألم بشيء من الأدب اللاتيني، أو انتبه إلى أدب المستعربين على أيامه، ولا تعكس كتاباته المختلفة شيئاً منها، على حين أن دي روخاس، وجاء مع توهج عصر النهضة، كان يعرف اللاتينية إلى جانب لغته القشتالية، وقرأ بترارك الإيטالي (١٣٠٤ - ١٣٧٤ م)، وبخاصة في كتابه: «تدبير الثروة De Remediis utriusque Fortunae» ونقل جانباً من معارفه الإنسانية، وعنه عرف من الشعراء هوراس وجوفنال، وشعراء آخرين من اللاتين.

ويختلف شكل العمل الأدبي عند كل منهما، فابن حزم حرر كتابه في نثر راق، ينجيء في الطبقة الأولى إيقاعاً وجزالة، ومزجه بأشعاره، وحال عاطفة الحب وجوانبه، والتقط شواهد أحداثاً وقعت من حياته أو حياة صحبه، ولا ينجيء الحوار عنده إلا نادراً، ولمواقف عارضة وقصيرة، ولم يدر بخلافه أن يكتب رواية. فضلاً عن مسرحية، ولا كان هذا الجنس الأدبي موقراً في مجتمعه. على حين اختبأ دي روخاس وراء عمله الأدبي، جاء خائفاً منه، في شخصياته وأحداثه، نعم لها معادل في واقع الحياة، ولكنها ليست حادث أحد بعينه. واختار لها شكلاً جديداً مستمداً من الآداب

اللاتينية ، يقع في منطقة بين الرواية والمسرح ، وكتب نثرأ كاه ، وتعتمد على الحوار في المقام الأول ، وترك الأحداث نفسها تتكلم ، ووضع بعض ما يريد أن يقول على لسان أبطاله ، حتى يهرب من المؤاخذه المباشرة والقريبة ، ولو أن ذلك لا يعنى بالضرورة أنه كان حراً ، لأن محاكم التفتيش يمكن أيضاً أن تؤخذ الكاتب بما يضعه على لسان الأبطال في رواياته أو مسرحياته ، ولكن إدراك المراد جملة ، من عمل أدبي كامل ، فوق الطاقة الذهنية للقائمين عليها .

لكن ابن حزم أعطى دى روخاس الفكرة الرئيسية التي أدار حولها العمل [ الأدبي ، وهي فكرة « القواعد » ، وينبغي أن نشير بدءاً إلى ألف هذا اللفظ لم يكن يعنى إذ ذاك ما نعنيه منه الآن ، أو الإسيان فيها بعد زوال دولة الإسلام ، فلم تكن تتاجر بالإثم ، وإنما تضطلع بدور الرسول بين المحبين في مجتمع لم يكن يعرف البريد المنظم ، ولا الهاتف الموصل ، ولا التلغراف السهل ، فهي تذلل الصعاب ، وتنقل الأخبار ، وتحدد المواعيد ، وتؤدي الهدايا . ويسمى ابن حزم « السفير » في طوقه ، ولم يرد عنده لفظ القواعد ولا مرة واحدة عبر الكتاب كاه ، ولكن الاختلاف في التسمية فحسب ، ذلك أن ابن حزم ، وكان مصقولاً في حياته ، راقياً في تربيته ، اختار اللفظ الذي يتفق مع موضعه من المجتمع والحياة ، واختار آخرون كلمة « القواعد » ، وربما بعد عصره ، حين انحطت المهنة ومدهورت ، كأي شيء في جهود الانحدار ، وشاعت على الأفواه وفي الكتب ، ودخلت اللغة الإسبانية في صورة Alcahuete ، وتحت هذه الصورة التقينا بها مراراً في كتاب الحب المحمود ، ومن قبله خصها الشاعر الأندلسي أبو جعفر بن سعيد بأبيات رقيقة ، لا تخرج في محتواها عما وصفها به ابن حزم نثرأ ، وأوجز خصائصها في بيت واحد : « من لطف أحاديثها ، تجمع بين الماء والنار » .

وقد اختار دى روخاس « القواعد » لبطانة لروايته ، وأدار حولها الأحداث كلها ، دون أن يستخدم اللفظ ولا مرة واحدة ، ولكنه ألبسها

كل الصفات التي أوردها ابن حزم في كتابه عن «السفير» ، مهنة وأسلوباً واقتداراً ، والمثير أن المستنير في الرواية ، أعنى للقوادة ، تتحدث عن نفسها ، وتنتع مهنتها بأنها سفارة .

كان ابن حزم ، فيما أعلم ، أول من خص «السفير» بباب مستقل في كتاب ، وجاء قصيراً نسبياً ، وما كان للطريق أن يخلو منه ، فهو يعالج القضية الحب ، وما كان للحب أن يشيع في مجتمعات ما قبل وسائل الاتصال الحديثة ، دون وسيط يدلل صعبه ، ويقوى وشائجه ، ويحكم الصلة بين طرفيه ، وكانت القوادة ، أو السفير أو الرسول إن شئت ، هي هذا الوسيط . وكل الذين جاءوا بعد ابن حزم عالة عليه ، وصاحب «الحب المحمود» ، ورجعنا فيما سبق أنه عرف «الطوق» ، لا يتجاوز في وصفه لما يتحدث به أديب قرطبة ، ودى روخام لا يكاد يخرج عن هذا الخط أيضاً . ويبقى هل تأثر بالطوق مباشرة أو عن طريق الحب المحمود ، أو عن طريق كتاب ثالث ألفه كاهن طليبرة Arcipreste de Talavera ( ١٢٩٨ - ١٤٦٦ م ) ، وأسماه : «كرباج Corbacho أو ذم الحب الطياري» ويتحدث عن قضايا أربع خص كل واحدة منها بباب : الخطايا التي يؤدي إليها الحب الخنون ، وشروط ورذائل النساء ، والصلة بين الحب وأمزجة الرجال ، وتحديد فكرة الإرادة الحرة ، والباب الثاني من بينها أكثر واقعية ، وأشد ارتباطاً بالحياة ، وكلا الكتابين ، الحب المحمود وكرباج ، من مصادر دى روخام في روايته ، وكلاهما اتكأ على ابن حزم ، ومعهما لا أستبعد أن تكون من مؤلف القوادة ، قد وقعت على كتاب «طوق الحمامة» ، وكان مؤلفه قد دخل مع ابن النغيلة اليهودي في جدل عنيف ، يحول ما بدر منه في حق الإسلام والمسلمين ، وفي العقيدة اليهودية وما يتصل بها ، حوار استقر في ذاكرة كل يهودي مثقف من تاليه ، ومن الذين جاءوا بعده ، وربما حتى يومنا ، وثير ابن حزم لا يثقف عند الفكرة فحسب وإنما يتجاوزها إلى الملامح الرئيسية لشخصية المستنير . وفي النظرة المشائمة للحياة . ومحاولة فتح باب الأمل

عريضاً وواسعاً أمام الراغبين في رحمة الله من المخطئين، ولقد ينتهي بنا تحاميل  
النص في دراسة أكثر تأنيلاً إلى مشابهات أخرى، ولا أظن أن تأثير ابن حزم  
وقف عند هذين الكتابين. ومع دراسة أوسع للأدب الإسباني الوسيط قد نفع  
على تأثيرات أخرى أشد وضوحاً، وأكثر عمقاً.

### الهوامش والتعليقات :

- ١ - ترجمت نص الماحمة إلى العربية، وقدمت لها بدراسة تفصيلية، في كتابي: ملحمة السيد،  
أول ملحمة أندلسية كتبت في اللغة القشتالية، وصدرت عن دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٧٠
- ٢ - ملحمة السيد، ص ٩٨، الطبعة الأولى، دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٠ م.
- ٣ - غرسية غوث مقدمة الترجمة الإسبانية لطوق الحمامة، ص ٧٧-٧٨، الطبعة الثالثة،  
مدير ١٩٧١.

٤ - القشتالية أصنى لهجات الأندلس المسيحية في العصر الوسيط، وهي كثيرها تفرعت عن  
اللاتينية، والتهمت اللهجات الضعيفة التي حولها، ولأن قشتالة موطنها قامت بالدور الأول  
في حركة الاسترداد المسيحية، أصبحت لهجتها اللغة الرسمية، ولم تعرف كلمة الأسبانية  
إلا متأخراً. وقد استعصى عدد من اللهجات أو اللغات على الفناء، مثل القطلونية،  
ويتحدثون بها في قطلونية، على البحر الأبيض، وعاصمتها برشلونة. والغاليسية ويتحدثون  
بها في الشمال الغربي، أو لغة الباسك، وهي غير لاتينية، ويتحدث بها سكان مقاطعة  
الباسك في الشمال، وهم يطالبون بالاستقلال.

- ٥ - وتسمى أيضاً قلعة بني سعيد.
- ٦ - كان ابن حزم أول من استخدم في طوق الحمامة تعبير «الحياة المجددة» أنظر ص ٩٠،  
وتعليقنا هناك، في طبعتنا الكاملة والحقة لطوق الحمامة، دار المعارف، طبعة ثانية،  
القاهرة، ١٩٧٧.

- ٧ - المدجنون: هم المسلمون الذين تخلفوا في المدن التي سقطت في يد المسيحيين، وظلوا على  
إسلامهم، وحافظوا على العربية لغة لهم.
- ٨ - الإحاطة لابن الخطيب، ج ١ ص ٢٢٢، ط الأولى، تحقيق محمد عنان - المغرب في حل  
المغرب لابن سعيد، ج ٢ ص ١٦٦.
- ٩ - لا أعرف أحداً قبل أشار إلى هذه الظاهرة.

١٠ - وردت هذه الكلمة في مخطوطات «الحب المحمود» في صور مختلفة:  
Çoda و Çadra و Açodra، وحار خوليو ثخادور محقق النص بازائها، فليس  
لأي منها معنى في اللغة الإسبانية، وأقرب كلمة إسبانية إليها Cidra، اسم ثمرة تشبه  
الليمونة، وهي أنفه من أن تهدي. فلم يجد بدأمن القول بأن أصلها عربي، واختار من الصور الثلاث

لفظ Çoda ، واحتمل عيها في تخريجات غير علمية . وتأتباها قوانين علم الأصوات ، لينتهى بها إلى أن أصبها سمود . ونقد أمرت على نمسه كثيرا ، ذلك لأن اللفظ يجب أن يكون Çodra أو مع أدارة التعريف العربية açodra ، وهي صورة إسبانية لمكثمة الصدر ( بضم الصاد ) العربية ، ومعناها الثرب . وما هو مديحيه الشاعر فيها أرجح ؛ أنظر :

• Arcipreste de Hita : Libro de buen Amor , tomo II, P. 126 - 227 , edicion y notas de Julio Gajador , Clasicos Castellanos , Madrid 1954

• الصحاح للجوهري : والقاموس المحيط ، مادة : صدر

• دوزى : المعجم لمفصل بأسماء الملابس العربية ، ص ٢٠٥ الترجمة العربية

للككتور أكرم فاضل ، بغداد ١٩٧١ .

١١ - في معظم الطبعات الإسبانية لكتاب «الحب المحمود» يوجد هذا اللفظ مرسوما على النحو التالي : alaud ، أى العود ، وترجمتها على هذا النحو ، عندما نشرت هذه الدراسة مقالا في مجلة «آفاق عربية» العراقية ، ولكن خلال رحلتي صيف عام ١٩٧٦ إلى مدريد اطلعت على نسخة أخرى للكتاب ، فوجدت صورة اللفظ فيها على هذا النحو : ala wud ، أى على الود ، وهي أكثر احتمالا ، وانسجاما مع معنى البيت .

١٢ - طوق الحماة ، بتحقيقنا ، ص ١٦ ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٧ ، وكل إشارتنا هنا إلى الطوق تنصرف إلى هذه الطبعة .

١٣ - كتون ( ٢٣٤ - ١٤٩ ق.م ) خطيب روماني شير ، وداعية تقشف ، أدرك مبكراً أن ترف روما المبالغ فيه سوف يؤدي به . فحاول أن يقف في طريقه ، وإن يقلل منه ففش ، وأصبح اسمه يضنق وصفاً على كل رجل ذي عادات متقشفة .

١٤ - الحب المحمود ، الدور رقم ٤٤ .

١٥ - الطوق ، ص ٢٨ .

١٦ - الحب المحمود ، الدوران رقم ١٥٦ ، ١٥٧ .

١٧ - الطوق ، ص ١١٥٤ .

١٨ - الحب المحمود ، الأدوار ١١٥ - ١٢٠ .

١٩ - باب السفير ، طوق الحماة ، ص ٥٨ ، من طبعتنا .

٢٠ - الحب المحمود ، الأدوار رقم ٤٣٦ - ٤٤٣ .



## كتب أخرى للمؤلف

- ١ - امرؤ القيس : حياته وشعره ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ١٩٧٥ م
- ٢ - دراسة في مصادر الأدب ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٧٧ م
- ٣ - ملحمة السند ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٧٠ ( نقد وبعاد طبعه ) ،
- ٤ - مع شعراء الأندلس والمتنبي ، ترجمة كتاب المستشرق الإسباني إميليو غرسية غومث ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٤ م .
- ٥ - بابلو نيرودا : شاعر الحب والنضال ، دار روز اليوسف ١٩٧٤ م .
- ٦ - تحقيق طوق الحمامة لابن حزم ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٧٧ ،
- ٧ - القصة القصيرة : دراسة ونماذج ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ١٩٧٧ ؛
- ٨ - الأدب المقارن : أصوله ومناهجه ، دار المعارف ١٩٧٧ ؛
- تحت الطبع :
- ٩ - الشعر الأندلسي حتى نهاية القرن الحادي عشر ، للمستشرق الفرنسي هنري بريس .
- ١٠ - ابن حزم القرطبي ، للمستشرق الإسباني ميغيل أسين بلاثيوس .



# فهرس

- ١ — الإهداء . . . . . ٣
- ٢ — صورة تمثال لابن حزم . . . . . ٥
- ٣ — كتابات في البدء . . . . . ٧
- ٤ — مخطط تقريبي لمدينة قرطبة في القرن العاشر الميلادي . . . . . ١٢
- ٥ — قرطبة على أيام ابن حزم . . . . . ١٣
- ٦ — شاهد عصر . . . . . ٧٢
- ٧ — فتنة البربر . . . . . ١٠٣
- ٨ — ابن حزم قصة إسبانية : للمؤرخ الإسباني سانثشث ألفرس . . . ١٣٥
- ٩ — غراميات ابن حزم ومشكلة الحب العذري في الأندلس . . . ١٨٢
- ١٠ — مقدمة لطوق الحمامة : للفيلسوف الإسباني أورتيجا أى جاسيت . . ٢٠٣
- ١١ — مزاج ابن حزم من خلال الطوق : صورة له بقلمه . . . . . ٢٢٤
- ١٢ — المرأة في قرطبة من خلال طوق الحمامة . . . . . ٢٣٩
- ١٣ — مؤلفات في الحب سبقت طوق الحمامة . . . . . ٢٦٧
- ١٤ — كتاب سبق طوق الحمامة ، وكتاب جاء بعده : . . . . . ٢٧
- ١٥ — آخرون كتبوا في الحب بعد ابن حزم . . . . . ٣١٩
- ١٦ — تأثير طوق الحمامة في الأدب الإسباني . . . . . ٣٤٢

للمستشرق الإسباني إميليو غرمسة غومث ٢٩٧